للكنيسة القبطية
بين الكنائس الشرقية

طقوس أسرار وصلوات الكنيسة

٣/١

مَعْمُودِيَّةُ المَاءِ وَالرُّوحِ

الكتــاب: معمـــودِّيّة الماء والروح
The Baptism of The Water and Spirit
الكــاتب: أثناسيوس (راهب من الكنيسة القبطيَّة)
المطبـــعة: دار نوبار. شبرا - ٦أ شارع مدرسة المعلمين
الطبـــعة: الأولى، يناير سنة ٢٠٠٣م

الترقيم الدولى : 977-240-150-9
رقم الإيداع بدار الكتب : ١٨٢٩٢ / ٢٠٠٢

كافة حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

قداسة البابا شنودة الثالث
بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

المحتويات

تقديم ١١

الباب الأول: مدخل إلى طقس المعمودية

الفصل الأول: مقدمات عامة ٢٥

أولاً : فكرة تاريخية عامة ٢٦

ثانيــاً: مفهوم السر ٢٩

ثالثــاً: أسماء المعمودية ٣٨

رابعــاً: الإيمان يسبق المعمودية ٤٠

خامساً: الصوم الذي يسبق المعمودية ٤٤

سادساً: من له حق التعميد؟ ٥١

سابعاً: متى يبطل فعل المعمودية؟ ٤٩

ثامنــاً: أنواع الزيوت المستخدمة في المعمودية ٥٣

الفصل الثاني: رموز المعمودية ٥٩

أولاً: معنى الرمز والمثال ٦٠

ثانياً: رموز المعمودية في العهد القديم ٦٥

- الروح الذي كان يرف على وجه المياه ٦٦
- الطوفان وفلك نوح ٦٧
- عبور البحر الأحمر ٦٧
- عبور نهر الأردن ٧١
- نزول نعمان السرياني في مياه الأردن ٧١

• ذبيحة إيليا التي قُبلت بنار من السماء من وسط المياه ـــــ ٧٣
• الختان ـــــ ٧٤
ثالثاً: رموز المعمودية في العهد الجديد ـــــ ٧٧
• بركة بيت حسدا ـــــ ٧٧
• شفاء المولود أعمى ـــــ ٧٩

الفصل الثالث: أنواع المعموديات ـــــ ٨١

(١) الاستحمامات المقدسة في الديانات الوثنية ـــــ ٨٢
(٢) معمودية موسى ـــــ ٨٣
(٣) معمودية المتهودين ـــــ ٨٥
(٤) معمودية يوحنا المعمدان ـــــ ٨٩
(٥) معمودية ربنا يسوع المسيح في مياه الأردن ـــــ ٩٣
(٦) معمودية التلاميذ ـــــ ٩٦
(٧) معمودية الماء والروح ـــــ ٩٧
أولاً: ضرورة المياه للمعمودية ـــــ ٩٧
ثانياً: عمل الروح القدس في المعمودية ـــــ ١٠٢
(٨) معمودية الدم أو الشهادة ـــــ ١٠٥

الفصل الرابع: معمودية واحدة ـــــ ١٠٧

أولاً: معمودية الهراطقة ـــــ ١١٠
ثانياً: معمودية الذين يعتمدون من أجل الأموات ـــــ ١١٨

الفصل الخامس: زمان ومكان المعمودية ـــــ ١٢١

أولاً: زمان المعمودية ـــــ ١٢٢
ثانياً: مكان المعمودية ـــــ ١٣١

الفصل السادس: الموعوظون وطالبو المعمودية ١٣٧
أولاً: فئات الموعوظين ١٣٨
ثانياً: درجات التائبين في الكنيسة الأولى ١٣٩
(أ) الباكون النائحون ١٣٩
(ب) السامعون ١٤٠
(ج) الراكعون الخاشعون ١٤٠
(د) طالبو المعمودية ١٤١
ثالثاً: التسليم السري ١٤٩
أهمية التسليم الصحيح ١٥٣

الفصل السابع: معمودية الأطفال ١٥٧
أولاً: حول معمودية الأطفال ١٥٨
ثانياً: الإشبين أي العرّاب ١٦٨
ثالثاً: الخطيّة الجديّة ١٧٤

الفصل الثامن: تحليل المرأة ١٨٥
أولاً: موقف الكنيسة من الإفرازات الطبيعية، وفترة تطهّر المرأة الحائض أو الوالدة ١٨٨
ثانياً: اختلاف فترة تطهُّر المرأة عند ولادتها ذَكَراً أو أنثى ١٩٩
ثالثاً: طقس صلوات تحليل المرأة بعد كمال فترة تطهّرها ٢٠٤
(أ) طقس تحليل المرأة في القرن الرابع عشر ٢٠٨
(ب) طقس تحليل المرأة في القرن الخامس عشر ٢٠٩

الفصل التاسع: مصادر طقس المعمودية في الكنائس الشرقية ٢٢٩
أولاً: مصادر الطقس الإسكندري لسر المعمودية ٢٣١
ثانياً: مصادر الطقس السرياني لسر المعمودية ٢٣٨
(أ) مصادر الطقس الأنطاكي لسر المعمودية ٢٣٨

(ب) مصادر الطقس الأشوري لسر المعمودية ـــــ ٢٤٨
ثالثاً: مصادر الطقس البيزنطي لسر المعمودية ـــــ ٢٥٠
(أ) كنائس آسيا الصغرى وكنيسة القسطنطينية ـــــ ٢٥٠
(ب) مصادر طقس المعمودية في الكنيسة الأرمينية ـــــ ٢٥٥

الباب الثاني: الطقس القبطي لسر المعمودية

الفصل الأول: المراحل الطقسية الأخيرة قبل النزول في مياه المعمودية ٢٦١
أولاً : طقوس طرد الشياطين في الكنائس المختلفة ـــــ ٢٦٣
ثانيـــاً: الوثائق القبطية القديمة تشرح طقوس جحد الشيطان ـــ ٢٧٨

الفصل الثاني: طقوس جحد الشيطان ـــــ ٢٩١
(١) أوشية الموعوظين ـــــ ٢٩٢
(٢) الصلاة على زيت الموعوظين ـــــ ٢٩٥
(٣) الدهن بزيت الموعوظين ـــــ ٢٩٦
(٤) إعلان الأسماء ـــــ ٣٠٠
(٥) إحناء الركب ـــــ ٣٠٣
(٦) صلاة طرد الأرواح الشريرة ـــــ ٣٠٥
(٧) وضع اليد ـــــ ٣٠٨
(٨) التعري ـــــ ٣١٢
(٩) جحد الشيطان ـــــ ٣١٧
(١٠) النفخ في الوجه ـــــ ٣٣٠

الفصل الثالث: قبول المسيح والإقرار بالثالوث القدوس ـــــ ٣٣٣
أولاً: معنى التحول ناحية الشرق ـــــ ٣٣٤
ثانياً: رفع اليدين ـــــ ٣٣٦

ثالثاً: تعبيرا "الاعتراف بالمسيح"، "الإقرار بالإيمان" ٣٢٧
رابعاً: المراحل الطقسية لقبول المسيح والإقرار بالثالوث ٣٤١
(١) الاعتراف بالمسيح ٣٤١
(٢) الإقرار بالإيمان ٣٤٥
(٣) الاستجوابات الثلاثة ٣٥٢
(٤) إحناء الركب للمرة الثانية ٣٥٦

الفصل الرابع: الدهن بزيت الغاليلاون ٣٥٧

- معنى كلمة غاليلاون ٣٥٨
- تاريخ الدهن بزيت الغاليلاون ٣٥٨
- معنى المسح بزيت الغاليلاون قبل النزول إلى المياه ٣٦٢
- الدهن بزيت الغاليلاون في الطقس القبطي ٣٦٤
- الدهن بزيت الغاليلاون في الطقوس المختلفة ٣٦٦
- صلاة وضع اليد للمرة الثانية ٣٧٣

الفصل الخامس: تقديس مياه المعمودية ٣٧٥

- معنى تقديس مياه المعمودية ٣٧٦
- المراسيم الشرقية القديمة لتبريك مياه المعمودية ٣٨٤

عتاب المحبة لواقع نحياه ٣٨٩

- الطقس القبطي لتقديس مياه المعمودية ٣٩٠

(١) سكب الزيت العادي على مياه المعمودية ٣٩١
(٢) صلاة سرية يقولها الكاهن ٣٩٣
(٣) صلاة الشكر ورفع البخور ٣٩٤
(٤) القراءات والإنجيل ٣٩٤
(٥) الأواشي السبع الكبار ٤٠٢
(٦) طلبة: يا إله الأنبياء ورب الرسل ٤٠٢
(٧) صلاة وضع يد ٤٠٣

(٨) صلاة سرية للكاهن وهو منطرح على حرن المعمودية ـــ ٤٠٤
(٩) الأواشي الثلاث الكبار ـــــــــ ٤٠٧
(١٠) قانون الإيمان ـــــــــ ٤٠٧
(١١) نضح زيت الغاليلاون علىٰ مياه المعمودية ـــــــــ ٤٠٨
(١٢) النفخ في الماء ثلاث مرات ورشمه بالصليب ـــــــــ ٤٠٩

الفصل السادس: قداس المعمودية ـــــــــ ٤١٥

• نص ليتورجية المعمودية ـــــــــ ٤١٦
• رشم الماء بالصليب للمرة الثانية ـــــــــ ٤٢٥
• سكب الميرون في مياه المعمودية ـــــــــ ٤٢٧
• تحريك الماء ـــــــــ ٤٢٩

الفصل السابع: الغطسات الثلاث ـــــــــ ٤٣١

• الاستجوابات الثلاثة (بحسب الطقس القديم) ـــــــــ ٤٣٥
• التغطيس في الماء ـــــــــ ٤٤٩
• المعمودية باسم الثلاثة أقانيم الإلهية ـــــــــ ٤٥٨
• صيغ التعميد في الكنائس المختلفة ـــــــــ ٤٦١
• الخروج من الماء ـــــــــ ٤٦٦
• صلاة تسريح الماء ـــــــــ ٤٦٩
وفي الختام ـــــــــ ٤٧٢

المراجع ـــــــــ ٤٧٥

تقـــــديم:

إن حياتنـــا كلهـــا تســـتند إلى المعمودية، وتُعطى لنا فيها، ويجـب أن تكـون على صلـة دائمـة بهـا. ففهم هذا السـر فهمـاً صحيحـاً لا يكون مجرد ضرورة فكرية، بل هـو ضرورة كيانية لنا.

الأب ألكسندر شميمان.

سرّ المعمودية في الكنيسة المسيحية هو سر الميلاد الجديد مـن الله، هـو سـرّ الميلاد الفوقـاني مـن المـاء والـروح القـدس للحيـاة في المسـيح. فالمعمودية توحّد المؤمن مع المسـيح إذ تمنحـه مشـاركة المسيح في موتـه وقيامته[١]، وتطهره من خطاياه[٢]، وتهبه الخـلاص[٣]، وتمنحـه أن يتحـد بجسد المسيح[٤]، وينضم إلى شركة الكنيسة[٥]، وتوحّـده أيضـاً مـع بقيـة المؤمنين ليصيروا جسداً واحداً وروحاً واحداً بإيمان واحد لرب واحد لأن

١- رومية ٦:٤
٢- ١ كورنثوس ٦:١١
٣- مرقس ١٦:١٦
٤- ١ كورنثوس ١٢:١٣
٥- أعمال ٢:٤١، ٨:١٨

المعمودية واحدة[٦].

وكل من لا يعي كيف وُلد من الله - على قدر ما يعطيه الله - لا يمكنه أن يحيا بحسب مشيئة الله، لأن سرّ الميلاد من الله هو سرٌّ روحاني يحمل في ذاته الميلاد والحياة معاً.

في الميلاد الجسداني يغتذي الجنين وهو لا زال في بطن أمه على نفس غذاء أمه، وحين يولد الطفل ينفصل عنها ليغتذي حيناً على ثدييها حتى يستقل كلياً ليقوت نفسه بنفسه، فلا يصبح موت الأم فيما بعد سنين طويلة سبباً في موت الابن. أما الميلاد الثاني من الماء والروح فهو ميلاد من الكنيسة وفيها إلى أبد الدهور، لأن الكنيسة ممتدة في حياة الأبد. إذاً فهو ميلاد من رحم الكنيسة الذي هو جرن المعمودية وفيه، وملتحم به التحاماً سرياً. فهي حياة جديدة لا تنفصل لحظة عن الميلاد الجديد نفسه، ذلك لأن الميلاد الجديد هو بعينه الحياة في المسيح «لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح».

إذاً من لا يُدرك كيف وُلد من الله، كيف يمكنه أن يحيا له؟. وهو مع ذلك إدراك جزئي غير كلي، كي يظل السر سراً، ينكشف لكل واحد على قدر ما يعطيه الروح، وعلى قدر اشتياقه لمعرفة كنه هذا الميلاد الثاني. وهذا الإدراك الجزئي نتعرَّف عليه من ممارسات السر، ومنطوق الصلوات فيه، والتعهدات التي ننطق بها معلنين جهاراً انفصالنا عن مملكة الشيطان والظلمة والعالم، ومتعهدين بكامل حريتنا انضمامنا إلى مملكة المسيح والنور والحياة.

هذا هو أقصى ما يمكن للعقل أن يدركه، لكن يظل الجانب

٦- أفسس ٤:٥

السري والخفي أعلى بكثير جداً - وبما لا يُقاس - من إدراكنا الضعيف القاصر، عندما نصير بالمعمودية أبناء الله وورثة ملكوته ومجده «لكي تسلكوا كما يحق لله الذي دعاكم إلى ملكوته ومجده» (١ تسالونيكي ٢:١٢).

فبالمعمودية يصير لنا عند الآب كل ما للمسيح، حتى حيث يكون هو نكون نحن أيضاً معه، ننظر مجده، بل ونحيا بمجد المسيح الذي له عند أبيه، «أن الله اختاركم من البدء للخلاص بتقديس الروح وتصديق الحق، الأمر الذي دعاكم إليه بإنجيلنا **لاقتناء مجد ربنا يسوع المسيح**» (٢ تسالونيكي ٢:١٣،١٤). لكن يظل الخالق خالقاً والمخلوق مخلوقاً، ففي المسيح كل مجد الآب بالطبيعة لأنه مساو لأبيه في الجوهر، أما مجد الآب فينا فقد صار عطيةً وُهبت لنا بالنعمة في المسيح، «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد. أنا فيهم وأنت فيَّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد» (يوحنا ١٧:٢٢- ٢٤). فهل يحق لنا أن نبتهج قائلين: «الرب إلهنا قد أرانا مجده» (تثنية ٥:٢٤)، نعم فقد «حل بيننا ورأينا مجده» (يوحنا ١:١٤).

والقديس بطرس الرسول يتكلم عن المجد الذي صار لنا في المسيح، ولكنه يمسك بناصية الأمر عندما يُعلن سر استعلان مجد المسيح في أولاده أنه لابد أن يكون من خلال آلام الزمان الحاضر. نعم، لأنه هو بالذات الذي رأى مجد الله على جبل التجلي، لم يحوز هذا المجد على الجبل وإنما ناله بعد أن نزل عن جبل التجلي ليحمل آلام الصليب «إن عُيرتم باسم المسيح، فطوبى لكم، لأن روح المجد وروح الله يحل عليكم τὸ τῆς δόξης καὶ τὸ τοῦ Θεοῦ Πνεῦμα » (١ بطرس ٤:١٤). ويقول أيضاً: «وإله كل نعمة الذي دعانا إلى مجده الأبدي في المسيح يسوع بعدما تألمتم يسيراً هو يكمّلكم ويثبّتكم ويقويكم ويمكنكم» (١ بطرس ٥:١٠).

هذا هو الجانب السري والخفي في سر المعمودية، وهو ما لا يمكننا أن ندركه كله، إذ كيف يمكن للترابيين أن يحوزوا مجد المسيح، ويصير لهم عند الآب ما للمسيح له المجد عند أبيه. إن العطية أعظم من احتمالنا البشري الضعيف، فهل نشك فيها لأنها فائقة جداً على إدراكنا؟ إن هذا بعينه هو ما فعله المسيح لنا من داخل الكنيسة المقدسة عندما أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له، ونحن إزاء هذا السخاء الإلهي لا نملك سوى أن نسبحه ونمجده ونزيده علواً.

إذاً كما سبق أن ذكرنا ونعود الآن فنكرر، كل كنيسة لا تعلّم أولادها كيف ولدتهم لله، لا يمكنها مهما بذلت، أن تنقل إليهم سر حياة المسيح فيهم، لأن الميلاد من الله لا ينفصل قط عن الحياة فيه.

إنه ميلاد يتم كل يوم لحياة نحياها في المسيح وله كل يوم كقول الإنجيل المقدس:

«الذي ابتدأ فيكم عملاً صالحاً يكمل إلى يوم يسوع المسيح» (فيلبي ١:٦).

«بل صادقين في المحبة ننمو في كل شئ إلى ذاك الذي هو الرأس المسيح» (أفسس ٤:١٥).

«ولكن انموا في النعمة وفي معرفة ربنا ومخلصنا يسوع المسيح» (٢ بطرس ٣:١٨).

«فمن ثم أيها الأخوة نسألكم ونطلب إليكم في الرب يسوع أنكم كما تسلمتم منا كيف يجب أن تسلكوا وترضوا الله، (كما أنتم فاعلون)[٧]، تزدادون أكثر» (١ تسالونيكي ٤:١).

---

٧ - καθὼς καὶ περιπατεῖτε "كما أنتم فاعلون"، وردت هكذا في الأصل اليوناني، وفي جميع الترجمات الأجنبية الحديثة للكتاب المقدس، باستثناء ترجمة الملك جيمس، وهي الترجمة الإنجليزية القديمة التي نقلت عنها الترجمة البيروتية.

سر المعمودية فعل لا يتوقف أبداً في حياة الكنيسة، بل هو دائم في حياة أولادها كل يوم، وما سر التوبة في الكنيسة إلاّ استمرار لمفاعيل سر المعمودية فيها. فالغاية العظمى والأخيرة لسر التوبة والاعتراف في الكنيسة أن يرد الإنسان مرة أخرى إلى حالته الأولى يوم أن خرج من جرن المعمودية مضيئاً بضياء الله، ومطهراً بالروح القدس. وكل توبة واعتراف ليست من داخل سر المعمودية لا تفيد شيئاً. فإذا لم يعرف الإنسان ماذا فعلت فيه المعمودية، فكيف يمكنه أن يباشر توبته في الكنيسة كل يوم؟ التوبة في الكنيسة ليست غفراناً للخطيئة فحسب، بل هي شفاء كلي، وتجديد لسر المعمودية في حياتنا كل يوم.

والميلاد الجسداني يتم للإنسان بغير إرادته، وهكذا لزم أن موت الإنسان يتم أيضاً بغير إرادته، وبذلك يفضي الميلاد الجسداني إلى موت جسداني بعيداً عن رغبة الإنسان وإرادته. أما الميلاد الروحاني فهو لا يتم فيه بغير إرادته، وبالتالي موته الروحاني لا يكمل فيه إلاّ وفق مشيئته، عندما يرفض الحياة في المسيح. «قد جعلت قدامك الحياة والموت... فاختر الحياة لكي تحيا» (تثنية ٣٠:١٩). «هكذا قال الرب هاأنذا أجعل أمامكم طريق الحياة وطريق الموت» (إرميا ٢١:٨). «فاتركوا الجهالات فتحيوا وسيروا في طريق الفهم» (أمثال ٩:٦).

ولكن لعل قائلاً يقول: وماذا عن الطفل الذي يُعمَّد في الكنيسة بغير إرادته؟ نعم، ولكنه بعد أن يدرك كنه ميلاده، له أن يختار أن يكمل حياته وفق هذا الميلاد الجديد، أو يرفضه، ذلك لأن فعل الميلاد من الله في الكنيسة يمتد فيها أبداً كما ذكرنا من قبل. هو فعل يبدأ في لحظة ما، ولكنه يمتد دائماً في حياة الإنسان الذي يحيا في الكنيسة وأسرارها، وما جهاد الإنسان ونموه في حياته مع الله إلاّ

ارتكاز على هذا الميلاد الجديد.

مشيئة الله هي أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون. وإرادة الله هي قداستنا. فإن كنا نبغي الخلاص، فلابد لنا أن نجدد عهد ميلادنا الذي قطعناه على أنفسنا يوم صرنا رعية مع القديسين وأهل بيت الله، نجدده كل يوم. وإن كنت لا تعرف حبيبي ما هي العهود التي تعهدت بها يوم ميلادك الثاني، ولم يخبرك أحد بها، فهي الآن مشروحة أمامك لكي تعرف أن ما ستقرأه في هذا الكتاب هو بعينه ما قلته أنت، أو قاله من ناب عنك، يوم معموديتك يوم كنت طفلاً صغيراً، والآن أنت مطالَب بتنفيذ كل عهودك التي قطعتها على نفسك، فقد تسجّل تعهدك في سفر الحياة في السماء أمام محضر من الملائكة والقديسين الذين شهدوا يوم ميلادك الجديد.

إن تبعية المسيح كلها فرح قلبي، وعزاء داخلي، وسلام إلهي، يحوطه من الخارج - ومن الخارج فقط - حزن ظاهري، وضيق سطحي. «حاملين في الجسد كل حين إماتة الرب يسوع، لكي تظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا» (٢كورنثوس ٤: ١٠).

فهلم ندخل سوياً إلى الكنيسة من بابها (أي المعمودية) كي نبلغ إلى منتهى حياتها (أي المسيح نفسه). جرن المعمودية يؤدي حتماً إلى حياة ملتصقة بالمذبح المقدس حتى النفس الأخير، والمذبح يجدد عهد المعمودية. فالمعمودية بغير مذبح هي ميلاد جديد لموت محتوم، لأن كل مولود لا يغتذي يموت، والمذبح هو غذاء المولودين من الله بالله نفسه الذي هو خبز الحياة، والماء الحيّ.

إن الليتورجيا المسيحية لا تحقق معناها وفعاليتها في الكنيسة إلا

بالمعمودية ومن خلالها. فالمعمودية هي قلب ليتورجيا الكنيسة وتقواها، هي باب الحياة الجديدة، والقوة التي تحفظ هذه الحياة وتنميها فينا. هي محور التقوى المسيحية وأساسها فينا[٨].

المعمودية هي سر العبور من حياة قديمة بحسب الجسد إلى حياة جديدة بحسب الروح. هذه الحياة الإلهية أي التي بحسب الله، تبدأ من المعمودية وتكتمل فيها. هي فرح المفدين، ونور الجالسين في الظلمة، هي ختم ملوكي يهب من نالها ارتقاء بلا حدود إلى ملء قامة المسيح، لأنها ارتداء للمسيح من داخل الكنيسة وحياتها.

المعمودية ليست وسيلة نعمة، بل شركة حقيقية في موت الرب وقيامته، موت بشبه موت المسيح، وقيامة حقيقية معه، فالمعمودية لا تمثّل أو تصوّر هذا الموت، أو هذه القيامة في المسيح كتعبير ظاهري عن هذا الإيمان، بل هي نفسها مضمون هذا الإيمان وحقيقته. هي ليست رمزاً أو مجازاً لهذا الإيمان، أي رمزاً لشركتنا في موت الرب وقيامته، بل حدث حقيقي لهذه الشركة، وهنا يكمن سرها، وهذا هو المدخل الوحيد للحياة في المسيح.

نحن في المعمودية نعتمد بـ "شبه" موت المسيح، لأن ما نجوزه من موت في المعمودية هو لكي ننجو بموت المسيح الخلاصي وليس بموتنا نحن. فنعتمد بشبه موت المسيح وليس كموت المسيح في جوهره كفعل خلاصي لكل العالم. لأن المسيح مات بجسده الذي اتحد بلاهوته بلا افتراق عنه، ولا عند موته، فصار موته إبادة للموت الأبدي بسبب لاهوته المتحد بناسوته، والذي أفرز فيه قوة حياة أنهضته من الموت حائزاً نصراً وحياة لكل من يجوزون في شبه موته

٨ ـ الأب ألكسندر شيمان، بالماء والروح، منشورات النور، ص ١١.

بالمعمودية. فنحن نموت في شبه موته لأن موتنا لا يكمله سوى موت المسيح وحده. إننا نشترك في شبه موت المسيح، وليس في جوهر موته لأن الفارق بينهما هو الفرق بين ما هو إلهي وما هو بشري، ولكنه في كلا الحالين موت حقيقي، ليس للجسد المنظور بغرائزه الطبيعية، بل للإنسان العتيق الذي يُدفن حقاً في المعمودية، ليولد الإنسان الجديد فينا، والذي به - وبه وحده - نرث الحياة الأبدية. لأنه لا يمكن للجسد الطبيعي أن يدنو من عرش الله، لأنه لا يستطيع.

إيماننا بالمعمودية أنها موت حقيقي وقيامة حقيقيَّة في المسيح، أما أننا نشترك بالمعموديَّة في شبه موت المسيح، وليس في جوهر موته، فذلك لأن موته كان من أجلنا كلنا، أما موتي أنا مع المسيح فهو لكي أموت عن الخطيَّة التي فيَّ لأحيا لله بالمسيح.

وفي ذلك يقول القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م):

[لم يتحدث الرسول بولس عن موته (أي موت المسيح) حتى لا يفزع أحد، بل عن شبه موته، لأننا أنفسنا لم نمت، بل إنسان الخطيَّة،... نحن ندفن في المياه، أما هو ففي الأرض، نحن (نُدفن) بسبب الخطيَّة، أما هو فلأنه أخذ جسداً، ولهذا لم يقل الرسول إذا كنا قد دُفنا معه في موته، بل في شبه موته. فكلا الحالتين موت، لكن الموت مختلف... ولأننا بصدد الموت، وهو قال قبلاً «أما تعلمون أيها الإخوة أن الذين اعتمدوا ليسوع قد اعتمدوا لموته»، وهو لهذا لم يشر صراحة إلى القيامة، بل إلى طريقة الحياة بعد المعمودية وهي السلوك في الحياة الجديدة. والرسول لا يقول إننا صلبنا، بل صُلبنا معه، وهو لهذا يقرّب المعمودية من الصليب، ولهذه النتيجة قال سابقاً إننا دُفنا معه في شبه

موتة لكي يهلك جسد الخطيَّة، وهو هنا لا يتحدث عن أجسادنا الحالية، بل عن الشر كله، لأنه يُسمي الشر كله: الإنسان القديم أو العتيق] (عظة ١١ على رسالة رومية).

ويقول أيضاً في موضع آخر:

[نحن نتصور الدفن كعملية إنبات للبذور في الأرض. نعم أن نميت ذواتنا من جهة الأمور المنهي عنها، ونعلن إيماننا بأعمال المحبة، فنصير مؤهلين لأن ننطق بنفس الرجاء في كلمات الرسول القائلة: «فإن سيرتنا نحن هي في السموات التي منها أيضاً ننتظر مخلصاً هو الرب يسوع المسيح الذي سيغيّر شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده، بحسب عمل استطاعته أن يُخضع لنفسه كل شيء» (فيلبي ٣: ٢٠، ٢١)... نحن الذين ننال معمودية الماء ندفن الجسد بالتأكيد، حيث أن المعمودية هي مثال للصليب والموت والقيامة من الموت كما يقول الرسول: «أميتوا أعضاءكم التي على الأرض» (كولوسي ٣: ٥)... «كذلك أنتم أيضاً احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطيَّة، ولكن أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا» (رومية ٦: ١١)] (الكتاب الأول: ٢: ١٣، ١٥).

أما القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م) فيعقب قائلاً:

[نحن لم نمت فعلاً، ولم نُدفن، كما أننا لم نُصلب في الواقع، أو نقوم من الموت، بل نتشبّه بكل هذا، وفي نفس الوقت كان خلاصنا حقيقياً، المسيح فعلاً صُلب، وفعلا

دُفن، وحقاً قام، ولذلك منح لنا كل هذه مجاناً حتى إذا ما اشتركنا في شبه موته، ننال الخلاص في الحقيقة] (٢٠:٧).

ويضيف في موضع آخر:

[كيف نبلغ إلى التشبه به في موته؟ أليس بالدفن معه في المعمودية؟... أعطانا الرب مدبر حياتنا، عهد المعمودية وجعله رمزاً للحياة والموت، فالمياه تكمل صورة الموت، أما الروح فهو يعطينا عربون الحياة] (الروح القدس ١٥:٣٥).

وترجع أهمية سر المعمودية إلى تأكيد السيد المسيح نفسه في حديثه مع نيقوديموس موضحاً ضرورة أن يولد الإنسان من الماء والروح ولادة جديدة (يوحنا ٣:٥)، وأعطى السيد الرب وصيته الأخيرة لتلاميذه قبل صعوده إلى السماء «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم **وعمدوهم** باسم الآب والابن والروح القدس...» (متى ٢٨:١٩). وهكذا مارس آباؤنا الرسل القديسون التعميد بعد تأسيس الكنيسة مباشرة يوم الخمسين[٩]، ولقد أولت الكنيسة في عصورها المبكرة سر المعمودية أهمية بالغة لتتميم وصية الرب الأخيرة.

فيقول القديس كيرلس الأورشليمي:

[لقد قدَّس يسوع المعمودية باعتماده بنفسه... إن كان ابن الله قد اعتمد فكيف يمكن أن يكون ورعاً من يحتقر العماد؟ إنه لم يعتمد لينال غفران خطاياه، إذ هو بلا خطية. لكنه إذ هو بلا خطية اعتمد ليهب المعمدين نعمة سماوية علوية «فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم

٩ - أعمال ٢:٣٨، ٨:٣٦-٤٨، ١٠:٤٨؛ ١ كورنثوس ١٢:١٣؛ غلاطية ٣:٢٧؛ أفسس ٤:٥.

والدم اشترك هو أيضاً كذلك فيهما (عبرانيين ٢: ١٤)» حتى إذ تشاركنا بحضوره في الجسد نصير شركاء معه في نعمته الإلهية. هكذا اعتمد يسوع لكي بشركتنا معه نتقبل الخلاص والكرامة] (المقالة الثالثة: ١١).

فعل المعمودية يكون بالمسيح وبعمل الروح القدس الذي يغسل الإنسان بدم المسيح، ويدهنه بدهن قيامته السرية، فيقول بولس الرسول: «لكن اغتسلتم، بل تقدستم، بل تبررتم، باسم الرب يسوع وبروح إلهنا» (١ كورنثوس ٦: ١١). الغسل هنا للجسد، والتقديس للروح، والتبرير للنفس. وهكذا في المعمودية ننال مغفرة الخطيئة، ونعمة التبني، ومشاركة المسيح في آلامه وقيامته وحياته، لكي تصبح حياتنا التي نحياها، هي لله.

والآن نعرض لسر المعمودية محاولين قدر جهدنا تركيز الحديث عنها في إطار من أقوال آباء الكنيسة القديسين، لنضمن ينابيع عذبة نقية تروي عطشنا للتعرف على الباب الذي دخلنا منه لنحيا الكنيسة، فلقد توافر آباء الكنيسة على المعمودية بالشرح، بتعاليمهم وعظاتهم، حتى يكاد أنهم لم يتركوا لمجتهد أن يضيف الجديد، بالإضافة إلى أن اعتمادنا على مصادر آبائية يسمح لنا أن نكون قريبين من عصر نشأة سر المعمودية في أصوله الأولى.

وإلى جانب المصادر الآبائية اعتمدنا أيضاً على الآثار الليتورجية القديمة، والوثائق المتاحة لدينا منذ نهاية القرن الثاني الميلادي في الشرق المسيحي، والتي أمدَّتنا بمعلومات قيّمة لم يستفد

بها كثيرون من مؤرخي الطقس كما ينبغي أن تكـون الاسـتفادة[١٠]، محاولين قدر استطاعتنا أن نحدد الخصائص التي تميّز طقس المعمودية في الكنائس الشرقية المختلفة.

فضلاً عن أن حياة المسيح له كل المجد، وتعليمه، وكلمة الروح نفسه في الإنجيل المقدس، مع الصلوات الطقسية للسر، سـوف تكمّـل وتجمّل كل جوانب الموضوع.

ونود أن نلفت نظر القارئ الحبيب إلى أنـه سيقرأ في السـطور القادمة تاريخاً طقسياً يمتد منذ نشـأة الكنيسـة المسيحية وحتـى الآن، ونصوصاً ليتورجية ربما لم يتقابل مع بعضها من قبل، وبعض مقارنات طقسية بين الكنائس المختلفة، ليدرك كـم أن لـلرب الأرض وملأهـا، وكيف أن الكنيسة واحدة وإن تعددت وتباينت مراسـيم طقوسـها في السر الكنسي الواحد.

إن فهم سر المعمودية ضرورة حياتيَّة للكنيسة وأولادهـا، ونقطـة البداية لحياة متأصِّلة وراسخة في المسيح. فليستخدم الرب العمل لمجـده ومجـد كنيسته ببركـة شـفاعة والـدة الإلـه القديسـة الطـاهرة مريـم، وصفـوف السـمائيين، وصلـوات مصـاف الشـهداء والقديسـين، وبصلوات أبينا الطوباوي قداسة البابا شنودة الثـالث، وسـائر آبائنـا المطارنة والأساقفة المكرَّمين.

ولإلهنا يليق كل المجد والإكرام والسجود في كل حـين وإلى آبـاد الدهور، آمين.

---

١٠ - Le premiér dom Fernand Cabrol & R. P. dom Henri Leclercq, *Dictionnaire D'Archeólogie Chrétienne et de Liturgie (DACL)*, Tome 2, Paris, 1925, p. 251.

الباب الأول

مدخل إلى طقس المعمودية

الفصل الأول

مقدمـــات عـــامة

أولاً: فكرة تاريخية عامة:

كانت المعمودية المسيحية في الكنيسة الأولى تُمنح باسم الرب يسوع، على أساس نصوص كثيرة من سفر الأعمال[1]. ولكن منذ نهاية القرن الأول المسيحي على أكثر تقدير أصبحت المعمودية تُمنح في كل مكان باسم الثالوث القدوس الآب والابن والروح القدس، وهذه الحقيقة المؤكّدة قد دفعت كثير من اللاهوتيين إلى تفسير النصوص الواردة عن المعمودية في سفر الأعمال على أنها ليست صيغة للمعمودية، لكنها تهدف إلى التفريق بين المعمودية المسيحية وتلك التي كان يمارسها يوحنا المعمدان.

ولقد تطورت طقوس المعمودية في الكنيسة الأولى بسرعة، ففي الديداخي، وفي الفصل المُسمى "الطريقان" نقرأ عن الواجبات الأساسية المنوطة بطالب المعمودية، وطريقة منحها بثلاث غطسات، أو بصب الماء على الرأس.

أما العلاّمة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م)، فيعود إليه الفضل في وضع أول بحث متكامل عن المعمودية المقدسة، موضحاً أن منح المعمودية يكون بغطسات ثلاث في الماء، وواصفاً أجزاء أخرى من الطقس مثل

١- أعمال ٢:٣٨، ١٠:٤٨، ١٩:٥

الصوم الذي يسبق المعمودية، والسهر الليلي الذي يسبق ليلة المعمودية، وكذا الاعتراف بالخطايا، وجحد الشيطان، والاعتراف بالإيمان، ووضع اليد بعد التغطيس، واللبن والعسل اللذان يتناولهما المُعمَّد ودلالتهما الطقسية.

وكانت المعمودية في الكنيسة المسيحية في عصورها المبكرة عملاً يختص بالأسقف وحده، كما في الميرون والإفخارستيا. ومنذ القرن الثاني الميلادي وحتى الرابع، كانت المعمودية تمنح في ليلة عيد الفصح، وعيد العنصرة. ولكن ظل عيد الفصح هو المناسبة الأكثر شيوعاً بين الكنائس لممارسة المعمودية، إذ كان يسبقه فترة الصوم المقدس الكبير، وهي فترة مناسبة لإعداد الموعوظين المرشحين للمعمودية، وتهيئتهم بالتعليم لقبول السر. فنقرأ في القانون ٤٥ لمجمع اللاذقية الذي عُقد سنة ٣٤٣م، أنه بعد مرور أسبوعين من الصوم الكبير لا يجوز قبول أحد إلى الاستنارة، لأن الجميع يجب أن يبدأوا الصوم من أوله. وفي القانون ٤٦ لنفس المجمع نقرأ: "إن المزمعين أن يتعمدوا، يجب أن يتعلموا دستور الإيمان عن ظهر قلب، وأن يتلوه غيباً أمام الأسقف أو الكهنة في اليوم الخامس من الأسبوع"، (أي يوم الخميس من كل أسبوع، أو ربما يوم خميس العهد، وهو الأمر الأكثر احتمالاً).

وبعد اكتمال فترة تعليمهم، كان المعلّمون يأتون بهم إلى الأسقف ليتمكنوا في يوم السبت المقدس الكبير، في ليلة الفصح من قبول المعمودية. وكان الموعوظون يعطون أسماءهم للأسقف قبل معموديتهم ببضعة أيام، لتسجل في سجل خاص بذلك، ونعرف من العظة الثالثة عشر عن الإيمان للقديس أغسطينوس أن الوقت المعين لإعطاء الأسماء هو بدء الصوم الكبير، لذلك يأمر مجمع اللاذقية في قانونه ٤٥ السابق ذكره، أن الذين لم يسجلوا أسماءهم في أول الصوم لا يجوز قبولهم في المعمودية في يوم السبت المقدس العظيم.

ومنذ القرن الرابع أُضيفت إلى هاتين المناسبتين السابقتين، عيد الإيبفانيا كمناسبة ثالثة في الشرق المسيحي لمنح سر المعموديَّة، ثم اجتاز هذا التقليد من الشرق المسيحي إلى شمال أفريقيا فأسبانيا وبلاد الغال. أما في أسبانيا وبلاد الغال، فإن عيد الميلاد وبعض الأعياد الأخرى أصبحت هي الأخرى مناسبات كنسيَّة تُمنح فيها المعموديَّة، مما دفع بعض أساقفة الكنيسة الرومانيَّة(٢) إلى الاعتراض على هذا التحديث، بينما ظل الشرق المسيحي محافظاً على التقليد القديم.

وفي حالات الضرورة القصوى، وعند خطر الموت، كانت المعمودية تمنح في أي وقت، وفي أي مكان، وبواسطة أي مسيحي. ولكن طبقاً للعلامة ترتليان، وكتاب المراسيم الرسوليَّة، ومجامع قرطاجنة الأربعة، أنه لا يجوز لامرأة أن تمنح المعموديَّة.

ولقد سادت عادة كانت شائعة جداً في القرون الأربعة أو الخمسة الأولى، وهي تأخير المعموديَّة حتى إلى قرب الوفاة، خوفاً من المسؤوليات التي يلتزم بها المعمَّد بعد نوالها. وكانت المعموديَّة في هذه الحالات تمنح بدون مراسيم، ولقد اعتُبرت مثل هذه المعموديَّة ذات عائق قانوني يمنع الأشخاص الذين يقتبلونها من قبول أي رسامات كهنوتيَّة لهم بعد ذلك. ولقد سُميت هذه المعمودية Clinical Baptism من اللفظة اليونانية κλίνη أو ما يقابلها في اللاتينية clinici أي "سرير" أي تلك المعموديَّة التي تُمنح لمريض ملازم فراش الموت. ولكن سرعان ما انزوت هذه المعموديَّة عندما شاعت معموديَّة الأطفال، وتطوُّر نظام التوبة، وقبول التائبين في الكنيسة.

---

٢ ـ مثل Siricius (٣٣٤ ـ ٣٩٩م)، ليو الكبير (+ ٤٦١م).

ثانياً: مفهوم السر Sacrament:

لم تهتم الكنيسة الشرقية كثيراً بتفسير قانوني لكلمة "سر"، إذ ترسَّخ في وجدانها وتعاليم آبائها أن السر هو حياة إلهية وفعل إلهي فائق على الإدراك، أودعه الله في الكنيسة لمنفعة المؤمنين وخلاصهم، فعاشوا ينعمون بسر المسيح والكنيسة، بسر الثالوث والخلاص، دون اجتهاد لتفسير معنى كلمة "سر"، وهي الكلمة اليونانية μυστήριον. لأننا نوقن كل اليقين أن كل اجتهاد في تفسير قانوني لكلمة "سر" لا يزيده سوى غموض على غموض، ذلك لأنه إن استطعنا أن نفسر أو نشرح معنى "السر"، ما صار السر سراً بعد. ولكن كل اجتهاد وسعي في هذا الشأن هو محاولة استيضاح لجوانب من السر الكنسي، في إدراك جزئي لها، على قدر ما يستطيع العقل أن يعقل لهذا الفعل الإلهي العظيم الذي عمله المسيح له المجد في كنيسته المقدسة، ليس منذ يوم ظهوره بيننا على الأرض، والذي هو في ذاته "سر التقوى"، بل منذ ما قبل الدهور.

وإن كان سر الكنيسة هو سر المسيح نفسه، لأن الكنيسة هي جسد المسيح كقول الرسول، وإن كنا لا نستطيع أن نستقصي "سر المسيح" ونستنفذ كل أعماقه، فهكذا أيضاً سر الكنيسة. ومع ذلك فعندما يستأمن الله قديسيه وأنبياءه ليعرّفهم ويعلن لهم أسراره، يظل هذا الإعلان إعلاناً قلبياً داخلياً يحسه القلب، وبالكاد يستوعبه العقل استيعاباً جزئياً غير كلي.

فالبابا أثناسيوس الرسولي (٣٢٨- ٣٧٣م) في حديثه عن علاقة الآب بالابن بالروح القدس يقول:

[وإن كانت توجد في الثالوث هذه المساواة، وهذا الاتحاد، فمن الذي يستطيع أن يفصل الابن عن الآب؟ أو

يفصل الروح القدس عن الابن؟ أو عن الآب نفسه؟ أو من ذا الذي تبلغ به الدرجة أن يقول إن الثالوث غير متماثل، أو إن جوهر الابن غريب عن جوهر الآب؟ أو إن الروح القدس غريب عن الابن، أو يسأل كيف يمكن أن تكون هذه الأمور؟.. أو كيف يُقال أن الابن فينا عندما يكون الروح القدس فينا؟... فليفصل أولاً شعاع النور عن النور، أو فليفصل الحكمة عن الحكيم، ويدلّنا أولاً كيف يكون هذا؟

فإن كان لا يمكن إتمام هذا لكان بالأولى من عدم التقوى أن يوجه هؤلاء مثل هذه الأسئلة عن الله. لأن التقليد لا يعلن لنا اللاهوت بإيضاحات كلامية بل بالإيمان. واستخدام العقل يلزم أن يكون بروح التقوى والوقار. لأن الرسول بولس قد أذاع إنجيل صليب المخلص كما قال «لا بكلام الحكمة، بل ببرهان الروح والقوة» (١ كورنثوس ٢:٤)].

وكثيراً ما حذّر القديس أثناسيوس الرسولي من طريقة الحوار والملاحجة في شؤون اللاهوت:

[إن هؤلاء الذين يناظرون ويتباحثون في أين يكون الله، وكيف يكون الله، وبأي طبيعة يقوم الآب؟ مثل هذه التساؤلات تعتبر لاديئيَّة، ولن تزيد الإنسان إلاّ جهالة فيما يختص بالله، كذلك فإنه لا يخرج على القانون من يجازف في فحص كيفيَّة ولادة ابن الله].

ويقول القديس غريغوريوس الثيؤلوغوس:

[لا تنشغل في تأمُّلك في كيفيَّة ميلاد الابن من الآب، لأن هذا ليس أمراً في جانب الأمان، فتكريم هذه الحقائق

التعليمية ينبغي أن يكون في صمت، لأنه أمر عظيم وفائق أن تدرك الحقيقة والكيفية، فنحن لا نعرف إن كانت الملائكة نفسها تدرك هذا، فكم بالأقل نحن].

والقديس باسيليوس الكبير يقول:

[لا تجري وراء فحص غير المفحوص، فأنت لن تبلغ كشفه... فإذا لم ترعو واخترت العناء، فسوف يسخر الناس منك، أو بالحري يبكون على جسارتك... آمن فقط بالمكتوب، ولا تجري وراء ما لم يُكتب لك].

الآن نستطيع أن نفهم ما يعنيه الرسول بولس بقوله: «إن كنتم قد سمعتم بتدبير نعمة الله المعطاة لي لأجلكم، أنه بإعلان عرّفني بالسر... الذي بحسبه حينما تقرأونه تقدرون أن تفهموا درايتي بسر المسيح، الذي في أجيال أخر لم يُعرف به بنو البشر كما قد أعلن الآن لرسله القديسين وأنبيائه بالروح» (أفسس ٣:٢-٥).

إذاً إعلان السر هو بالروح القدس، وهو إعلان قلبي داخلي، يمكن للعقل أن يعبّر عنه في حدود ضعيفة، ولكن يظل الإعلان إعلاناً خفياً مستوراً، ليظل السر سراً. فهل استطاع أحد حتى اليوم أن يسبر بالكامل سر الإنجيل[٣]، أو يستوعب كل سر ملكوت الله[٤]، أو يدرك كلياً كنه الميلاد الجديد من الله بالماء والروح[٥]، أو يعقل أننا نتحد بالمسيح له المجد مأكولاً ومشروباً في سر الإفخارستيّا؟ فكيف يمكن للعقل أن يستوعب هذا؟ إنه الإيمان والإيمان القلبي أولاً، والذي نعبّر عنه بكلماتنا ثانية في شكل قانوني محدد، لتعبّر كلماتنا عنه لا لتحتويه كله.

٣- انظر: أفسس ٦:١٩

٤- انظر: مرقس ٤:١١

٥- انظر: يوحنا ص٣

وهكذا ظلت أسرار الكنيسة وأسرار اللاهوت في حياة الكنيسة الأولى ملتحمة بليتورجيتها، ومختبرة في الكنيسة بحياة عابدة ملؤها الإيمان والتقوى، يتذوقها الإنسان شاهداً ما أطيبها، فيؤمن بها بدون تحديد مدرسي لمفهومها، أو تعريف وتصنيف لها، ومتى يبطل فعلها؟ ومتى يسري مفعولها؟ وعددها وشروط منحها...الخ.

فهل يمكنك أن تصف في كلمات طعم التفاح مثلاً؟ أو تعبّر عن رائحة الأزهار الجميلة بتعبيرات كلامية؟، فهكذا أسرار الكنيسة إذا لم يختبرها القلب تظل معرفتها العقلية حدباء لا تجدي نفعاً.

إننا لا نحقّر الحديث عن الأسرار، فما الكتاب الذي بين يديك سوى بحث في هذا الأمر بالذات، لكننا نود أن نستعيد تراث الكنيسة الشرقية الأصيل، والذي لم تحتل فيه معالجة الأسرار بطريقة منهجية مدرسية قانونية - كما يفعل اللاهوت الغربي المدرسي - سوى جانب بسيط منه، مفسحاً المجال بكليته لشرح الأسرار من داخل الليتورجيا، وحياة الكنيسة وصلواتها، وعبادتها، رابطاً بين السر الكنسي والحياة التقوية لمتقبليه، فيأتي السر غايته كحياة مُعاشة ومختبرة.

الكلمة اللاتينية المرادفة لكلمة "سر" في اللغة العربية هي Sacramentum ومنها جاءت في الإنجليزية Sacrament أو mystery، وهي في اليونانية μυστήριον. والكلمة اللاتينية في أصلها اللغوي كانت تعني "القَسَم"، أو "الحلف" خصوصاً القسم العسكري، وهو "قسم الولاء". وانتشرت آثار هذا المعنى، وعاشت في أدب الكنيسة المبكر كما عند ترتليان مثلاً(٦).

٦- Ad. Martyres, 3

واستخدمت الكلمة في اللاهوت المسيحي في مجال متسع رحب، فالقديس أغسطينوس يُعرّف السر بأنه "شكل منظور لنعمة غير منظورة" أو "علامة لشيء مقدس"، مطبقاً ذلك حتى على صيغ الصلوات الكنسية، مثل قانون الإيمان، الصلاة الربية. واستمر هذا التطبيق المتسع حتى العصور الوسطى. وفي غضون القرن الثاني عشر فإن (القديس) فيكتور St. Victor (+ ١١٤٢م) عدّ الأسرار إلى حوالي ثلاثين سراً مقسماً إياها إلى ثلاث مجموعات، أما بطرس لمبارد Peter Lombard أسقف باريس (١١٠٠ـ ١١٦٠م) فقد جعلها سبعة أسرار فقط، وهو الرقم الذي أصبح تقليداً ثابتاً إنتقل من الغرب إلى الشرق بعد ذلك بعدة قرون، حيث لم يظهر في الشرق تحديد الأسرار الكنسية برقم سبعة إلاّ بعد القرن الخامس عشر الميلادي، وفي مجمع فلورنسا سنة ١٤٣٩م، تقرر بقانون أن الأسرار الكنسية هي سبعة، وتبعه أيضاً مجمع ترنت (١٥٤٥ـ ١٥٦٣م)، حيث وُضعت في هذا المجمع تحديدات منهجية عقلانية للأسرار الكنسية، وبأنها قد تأسست بواسطة السيد المسيح نفسه، فظهر خلاف بين لاهوتيي الكنيسة الغربية بخصوص هذا التحديد، وكان جوهر الخلاف هو أن هناك بعض أسرار مثل الميرون والمسحة (مسحة المرضى) والزواج لا يوجد في الكتاب المقدس ما يحدد أن السيد المسيح هو الذي أسسها بنفسه(٧). بينما اعتقد لاهوتيو كنيسة إنجلترا أن سري المعمودية والإفخارستيا فقط دون باقي الخمسة أسرار الأخرى هما اللذان أسسهما السيد المسيح فقط، ثم عادوا في العصور الحديثة ليتبنوا أفكاراً أكثر إيجابية نحو هذه الأسرار الخمسة الأخرى. ومنذ سنة ١٢٣٥م ظهر في اللاهوت الغربي الكاثوليكي تمييزٌ بين المادة والشكل في الأسرار الكنسية The matter and the form، فالمادة هي العنصر الذي يجري عليه السر،

٧ـ F. L. Cross & E. A. Livingstone, *The Oxford Dictionary of The Christian Church (ODCC)*, (2nd edition), 1988, p. 1218.

كالماء للمعمودية والخبز للإفخارستيا..الخ، أما الشكل فهو كلمات التقديس التي بواسطتها يتم تقديس السر. ولقد دخل العلماء في مباحثات ومناقشات عقلانية طويلة، وصارت صحة المادة وصحة الشكل هي التي تحدد قانونية السر وصلاحيته.

وفي اللاهوت الغربي لا تعتمد قانونية السر على استحقاق أو عدم استحقاق المتمم للسر، وأن غياب الإيمان والتوبة ربما يضع عائقاً في طريق النعمة التي تفيض طبيعياً من الأسرار، وفي مثل هذه الحالات فإن الفعل السرائري برغم قانونيته وصلاحيته، إلاّ أنه يصبح عديم التأثير...الخ[٨].

وهكذا ضمَّنت الكنيسة الكاثوليكية كل إيمانها وعقيدتها فيما يختص بالأسرار الكنسية، ورُتب الإكليروس فيها، وكافة الصلوات وأوجه العبادة فيها، وشرح قانون الإيمان والصلاة الربية، والتعليم عن أسرار الثالوث والتجسد والفداء والمجئ الثاني والحياة الأبدية والروح القدس وعمله في الكنيسة والمؤمنين والوصايا العشر...الخ، ضمَّنت كل ذلك في كتاب "التعليم المسيحي – Catechism "، وهذا الكتاب الخطير "الكاتيشزم[٩]" نقلت عنه الكنائس الشرقية والغربية على السواء، وترجمته

٨- *Ibid.*

٩- بُدء في تدوينه في منتصف القرن السادس عشر في شكل أسئلة وأجوبة تُلقَّن لكل إنسان ينتمي إلى الكنيسة الكاثوليكية قبل منحه سر الميرون بواسطة الأسقف (*ODCC*, p. 249.) واستمرت الإضافات والتعديلات عليه عبر السنين حتى سنة ١٩٨٥م، عندما ظهرت طبعة جديدة له. وفي سنة ١٩٨٦م، تشكَّلت لجنة من الإكليروس واللاهوتيين لوضع كتاب "التعليم المسيحي ـ الكاتيشزم" في ثوب جديد، حيث ظهر في سنة ١٩٩٣م، يحوي تجديداً أو تأصيلاً لبعض النظريات اللاهوتيَّة في الكنيسة الكاثوليكيَّة بما يتفق مع آباء الكنيسة الأوائل، مما أظهر بادرة تقارب بين الكنيسة الكاثوليكيَّة والكنيسة الأرثوذكسيَّة في كثير من المبادئ التي كان مختلفاً عليها فيما سبق، وذلك بعد أن استبعد الكاتيشزم الجديد مبادئ القديس

وشرحته دونما تمعّن، فكانت النتيجة لاهوت غربي اقتحم الكنيسة الشرقية، واختلط بلاهوتها الأصيل وليتنه.

ويعرّف "الكاتيشزم" الغربي السر الكنسي بأنه "علامة خارجية منظورة تهبنا نعمة داخلية روحية..."، وهو تكرار لتعريف القديس أغسطينوس للسر، أنه "شكل منظور لنعمة غير منظورة"، فبات مفهوم السر الكنسي بهذا الإيجاز المخل ضعيفاً.

إن كتابات الآباء في الكنيسة الأولى - كما سبق أن أشرنا - تشرح وتفسر الأسرار من داخل الاحتفال الليتورجي الفعلي بها، كون الليتورجيا هي حياة الكنيسة وإيمانها، فالسر الكنسي ملتحم بالليتورجيا، ولا يكمل بدونها، فالشركة في الحياة الليتورجية في الكنيسة هي الضمان الوحيد لتفسير السر تفسيراً إختبارياً حياتياً معاشاً، وهو ما لم يفعله اللاهوت الغربي الذي عزل السر عن الليتورجيا، وجعله أداة نعمة قائمة

أغسطينوس التي لم تعد تناسب العصر، على حد قول الكنيسة الكاثوليكيّة، وكذلك الفكر اللاهوتي الذي روّج له في الغرب اللاهوتي الإنجليزي أنسِلْمْ (رئيس أساقفة كانتربري في القرن الحادي عشر) حيث أخذت الكنيسة الكاثوليكيّة بآرائه، وتسربت بعض تلك الآراء إلى كتابات بعض المؤلفين في الكنيسة الشرقيّة عن أسباب الفداء والخلاص، والتي يحصرها في أسباب قانونيّة مثل إرضاء الغضب والعدل الإلهيين، وتلوُّث الإنسان بخطيَّة آدم الأصلية...الخ. حيث اعترف الكاتيشزم الجديد بالأسس الإيمانيَّة الرئيسيَّة التي يعترف بها الأرثوذكس الشرقيون، وأعطى الأهمية الأولى لآباء الكنيسة الذين كتبوا باليونانية مثلما فعل مع الذين كتبوا باللاتينية، وكذلك التقليد المستيكي الأصيل الذي يشترك فيه الشرق والغرب، محاولاً أن يتجنب منهج بيلاجيوس، ذلك الراهب البريطاني المولد، الذي ترهب في أواخر القرن الرابع الميلادي، وعاش في روما، وكان يؤكد على الجهاد البشري دون مساندة النعمة في سبيل خلاص الإنسان، ولقد انشغل القديس أغسطينوس بالصراع معه، بينما يؤكد الفكر الأرثوذكسي بشدة على دور النعمة واشتراكها مع إرادة الإنسان في تكميل خلاصه، حيث تصبح الفضيلة عملاً إلهيا بشريا مشتركا.

بذاتها، فأفقد الليتورجيا وظيفتها والتي هي استعلان السر وغايته. فسر الإنجيل نفسه لا يُستعلن إلاّ من داخل الكنيسة ونظام عبادتها وصلواتها، لأن معرفة الإنجيل نفسه إذا لم تؤدي إلى حياة كنسيّة تقويّة تظل معرفة إنجيلية عقلية، حتى وإن لبست هذه المعرفة ثوباً من تأملات روحية، أو تفسيرات لاهوتية. فإن كنتَ تحب الإنجيل فليظهر هذا من خلال حياة شركة فعليّة تحياها في الكنيسة المقدَّسة بأسرارها وليتورجيتها.

وفي اختصار، كل شرح وتفسير لأي سر كنسي لا يفضي في النهاية إلى الإفخارستيَّا ويصب فيها، هو شرح عقلاني غريب عن اللاهوت الشرقي، حتى لو اكتسى ثوب البلاغة وإتقان الأسلوب. فأي سر كنسي في حد ذاته لا يمكن أن يكون نعمة إلهيَّة إلاَّ إذا اكتمل بالشركة في جسد الرب ودمه الأقدسين، وهنا يكمن قصور المفهوم الأوغسطيني للسر.

السر الكنسي هو واسطة العلاقة بين الله والإنسان، وفي ذات الوقت مجال تحقيقها الوحيد. فبالسر الكنسي ننال حياة الله فينا، وبالسر الكنسي يسكب الله فينا كل هباته وعطاياه ومواهبه وأسراره، فهو باب دخولنا إليه، أو بالحري دخوله إلينا، وهو الطريق الوحيد لسكناه فينا، هذا ما تفعله الكنيسة وتحققه الأسرار فينا.

وهكذا تلتحم الحياة الليتورجية في الكنيسة مع مضمون أسرارها فتمتزج التقوى باللاهوت، فالليتورجيا تكمّل السر الكنسي، والسر الكنسي يحقق الليتورجيا، فتصبح العبادة هي مصدر العقيدة.

إننا لا نستطيع أن نفصل أسرار الكنيسة عن أسرار اللاهوت، أي الجسد عن الرأس، لأن المسيح هو رأس الكنيسة (أفسس ٥:٢٣)،

والكنيسة هي جسد المسيح (كولوسي ١:٢٤)، ورسول الكنيسة هو مجد المسيح (٢ كورنثوس ٨:٢٣). فسر المعمودية يعلن سر موت المسيح وقيامته، بل ويحققه، فهل يستطيع من لم يجوز الموت والقيامة مع المسيح في المعمودية أن يقول "المسيح قام؟". وسر التجسد بكل تدبير الخلاص فيه كامن في سر الإفخارستيّا ومحقّق فيه، فسر التجسد هو سر التقوى (١ تيموثاوس ٣:١٦)، وسر الإفخارستيّا هو عينه سر التقوى "ووضع لنا هذا السر العظيم الذي للتقوى (من صلوات القداس الإلهي)"، وبدون الإفخارستيّا تصبح قضية تجسد ابن الله قضية لاهوتية بحتة بعيدة عن كونها سبب حياة تقوية للذين يؤمنون بالمسيح.

وسر الميرون المقدس في الكنيسة هو سر الروح القدس. إذاً فالكنيسة هي التي تعلن سر الثالوث، وسر المسيح، وخارجاً عنها هي دراسات لاهوتية أكاديمية تهب شهادات الدكتوراه، ولكنها لا تهب الحياة، فإن تكلَّمتْ عن الأسرار تجعل منها واجبات دينية تُتمَّم كعرف كنسي حتى وإن زينتها ببريق ألفاظ محبوكة المعنى.

إسمع ما يقوله القديس بولس الرسول كيف أن الكنيسة هي واسطة التعرف على سر الثالوث: «...لي أنا أصغر جميع القديسين أُعطيت هذه النعمة، أن أبشر بين الأمم بغنى المسيح الذي لا يُستقصى، وأُنير الجميع في ما هو شركة السر المكتوم منذ الدهور في الله خالق الجميع بيسوع المسيح، لكي يُعرَّف الآن عند الرؤساء والسلاطين في السماويات **بواسطة الكنيسة** بحكمة الله المتنوعة حسب قصد الدهور الذي صنعه في المسيح يسوع ربنا...» (أفسس ٣:٨-١١).

ثالثاً: أسماء المعمودية:

أسماء المعمودية في حد ذاتها تشرح لنا فعلها فينا، والعمل الإلهي الذي يكمل بها، وعلاقته بالنفس والجسد. وأسماء المعمودية ذو قيمة طقسية هامة فمن خلال هذه الأسماء، وبالمقارنة مع دراسة نصوص صلوات المعمودية يتضح لنا قدم وأصالة الطقس القبطي.

يدعوها القديس يوستينوس الشهيد[١٠] (١٠٠- ١٦٥م) "ماء الحياة - ὕδωρ ζωῆς " ويدعوها أيضاً "استنارة" فيقول: [هذا الحميم يُسمى استنارة لأن عقول الذين تعلموا هذه الأشياء استنارت[١١]].

والعلاّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠- ٢١٥م) يدعو المعمودية بأسماء كثيرة، فيدعوها "نعمة"، "استنارة"، "كمالاً"، و"حميماً".

> [فهي حميم لأننا بها نغسل خطايانا، ونعمة إذ بها تُترك عقوبات خطايانا، واستنارة إذ بها يُرى النور القدوس الخلاصي، أعني أننا نشخص بها إلى اللاهوت، وكمالٌ لأنها لا تحتاج إلى شيء... إذ نعتمد نستنير، وإذ نستنير نتبنى، وإذ نتبنى نكمَّل، وإذ نكمَّل نضحى غير مائتين[١٢]].

ويعلّم القديس غريغوريوس النزينزي (٣٣٠- ٣٩٠م) أن يوم المعمودية هو "يوم الأنوار" ويقول إن المعتمد قد أضحى مستنيراً φωτισθέντος، أما الموعوظ الذي لا يفصله عن المعمودية سوى بضعة

١٠ـ الحوار مع تريفو: ٢٣
١١ـ الدفاع الثاني: ٦٤
١٢ـ المربي ١:٦:٢٦

أسابيع، فهو على طريق الاستنارة φωτιζόμενος. وفي عظته الأربعين على المعمودية دعاها "**العطية**" فيقول: [نحن نسميها العطية لأنها تعطى لنا دون أن ندفع فيها ثمناً] وفي نفس العظة يدعوها "**الخلاص**"، وهي نفس التسمية التي أطلقها القديس باسيليوس الكبير على المعمودية من قبله داعيا إياها "**معمودية الخلاص**(١٣)".

أما تسمية المعمودية بـ "**الختم** – σφραγίς " فهو أحد أسمائها القديمة، ولقد استخدم العهد الجديد تعبير "ختم" في ثلاثة مواضع منه إشارة إلى المعمودية(١٤). ولقد كان لهذا التعبير دور هام في لاهوت المعمودية، إذ أن هذا التعبير يؤكد صحة العهد. وهو ما أشار إليه كتاب "الراعي" لهرماس، وأيضاً: "**ختم الرب**" كما عند يوسابيوس القيصري(١٥)، فالمعمودية هي "**ختم العهد الجديد**"، وهي "**ختم الإيمان**(١٦)". وهي أيضاً "**ختم الروح القدس**" كما يقول القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م):

> [نُختم بالروح القدس نحن المؤمنين، وكما كان الختان هو سمة اليهود... هكذا نحن أيضاً، فإن عربون الروح هو سمتنا(١٧)].

وهو التعبير الذي استخدمه من قبل القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م). ودعاها أيضاً: "**فداء الأسرى**"، "**مغفرة الذنوب**"، "**موت الخطايا**"، "**الميلاد الجديد للنفس**"، "**ثوب النور**"، "**الختم المقدس**

١٣- القديس باسيليوس الكبير عن الروح القدس، ١٠:٢٤، العظة ١٣ عن المعمودية.

١٤- انظر: ٢ كورنثوس ١:٢١،٢٢

١٥- تاريخ الكنيسة ليوسابيوس القيصري، ترجمة القمص مرقس داود، القاهرة، ١٩٧٩م، ٦:٥:٦

١٦- العلامة ترتليان de spectst: 4

١٧- عظة ٣ على كورنثوس الثانية.

الذي لا يمحى[١٨]".

ولقد ورد كثيراً تعبير "**الولادة الجديدة**"، عند آباء الكنيسة كإسم من أسماء المعمودية[١٩]. ويدعوها القديس غريغوريوس النيسي "**نعمة الميلاد الجديد**"، "**العلامة الملكية**" فيقول: "النفس التي لم تستنر ولم تتزين بنعمة الميلاد الجديد لا أعتقد أن الملائكة سوف تحملها بعد انفصالها عن الجسد، وكيف يحدث هذا وهي لا تحمل العلامة الملكية[٢٠]".

ومن بين الأسماء القديمة للمعمودية في الصلوات الطقسية للسر في الكنيسة القبطية "**حميم الميلاد الجديد**"، "**اللباس غير الفاسد**"، "**النور**"، "**حلة النور**"، "**ختم المسيح**".

رابعاً: الإيمان يسبق المعمودية:

يقول القديس غريغوريوس النيسي (٣٣٠- ٣٩٥م):

[كل ماء مناسب للعماد، شرط أن يجد إيمان الشخص الذي ينال المعمودية، وتبريك الكاهن الذي يقدّس[٢١]].

ويقول القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م) في أهمية الإيمان والمعمودية للخلاص:

[... المعمودية والإيمان هما طريقان للخلاص لا يمكن فصلهما، لأن الإيمان يكمّل المعمودية، والمعمودية مؤسسة

١٨- مجلد ٣٣: ٣٦٠

١٩- انظر مثلاً: القديس باسيليوس الكبير في كتابه عن الروح القدس ١٠: ٢٦

٢٠- مجلد ٤٦: ٤٢٤ انظر: سلسلة ينابيع الأرثوذكسية: معاني رشم الصليب، ص ١٩

٢١- cf. *PG*, t. XLVI, col. 421, 422 (*DACL*, t. 2, p.289)

علي الإيمان، وكلاهما مؤسس على الأقانيم الثلاثة. لأننا آمنّا بالآب والابن والروح القدس. لذلك نحن نعتمد باسم الآب والابن والروح القدس. أولاً بالاعتراف بالإيمان الذي يقودنا إلى الخلاص، وثانياً بالمعمودية التي تتبع الاعتراف، وهي الختم الذي يختم قلوبنا[٢٢]].

ولسنا نقصد بالإيمان ذاك الإيمان الفكري النظري عن الله، فهو بالقطع لا يكفي للخلاص، بل ولا يفيد شيئاً على الإطلاق، لأن الشياطين أنفسهم يؤمنون ويقشعرون (يعقوب ٢: ١٩). فالكتاب المقدس لا يعرف هذا النوع العقلاني من الإيمان، بل كل حديثه هو عن الإيمان النابع من القلب وليس الفكر، الإيمان الذي يُختبر[٢٣]، الإيمان الذي هو نفسه عمل من أعمال الله. فعندما سألت الجموع السيد المسيح قائلة له: ماذا نفعل حتى **نعمل أعمال الله**؟ أجاب قائلاً: «هذا هو عمل الله **أن تؤمنوا** بالذي هو أرسله» (يوحنا ٢٦: ٢٨، ٢٩). هذا هو الإيمان العامل، والإيمان بعمل الله[٢٤]. فالإيمان هنا فعل وعمل إيجابي، وليس مفهوماً نظرياً. ويقرن الكتاب المقدس دائماً بين الإيمان والعمل «متذكرين بلا انقطاع **عمل إيمانكم**، وتعب محبتكم، وصبر رجائكم، ربنا يسوع المسيح» (١ تسالونيكي ١: ٣). واضح هنا أن محبة المسيح يكون التعبير عنها بتعب المحبة، والرجاء في المسيح يكون بالصبر وانتظار الرب، والإيمان بالمسيح يكون بالعمل بوصايا المسيح. «لكي يهتم الذين آمنوا بالله أن يمارسوا أعمالاً حسنة» (تيطس ٣: ٨)، ويعتب القديس بولس الرسول على الذين يعترفون بأنهم

---

٢٢ - القديس باسيليوس ، الروح القدس، مرجع سابق، ١٢: ٢٨

٢٣ - يعقوب ١: ٣، ٢: ١

٢٤ - كولوسي ٢: ١٢

يعرفون الله (معرفة عقلية)، ولكنهم بالأعمال ينكرونه[٢٥].

هل كلمة "الإيمان" عند القديس يعقوب الرسول تعني إيماناً عقلياً با لله فحسب؟ الرسالة كلها تدحض هذا الزعم. فالإيمان عند يعقوب الرسول هو إيمان حيّ، يُختبر فيتزكى، إيمان لا يرتاب ولا يحابي، إيمان تشهد له الأعمال وتكمّله. فالأعمال عند القديس يعقوب الرسول هي ثمرة للإيمان بالمسيح وليس الأعمال في حد ذاتها، وإلاّ تحولت إلى سلوكيات وأخلاقيات إجتماعية راقية يشترك فيها الجميع.

الإيمان في كامل معناه هو فكر قلبي يفضي إلى فعل بحسب وصايا المسيح ووفقاً لدعوته، على أن القول محسوب أنه نوع من الأعمال، فالشهادة للمسيح بالقول، هي فعل إيمان، «وكل ما عملتم بقول أو فعل، فاعملوا الكل باسم الرب يسوع شاكرين ا لله الآب به» (كولوسي ٣:١٧).

أنت تؤمن أن دم المسيح وحده يخلص من كل خطيَّة، هذا جيد، ولكن إن لم تسع لتحصل على هذا الدم الكريم فكيف تخلص؟ دم المسيح كائن على المذبح في الكنيسة، فهل يستطيع إيمانك بدم المسيح أن يخلصك بمعزل عن الكنيسة؟ وهل تستطيع أن تقترب إلى المذبح في الكنيسة قبل أن تولد من رَحِمها؟ إذاً الإيمان بدم المسيح للخلاص ليس فكرة نظرية، بل **فعل قلبي**، «لأنك إن اعترفت بفمك بالرب يسوع **وآمنت بقلبك** (وليس بعقلك) أن ا لله أقامه من الأموات خلَصْتَ» (رومية ١٠:٩)، وفي المقابل كل من اعتمد للمسيح، وتقدم إلى المذبح للتناول من الأسرار الإلهية بدون إيمان

٢٥- انظر: تيطس ١:١٦

قلبي، لا تفيده أعماله هذه شيئاً.

أي أن أهمية الإيمان تنبع من كونه بداية الطريق إلى الله، وديمومة الحياة فيه، فالإيمان يثمر فعلاً، لا ينفصل قط عنه، كالثمرة في الشجرة، الشجرة هي الإيمان والثمرة هي عمل الإيمان، والعصارة هي دم المسيح الذي يضمن للشجرة حياتها وللثمرة نضوجها وحلاوتها. فإن كان تدبير الله لحياة الإنسان كلها مبني على الإيمان[٢٦]، «أما البار (الذي تبرر بالإيمان بيسوع المسيح) فبالإيمان يحيا» (رومية ١:١٧)، إلا أن حفظ هذا الإيمان حتى النهاية هو في حد ذاته عمل إيمان «قد جاهدت الجهاد الحسن، أكملت السعي، حفظت الإيمان» (٢ تيموثاوس ٤:٧).

التوبة والمعمودية هما تعبيرا الإيمان، وكل إيمان بمعزل عن الكنيسة لا يخلّص.

إيمان اللص اليمين قاده إلى المسيح معترفاً بألوهيته، وثمرة إيمانه كانت هي صلاته «اذكرني يارب متى جئت في ملكوتك». فالصلاة في حد ذاتها فعل إيمان. وعندما سأل الرب واحداً قائلاً: «أتؤمن بابن الله؟» ، أجابه قائلاً: «أؤمن يا سيد»، ثم ترجم إيمانه إلى عمل عندما «سجد له» . الإيمان في بدايته هو في قول مرثا للرب «يا سيد لو كنت ههنا لم يمت أخي» ، أما الإيمان في نضوجه واكتماله فقد صار في قول الرب لها: «ألم أقل لك إن آمنت ترين مجد الله» .

فإزاء الفصل بين الإيمان والأعمال، لا يمكننا أن نفهم قول الرسول بولس «جاهد جهاد الإيمان الحسَن...» (١ تيموثاوس ٦: ١٢)،

٢٦- انظر: ١ تيموثاوس ٤:١

فهذا مستحيل طبعاً، لأن الجهاد الذي يتكلم عنه الرسول هو جهاد من داخل الإيمان، وليس جهاداً مفصولاً عنه.

القديس بولس الرسول يقول: «آمن إبراهيم بالله فحُسب له براً» (غلاطية ٣:٦)، والقديس يعقوب الرسول يقول: «ألم يتبرر إبراهيم أبونا بالأعمال إذ قدّم اسحق ابنه على المذبح» (يعقوب ٢:٢١). فهل هناك تناقض بين قول الرسولين؟ حاشا، فلا يمكننا أن نعزل إيمان إبراهيم عن عمله الذي أظهر إيمانه، فإن قلنا أن الإيمان قد برره لا نخطئ القول، عالمين أنه إيمان قلبي حيّ تأكد بفعل وعمل، وإن قلنا أن الأعمال قد بررته، نوقن أننا نتكلم عن عمل الإيمان، أي العمل النابع من الإيمان. فكثيرون على مدى التاريخ قدموا أولادهم ضحايا للآلهة، فهل جريمتهم الشنعاء هذه تبررهم، أم تدينهم دينونة على دينونتهم؟

قال السيد المسيح لليهود: «الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية...» (يوحنا ٥:٢٤)، ثم فسّر لهم كيف يؤمنون بالآب الذي أرسله قائلاً: «الأعمال التي أعطاني الآب لأكملها، هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الآب قد أرسلني» (يوحنا ٥:٣٦). فهل بعد ذلك يمكننا أن نفصل الإيمان عن الأعمال، ونتحدث عن كل منهما بمعزل عن الآخر؟ إذاً «قدموا في إيمانكم فضيلة» (٢ بطرس ١:٥).

خامساً: الصوم الذي يسبق المعمودية:

كتب الطقس الحديثة في الكنائس الشرقية الآن لا تتحدث عن

أصوام يلزم أن يمارسها طالبو المعمودية، كإعداد سابق لمعموديتهم. ولكن كتاب الترتيب الكنسي المصري (أوائل القرن الثالث الميلادي)، وقوانين هيبوليتس (القرن الخامس) المصرية الأصل والتأليف، إلى جانب التقليد الأثيوبي تشير كلها إلى أن منح المعمودية كان يسبقه صوم، كان في البداية يوماً أو يومين. وهو تقليد يرقى إلى القرن الأول الميلادي كما نقرأ ذلك في الديداخي (تعليم الرسل) "قبل المعمودية، ليصم المعمِّد والذي يعتمد ومن يمكنه (ذلك) من الآخرين. وأوصِ الذي يعتمد، أن يصوم يوماً أو يومين قبل المعمودية" (٧:٤).

وهو نفس ما يقوله الشهيد يوستينوس (١٠٠- ١٦٥م):

[كل الذين يؤمنون بأن هذه الأمور صحيحة، ويعدون بأن يعيشوا بالتقوى حسب وصايا ديانتنا، يتسلمون أولاً أن يطلبوا من الله الصفح عن خطاياهم القديمة بالصلوات والأصوام حتى نحن أيضاً نشترك معهم بالصلوات والصوم] (الدفاع الثاني: ٩٣).

ومن الواضح أن القديس يوستينوس وإن لم يذكر صراحة الصوم الأربعيني، إلاّ أن اشتراك الكنيسة بأسرها في الصلاة والصوم مع الراغبين في المعمودية، هو دليل حياة حقيقية تسري في كيان الجماعة كلها، لأن موازرة المؤمنين للغروس الجدد، التي لم تقبل الإيمان بعد، بالصلاة والصوم هو مؤشر جلي على قوة وحرية عمل الروح القدس في الكنيسة. أما اليوم فبعد أن صارت المعمودية تمنح لأولاد المسيحيين بطريقة آلية، فقد ضعفت أو توقفت أعمال الصلاة والصوم من أجل غير المؤمنين لكي يفتح الرب قلوبهم فيقبلوا إلى النور، ويعرفوا طريق الحقيقي إلى الحياة.

أما كتاب الترتيب الكنسي المصري فيقول: "والذين سينالون

المعمودية فليصوموا يوم الجمعة من الأسبوع. وفي يوم السبت يجمع الأسقف الذين سيعمَّدون في موضع واحد، ويأمرهم كلهم بالصلاة والركوع" (٢٠:٧).

وقوانين هيبوليتس المصرية تقول: "والذين يتعمدون فليستحموا بالماء يوم الخميس من الأسبوع، ويأكلوا، ويصوموا الجمعة" (١٩:٤).

ولكن بعد قليل امتد الصوم ليشمل الأسبوع السابق ليوم المعمودية استعداداً لها، كما تشهد بذلك قوانين القديس باسيليوس، والتي يُظن أنها قوانين قبطية قديمة سابقة لزمن القديس باسيليوس لكنها نُسبت إليه فيما بعد[٢٧].

أما كتاب عهد الرب فذكر أن يومي الصوم هما الجمعة والسبت قبل الفصح. بينما يشير كتاب المراسيم الرسولية (النصف الأول من القرن الرابع) إلى صوم من يريد أن يقتبل المعمودية دون أن يحدد فترة الصوم. فيقول: "وقبل المعمودية فليصم الذي يعتمد" (٣٦:١٣). ويقول أيضاً: "فأما الذي يعتمد فيجب عليه أن يصوم أولاً وحينئذ يعتمد" (٣٦:١٦)[٢٨].

والقديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م) أشار إلى أنه يلزم للمتقدمين للمعمودية الصوم لمدة أربعين يوماً مع الاعتراف بالخطايا.

أما القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م) ففي عظة له ألقاها على الموعوظين في كنيسة أنطاكية سنة ٣٨٧م، وكذلك في عظته العاشرة

٢٧- *DACL*, t. 2, p. 259

٢٨- د. وليم سليمان، الدسقولية، تعاليم الرسل، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٤٥٦، ٤٥٧

على شرح إنجيل القديس متى، والتي ألقاها في أنطاكية أيضاً سنة ٣٩٠م، فأوضح أن جميع الموعوظين، ومعهم كل المؤمنين ملزمون بصوم الأربعين يوماً مشيراً إلى توبة واعتراف، يجب أن يسبقا المعمودية.

ومن القديس جيروم (٣٤٢- ٤٢٠م) نعرف أنه قد اتسع نطاق استخدام الأصوام وممارساتها في كل الكنيسة الجامعة[٢٩].

وهكذا نلاحظ أن المراحل التاريخية التي عبر عليها نظام الصوم في الكنيسة الجامعة اقترن عن قرب قريب بالمعمودية المقدسة، كأعظم حدث يجوزه الإنسان الراغب في الانضمام إلى شركة الكنيسة المقدسة، ليصبح عضواً حياً فيها. هذا الحدث العظيم كان يلزم أن يتهيأ له بصوم. والتقليد القديم المستقر في الكنيسة أن اقتبال الأسرار الكنسية عموماً لابد أن يسبقها فترة صوم كتهيئة روحية لقبول السر، حتى وإن كان الصوم الذي يسبق المعمودية أو غيرها من الأسرار لا يتعدى أحياناً بضع ساعات، بعد أن تعمم وانتشر تعميد الأطفال، وقلّ أو ندر تعميد البالغين.

ولازالت الكنيسة القبطية تُمارس سر المعمودية في حالة صوم للمعمِّد والمعتمد كلاهما معاً.

سادساً: من له حق التعميد؟:

يقول القديس إغناطيوس الأنطاكي المتوشح بالله (٣٥- ١٠٧م) في رسالته إلى أزمير:

٢٩- *DACL*, t. 2, p. 276

[لا يُسمح لكم أن تعمّدوا بدون أسقف، ولا أن تقرّبوا قرابين، ولا أن تقدّموا ذبيحة].

فالأسرار الكنسية يتممها الأسقف وحده، أو من ينيبه في ذلك من الكهنة المساعدين لـه، وبتصريح منه وبموافقته، باستثناء سري الميرون والكهنوت، اللذين لا يمكن تتميمهما بدونه، حاضراً الصلاة ورئيساً لها.

ولقد سُمح أحياناً للشمامسة، أن يعمّدوا، مثل فيلبس الشماس[٣٠]، ولكن ذلك لم يكن إلاّ لداعي ضرورة كلية، حيث يكون الأسقف أو القس غائباً[٣١]. ففي المراسيم الرسولية (٨:٤٦:١١) نقرأ:

"لا يُسمح للشماس أن يرفع القربان، أو أن يعمّد، أو أن يبارك صغيراً أو كبيراً".

ولقد سمح العلامة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م) للعلمانيين أن يعمدوا إن دعت الضرورة إلى ذلك، فيقول إنه يستلزم كقاعدة أن الأسقف فقط أو الكاهن يجري المعمودية، أو شماساً مبعوثاً من قِبَله، وفي حالات الضرورة يخوّل علمانياً ليجريها. ولكن إن اعتمد طفل للضرورة من علماني بغطسات ثلاث على اسم الثالوث المقدس، ثم شفي ونجا من خطر الموت، فالقوانين الكنسية تأمر أن يتمم الكاهن كل طقس المعمودية لذلك الطفل المعمَّد ما عدا الغطسات الثلاث، واستدعاء الروح القدس.

والقديس إيريناؤس (١٣٠- ٢٠٠م) أسقف ليون، وأبو التقليد الكنسي يحدد في كلامه (ضد الهراطقة ٤:٢٦) من له حق التعميد قائلاً:

٣٠- انظر: أعمال ٦:٥-٨،١٢،١٣،٣٨

٣١- العلامة ترتليانوس، في المعمودية فصل ١٨

[يجب الخضوع للكهنة الذين أُقيموا في الكنيسة متسلسلين بحسب الخلافة من الرسل، وأخذوا المواهب الحقيقية بمسرة الآب مع الخلافة الأسقفية. أما الباقون الذين لم ينالوا الكهنوت بخلافة رسولية، وهم يجتمعون خارج الكنيسة حيثما اتفق، فيجب أن نحسبهم أناساً مشبوهين وهراطقة وأردياء وعصاة ومتعجرفين ومتكبرين ومرائين. وأنهم لا يتعاطون ذلك إلاّ محبة في المديح والمجد الفارغ].

والقديس كبريانوس الشهيد (+ ٢٨٥م) يقول في ذلك:

[لابد للكاهن أن يقدّس الماء].

سابعاً: متى يبطل فعل المعمودية؟

يوضح القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م) في مقاله الإفتتاحي لطالبي المعمودية، أن الذين يعتمدون بنية شريرة لا تفيدهم المعمودية شيئاً فيقول:

[... حتى سيمون الساحر جاء يوماً إلى الجرن (أعمال ٨:١٣) واعتمد دون أن يستنير، فمع أنه غطس بجسده في الماء، لكن قلبه لم يستنر بالروح. لقد نزل بجسده وصعد، أما نفسه فلم تُدفن مع المسيح ولا قامت معه (رومية ٦:٤؛ كولوسي ٢:١٢). ها أنا أقدم لكم مثالاً لساقط حتى لا تسقطوا أنتم. فإن ما حدث كان عبرة لأجل تعليم المتقرّبين لهذا اليوم].

ويقول أيضاً:

[إذا كنت هناك بجسدك، دون ذهنك، فلن تنتفع شيئاً... إننا عبيد نقبل من يتقدم إلينا، كبوابين نترك الأبواب مفتوحة. هل تمكنت من الدخول بنفس ملوثة بالخطايا ونيّة دنسة؟ لقد سُمح لك بذلك، وسُجل اسمك.... لكنك إن بقيت مقاوما بنية شريرة، فإن المتكلم لا يكون مسؤولاً، أنت تحرم نفسك من النعمة، وإذ تتقبل الماء، لا يقبلك الروح. إن أحس أحد بجرحه فليأخذ المرهم، وإن كان ساقطاً فليقم. ليته لا يكون بينكم سيمون، ولا رياء، ولا محبٌ للاستطلاع مملوءًا بلادة من جهة هذا الأمر].

وفي موضع آخر يقول:

[إن حنث برياء فإنه حتى وإن عمّدك الناس، لا يُعمدك الروح القدس] (مقال ١٧:٣٦).

وفي كلمات بديعة في نفس مقاله الإفتتاحي لطالبي المعمودية يقول:

[إن يوم زفافك أمام عينيك، ألا تريد أن تترك كل شئ وتتفرغ لإعداد الوليمة؟ لقد اقترب يوم تكريس نفسك للعريس السماوي، أما تكف عن الانشغال بالأمور الزمنية حتى تربح الوصية؟].

ويقول أيضاً:

[يا إخوة، حقاً إنها أمر خطير يليق بكم أن تقتربوا إليها بكل اهتمام صالح، لقد اقترب وقت امتثال كل واحد منكم في حضرة الرب أمام عشرات الألوف من الأجناد الملائكية، والروح القدس يختم نفوسكم. إنكم تسجلون

في جيش ملك عظيم، لذلك تزودوا بارتدائكم ليس لباساً لامعاً، بل ورع النفس بضمير صالح].

[لا تنظروا إلى الجرن كماء بسيط، بل بالحري تطلعوا إلى النعمة الروحية التي توهب مع الماء] (مقال ٣:٣).

يتضح إذاً لدينا مقدار الحرص الشديد الذي كان يلزم أن يظهره طالب العماد، حتى يصير أهلاً لاقتبال نعمة المعمودية. ولم يكن هذا الحرص تفادياً لسلبيات حياته السابقة وضعفاتها فحسب، بل أيضاً جهاد حقيقي من صلاة وصوم وقراءة في الأسفار المقدسة. وفي ذلك يقول القديس كيرلس الأورشليمي في نفس مقاله الإفتتاحي:

[صلوا بأكثر مثابرة لكي ما يجعلكم الله مستحقين للأسرار السمائية الخالدة. لا تنقطعوا عنها نهاراً وليلاً... قدموا أذهانكم كلها للدراسة حتى تحتقروا الأمور الدنيئة... كن متأهباً بالحري للصلاة، وليظهر قلبك متشدداً في التدبير النسكي].

فالإيمان قبل المعمودية، وإن كان شرطاً للغرباء عن الكنيسة، فهو مطلوب من الكل بعد المعمودية أيضاً. لذلك يحذّر الرسول بولس الذين اعتمدوا، ويطالبهم أن يموتوا كل يوم عن الخطيَّة، لأن هذا الموت هو برهان على صحة الإيمان الذي قبلنا به المعمودية، فيقول: «كذلك أنتم أيضاً احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية، ولكن أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا، إذا لا تملكن الخطية في جسدكم المائت لكي تطيعوها في شهواته، ولا تقدموا أعضاءكم آلات إثم للخطية، بل قدموا ذواتكم لله كأحياء من الأموات، وأعضاءكم آلات بر لله» (رومية ٦: ١١-١٣).

فالذين خرجوا من مصر واعتمدوا لموسى في البحر وفي السحاب،

وسبحوا وهلّلوا لإلههم الذي نجاهم من العبودية، لم يدخلوا كنعان، لعدم الإيمان، إذ ظلت حرارته تخفت فيهم رويداً رويداً من جرّاء طول السنين التي عاشوها في القفر، حتى نسوا ضنيع الله معهم، وكيف أخرجهم بقوة عظيمة وذراع رفيعة، وعنايته بهم في الليل والنهار، فبدأوا يتذمرون، وينشغلون عن إلههم، فماتوا كلهم في البرّية، وطوتهم رمال سيناء، ولم ينفعهم عمادهم شيئاً إذ قد هلكوا لعدم الإيمان.

ويؤكد القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م) على ضرورة حفظ النعمة التي نلناها في المعمودية، وأهمية السعي لتكميل الخلاص الذي دعينا إليه مجاناً فيقول:

[ماذا إذاً، ألا تحفظ أيها الحبيب النعمة؟ تهيأ لتقبلها، ومتى قبلتها فلا تطردها عنك] (مقال ١٧:٣٦).

[... لاحظوا أنفسكم إلى النهاية حتى لا تسقطوا في الشباك، فتعيشوا في رجاء، وتصيروا وارثين للخلاص الأبدي] (المقال الإفتتاحي).

[... نق كأسك لتأخذ فيضاً أكثر من النعمة، حقاً إن غفران الخطايا يوهب للجميع بالتساوي، لكن شركة الروح القدس توهب حسب إيمان كل إنسان. فإن كنت تعمل قليلاً تنال قليلاً، وإن كثيراً تكسب مكافأة عظيمة، إذاً اركض لأجل نفسك واهتم بها] (مقال ١:٥).

من هذا يتضح أن المعمودية وحدها دون جهاد الإنسان، وحفظه للإيمان في حياته الجديدة مع الله، لا تفيده شيئاً. فالموت الذي نموته مع المسيح في المعمودية لا يلغي ذات الإنسان التي تميل إلى الأرضيات، ولكنه يلغي سلطانها وسيطرتها على نشاط الإنسان وسلوكه، وبالأخص

عبادته. فتبدو الذات ميتة للعالم، والعالم ميت لها، ولكنها حيّة لله شاهدة للحق حتى إلى قبولها الموت بفرح.

الدفن في مياه المعمودية لا يلغي غرائز الإنسان، ولا يلغي جنوحها للشر والباطل، إنما بالمعمودية يوهب الإنسان قدرة فائقة على طبيعة البشر، يوجه بها الغريزة ناحية القداسة والمحبة والطهارة، بعد أن كانت توجّه لخدمة الجسد والعالم. فالإنسان المسيحي الذي اعتمد مدعو بعد المعمودية ليبدأ حياة حسب الروح، في حين أنه لا زال يعيش في الجسد، وعند هذا الحد المتصارع بين الإنسان الجديد المولود من الله، والمتحد بالروح القدس، وبين الجسد المتمرد والنفس المنحازة له في الإنسان العتيق، يضع الإنجيل الوصايا والخطوات العملية لتحرير الإنسان الجديد من سطوة العتيق.

وإن تيقّنا أن سر المعمودية المقدس يمتد ليشمل حياة الإنسان كلها، أدركنا في النهاية أنه بداية الطريق إلى الله، لا نهاية الطريق إليه، فلنتمم إذاً خلاصنا بخوف ورعدة.

ثامناً: أنواع الزيوت المستخدمة في المعمودية:

من المهم أن نتعرّف بتدقيق على أنواع وأسماء الزيوت المستخدمة في مسح المعمَّد. إذ أن تعدد أسماء النوع الواحد من هذه الزيوت يسبب بعض الحيرة لدارس طقس المعمودية. وأنواع الزيوت هي:

النوع الأول: وله الأسماء الآتية:

- الزيت الساذج أو العادي.
- زيت الموعظة.

- زيت الموعوظين[٣٢] τῆς κατηχεσῆς χρῖσμα.

وكلها مترادفات لهذا النوع الأول من الزيوت. ويُدهن به المعمَّد قبل جحد الشيطان - حسب الطقس القبطي فقط - وهو زيت غير معروف للكنائس الشرقية الأخرى. وبحسب المراسيم المصرية القديمة (قوانين الرسل القبطية) وقوانين هيبوليتس، لم يكن هذا الزيت مستخدماً في الطقس القبطي، وكان يُكتفى عوضاً عنه بالرشم البسيط بإشارة الصليب consignation.

النوع الثاني: ويُسمى بأسماء كثيرة:

- الزيت المقدس.

- زيت الفرح أو البهجة، وهو الترجمة الدقيقة للكلمة اليونانية ἀγαλλιάσεως ἔλαιον، ثم اختصرت الكلمة إلى ἀγαλλιέλαιον، وصارت تُنطق في العربية "غاليلاون" بعد تحريفها قليلاً عن نطقها اليوناني. وعلى ذلك فلا خلاف في المعنى بين زيت الغاليلاون، وزيت الفرح أو البهجة.

- زيت الاستقسام أو الاستحلاف أو الجحد، ويقابله في اليونانية الكلمة ἐξορκισμός، ويحتفظ الأقباط في مخطوطاتهم العربية وكتبهم الطقسية القديمة بتعريب الاسم اليوناني لهذا الزيت وهو (اكسرخيسموس).

- زيت المسحة τὸ ἔλαιον τῆς χρίσεως وهي التسمية التي يدعوه بها القديس باسيليوس الكبير[٣٣].

النوع الثالث: وله أيضاً عدة أسماء:

٣٢- *PG* LXXIV, col. 49

٣٣- *DACL*, t. 2, p. 289

- الميرون μύρον، وهي كلمة يونانية تعني "الزيت" أو "الدهن". وأول من أشار إلى تسمية هذا الزيت بـ "الميرون" في الكنيسة القبطية هو القديس ديديموس الضرير (٣١٣- ٣٩٨م)[٣٤]. ولم يرد هذا الاسم "ميرون" في قوانين هيبوليتس، أو في قوانين الرسل القبطية. وهناك وثيقة ليتورجية نشرها واحد يُدعى غريغوريوس سنة ١٧٨٩م بموجب مخطوطة قبطية تعود إلى حوالي القرن الخامس الميلادي، وقد ذكرت كلمة "الميرون المقدس - ἅγιον μύρον " كمقابل لتعبير "زيت زيتون مقدس - ἅγιον ἔλαιον "، والمقصود به هنا هو زيت الموعوظين.

- الزيت المقدس Holy Chrism، وهو الاسم الذي دعاه به القديس ديديموس الضرير حيث دعاه ἡγιασμένον χρίσμα أي الزيت المقدس[٣٥]. إلاَّ أن هذه التسمية تكثر في المراجع الأجنبية لتشير إلى النوع الثاني من الزيوت وهو زيت الاستقسام.

- زيت الشكر εὐχαριστία، وكثيراً ما تُعرَّب الكلمة اليونانية في القوانين القبطية القديمه، مثل قوانين هيبوليتس إلى "زيت الأوخارسدية".

- زيت تتميم أو تكميل τὸ τῆς τελειώσεως χρίσμα، وقد أشار القديس كيرلس الكبير إليه بهذا الاسم[٣٦].

ويُدهن المعمَّد بهذا الزيت بعد الخروج من المعمودية.

والنصوص القديمة التالية والتي لا تتعدى القرن الخامس الميلادي، هي أمثلة توضّح استخدام النوعين الأخيرين (الثاني والثالث) من الزيوت المستخدمة في المعمودية:

ففي قوانين هيبوليتس (القرن الخامس):

٣٤- *DACL*, t. 2, p. 263

٣٥- *DACL*, t. 2, p. 289

٣٦- *ibid.*, p. 289

"والأسقف يصلي على زيت الاستحلاف (الاكسرخيسمس)، ويدفعه لقسيس، ويصلي على زيت المسحة الذي هو زيت الشكر (الأوخارسدية)، ويدفعه لقسيس آخر. والذي يمسك زيت الاستحلاف، يقف على يسار الأسقف، والذي يمسك زيت المسحة، يقف على يمين الأسقف" (القانون ١٩: ١١).

وفي قوانين الرسل القبطية (القرن الخامس):

"وبعد ذلك إذا صعد من الماء فليمسحه القسيس بالدهن الذي للشكر (الأوخارسدية) قائلاً: إنيّ أمسحك بالدهن المقدس" (القانون ١: ٣٤: ١٦).

وفي الدسقولية (النصف الأول من القرن الرابع):

"فأما الذي يعتمد فتدهنه أولاً بدهن مقدس، وبعده تعمده بماء، وفي الآخر تختمه بالميرون لكي تكون بالمسحة مشاركة للروح القدس، والماء علامة الموت، والميرون ختم المواثيق التي قُررت. فإن لم يوجد دهن أو ميرون، فالماء يكفي للمسحة والختم والاعتراف للذي مات، أو بالحري للذي صار شريكاً لموت الرب[٣٧]" (٣٦: ١١، ١٢).

أما أول إشارة ترد عن استخدام النوع الأول من الزيوت في الطقس القبطي إلى جانب النوعين الأخيرين فكانت في القرن السادس الميلادي، وهو ما سيأتي ذكره فيما بعد. والقس سمعان بن كليل (القرن الثاني عشر) هو أول من قدَّم تفسيراً روحياً لمعنى استخدام الزيت البسيط في دهن الموعوظين قبل جحد الشيطان، ودهنهم بزيت الاستحلاف بعد الجحد، والذي يدعوه أيضاً زيت الفرح، ثم زيت الميرون بعد الخروج من الماء.

٣٧- د. وليم سليمان، الدسقولية – تعليم الرسل، مرجع سابق، ص ١٥٦.

فيقول: "إعلم أنك تنال ختم القبول في الجامعة المقدسة كنيسة الله برشم الصليب **بدهن الموعوظين**، لأنك تتصالح مع الله بموت ابنه. وبدون الصليب لا تتم المصالحة. رشم مصالحة واحد على الجبهة ينير النفس ويؤهلها لنوال الحميم.

وبعد ذلك ترشم **بزيت الاستحلاف** من بعد جحد الشيطان، لأن الصليب شريعة سماوية، وتُرشم من جديد على جبهتك لكي تكون مرعباً للشياطين الذين جحدتهم، ويكون فكرك غير ميَّال للشر الأول. ثم ترشم على يديك أي عضو الإرادة الإنسانية التي مالت للسقوط. وبعض الكهنة يرشمون على الحنجرة، لأنها هي التي ذاقت من الطعام الممنوع أي الشجرة القديمة. واعلم أن كل خطيَّة مرتبطة بالحنجرة، أي الكلام وخطايا اللسان وتذوق الأطعمة.. ويدهن قلبه وظهرة قائلاً: [أدهنك **بدهن الفرح** المضاد لكل أعمال الشيطان، ولتُغرس في شجرة الزيتون الحلوة المقدسة الكنيسة الجامعة الرسولية]. ونفس هذا الزيت يسكبه في الوقت الملائم في مياه المعمودية بثلاثة رشوم، لأن الماء يأخذ نفس العطيَّة التي يأخذها الموعوظ، وإلاَّ كيف تصير طبيعة جديدة بالماء الحيّ الذي يعطيه الروح القدس، عطية الحياة الجديدة.

ولنفس السبب أيضاً يسكب من **زيت الميرون** قبل التعميد، لكي يتم القول الإلهي إنها معمودية بالماء والروح القدس. ولكنه يسكب **الميرون** بعلامة الصليب، مؤكداً أن الروح القدس إنما سوف يعمل في المياه، وسوف تنال الطبيعة الإنسانية عطية التبني بالروح القدس، ومن قِبَل قوة الصليب المحيي واتحاد الرب بصليبه وقيامته بفعل الروح القدس، لأن عمل الثالوث هو عمل واحد.

ويقول الكاهن وهو يسكب **الميرون** [مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح. مبارك ابنه الوحيد ربنا يسوع المسيح. مبارك الروح القدس المعزي] ويرشم صليباً في كل مرة وهو يسكب الميرون، لأن

العطية هي عطية واحدة، والقوة هي قوة واحدة، والفعل، أي رشم الصليب، هو فعل واحد[٣٨]».

٣٨ـ معاني رشم الصليب، مرجع سابق، ص ٣٨، ٣٩.

الفصل الثاني

رمــــوز المعمـــودية

أولاً: معنى الرمز والمثال:

كلمة "رمز" في اليونانية συμπόλον والمأخوذة من الفعل συμβάλλω تعني حرفياً: "يجمع ما كان مكسوراً ومشوهاً وموضوعاً في غير مكانه"، أما معناها العام فهو "يجمع معاً"، أو "يوحّد"، أو "يقارن بين الحقيقة وما يفكر فيه الشخص عن هذه الحقيقة، ويوحدهما معاً[1]".

وهناك كلمة يونانية أخرى وهي τύπος وتعني أيضاً "الرمز"، أو بتحديد أكثر "المثال"، أو "التصميم الذي يوحي بفكرة". ومفهوم الرمز في العهد الجديد يختلف عنه في العهد القديم، فهو في هذا الأخير تعبير أو إشارة إلى ما سوف يحدث في المستقبل، أما في العهد الجديد فهو ما يحدث بالفعل في حياة الكنيسة الآن.

فالصخرة التي نبعت منها المياه في العهد القديم كانت ترمز إلى المسيح، وإلى قوة الحياة التي نبعت منه، «كانوا يشربون من صخرة روحية تابعتهم، والصخرة كانت المسيح» (١ كورنثوس ١٠:٤). أما في العهد الجديد فالمسيح نفسه هو الذي يقول الآن: «إن عطش أحد فليأت إليّ ويشرب» (يوحنا ٧:٤٧)، فدم الحمل في القديم كان رمزاً

---

١ - cf. Liddle and Scott, Greek - English Lexicon, p. 759

إلى دم المسيح الذي يطهر من كل خطيَّة. وفي المسيح يبطل الرمز، لأنه هو الحق والحقيقة.

وبالمثل أيضاً المن الذي نزل من السماء في العهد القديم كان يرمز إلى السيد المسيح خبز الحياة، الذي قال عن نفسه: «أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء، إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد، والخبز الذي أنا أعطي هو جسدى الذي أبذله من أجل حياة العالم» (يوحنا ٦: ٥١)، «خذوا كلوا هذا هو جسدي» (متى ٢٦: ٢٦).

وأيضاً خروج بني إسرائيل من مصر ونجاتهم بعبورهم البحر الأحمر كان رمزاً للخلاص والنجاة بمعمودية العهد الجديد.

والحية المرفوعة على سارية في العهد القديم، كانت رمزاً للصليب في العهد الجديد، فكانت النجاة من الموت لأولئك الذين ينظرون إليها، رمزاً للخلاص الأبدي الذي صار للذين يشخصون كل حين في الصليب.

إذاً فالرمز في العهد القديم كان يشير إلى حقيقة في العهد الجديد، وإذ قد تحقق الرمز فلا معنى لبقائه بعد. ففي المسيح تبطل كل الرموز، وتتوقف كل الإشارات، لأنه هو الذي قال بفمه المبارك: «أنا هو الحق» (يوحنا ١٤: ٦)، ولكونه هو الله فهو الحقيقة الحاضرة أبداً. وشتان بين الرمز بمفهومنا الحالي، وبين الحقيقة التي يشير إليها هذا الرمز، فهو نفس الفرق الكبير بين ناموس العهد القديم، ونعمة العهد الجديد، إنه البون الشاسع بما لا يدع مجالاً لأي قياس بين خروف قُدِّم عوضاً عن اسحق وبين موت المسيح وقيامته، أو بين صخرة صماء وبين المسيح نفسه، أو بين خشبة أُلقيت في الماء المر فصار عذباً وبين صليب المسيح الذي يحول مرارة الحياة إلى حلاوة.

إذاً فالهبة الروحية التي ننالها من الحقيقة هي ما لا يستطيع الرمز

أن يحققه. فالرمز عبارة عن واقع يحمل في طياته حقيقة أسمى منه غير حاضرة كما هو حاضر، فالرمز يُخفي أكثر مما يعلن. هو يمثل ما يرمز إليه دون أن يكون إياه، وهو لا يستوعب كل ما يرمز إليه، وإلاّ فقد بطل أن يكون رمزاً. يمكن استيعاب الرمز ذهنياً، أما ما يرمز إليه فيظل عميقاً عميقاً لا يسبره العقل، أو التصورات المادية، ولا ينكشف لكل أحد، إلاّ للذين أُعطوا من الله «بإعلان عرّفني بالسر» (أفسس ٣:٣). ليس تصديقاً بل إيماناً، وبقدر ما للفرق بين التصديق والإيمان، يكون الفرق بين الرمز وما يشير إليه.

يقول الأب ألكسندر شميمان – Alexandre Schmemann [٢]:
إن التمييز بين الرمز والحقيقة لم يكن وارداً عند آباء الكنيسة، ولا في التراث الكنسي المبكر، فالرمز يتضمن الحقيقة، ويعبّر عنها، وهو الصيغة التي تظهر الحقيقة فيها ومن خلالها. إن استعمال الآباء للفظة "رمز" وللألفاظ المرتبطة بها ليس غامضاً، ولا غير دقيق، بل هو مختلف عن استعمال اللاهوتيين المتأخرين لها، إذ يبدو أنهم لا يدركون أن التحول المتأخر في استعمال هذه الألفاظ هو في الأساس إحدى أبرز المآسي اللاهوتية. فالرمز ليس سبيلاً إلى إدراك الحقيقة وفهمها وحسب، ليس واسطة إدراك وحسب، بل هو واسطة مشاركة أيضاً. فقد يبقى الرمز كأداة معرفة، لكنه أصبح ككل معرفة، معرفة عن الشيء، لا للشيء في ذاته.

إن الحقيقة الكاملة للسر الكنسي لا تكمن في السر ذاته، بل في القضية الخاصة التي يرمز إليها، أي التي يكشفها ويظهرها وينقلها،

---

٢ – شغل الأب ألكسندر شميمان منصب عميد معهد القديس فلاديمير للاّهوت بنيويورك، ودرّس فيه مادة لاهوت الليتورجيا. وهو من أصل روسي، توفي سنة ١٩٨٣م، وعُرف محاضراً لامعاً وراعياً حقيقياً غزير القلم.

وهذه القضية هي المسيح وملكوته. فتأسيس السر الكنسي معناه أن الرمز تجري نسبته إلى المسيح، وإذ يمتلئ في المسيح، يكتمل ويصبح سراً كنسياً. إن الصلة القائمة بين السر الكنسي والرمز، هي التي بدأ اللاهوت ما بعد الآبائي بتقليصها أولاً ثم التخلي عنها، وفعل ذلك بسبب تصفيته التدريجية للرمز، ولأنه - أي اللاهوت ما بعد الآبائي - بات مشروطاً في علاقته بالإيمان بمفهوم "المعرفة"، وهي القضية الجديدة في اللاهوت. وبكلام أدق، إمكانية معرفة الله، وطبيعة هذه المعرفة، معرفة عقلية منطقية، ولكن المعنى الآبائي للمعرفة هو الفهم والمشاركة معاً.

الرمز بطبيعته يكشف الآخر وينقله إلينا كآخر، يكشف إمكانية رؤية من لا يُرى من حيث أنه لا يُرى، وإمكان إدراك ما لا يُدرك من حيث أنه لا يُدرك، وإمكان حضور المستقبل كمستقبل، إن الرمز هو واسطة لمعرفة ما لا يمكن أن يُعرف بطريقة أخرى. المعرفة هنا تتوقف على المشاركة، أي على اللقاء الحي، على الدخول إلى ذاك الواقع الظاهر الذي هو الرمز، إذ ذاك لا يكون الرمز مرتبطاً بالسر وحسب، بل مصدراً له، وأيضاً شرطاً لإمكان وجوده.

إن معرفة الشيء والاشتراك فيه أصبحا الآن واقعين مختلفين ونظامين متباينين، فبعدما انحطت قيمة الرمز في اللاهوت ما بعد الآبائي، أضحت النظرة إلى اللفظين: الرمز والحقيقة، لا متباينتان فقط بل متعارضتان أيضاً.

إن تحول السر الكنسي في اللاهوت ما بعد الآبائي يتمثل في عزلته داخل كيان سرائري قائم بذاته، وعندما أُعليت الأسرار الكنسية ومُجدت من حيث هي حقائق سامية، بدأ اللاهوت يتغرب تدريجياً عن الأسرار الكنسية، إن الخطأ المميت في العقلانية ما بعد

الآبائية كان عزلها للسر الكنسي عن الليتورجيا، من حيث كون الليتورجيا تعبير كلي عن حياة الكنيسة وإيمانها، هذا العزل في الواقع قد عزل السر الكنسي عن الرمز، أي عن تلك الصلة وذاك الاتصال بمحمل الحقيقة التي تتحقق في السر الكنسي. وإذ أصبح السر الكنسي "أداة نعمة" مغلقة، قائمة بذاتها، أصبح السر الكنسي نقطة حقيقية في بحر من الرموز، فحُرمت الليتورجيا من وظيفتها الخاصة التي هي ربط السر الكنسي بمضمونه[٣].

أسرار الكنيسة من حيث كونها توحّدنا بالمسيح، وتثبّتنا فيه، لا تكون رموزاً أو أشكالاً للتعبير عن إيمان الكنيسة، أو وسيلة للوصول إلى هذا الإيمان، بل هي تحقيق هذا الإيمان، هي إياه وليس تعبيراً عن معناه. إيمان الكنيسة هو في كماله اقتناء حياة المسيح وفكره، وبالتالي اقتناء حياة الكنيسة. فحياة الكنيسة هي في اقتنائها لحياة المسيح بالأسرار الكنسية، تلك الأسرار التي استودع المسيح فيها كل حياته لكي تنتقل بدورها إلى الكنيسة، ومنها إلى كل المؤمنين بالمسيح، ليس في كون الأسرار الكنسية كوسيلة لغاية، بل نبع هذه الغاية ودوامها. فالانعزال عن الأسرار الكنسية هو انعزال عن حياة المسيح، فحياتنا في المسيح لا تتم بواسطة الأسرار الكنسية، بل من داخلها.

إن عمل الكنيسة هو أن تنقل إلينا وباستمرار حياة المسيح بالأسرار، فإن توقفت ديمومة السر تعطّل في الحال عمل الكنيسة، وانتفت بالتبعية حياة المسيح فينا.

فكثيرون قد دخلوا الكنيسة عن طريق سر المعمودية، كوسيلة للانضمام إلى شركة الكنيسة، لكنهم عاشوا حياتهم بمعزل عن حياة

٣- ألكسندر شميمان، من أجل حياة العالم، منشورات النور، ١٩٩٤م، ص ١٩٠- ٢١١ بتصرف.

الكنيسة وشركتها، لأنهم لم يعيشوا حياتهم من داخل سر المعمودية، فالمعمودية بالنسبة لهم هي حدث قديم قد طواه الزمن، وكلما تقدمت بهم الأيام والأزمان أحكمت عزلتهم عن الكنيسة. وما هي معموديتنا سوى شركتنا الدائمة في موت الرب وقيامته؟ موت عن العالم، وحياة في الرب. وما هي معموديتنا سوى في رفضنا وجحدنا للشيطان والعالم وأباطيله وبهرجاته وشروره؟ معموديتنا هي استمرار قبول المسيح في حياتنا، والعيش بموجب وصاياه، وخدمته بخوف كل أيام غربتنا. لقد قلنا كل ذلك علناً يوم معموديتنا، أو قال ذوونا ذلك عنا، إلى حين أن أدركنا ما قلناه وتسلمنا إيمان آبائنا. "اعترف لك أيها المسيح إلهي، وبكل نواميسك المخلّصة، وكل خدمتك المحيية، وكل أعمالك المعطية الحياة".

وهكذا في باقي أسرار الكنيسة المقدسة، أتكون الأسرار إذاً بعد ذلك رموزاً وإشارات ووسائل؟ هذا الفكر المدرسي الغربي الذي تسلل إلى الفكر الشرقي الأرثوذكسي فلوث أعز ما نملك، إيمان حياتي معاش داخل الكنيسة وليتورجيتها وأسرارها، وليس إيمان الكنيسة الفكري الذي يملأ العقل دون القلب، ويزيد المعرفة على حساب التقوى.

ثانياً: رموز المعمودية في العهد القديم:

رموز المعمودية في العهد القديم كثيرة ومتعددة، ولكن من أهمها وأوضحها:

- الروح الذي كان يرف على وجه المياه، عندما خلق الله العالم بكلمة فيه.

- الطوفان، وفلك نوح.
- عبور البحر الأحمر.
- عبور الأردن إلى أرض كنعان.
- نزول نعمان السرياني في مياه الأردن.
- ذبيحة إيليا النبي التي قدمها وسط المياه فقُبلت بنار من السماء.
- الختان.

ولقد تحدث آباء الكنيسة عن هذه الرموز باستفاضة ليشرحوا معناها وكيف تحققت في العهد الجديد، ونورد هنا جانباً منها:

- **الروح الذي كان يرف على وجه المياه:**

فيقول القديس أمبروسيوس (٣٣٩- ٣٩٧م):

[تأملوا في قدم الإشارة إلى هذا السر حتى في بدء العالم نفسه. ففي البدء عندما صنع الله السموات والأرض، «كان الروح يرف على وجه المياه» (تكوين ١:٢). فذاك الذي كان يرف على المياه ألم يكن يعمل في المياه؟ بل لماذا أقول (يعمل) فقد كان يرف باعتباره حاضراً. تذكروا أنه كان يعمل في صنع العالم إذ قال النبي: «بكلمة الرب صُنعت السموات، وبروح فيه كل قوتها» (مزمور ٣٣:٦). وكل من هذين النصين يعتمد على شهادة نبي، فموسى يقول إنه يرف، وداود يشهد إنه كان يعمل].

وهكذا نرى أنه بالماء والروح وكلمة الرب وُلدت الخليقة، كما نولد نحن بالماء والروح وكلمة الرب. «ينبغي أن تولدوا من فوق» (يوحنا ٣:٧)، وكذلك قول الرسول: «مولودين ثانية لا من زرع يفنى بل مما لا يفنى، بكلمة الله الحية الباقية إلى الأبد» (١ بطرس ١:٢٣).

• الطوفان وفلك نوح:

أما عن الطوفان وفلك نوح، وما كان يرمز إليه لمعمودية العهد الجديد فيقول القديس أمبروسيوس (٣٣٩- ٣٩٧م):

[خذوا شهادة أخرى، كل بشر فسد بآثامه، يقول الله: «لا يبقى روحي بين الناس لأنهم بشر» (تكوين ٦:٣)، حيث يوضح الله أن نعمة الروح تتباعد بسبب الدنس الجسدي، ونجاسة الخطيَّة الشنيعة، التي بسببها أرسل الله الطوفان رغبة منه في استكمال ما كان ناقصاً، وأمر نوحاً البار أن يدخل الفلك، وإذ انتهى الطوفان أرسل نوح أولاً غراباً فلم يعد، ثم أرسل حمامة عادت بغصن زيتون، إنكم ترون الماء وترون الخشب (خشب الفلك)، وترون الحمامة، فهل تقفون حيارى أمام السر؟

إن الماء هو الذي يُغمر فيه الجسد حتى تُغسل فيه كل خطيَّة جسدية، ويُدفن فيه كل شر، والخشب هو الذي عُلق عليه الرب يسوع عندما تألم لأجلنا. والحمامة هي التي على هيئتها نزل الروح القدس - كما قرأتم في العهد الجديد - ذاك الذي يهبكم سلام النفس وهدوء الفكر، والغراب هو رمز الخطيَّة التي تذهب ولا ترجع إذا حُفظ فيكم البر في الداخل وفي الخارج[٤]].

• عبور البحر الأحمر:

لقد احتلت حادثة عبور البحر الأحمر كرمز لمعمودية العهد الجديد

---

٤ - انظر: ١ بطرس ٣:١٨- ٢١

جانباً كبيراً من كتابات آباء الكنيسة، فأول من تحدث من آباء الكنيسة - بعد القديس بولس الرسول - عن عبور البحر الأحمر كرمز للمعمودية هو القديس كليمندس الإسكندري (١٥٠- ٢١٥م)(٥)، يليه العلامة أوريجانوس (١٨٥- ٢٥٤م) الذي يكشف عن الأساس اللاهوتي لهذا الرمز، باستشهاده بالقديس بولس الرسول:

[انظروا كيف يختلف شرح بولس الرسول لعبور البحر الأحمر عن القراءة التاريخية، فالذي يعتبره اليهود عبوراً للبحر يدعوه بولس معمودية. والذين يعتقدون أنها سحابة، يبرهن القديس بولس على أنه الروح القدس. وهو يود أن تُفسَّر هذه الحادثة بنفس المعنى الذي قصده الرب بقوله: «إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله» (يوحنا ٣:٥)(٦)].

ويكمل العلامة أوريجانوس كلامه قائلاً:

[ما هو التعليم الذي أُعطي لنا إذاً؟ لقد قلنا سابقاً رأي الرسول في هذا الصدد. فهو يدعو هذا الأمر معمودية لموسى تمت في السحابة وفي البحر. وهذا يعنيكم أنتم الذين أعتمدتم في المسيح، بالماء والروح القدس،لكي تعرفوا أن المصريين في أعقابكم ويريدون أن يرغموكم على خدمتهم. والمقصود طبعاً رؤساء هذا العالم والأرواح الشريرة، هؤلاء الذين كنتم تحت عبوديتهم حتى الآن، فإنهم يسعون في تعقبكم، ولكنكم تنزلون إلى الماء فتشفون وتخلصون وتغتسلون مرة واحدة من أدناس الخطيَّة

٥- *strom.* 7: 16

٦- *Hom.*, EX. V. 1

وتصعدون منه «إنساناً جديداً» (أفسس ٢: ١٥) مستعدين أن «ترنموا ترنيمة جديدة» (إشعياء ٤٢: ١٠)، أما المصريون الذين يتعقبونكم فسوف تبتلعهم الهاوية...[٧]].

ويؤكد العلاّمة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م) نفس المعنى قائلاً:

[عندما خرج الشعب بمحض إرادته تاركاً مصر، هارباً من طغيان ملك مصر بعبور البحر الأحمر، أهلكت المياه الملك وكل جيشه. فأي رمز للمعمودية أوضح من ذلك؟ فالشعوب تتحرر من العالم بفعل الماء، والشيطان الذي كان حتى الآن يستعبدهم يتركونه خلفهم هالكاً في الماء[٨]].

أما القديس ديديموس الضرير (٣١٣- ٣٩٨م)، فبعد أن يتكلم عن تقديس الماء بالروح القدس، وعن الطوفان كرمز للمعمودية يذكر عبور البحر الأحمر كرمز آخر لها، فيقول:

[البحر الأحمر الذي أفسح للإسرائيليين عبوره دون خوف، وأنقذهم من الشرور التي توعدهم بها المصريون، وكل تاريخ خروج اليهود من أرض مصر، هذه جميعها رمز للخلاص الذي يتم في المعمودية. فمصر في الحقيقة هي رمز للعالم الذي نضع فيه تعاستنا بأنفسنا بالحياة الشريرة، والشعب (الذي خرج من مصر) هم الذين استناروا (بالمعمودية)، والمياه التي بواسطتها تم الخلاص

٧- ibid. V, 5

٨- De Bapt., 9

للناس تمثل المعمودية، وفرعون وجنوده يمثلون الشيطان وأتباعه[٩]].

ويكمّل القديس أمبروسيوس (٣٣٩- ٣٩٧م) كلامه السابق ذكره عن عبور بني إسرائيل البحر الأحمر كرمز ثالث لمعمودية الماء والروح فيقول:

[وهناك أيضاً شهادة ثالثة، إذ يعلّمنا الرسول: «إن آباءنا جميعهم كانوا تحت السحابة وجميعهم اجتازوا في البحر، وجميعهم اعتمدوا لموسى في السحابة وفي البحر» (١ كورنثوس ١٠:١،٢)، بل يقول موسى نفسه في تسبحته: «أرسلت روحك فغطاهم البحر» (خروج ١٥:١٠). إنكم تلاحظون أن المعمودية المقدسة سبق الرمز إليها حينئذ في ذلك الخروج الذي للعبرانيين، إذ عندما قُتل المصري هرب العبراني، لأنه ما الذي نتعلمه يومياً أيضاً من هذا السر إلاّ أن الإثم قد ابتُلع، والخطيّة أُبطلت، أما الفضيلة والطهارة فيبقيان بلا ضرر].

أما القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م) فيوجز في بلاغة معنى عبور البحر الأحمر فيقول:

[لو لم يعبر إسرائيل البحر ما كان في استطاعته أن يهرب من فرعون، كذلك أنتم إن لم تغطسوا في الماء فلن تهربوا من استبداد إبليس القاسي، في البحر غرق العدو، وفي المعمودية تموت عداوتنا لله، وكما خرج الشعب بسلام من البحر هكذا نخرج أحياء من الموت، ونصعد من

٩- *De Trinitate*, 11:4

المياه أحياء من بين الأموات، وقد خلّصتنا نعمة الذي دعانا (أفسس ٢:٥) والسحابة هي ظل لنعمة الروح القدس الذي يطفئ لهيب الشهوات بواسطة إماتة الأعضاء (كولوسي ٣:٥)[١٠]].

• عبــور الأردن:

العلامة أوريجانوس (١٨٥- ٢٥٤م) هو أول من فسّر عبور الأردن على أنه رمز للمعمودية، وجميع الآباء الذين جاءوا من بعده اقتبسوا منـه، وعلى وجـه الخصـوص القديـس غريغوريـوس النيسـي (٣٣٠- ٣٩٥م)، والقديس باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م)، والقديس يوحنـا ذهـبي الفـم (٣٤٧- ٤٠٧م).

فيقول القديـس غريغوريـوس النيسـي في عظـة لـه على معموديـة المسيح له المجد:

[إن الشعب العبراني كما نعلم، بعد آلام كثيرة، وبعـد أن أتموا رحلتهم الشاقة في البريـة، لم يدخلـوا أرض الموعـد إلاّ بعد أن صاروا تحت إرشاد وقيادة يشوع الذي عبر بهم إلى الأردن. ومن المعـروف أن يشـوع انتخـب اثنـى عشـر حجراً ووضعها في الأردن (يشوع ٤)، لكنه كان ينبئ عـن مجئ الاثنى عشر رسولاً خدام المعمودية].

• نزول نعمان السرياني في مياه الأردن.

في ذلك يقول القديس أمبروسيوس (٣٣٩- ٣٩٧م):

١٠- PG 31, 425b-c

[أخيراً فلتتعلموا درساً من الملوك، فنعمان كان سرياني الجنس، وقاسى من مرض البرص، و لم يستطع أن يتطهّر بأية وسيلة، ولكن فتاة من الأسرى قالت له يوجد نبي في إسرائيل يستطيع أن يطهره من البرص[١١]، فأخذ معه ذهبا وفضة وجاء إلى ملك إسرائيل. ولما سمع ذلك الملك بسبب مجئ نعمان مزق ثيابه قائلاً: إن هذه فرصة يدبرها ملك آرام ضده حيث أن ما طُلب منه ليس في متناول يد الملوك. ولكن أليشع أرسل كلمة إلى الملك لكي يرسل السرياني إليه حتى يعرف أن هناك إلهاً في إسرائيل. وعندما جاء، أمره أن يغطس سبع مرات في نهر الأردن. فبدأ يفكر في نفسه أن هناك في وطنه مياهاً أفضل، وكثيراً ما استحم فيها و لم يطهر من برصه، ولذلك لم يطع وصية النبي، ولكن بنصيحة وإلحاح خدامه رضخ وغطس، وإذ طهر حالاً، فهم أن الإنسان يطهر ليس بالمياه بل بالنعمة.

فافهموا الآن ما هي تلك الفتاة الصغيرة بين الأسرى، إنها الجماعة التي جُمعت من الأمم، إنها كنيسة الله التي كانت مستعبدة قديماً في أسر الخطيَّة عندما لم تكن لها حرية النعمة، التي بواسطة تدبيرها سمع الناس الأغبياء من الأمم كلمة النبوة التي كانوا يشكون فيها قبلاً، ولكن بعدما آمنوا أنها ينبغي أن تُطاع اغتسلوا من كل دنس الخطيَّة. إن نعمان شك قبل أن يبرأ، أما أنتم فقد برئتم فلا ينبغي أن تشكوا...[١٢]].

١١- انظر: ٢ ملوك ٥

١٢- في الأسرار، فصل ٣.

• **ذبيحة إيليا النبي التي قدمها وسط المياه فقُبلت بنار من السماء.**

يقول عنها القديس غريغوريوس النيسي (٣٣٠- ٣٩٥م):

[الذبيحة العجيبة التي قدّمها التشبيتي (١ ملوك ١٨: ٢٣) تفوق فهم البشر، لأنها عن أي شيء تنبئ سوى ذلك الطقس المرتبط بالإيمان بالآب والابن والروح القدس، وعن الخلاص الآتي... فالنبي وقد امتلأ بنعمة الروح جاء لمقابلة آخاب، وتحدى كهنة البعل بطريقة عجيبة أمام الملك وكل الشعب، فاقترح عليهم تقديم عجل ذبيحة، على أن تنزل نار وتأكلها، وشهّر بهم، وأظهر غباوتهم، لأنهم عبثاً صلوا وصرخوا إلى الآلهة التي ليست موجودة، وأخيراً دعا إيليا الإله الحقيقي وأتم ما اقترحه على الأنبياء، بل زاد عليه لأنه لم يصلّ لكي تنزل النار على الخشب الجاف، بل طلب من الحاضرين أن يحضروا ماءً كثيراً، وعندما سكب الماء ثلاث مرات على الحطب الجاف أشعل بصلاته النار من وسط المياه، لأن الماء والنار أضداد، ولكنه جمعهم في اتقان لكي ما يوضح بطريقة خارقة، قوة إلهه.

وهكذا بذبيحة إيليا العجيبة أظهر لنا إيليا سر طقس المعمودية الذي سوف يؤسس. النار اشتعلت بالمياه التي سُكبت ثلاث مرات عليها، وهذا يوضح لنا أنه حينما توجد المياه السرية هناك يشتعل الروح الناري الذي يحرق كل ما هو غير صالح، وينير المؤمنين].

وعن العلاقة بين المعمودية والصليب يقول القديس أمبروسيوس

أسقف ميلان (٣٣٩- ٣٩٧م):

[كانت مارة عين ماء شديدة المرارة، فلما طرح فيها موسى الشجرة أصبحت مياهها عذبة، لأن الماء بدون الكرازة بصليب الرب لا فائدة منه للخلاص العتيد. ولكن بعد أن تكرس بسر صليب الخلاص، يصبح مناسباً لاستعماله في الجرن الروحي، وكأس الخلاص، إذ أنه كما ألقى موسى النبي الخشب في تلك العين، هكذا أيضاً الكاهن، فالكاهن ينطق على جرن المعمودية بشهادة صليب الرب فيصبح الماء عذباً بسبب عمل النعمة...

إذن فلا ينبغي أن تثقوا كلية في عيونكم الجسدية، فغير المنظور يُرى في الحقيقة أكثر من المنظور، لأن ما يُرى هو زمني، أما الذي لا يُرى فأبدي، ذاك الذي لا يُدرك بالعين بل بالقلب والروح].

• الختان:

يظل الختان هو أحد أبرز الرموز التي تشير إلى المعمودية، بل ويتميّز عليها كونه رمزاً شخصياً يمارسه الإنسان في ذاته كعلامة عهد لا تمحى من جسده، وكسمة تميّز الإنسان على غيره من البشر. فالختان كان هو ختم العهد الذي صار بين الله وإبراهيم ونسله (تكوين ١٧)، وطبقاً للتقليد الكتابي فقد كان الختان مُلزِماً لكل ولد عبراني عندما يبلغ من العمر ثمانية أيام (تكوين ٢١:٤).

وكان الختان أحياناً ذا مغزى أدبي أو أخلاقي كرمز لإذلال تباهي الإنسان وكبريائه، وأحياناً أخري كتعبير عن دَين كلي لله يُقدَّم فيه الختان كذبيحة توفي جانباً من هذا الدَين، ولكن يظل مغزاه الأساسي هو

الدخول في عهد مع الله.

وحقيقة أن الولد العبراني كان يُختتن عندما يبلغ كمال أسبوع واحد من عمره، تُظهر أن دخوله في العهد لم يكن مبنياً على أي فعل من جانبه، أي من جانب هذا الطفل العبراني، بل على تدبير العناية الإلهية لحياته عندما شاء الله له أن يولد من أبوين ينتميان إلى شعبه المقدس. فصار الختان بذلك هو العهد الذي اختار به الله هذا الولد ليصير واحداً من شعبه قبل أن يدرك الولد هذا الاختيار أو هذه الدعوة.

ولكن ما أن يصل الولد إلى سن الإدراك حتى يصبح الختان الذي اقتبله في جسده كسمة تميزه على غيره من الناس سبب مسؤولية والتزام تجاه واجبات ملزِمة لـه تتناسب مع ميزة إنتمائه إلى الله، كعضو من أعضاء شعبه المقدس.

إن الختان يُظهر أن اختيار الله جاء قبل موافقة الإنسان واستجابته، وقبل أي إمكانية لاستجابة الإنسان. لقد جاءت دعوة الله أولاً وتبعتها بعد ذلك استجابة الإنسان.

والختان أيضاً - برغم نفعه للذكر دون الأنثى - يعكس ولو ظاهرياً الوضع المتدني للمرأة في العهد القديم، فعلاقة المرأة بالله كعضو في شعبه المختار كانت دائماً من خلال الرجل، أبوها أو زوجها، أو أخوها، لأنهم هم فقط الذين لهم العهد بقطع قلفة جسدهم(١٣).

وكان الختان في العهد القديم برغم كونه علامة ظاهرة في الجسد، يحمل معنى روحياً أيضاً. فموسى يخاطب شعب إسرائيل ويقول لهم: «الرب إنما التصق بآبائك ليحبَّهم، فاختار من بعدهم نسلهم الذي هو

---

١٣ - John Heron, *Christian Initiation*, STUDIA LITURGICA, Vol. 1, March 1962, p. 33, 34

أنتم، فوق جميع الشعوب كما في هذا اليوم. فاختنوا غرلة قلوبكم ولا تصلبوا رقابكم بعد...» (تثنية ١٠:١٥ـ ١٦). لذلك كان القديس اسطفانوس الشهيد وأول الشمامسة محقاً عندما وبَّخ اليهود قائلاً: «يا قساة الرقاب وغير المختونين بالقلوب والآذان» (أعمال ٧:٥١).

وينقل القديس بولس الرسول في العهد الجديد مفهوم الختان كعلامة عهد بين الله والإنسان نقلة جبَّارة، يهدم بها الختان نفسه كرمز قديم بَطُل في العهد الجديد عندما حلَّت المعمودية محله، وذلك في حديثه إلى اليهود الذين قبلوا المسيحية وتعمدوا، ولكنهم ظلوا يحفظون الختان بوضعه العتيق الذي شاخ. فيقول لهم: «إن كان الأغرل يحفظ أحكام الناموس أفما تُحسب غرلته ختاناً، وتكون الغرلة التي من الطبيعة وهي تكمل الناموس تدينك أنت الذي في الكتاب والختان تتعدى الناموس. لأن اليهودي في الظاهر ليس يهودياً، ولا الختان الذي في الظاهر في اللحم ختاناً، بل اليهودي في الخفاء هو اليهودي، وختان القلب بالروح لا بالكتاب (بالحرف) هو الختان. الذي مدحه ليس من الناس بل من الله» (رومية ٢:٢٦ـ ٢٩).

ويلخِّص القديس بولس قوله السابق فيقول: «ليس الختان شيئاً وليست الغرلة شيئاً، بل حفظ[١٤] وصايا الله» (١ كورنثوس ٧:١٩). ثم يضرب ضربته النهائية فيقول: «ها أنا بولس أقول لكم: إنه إن اختتنتم لا ينفعكم المسيح شيئاً.. لأنه في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئاً ولا الغرلة، بل الإيمان العامل بالمحبة» (غلاطية ٥:٢،٦).

إن ختان المسيح الذي أكمله في نفسه ليكمِّل عن البشرية كلها حكم الناموس قد أبطل الختان كعهد قديم بين الله وشعبه، إذ حلَّ عهد

---

١٤ ـ كلمة "حفظ" في اليونانية τήρησις تعني "طاعة وحراسة وصايا الله"، فهو ليس حفظاً نظرياً، بل حراسة (طاعة) فعلية.

جديد بينهما بالمعمودية. «وبه أيضاً (أي بالمسيح) ختنتم ختاناً غير مصنوع بيد، بخلع جسم خطايا البشرية بختان المسيح، مدفونين معه في المعمودية التي فيها أقمتم أيضاً معه بإيمان عمل الله الذي أقامه من الأموات» (كولوسي ٢:١١، ١٢).

إن أبرز علامتين في العهد القديم كانتا ترمزان إلى المعمودية، هما الختان ومعمودية المهتدين[١٥]، هذان هما الرمزان الواضحان جداً والقريبان إلى الأذهان، واللذان ظلا يشكلان الخلفية اليهودية، والتي انبنت عليها أسرار الحياة المسيحية.

ثالثاً: رموز المعمودية في العهد الجديد:

استقر في التقليد الكنسي أن هناك رمزان لمعمودية العهد الجديد هما:

- بركة بيت حسدا (يوحنا ٥).
- ومعجزة تفتيح عيني المولود أعمى (يوحنا ٩).

وأول من أشار إلى بركة بيت حسدا كعلامة للمعمودية هو العلاّمة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م)، أما القديس كيرلس الأول الإسكندري (٤١٢-٤٤٤م) فقد انفرد بتفسير معجزة شفاء المولود أعمى طقسياً وليتورجياً.

• بركة بيت حسدا:

في شفاء مقعد بركة بيت حسدا يقول العلامة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م):

١٥- سنعرض لها بعد قليل.

[ربما بدا لكم أن هذا شيئاً جديراً أن يكون الملاك موجوداً في المياه، لكن هناك مثال على هذا الذي يحدث في حادثة سابقة. كان ملاك ينزل ويحرك مياه بركة بيت حسدا (يوحنا ٥:٢)، وكان كل من ينزل من المرضى الذين يراقبون تحريك المياه بعد أن يغتسل يُشفى، والشفاء الجسدي هو رمز للروحي، لأن القاعدة هي أن الأشياء الجسدية ترمز مسبقاً إلى الأمور الروحية] (مقالة عن المعمودية: ٥).

ويقول القديس أمبروسيوس أسقف ميلان (٣٣٩- ٣٩٧م):

[«إن ملاكاً ينزل أحياناً في البركة ويحرك الماء، فمن نزل أولاً بعد تحريك الماء كان يبرأ من أي مرض اعتراه» (يوحنا ٥:٤)، هذه البركة كانت في أورشليم حيث كان يبرأ فيها واحد كل عام. ولكن لم يكن أحد يبرأ قبل أن ينزل الملاك بسبب أولئك الذين لا يؤمنون. كان الماء يتحرك كعلامة تدل على أن الملاك قد نزل.

كانت عندهم علامة، وأنتم عندكم إيمان، لأولئك نزل ملاك ولكم أُرسل الروح القدس، لأجل أولئك تحركت المخلوقات، ولأجلكم رب المخلوقات نفسه يعمل... حينذاك شُفي إنسان واحد، والآن أصبح الكل معافى... تلك البركة كانت مثالاً حتى تؤمنوا أن قوة الله تحل على هذا الجرن (جرن المعمودية)...] (الأسرار: ٤).

ويؤكد القديس ديديموس الضرير (٣١٣- ٣٩٨م) ذلك بقوله:

[إن المسكونة كلها تتفق معنا في تفسير بيت حسدا على أنها إشارة إلى المعمودية. وهذا مجرد رمز وليس الحقيقة، لأن الرمز هو مؤقت أما الحقيقة فهي أبدية. ولهذا السبب قيل أنه مرة في السنة كان الملاك ينزل ليحرك المياه، وكان مريض واحد فقط هو الذي يُشفى، أي الذي ينزل أولاً، وكان الشفاء من الأمراض الجسدية، وليس من الأمراض الروحية. لكن المعمودية الحقيقية التي تأسست بعد ظهور ابن الله وحلول الروح تحدث كل يوم، بل كل ساعة، بل كل لحظة، وتحرر إلى الأبد من الخطايا كل من ينزل في المياه] (في الثالوث ١:١١).

وتحدث عنها أيضاً القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م)، في عظة له (رقم ٣٦) على إنجيل القديس يوحنا. وكذلك القديس غريغوريوس النزينزي (٣٢٩- ٣٨٩) في مقالة له عن المعمودية.

• شفاء المولود أعمى:

الكنيسة القبطية منذ زمان قديم تمارس المعمودية في الأحد المعروف باسم "أحد المولود أعمى"، ولازال هذا الأحد من الصوم المقدس الكبير يُسمى "أحد التناصير"، وذلك لما للحدثين من ارتباط وثيق. والقديس كيرلس الكبير (٤١٢- ٤٤٤م) يتحدث عن ذلك فيقول:

[إذا قبلنا معجزة شفاء المولود أعمى كرمز لدعوة الأمم، فإننا سوف نخبر بهذا السر ومعناه. وفي إيجاز سوف نشرحه أولاً، وأيضاً لأن المناسبة تدعونا إلى تبني هذا التفسير.

بعد أن ترك الرب هيكل اليهود، رأى المولود أعمى، فقرر المخلص أن يشفي الرجل دون أن يطلب أحد منه

ذلك أو حتى يترجاه، المعجزة ترينا أن جموع الأمم لم تترج الله رغم أنهم كانوا في خطأ، لكن الله بالطبيعة صالح، بإرادته وحده جاء وأظهر رحمته ناحيتهم...

وقد حدثت المعجزة في يوم السبت، أن السبت وهو آخر أيام الأسبوع يرمز إلى نهاية الدهر الذي ظهر فيه المخلص لكي يضيء للأمم... بالمسحة بالطين صنع عملاً صالحاً إذ أعاد وأرجع ما كان ناقصاً في عين الرجل، وهو بهذا أرانا أنه هو الواحد الذي خلقنا في البدء، وأنه خالق ومبدع العالم.

بل إن قوة هذا الفعل تحتوي على معنى سري هام، وهو ما سوف نشرحه. لم يكن ممكناً للأمم أن ينزعوا العمى الذي أصابهم ليروا النور المقدس واللاهوت، أي يحصلوا على معرفة الثالوث الواحد القدوس إلاَّ إذا اشتركوا في الجسد المقدس، وغسلوا خطاياهم جاحدين الشيطان وكل سلطانه في المعمودية المقدسة...

نحن بالإيمان نغتسل ليس لإزالة وسخ الجسد كما هو مكتوب (١ بطرس ٣:٢١)، بل إزالة دنس وقذارة عيون عقولنا لكي نرى في المستقبل بعدما تطهرنا وصرنا أنقياء، نرى الجمال الإلهي نفسه] (الكتاب السادس، يوحنا ٩:٦).

وفي الكنيسة الأولى كان يُقرأ على المعمدين الجدد ثلاث قراءات من الإنجيل هي: الحديث مع نيقوديموس، ومعجزة شفاء المقعد، ومعجزة تفتيح عيني المولود أعمى.

الفصل الثالث

أنواع المعمـــوديات

قبل المعمودية المسيحية، أي معمودية الماء والروح، وهي التي مارستها الكنيسة بعد حلول الروح القدس في يوم الخمسين، كانت هناك استحمامات مقدسة في الديانات الوثنية، ووضوءات في الديانة اليهودية، والتي عُرفت بمعمودية موسى، وبمعمودية المتهودين أو المهتدين، ثم جاءت بعدها معمودية يوحنا المعمدان، ومعمودية ربنا في مياه الأردن، ومعمودية تلاميذ الرب، فما هي هذه المعموديات؟

١ـ الاستحمامات المقدسة في الديانات الوثنية:

نقرأ عند العلامة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م) وصفاً للاستحمامات والوضوءات التي كانت معهودة في الديانات الوثنية ذات الأسرار، في معرض مقارنته بينها وبين العماد المسيحي فيقول:

> [...وعلى هذا النحو يُدخلون الوثنيين بالاستحمام إلى بعض الأسرار كأسرار إيزيس وميترا. بل يحملون آلهتهم على الاستحمام، وينضحون بالماء النقي منازلهم وهياكلهم، بل مدناً بأكملها لتطهيرها. وفي أثناء الألعاب الأبولونية والبيلوزية، يغتسلون بكثرة ظانين أنهم إذّاك يتجددون وتغفر ذنوبهم[1]].

١- Tertullien, *Traité du Baptême*, SC 35, V.1, p. 71-72

ولقد ذهب بعض مؤرخي الأديان إلى القول بأن المعمودية المسيحية ليست سوى استمرار للعماد الذي نجده في الديانات الوثنية ذات الأسرار. ولكنه استنتاج ساذج اعتمد على المظهر الخارجي فقط، دون أن يبحث في الجوهر. فالوضوءات الوثنية لا تستند إلى حدث تاريخي ينبع وجودها وجوهرها منه، بل هي استعمال عفوي نابع عن اقتناع الإنسان بضرورة التطهر للإقتراب من الإله، ومن جهة أخرى بما توحي به طبيعة المياه وعلاقتها المباشرة بالنظافة والنقاوة.

أما ما أكسب المعمودية المسيحية صفة مغايرة لمعموديات الديانات الوثنية، فهو عماد السيد المسيح نفسه، ابن الله، في مياه الأردن، كحدث تاريخي خلاصي إلهي أبدي، بدأ في مياه الأردن وامتد حتى اليوم يهب لكل المعتمدين على مثاله باسم الآب والابن والروح القدس ميلاداً جديداً من الله، فيُدعى المعمدون على مثاله "أبناء الله. وهذا من فم الرب نفسه: «المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح» (يوحنا ٣:٦). إذاً فعل الروح القدس في المعمودية هو الذي أعطى للمعمودية المسيحية معناها الذي لا يوجد مثيله في الديانات الوثنية، أو أي ديانات أخرى. لذلك ففيما كانت تُكرر الاستحمامات والوضوءات مراراً وتكراراً بلا انقطاع، تُعطى المعمودية المسيحية مرة واحدة، لأنها ميلاد حقيقي كامل نهائي من الله، وممتد فيه. «الذين وُلدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد، ولا من مشيئة رجل، بل من الله» (يوحنا ١:١٣).

٢ ـ معمودية موسى:

يذكر القديس غريغوريوس اللاهوتي (٣٢٩- ٣٨٩) في عظة له في

عيد الظهور الإلهي (العظة رقم ٣٩)، معمودية موسى فيقول عنها:

[إن موسى كان يعمّد، ولكن تعميده كان بالماء، وقبل ذلك في الغمام وفي البحر. وهذا كان رسماً فقط كما رأى بولس الرسول أيضاً].

واضح هنا من كلام القديس غريغوريوس اللاهوتي أنه يتكلم صراحة عما يُسمى "معمودية موسى"، مع أن موسى نفسه لم يكن يعمّد بشهادة الأسفار المقدسة، ولكن القديس غريغوريوس يشير هنا إلى أنواع الاغتسالات والتطهيرات بالماء، التي أمر بها ناموس موسى.

والقديس غريغوريوس الثيولوغوس لم يكن هو أول من تطرّق إلى ذكر "معمودية موسى"، إذ أن القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م) قد سبقه في الحديث عنها، وذلك في كتابه عن "المعمودية (١: ٢: ٤،٥)". ليشرح سمو معمودية المسيح على كلٍ من معمودية موسى، ومعمودية يوحنا المعمدان فيقول:

[إنني اعتقد أنه من الموافق بعد كل ما قلناه عن ملكوت السموات، أن نبحث أيضاً في عجالة الفرق بين معمودية موسى ومعمودية يوحنا المعمدان، لكي نصير مؤهلين بنعمة الله لأن ندرك سمو معمودية ربنا يسوع المسيح التي تفوق كليهما في سمو مجدها الذي لا يُقارن... فبقدر ما أن الروح القدس متميز عن الماء، كذلك بالتأكيد فإن من يعتمد من الروح القدس متميز عمن يعتمد بالماء...

إن المعمودية التي سلمها الرب لموسى كانت تميز بين أنواع الخطايا التي لم تكن كلها تستوجب نعمة الغفران، وبالتالي فقد كان الأمر يتطلب تقديم ذبائح مختلفة.

وكانت معمودية موسى تدقق للغاية في مراسيمها الطقسية، وتستبعد إلى حين من كان نجساً أو دنساً، وكانت تراعي في تتميمها أوقاتاً معينة دون غيرها. وكل من نالوها فقد نالوها كختم لتطهيرهم].

٣ـ معمودية المتهودين:

وهي تُسمى معمودية المتهوّدين أو المهتدين أو الدخلاء Proselyte Baptism. وكانت تمارَس احتفالاً بدخول أحد الأمميين للديانة اليهودية، وكان الماء فقط هو المستخدم في طقسها. وهي معمودية لم يمكننا حتى الآن اقتفاء آثارها الأولى بدقة، ولكن هناك من الدلائل ما يشير إلى أنها لم تبدأ قبل القرن الأول الميلادي، فلم يرد ذكرها لا في أسفار العهد القديم ولا في أسفار ما بين العهدين، ولا عند فيلو ولا عند يوسيفوس، وهي لذلك لم تكن مبكرة بالقدر الذي يسمح لها بأي تأثير على طقوس ومراسيم المعمودية المسيحية(٢).

أما عن طقوسها، فعندما يتحول المهتدون من الوثنية إلى اليهودية، رجالاً كانوا أم نساء، فإن الرجال منهم يختتنون أولاً حسب شريعة موسى، وبعد ذلك بأسبوع كانوا يقتبلون معمودية المهتدين. وهي معمودية كانت تُمنح للرجال والنساء والأطفال والعبيد من الأمم.

أما طقس هذه المعمودية فهو شبيه إلى حد عجيب بطقس معمودية العهد الجديد - كطقس وليس كمعنى -، فعندما يقبل المهتدون

٢- cf. *The Interpreter's Dictionary of the Bible*, Abingdon Press, 1962, vol. I, p. 348- 349.

الديانة اليهودية ويؤمنون بيهوه، أنه هو الإله، يخلعون ملابسهم الأممية، وينزلون عراة إلى الماء. ويقفون في الماء الذي يغطيهم إلى حقويهم إن كانوا رجالاً، أو إلى رقابهم إن كنّ نسوة. أما الربي فيذكّرهم بأعمال يهوه العظيمة التي افتدى بها شعبه من عبودية مصر، ويشرح لهم الوصايا والعهود التي أعطاهم إياها على جبل سيناء. بعد ذلك يجيب المعتمد حديثاً بقوله: "سأفعل كل ما أمر به الرب وأكون طائعاً له"، ثم يُغطّس نفسه في الماء، وإذ يشترط عليه الربي شروطاً يجيب عليه بالإيجاب، ويكمّل تغطيس نفسه في الماء ثلاث مرات.

وبعد الغطسة الثالثة يخرج المعمَّد حديثاً من الماء، ويرتدي ثيابه اليهودية الجديدة، ويقتبل اسماً يهودياً جديداً، ويصبح بذلك منتسباً إلى رعوية شعب إسرائيل ذي عمر يوم واحد.

أما اسمه القديم وصداقاته القديمة وهويته السابقة، فقد صارت كلها في حكم الموت، وغرقت في الماء الذي خرج منه إنساناً يهودياً له شرف العضوية في شعب إسرائيل.

وكانت معمودية المهتدين تجري على النساء أكثر بكثير جداً من الرجال. وإن كان العالم الليتورجي الأب جون هيرون John Heron لم يذكر السبب، إلاّ أننا نعتقد أن ذلك كان بسبب أن الرجال كانوا يختتنون كعلامة وختم لانضمامهم إلى رعوية شعب إسرائيل، أما المرأة فقد كانت في احتياج إلى طقس فعلي تمارسه شخصياً لتحوز بموجبه أحقية الانضمام إلى شعب الله، كي لا تكون علاقتها بالله كعضو في شعبه المختار من خلال الرجل، إذ ظلت تعتبر أن هذا الأمر كان بمثابة امتهان لها، ولمكانتها في المجتمع الجديد الذي انضمت إليه، أي ذلك المجتمع اليهودي الذي كانت فيه كل الوصايا والأحكام والشرائع

والطقوس والامتيازات والعهود هي للرجل.

وإن الأعداد الكبيرة من المهتديات اللاتي كن يقتبلن معمودية المهتدين أكثر من الرجال قد دفع بعض الربيين للاعتقاد بأن المعمودية وليس الختان هي اللحظة الحاسمة التي ينضم فيها المهتدي إلى رعوية شعب إسرائيل.

والطقس الكامل لقبول المهتدي إلى اليهودية كان ينحصر في ثلاثة أمور هي: الختان، المعمودية، تقديم الذبيحة.

وكقانون عام، فإن هذه المعمودية كانت تتم بواسطة الشخص المعمَّد نفسه، والذي يغطّس نفسه بنفسه في الماء self - administered. ولهذا القانون العام استثناءان:

+ الاستثناء الأول، كان الأطفال الصغار يُقادون إلى الماء بواسطة والديهم، ويُعمَّدون في الماء أيضاً بواسطتهم.

+ الاستثناء الثاني، كان العبيد يُقادون إلى الماء بواسطة سيدهم، حيث يقوم هو بنفسه بتعميدهم. أما إن سُمح للعبد أن يعمِّد نفسه بنفسه، فإن الربي يعلن أن عبوديته التي كانت جزءًا من حياته القديمة قد انتهت في مياه المعمودية حيث يخرج من الماء يهودياً حراً.

ولسنا نوافق الأب جون هيرون John Heron على قوله "إن معمودية المهتدين ربما بدأت كرمز أو كطقس تطهير من نجاسات الوثنية، ولكنها وبدون شك أصبحت مع زمن العهد الجديد رمزاً أو طقساً للموت والميلاد الجديد[٣]"، فمعنى المعمودية اليهودية كميلاد جديد كان غائباً عن ذهن معلمي الناموس، مثل نيقوديموس معلم الناموس الذي لم

٣- John Heron, *Christian Initiation*, *op. cit.*, p. 35

يستوعب قول الرب «ينبغي أن تولدوا من فوق» (يوحنا ٣:٧). أما معمودية العهد الجديد فهي ليست رمزاً أو طقساً لموت ولميلاد جديد، لأنها هي بالحق كذلك، فيها ندفن بشبه موت المسيح، فتستتر حياتنا كلها فيه، «قد متّم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله» (كولوسي ٣:٣)، ومنها نخرج لابسين بالفعل إنساناً جديداً، لا كرمز بل حقيقة، تلك التي لا تستطيع العين البشرية أن تراها، ولا الذهن والمنطق أن يستوعبها أو يعبّر عنها.

وعن معمودية المتهودين يقول ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م):

[إعلموا أن معمودية اليهود كانت معمودية أيضاً، ولكنها كانت تطهر الأدناس الجسدية، لا الأدناس الروحية وهي الخطايا... وأما معموديتنا فليست هكذا، فهي أعظم شرفاً من تلك، وأجلّ نعمة، لأنها تنجي الإنسان من آثامه، وتطهر النفس وتنقيها، وتهب نعمة روحية]. (العظة ١٥ على الأسرار).

ولابد أن نذكر هنا معمودية الأسينيين ووضوءاتهم، فقد كان الأسينيون من الفرق اليهودية التي كانت تلجأ دائماً وباستمرار إلى الوضوءات والاغتسالات الطقسية، وكانوا عائشين في قمران بجوار البحر الميت في إطار حياة مشتركة ينتظرون مجيء المسيح. وكل من كان يريد الانضمام إلى هذه الجماعة، كان يتهيأ لمدة سنة كاملة لغسلات طقسية يرافقها خلع ملابس وارتداء أخرى. فلقد كشفت الحفريات في منطقة قمران عن عدد كبير من خزانات المياه التي تثير الدهشة لكثرتها، وهذه الخزانات كانت متصلة بالخزان الرئيسي الذي يغذيها كلها، وذلك لتوفير المياه لجماعة كبيرة، عدا اثنين منها مزودة بدرج لتنظيم عملية نزول

وصعود العدد الكبير من المستعملين لهذه الخزانات، مما دفع بعض العلماء إلى الاعتقاد بأنها حمامات خاصة لطقوس التطهيرات والغسلات الشرعية، إذ لا يمكن تصور كمية من الحمّامات بهذا العدد، وبهذه الطريقة من الإعداد والتجهيز، لمجرد الاستخدام العادي.

وكان عماد الأسينيين يرافقه أعمال توبة، وهو في ذلك شبيه بمعمودية يوحنا المعمدان، حيث كانت المعمودية لا تتعدى في مفعولها تقديم توبة لله، وتعهد بحياة مبررة أمامه، دون أن تمنح هذه المعمودية القوة اللازمة لتنفيذ هذه التوبة، والحياة بموجبها، فكانت تعهد من قِبَل الإنسان فقط، دون نوال فعل إلهي يصون هذا التعهد ويديمه، لذلك كانت تُكرر دائماً. فعماد الأسينيين كان يتكرر مراراً للشخص الواحد. ويعتبر المؤرخون اليوم أن "عمادات" الأسينيين تندرج في مراسيم التطهير والوضوء الذي مارسه كل اليهود[٤].

٤ ـ معمودية يوحنا المعمدان:

يحتل القديس يوحنا المعمدان موضع الحد الفاصل بين العهدين، فكان هو السابق الذي يعد الطريق أمام المسيا، وفعل ذلك بتعليمه للناس عنه، وتعميد من يقبل هذا التعليم، فكان تعليمه دعوة للتوبة وكانت علامة التوبة هي قبول المعمودية كعربون الدخول إلى حياة جديدة، تلك الحياة التي وجدت تحقيقها عندما أكمل المسيا معمودية يوحنا التي للتوبة، بمعمودية الروح القدس ونار.

ومعمودية يوحنا المعمدان هي غير معمودية الدخلاء أو المهتدين، إذ أن القديس يوحنا المعمدان قد مارسها لليهود كما للأمم أيضاً (مرقس

---

٤ ـ أسد رستم، مخطوطات البحر الميت وجماعة قمران، لبنان، ١٩٥٩م، ص ٨٢، ٨٣

١:٥)، فلم تستثن أحداً، فهي معمودية لكل الناس والأجناس، للرجال والنساء والأطفال والعشارين والجنود، معمودية الشعب كله تهيئةً لقبول المسيح.

فاليهود كانوا يعمَّدون لكي يظهروا أمراً أكبر من مجرد عضويتهم في شعب إسرائيل القديم. فقد كان مطلوباً أن يظهروا رغبتهم في اشتراكهم في مملكة المسيا، هذا الأمر الجديد كان هو بعينه الولاء الشخصي للمسيا، ولذلك كانوا يعتمدون كعبيد في خدمة "الآتي". وعلى ذلك كان يلزم أن يعمدهم مُرَسل من قِبَل الله، لا أن يعمدوا هم أنفسهم بأنفسهم[٥].

وعن معمودية يوحنا، والفرق بينها وبين معمودية موسى، يقول القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م):

[إن معمودية يوحنا كانت أسمى من معمودية موسى من عدة أوجه، فقد كانت لا تميز إطلاقاً بين أنواع الخطايا، فلم تتطلب لتتميمها ذبائح متنوعة، ولم تكن تراعي التدقيق في الجانب الطقسي لتتميمها، ولم تهتم بأيام معيّنة دون غيرها. فبدون التقيّد بأي شكل يعيق نعمة الله ومسيحه، كانت تهب في الحال غفران الخطايا لأي شخص يتقدم معترفاً بخطاياه مهما كانت ثقيلة وكثيرة، عندما يعتمد في نهر الأردن]. (المعمودية: ١:٢:٥).

٥- لعل ذلك يذكرنا بقول بولس الرسول، والذي كرره مراراً: «بولس عبد يسوع المسيح»، إذ وجد نفسه يقتبل المعمودية المسيحية من حنانيا أسقف دمشق، الذي عمّده وغطسه في الماء، فخرج من الماء عبداً ليسوع المسيح الذي اعتمد لاسمه. فالعبد لا يعمد نفسه بل يعمده آخر، وكان هذا الآخر هو تلميذ يسوع المسيح.

والقديس باسيليوس يوضح في نفس حديثه عن المعمودية أن غفران الخطايا لا يكون إلاّ بدم المسيح نفسه فيقول:

[هوذا قطعة الحديد إن غطّسناها في النار المتوهجة بفعل الريح، فإنه يسهل جداً فصل الشوائب العالقة بها، فتنقى بغاية السهولة، وتتحول من حالة الصلابة والمقاومة إلى حالة أكثر ليونة، فتصير بذلك مؤهلة لتشكيلها بيد الصانع وفقاً لرغبة صاحبها. وتتحول من اللون الأسود إلى لون أحمر أكثر لمعاناً مع بريق، بل وأيضاً تضيء، وتنتقل حرارتها إلى الوسط المحيط بها. كذلك عندما يغطس الإنسان في معمودية النار، أي الكلمة المربّية[٦] التي تفضح خبث الخطايا وتكشف نعمة الأعمال البارة... فيتطهر المرء بالإيمان في قوة دم ربنا يسوع المسيح. فالرب نفسه قال: «هذا هو دمي... الذي يُسفك... لمغفرة الخطايا» (متى ٢٦:٢٨)، والرسول يشهد بقوله: «الذي فيه لنا الفداء بدمه غفران الخطايا» (أفسس ١:٧)، وهو لا يختص فقط بتطهير كل إثم وخطيَّة، بل أيضاً يطهّر من كل دنس الجسد والروح (٢ كورنثوس ٧:١)]. (المعمودية ١:٢:١٠).

ويقول عنها في موضع آخر:

[... من هذا نعرف الفرق بين الروح القدس ومعمودية الماء، لأن الرب عمّد بالروح القدس، أما معمودية يوحنا فكانت بالماء فقط. وحقاً قال يوحنا: «أنا أعمدكم بالماء للتوبة، لكن الذي يأتي بعدي هو أقوى

---

٦ - مترَبياً بكلام الإيمان (١ تيموثاوس ٤:٦).

مني، وهو سيعمدكم بالروح القدس ونـار» (متى ٣:١١)، وهو هنا يعني نار الفحص في يوم الدينونة، لأن الرسول قال: «إن النار سوف تمتحن عمل كل واحد» (١ كورنثوس ٣:١٣)]. (الروح القدس ١٥:٣٦).

فلا يمكن لمعمودية يوحنا أن تهب غفران الخطايا، والقديس يوحنا ذهبي الفم يوضح ذلك جيداً في تفسيره لإنجيل القديس متى (مقالة ١٠) فيقول:

[لأنه لم تكن الذبيحة قُدمت بعد، ولا انحدر الروح القدس، ولا انحلت الخطيَّة، ولا ارتفعت العداوة، ولا مُحيت اللعنة، فكيف أزمع الغفران أن يكون].

أما القديس غريغوريوس اللاهوتي (٣٢٩- ٣٨٩) فهو يوضّح بتدقيق أكثر الفرق بين معمودية اليهود، ومعمودية يوحنا، ومعمودية المسيح، فيقول:

[يوحنا عمَّد، ولم تكن معموديته يهودية محضة، لأنه لم يعمِّد بالماء فقط بل للتوبة أيضاً. غير أن معموديته لم تكن روحية كلها، لأنه لم يُضف لفظة (بالروح). ويسوع أيضاً عمَّد ولكن بالروح، وهذا هو الكمال]. (عظة ٣٩ في عيد الظهور الإلهي).

لم يتحدث يوحنا المعمدان عن معموديته كهدف، إنما كخطوة تؤهل الإنسان لمعمودية أخرى أعظم منها، فإن كانت هذه المعمودية للتوبة لمغفرة الخطايا (مرقس ١:٤، لوقا ٣:٣) استعداداً لقبول المسيا، إلاَّ أنها لم تمنح المعتمد الإنسان الجديد الذي لا يولد إلاَّ في المسيح بالروح القدس. لذلك قال بولس الرسول لتلاميذ أفسس لما سألهم: «هل قبلتم

الروح القدس لما آمنتم، قالوا ولا سمعنا أنه يوجد الروح القدس، فقال لهم فبماذا اعتمدتم، فقالوا بمعمودية يوحنا. فقال لهم بولس إن يوحنا عمَّد بمعمودية التوبة قائلاً للشعب أن يؤمنوا بالذي يأتي بعده، أي بالمسيح يسوع. فلما سمعوا اعتمدوا باسم الرب يسوع، ولما وضع بولس يديه عليهم حلّ الروح القدس عليهم...» (أعمال ١٩:١- ١٦).

ويوضح القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م) ذلك الأمر جلياً فيقول:

[كانت معمودية يوحنا أرفع شأناً من معمودية اليهود، وأقل قدراً من معموديتنا. فهي كالجسد المتوسط، إذ تتميز عن معمودية اليهود بكونها لم تقود الناس إلى طهارة الأجساد، إنما كانت تحثهم على تغيير عوائدهم، وأن يتركوا الرذائل ويتحلوا بالفضائل، فيكون لهم رجاء الخلاص إذا هم عملوا صالحاً، وليس كالمعموديات المختلفة وباقي المياه المطهرة. لأن يوحنا لم يأمرهم بغسل ثيابهم وأجسادهم للتطهير بل كان يأمرهم قائلاً: «اصنعوا أثماراً تليق بالتوبة» (متى ٣:٨)]. (العظة ١٥ على السرائر المقدسة).

ولقد كان الاعتراف بالخطايا، حسب التقليد اليهودي، لا يعني تعداد كل الخطايا المقترفة، بل إقرار من قِبَل الإنسان بأنه خاطئ[٧].

٥ـ معمودية ربنا في مياه الأردن:

هي المعمودية التي صارت أساساً لمعمودية العهد الجديد، وبالتالي

٧- A. Hamman, *Baptême et Confirmation*, Paris, 1969, p. 12

فقد أبطلت كل المعموديات التي سبقتها، والرموز التي أشارت إليها، لأنه حيث يتحقق المرموز إليه يبطل الرمز.

فعندما جاء الرب إلى الأردن وأخذ مكانه بين طالبي معمودية يوحنا المعمدان، جاء نائباً عن كل البشر، واضعاً نفسه وحاسباً إياها بين الخطاة، لأنه يعلم أن هذه هي مشيئة الآب لكي يتحقق البر للكثيرين. فلم يعتمد المسيح لنفسه بل لأجلنا.

وإذ خرج الرب من الماء بعد أن تعمَّد، سمع صوت الآب يعلن عن ابنه: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت» (متى ٣:١٧)، وهي تحقيق مباشر لنبوة إشعياء النبي (٤٢:١)، حيث أعلن هذا الصوت أن هذا هو المسيا الذي يُعمِّد بالروح القدس ونار، وفي هذا يشهد يوحنا المعمدان نفسه قائلاً: «وأنا لم أكن أعرفه، لكن الذي أرسلني لأعمِّد بالماء، ذاك قال لي الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه، فهذا هو الذي يعمّد بالروح القدس. وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله» (يوحنا ١:٣٣،٣٤).

كانت المعمودية بالنسبة للمسيح، هي بداية رسالته الماسيانية التي ابتدأها عندما حمل في نفسه خطايا العالم كله ليمنحه التبرير، وكان عليه أن يصير هو بذاته "العبد المتألم" الذي يحمل خطايا الكثيرين بموته الذي بدأه في المعمودية وأكمله بالصليب. فالرب قد تكلم عن موته كصبغة ومعمودية، كي تصبح معموديته متصلة وواحدة، بدءًا من عماده في الأردن، وانتهاءً بموته على الصليب عند الجلجثة، «لي صبغة (معمودية) أصطبغها، وكيف أنحصر حتى تكمل» (لوقا ١٢:٥٠). ثم كانت القيامة من الموت لتختم على فعل الخلاص الذي تم بالصليب.

لقد صار الصليب للرب هو كمال معموديته في الأردن، والعمل

الخلاصي الذي تممه، ليشفي به البشرية التي سقطت من حضن الآب عندما أغوتها الحيّة القديمة فضلت عن الحياة.

إن خدمة المسيح التي بدأت عند الأردن حينما استقر الروح القدس عليه لأجلنا، واكتملت بإرساله الروح القدس لأجلنا أيضاً عندما جلس الابن عن يمين أبيه، هي خدمة واحدة متصلة تحوي فيها سر المعمودية المقدس، فيوم الخمسين هو اليوم الذي انتقلت فيه إلينا كل مفاعيل تلك المعمودية الواحدة التي للمسيح، لأنه في الروح القدس تعمّدت الكنيسة كلها بمعمودية المسيح الواحد لتصبح فيه جسداً واحداً وروحاً واحداً لإيمان واحد لمجد الله الآب. فميلاده ومعموديته وصومه وخدمته وصليبه وموته وقبره وقيامته هي نظير المعمودية الواحدة التي بدأت بنزوله من السماء واكتملت بتمجيده لطبيعتنا المخلّصة والمفدية والتي صار مكانها فيه عن يمين الآب. «أقامنا معه وأجلسنا معه» (أفسس ٢:٦).

إن معموديتنا في العهد الجديد قد نالت كل مفاعيلها من معمودية المسيح، ولخّص الرسول بولس ذلك بقوله: «لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح» (غلاطية ٣:٢٧). ويعقّب القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م) فيقول:

> [لا ينخدع أحد عندما أغفل الرسول كثيراً اسم الآب والروح القدس في الكلام عن المعمودية... فاسم المسيح هو الإيمان كله[٨]].

٨- الروح القدس، للقديس باسيليوس الكبير، ترجمة د. جورج حبيب بباوي، مرجع سابق، ٢٨:١٢

٦ ـ معمودية التلاميذ:

ليس هناك فرق بين معمودية يوحنا المعمدان والمعمودية التي أجراها التلاميذ قبل الصليب والقيامة، لأن هذه الأخيرة أيضاً كانت للتوبة والاستعداد، فالمعمودية لا يكتمل فعلها إلا بموت المسيح وقيامته، ولا تنتقل إلينا إلاّ بالروح القدس الذي وحده يقدر أن ينقل إلينا موت المسيح وحياته وقيامته. وهذا يوضحه العلامة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م) بقوله:

[تلاميذ المسيح عمدوا كخدّام، ويوحنا كذلك عمد كسابق، فتكون معمودية التلاميذ هي معمودية يوحنا نفسها لا معمودية أخرى، إذ لم توجد ولا توجد معمودية أخرى سوى المؤسسة من يسوع المسيح، وهذه المعمودية لم يكن ممكناً أن تتم وقتئذ من التلاميذ، لأنه في ذاك الوقت لم يكن مجد الرب قد اتضح تماماً، وفاعلية الحميم لم تكن بعد قد تأيدت بآلامه وقيامته] (في المعمودية: ١١).

والقديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م) يؤكد على ذلك، فيذكر أن كلا المعموديتين كانتا عديمتي الروح، فيقول:

[لأي سبب قال إنه لم يكن يعمِّد؟ لأن يوحنا سبق فقال: «هو سيعمدكم بالروح القدس ونار» (متى ٣:١١)، ولم يكن الروح قد أُعطي بعد، إذا لم يكن (يسوع) يعمِّد. أما التلاميذ فكانوا يعمدون قاصدين أن يقدموا كثيرين للتعليم الخلاصي. وإن سأل أحد بماذا كانت تمتاز معمودية التلاميذ عن معمودية يوحنا؟ نقول له: لم تكن تمتاز بشيء؛ لأن المعموديتين كلتيهما كانتا عديمتي نعمة الروح،

ولكلتيهما غاية واحدة في التعميد، وهي تقديم المعتمدين إلى المسيح. ولهذا فالمعمودية اليهودية تبطل، وأما معموديتنا فتأخذ ابتداءً. وهنا أيضاً إذ تمم (الرب) المعمودية اليهودية فتح حالاً أبواب معمودية الكنيسة، وكما فعل في ذلك الوقت على مائدة واحدة، هكذا الآن في نهر واحد رسم الظل ووضع الحقيقة، لأن هذه المعمودية وحدها لها نعمة الروح، وأما معمودية يوحنا فكانت عادمة هذه الموهبة، ولهذا السبب لم يحدث على سائر المعتمدين شئ من ذلك، ولا نالوا الروح القدس، أما عليه فقد انحدر الروح الذي هو مزمع أن يعطيه، لكي تتعلم مما سبق ذكره، أن هذا لم تفعله نقاوة المعمِّد، بل قدرة المعتمد، ومن ثم انفتحت السموات وقتئذ، وانحدر الروح] (مقالة على إنجيل متى: ١٢:٤)[٩].

٧ـ معمودية الماء والروح:

وهي المعمودية التي يتركز حديثنا عنها في هذا الكتاب. ولكونها معمودية لا تكتمل إلاَّ بالماء والروح معاً، وليس بأيهما فقط، فقد عرضنا لجانب وافر من أقوال الآباء في ذلك، أولاً: من حيث ضرورة الماء للمعمودية، وثانياً من حيث عمل الروح القدس فيها.

أولاً: ضرورة المياه للمعمودية.

القديس إغناطيوس الأنطاكي (٣٥- ١٠٧م) يقول:

٩- جراسيموس مسرة، الأنوار في الأسرار، بدون تاريخ، ص ٢١.

[إن ربنا يسوع المسيح قد حُمل في أحشاء البتول بتدبير إلهي من زرع داود، ومن الروح القدس، ووُلد واعتمد لينقي بالماء أهواءنا] (الرسالة إلى الأفسسيين ١٨:٢).

الماء يرسم صورة الموت، إذ يقبل الجسد بمثابة قبر له. أما الروح فيعطي عربون الحياة. وهي المعمودية التي يدعوها بولس الرسول «حميم الماء بالكلمة» (أفسس ٥:٢٥- ٢٨).

ويربط العلامة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م) بين استخدام المياه في المعمودية وبين الخلق الجديد فيقول:

[إن استخدام المياه يجب أن نفحص عنه، والنصوص الخاصة به كثيرة، بل هي منذ البدء. والمياه كانت إحدى العناصر الموجودة قبل ترتيب العالم، وكانت في حالة جمود قبلما صوّر الله كل شيء، لذلك ففي البدء الأول يقول الكتاب خلق الله السموات والأرض، ولكن الأرض لم تكن مرئية بعد، أي لم يكن لها شكل محدد، وكانت الظلمة على وجه الغمر، وروح الرب يرف على وجه المياه (انظر: تكوين ١:١-٢). ولعل أول ما يجب أن تكرمه أيها الإنسان هو عُمر المياه، فهي أقدم عناصر الكون.

وثاني شيء هو المقام الشريف للمياه لأنها كانت عرش الروح الإلهي، وهذا يعني أن الروح سُرَّ بالمياه أكثر من العناصر الأخرى...

وفي الحقيقة ألم تكن المياه هي التي رتبت خلق العالم كما رتبه الله؟... كانت المياه أول من أخرج كائنات لها حياة، وهذا لا يدهشنا بالمرة إذا كانت المياه في المعمودية

تعرف كيف تعطي الحياة. ألم تكن المياه عنصراً مساعداً في خلق الإنسان؟] (مقالة عن المعمودية ٣:٤).

كانت الغنوسية تعلّم أن المادة شريرة، وبالتالي لا يجوز أن تدخل في الأسرار، ولكن ترتليان لا يؤكد قداسة الماء فقط كعرش للروح الإلهي منذ بداية الخليقة، بل يؤكد حلول الروح على المياه، واستمرار بقائه يرف عليها لكي يمنح المادة (أي المياه) قوة فعّالة للتقديس.

ولقد وضع ترتليان مبدأ هاماً وهو أن الإنسان مكون من جسد وروح، ولذلك فإن ميلاده الجديد يتم بالماء والروح القدس. ولقد ركّز آباء الكنيسة من بعده على كل من الماء والروح، ودور كل منهما في ميلاد الإنسان الجديد. فالماء لتطهير الجسد والروح لتطهير النفس.

فيقول القديس غريغوريوس النيسي (٣٣٠- ٣٩٥م) في ذلك:

[عندما نبحث بدقة عن المعمودية بادئين من النبع الأصلي، أي إعلانات الأسفار، فإننا نجد أنه «إن لم يولد الإنسان من الماء والروح، لا يقدر أن يدخل ملكوت الله» (يوحنا ٣:٣)، فلماذا كان الماء والروح معاً؟ ولماذا لا يكفي الروح لكي يكمّل المعمودية؟ ذلك لأن الإنسان كما نعرفه جيداً مركبٌ وليس بسيطاً. ولذلك فإن الدواء أيضاً يجب أن يكون مركباً وليس بسيطاً لكي يشفي الطبيعة البشرية شفاءً كاملاً. ولذلك جسده المنظور يغتسل بالماء أي بالعنصر المنظور، أما نفسه التي لا تستطيع رؤيتها، فإن الروح القدس غير المنظور عندما ندعوه بالإيمان، يطهّر النفس].

وعن أهمية وجود المياه كعنصر أساسي في المعمودية يقول

القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م):

[لماذا تُعد المياه ضرورية للمعمودية؟ وهذا بدوره يقودنا إلى سؤال آخر، لماذا كان التراب ضرورياً لخلق الإنسان؟... إن الدور الذي تقوم به المياه ضروري ولا يمكن استبدال الماء بأي شئ آخر، وهذا نتحقق منه من الحادثة الآتية: عندما حلَّ الروح القدس قبل التعميد، لم يكتفي الرسول بذلك، لأن المياه ضرورية للتعميد، وليست شيئاً زائداً. فماذا قال: «هل يستطيع أحد أن يمنع الماء حتى لا يعتمد هؤلاء الذين قبلوا الروح القدس كما قبلنا نحن أيضاً» (أعمال ١٠:٤٧) فما هو دور المياه؟... في المياه يتم الدفن والموت والقيامة والحياة. كل هذه تحدث مرة واحدة عندما تغطس رؤوسنا تحت المياه كما لو كنا في قبر...] (عظة ٢٥ على إنجيل القديس يوحنا).

ويقول القديس غريغوريوس النزينزي (٣٢٩- ٣٨٩):

[لأننا من طبيعتين، أعني الجسد والنفس، الأول منظور والثاني غير منظور، لذلك فإن التطهير هو أيضاً مركب من الماء والروح. التطهير المنظور بالماء للجسد، والثاني المصاحب له غير منظور ولا يخص الجسد. الأول ظاهر والثاني خفي يطهّر الأعماق] (عظة ٤١ على المعمودية).

لقد شدد آباء الكنيسة على أهمية المياه في المعمودية، والقديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م) أفاض في شرح ذلك فيقول:

[المياه تطهر الجسد، والروح يختم النفس لكي تقترب من الله، وقد رُشت قلوبنا بالروح، واغتسلت أجسادنا

بماء نقي (عبرانيين ٩:١٩)، ولكي تولد النفس مرة ثانية بالإيمان، فالجسد يشترك في النعمة بالماء] (عظة ٣:٣).

ويقول أيضاً:

[إن أراد أحد أن يعرف سبب إعطاء النعمة بواسطة الماء دون سواه، فليتعلم هذا من الكتاب المقدس. الماء شيء عظيم، وهو ألطف العناصر المنظورة التي تكون منها العالم... فقبل الأيام الستة التي فيها تكونت الأشياء كان «روح الله يرف على وجه المياه» (تكوين ١:٢). فالماء هو بدء العالم، كما أن الأردن هو بداية البشارة بالإنجيل. خلاص إسرائيل من فرعون كان خلال البحر، وخلاص العالم من الخطيَّة يتم بغسل الماء بكلمة الله (انظر: أفسس ٥:٢٦). وحيث يُقطع عهد يكون الماء أيضاً، فبعد الطوفان قُطع عهد مع نوح، ومن جبل سيناء كان هناك عهد بماء وصوفا قرمزياً وزوفا (عبرانيين ٩:١٩). إيليا صعد إلى السماء في وجود الماء، إذ عبر أولاً على الأردن، وبعد ذلك ارتفع في مركبته إلى السماء. رئيس الكهنة كان يلزمه أن يغتسل قبل أن يقدّم بخوراً، إذ اغتسل هرون وبعد ذلك صار رئيس كهنة، لأنه كيف يقدر أن يصلي عن الآخرين من لم يتطهر بالماء؟ كذلك كان يوجد في خيمة الاجتماع حرن يشير إلى المعمودية].

لقد شدد آباء الكنيسة على ضرورة الماء للمعمودية، بسبب أن بعض المبتدعين اعتبروا أن أي مادة سائلة بالإضافة إلى الماء تصلح لممارسة السر كالزيت والزئبق والخمر...الخ.

وقول القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م) الآتي ذكره، يوجز معنى كون المعمودية بالماء والروح وليس بأيهما فقط دون الآخر فيقول:

[أعطانا الرب مدبر حياتنا عهد المعمودية وجعله رمزاً للحياة والموت. فالمياه تكمل صورة الموت، أما الروح فهو يعطينا عربون الحياة. ومن هذا يمكننا أن نجيب بوضوح على السؤال عن علاقة الماء بالروح، ذلك أن غاية المعمودية مزدوجة:

أولاً: القضاء على جسد الخطيَّة لكي لا يثمر للموت (رومية ٦:٦؛ ٧:٥).

ثانياً: الحياة بالروح التي تثمر القداسة (رومية ٦:٢٢).

ويحدث هذا عندما تتقبل المياه الجسد، مثلما يتقبل القبر الجسد، بينما يسكب الروح القوة المحيية، ويجدد نفوسنا من موت الخطيَّة، ويعيدنا إلى الحياة الأولى]. (الروح القدس ١٥:٣٥).

وينهي القديس يعقوب السروجي (٤٥١- ٥٢١م) قصيدته عن المعمودية، والتي نظمها بالسريانية بقوله:

[تبارك الذي منحنا بطن الماء لكي نتحد به].

ثانياً: عمل الروح القدس في المعمودية.

الروح القدس يقدّس مياه المعمودية ليس لأن المياه نجسة، فكلمة "التقديس" تعني أيضاً "التخصيص"، و"التكريس"، و"الاشتراك في العمل الإلهي". فمعنى تقديس المياه أن تنال قوة إلهية غير طبيعية أي ليست من طبيعة المياه، لكي تلد الإنسان من جديد.

يقول القديس كليمندس الإسكندري (١٥٠- ٢١٥م):

[المسيح اعتمد لكي يقدس المياه للذين سيولدون من جديد].

ويقول العلامة أوريجانوس (١٨٥- ٢٥٤م):

[إن كل ما ارتبط بالمياه أخذ معناه من معمودية المسيح في الأردن وليس العكس].

ويقول القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م):

[ليست المياه هي صاحبة الفاعلية، ولكنها تصبح فعّالة متى قبلت نعمة الروح القدس، عندئذ تزيل تماماً خطايانا] (عظة ٣٦ على إنجيل القديس يوحنا).

ويقول القديس إبيفانيوس (٣١٥- ٤٠٣م) في عظة له عن الروح القدس:

[المياه وحدها لا يمكن أن تطهرنا، ولكن القوة التي في المياه. ثم الإيمان وعمل الله والرجاء في القوة التي تكمّل الأسرار، أي استدعاء مصدر القداسة (الروح القدس)].

ويؤكد ذلك أيضاً القديس كيرلس الكبير (٤١٢- ٤٤٤م) فيقول:

[المياه البسيطة بعد استدعاء الروح والمسيح والآب تتقبّل قوة جديدة للتقديس] (٣: ٣٠).

إن عمل الروح القدس في مياه المعمودية توضحه معمودية المسيح نفسها، حينما حلّ الروح القدس عليه وعلى المياه، وهو ما جعل الكنيسة تستدعي الروح القدس في خدمة المعمودية. وفي ذلك يقول العلامة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م): [اعتمد المسيح أعني طهّر الماء بعماده] (ضد

اليهود: ٨). فنستطيع أن نلخّص عمل الروح القدس في المعمودية أنه يقدّس الماء الذي يعمِّد، والإنسان الذي يعتمد. وفي ذلك يقول القديس يعقوب السروجي (٤٥١- ٥٢١م) في قصيدته عن المعمودية المقدسة والتي ألّفها بالسريانية:

[أيها الشمس العظيم الذي أحلَّ نوره في داخل المياه، أشرق فيَّ فأستنير وأتحدث بجمالك وأنا متعجب[١٠]].

ويقول القديس غريغوريوس النيسي (٣٣٠- ٣٩٥م):

[حينما تدخلون في الماء لا تجدون بعد ماءً بسيطاً، بل تنتظرون خلاصاً بالروح القدس. لأنكم تستطيعون بلا مانع أن تصلوا إلى الكمال. وهذا الكلام ليس كلامي، بل كلام الرب يسوع المسيح نفسه، الذي له السلطان في هذا السر، كما في بقية الأسرار وهو: «إن كان أحد لا يولد من الماء والروح فلا يقدر أن يدخل ملكوت الله» الذي معناه أن لا تكون المعمودية بالماء فقط. لأن الذي يعتمد بالماء فقط لا يستحق نعمة الله، ولا ينالها كاملة، كما أن الذي لا يُختم في الماء مهما كانت أعماله الصالحة، لا يستطيع أن يدخل ملكوت السموات] (عظة ٣:٢).

والقديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م) يقول أيضاً:

[عندما تنزلون في الماء لا تفكروا في المادة مجردة، بل تطلعوا إلى الخلاص بقوة الروح القدس. لأنه بدونهما كليهما لا يمكن أن تصيروا كاملين. فمن يعتمد بالماء ولا يكون متأهلاً للروح لا يتقبل نعمة الكمال] (عظة ٣:٤).

---

١٠ – المجلة البطريركة، العدد ٤٦، شباط ١٩٦٧م، السنة الخامسة، ص ٣٠٧.

وفي عظة أخرى له يقول أيضاً:

[كما أن الذي يدخل في الماء ويُعمَّد ينغمر بالمياه من كل جهة، هكذا قد اعتمد تماماً من الروح أيضاً. الماء يغمر من الخارج، وأما الروح فيعمِّد النفس داخلياً بلا انقطاع] (عظة ٣:٢).

٨- معمودية الدم أو الشهادة:

يقول القديس باسيليوس الكبير(٣٣٠- ٣٧٩م):

[إن بعضنا نالوا الموت بالجهاد الذي عن حسن العبادة، لأجل المسيح حقيقة لا اقتداءً، ولم يحتاجوا إلى شيء من الرسوم التي من الماء لخلاصهم، لأنهم اعتمدوا بدمهم] (إلى لامفيلوشيوس عن الروح القدس ١٥:٣٦).

ويقول القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات (٣٢٩- ٣٨٩م):

[إنني أعرف معمودية أخرى أيضاً وهي معمودية الشهادة أو الدم، المعمودية التي اعتمدها مخلصنا نفسه، هذه المعمودية هي أكثر مجداً من غيرها] (عظة في عيد الظهور الإلهي).

والقديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م) يقول:

[من لا يقبل المعمودية فلا خلاص له، ما عدا الشهداء وحدهم الذين بدون الماء ينالون الخلاص، لأن المخلص لما كان يفتدي العالم بالصليب نُخس في جنبه، فخرج منه دم وماء ليعتمد البعض بالماء في أوقات السلام، والبعض الآخر

بدمهم في أوقات الاضطرابات. إن المخلص دعا الشهادة صبغة (أي معمودية) بقوله: «هل تستطيعان أن تشربا الكأس التي أشربها أنا، وأن تصطبغا بالصبغة التي اصطبغ بها؟»] (عظة ٣:٨).

* * *

وفي النهاية نورد هنا صفحة من مخطوط بمكتبة دير القديس أنبا مقار تحت رقم (ق٢)، يعود إلى القرن السادس عشر، وهو مخطوط يحوي مجموعة قوانين كنسية. ولكن الناسخ دوَّن في إحدى ورقاته تأملاته الخاصة، ننقل منها ما يختص بالمعمودية موضوع حديثنا فيقول:

هناك تسع معموديات:

الأولى: معمودية موسى في السحاب والبحر.

الثانية: معمودية يشوع بن نون عند دخوله ببني إسرائيل أرض الميعاد.

الثالثة: معمودية يوحنا بالماء للتوبة.

الرابعة: معمودية المخلص من يوحنا.

الخامسة: معمودية التلاميذ بالروح القدس (في يوم الخمسين).

السادسة: دم الشهداء عند سفك دمائهم.

السابعة: دموع الخطاة عند التوبة بالاعتراف.

الثامنة والتاسعة: معموديتا لبس القلنسوة (الرهبنة)، والإسكيم.

الفصل الرابع

معمـــودية واحـــدة

المعمودية المسيحية لا تُعاد مرة ثانية، لأنها موت مع المسيح وفيه (رومية ٦:٨) لمرة واحدة، وقيامة معه كل حين. فهي سمة لا تمحي أبداً[1]. وقوانين الرسل القديسين تدعو هذا السر سراً لا يُمحي، وختماً لا ينكسر. فيقول القانون ٤٧ من قوانين الرسل: "أسقف أو قسيس يُعمِّد ثانية من كان قد اقتبل المعمودية الحقيقية، أو لم يعمِّد من تدنس مع غير المؤمنين، فليُجرَّد كمستهزئ بالصليب، وبموت الرب، ولم يميِّز الكهنة الكاذبين" .

ويعلل القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م) ذلك بقوله:

[قد دُفنا معه بالمعمودية للموت، وكما أنه غير ممكن أن يُصلب المسيح مرة ثانية، هكذا لا يقدر من قد اعتمد مرة أن يقبل معمودية ثانية] (مقالة ١١:٣ على العبرانيين).

ويؤكد العلامة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م) أن المعمودية لا يجوز أن تُعاد، وهو ما يؤكده القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م) في المقال الافتتاحي لطالبي العماد فيقول لهم:

[إننا لا ننال المعمودية مرتين أو ثلاثاً... لأنه يوجد «رب واحد وإيمان واحد ومعمودية واحدة» (أفسس

---

١ – انظر: روميه ٦:٤-٦؛ كولوسي ٢:١٢؛ عبرانيين ٦:٤، ٧:٢٧، ٩:١٢، ١٠:١٠

٤:٥)، فلا تعاد المعمودية إلاّ معمودية الهراطقة إذ لا تُحسب معمودية].

وفي نص هام للقديس جيروم (٣٤٢- ٤٢٠م) يقول فيه:

[نحن نغطس ثلاث مرات، لكن سر الثالوث هو واحد، لأننا لا نعتمد بأسماء ثلاثة آلهة بل باسم الإله الواحد. ورغم أننا نغطس ثلاث مرات تحت الماء إلاّ أننا نؤمن بمعمودية واحدة] (تفسير الرسالة إلى أفسس ٢:٤).

وقوانين الرسل القبطية تذكر في ذلك: "لأن الذين تعمّدوا أو قُسموا بواسطة هؤلاء القوم (الهراطقة)، لا يمكن أبداً أن يصيروا مؤمنين، أو من الإكليروس" . (القانون ٢ :٤٨)[٢].

ويقول مار أفرآم السرياني (٣٠٦- ٣٧٣م):

[إن الرب أوصى تلاميذه أن ينقّوا بمياه المعمودية خطايا الطبيعة البشرية مرة واحدة] (كتاب الإيمان ٤:٩).

والحديث عن المعمودية الواحدة لابد وأن يقودنا بالضرورة للتعرض لموضوعين آخرين يرتبطان به ارتباطاً وثيقاً وهما:
- معمودية الهراطقة.
- معمودية الذين يعتمدون من أجل الأموات.

ذلك لأن إعادة المعمودية أو تكرارها كان أحد المشكلات الرئيسية التي أقلقت سلام الكنيسة الأولى ردحاً من الزمان امتد لقرون عديدة، بدءًا من منتصف القرن الثالث الميلادي، وهي الفترة التي تبلور

٢- وهو القانون ٦٨ من قوانين الرسل في الكنيسة اليونانية.

فيها لاهوت المعمودية ليقاوم عدم قانونية معمودية الهراطقة.

أولاً: معمودية الهراطقة:

فمجمع قرطاجنة المكاني، وهو أقدم المجامع الكنسية عموماً، والذي عُقد برئاسة القديس كبريانوس الشهيد (+ ٢٨٥م)، أسقف قرطاجنة[٣]، قد نظر في مسألة معمودية المرتدين إلى الكنيسة من المبتدعين أو من المنشقين عليها.

وكان قد عُقد في مدينة قرطاجنة في شمال أفريقيا مجامع كثيرة، وكانت الثلاثة مجامع الأولى منها للنظر في مسألة إعادة المعمودية.

المجمع الأول: اجتمع سنة ٢٥٥م، وحدد أنه لا يمكن لإنسان أن يُعمَّد خارج الكنيسة، لأن الكنيسة لا تعترف إلاَّ بمعمودية واحدة. والمرتدون إلى الكنيسة الجامعة من المبتدعين يجب أن يُعمَّدوا ثانية. وإن كان البعض قد انضموا إلى المبتدعين بعد معمودية أرثوذكسية، فيجب قبولهم عند ارتدادهم دون معمودية خلافاً لتعليم نواطس، بل يُكتفى بالصلاة ووضع اليد عليهم. (المجمع الأول، القانون الثامن).

المجمع الثاني: إلتأم سنة ٢٥٨م، وحضره ٧١ أسقفاً، وقد دعا إليه

٣- كانت قرطاجنة مدينة شهيرة في أفريقيا، بل ومن أهم مدنها. بناها الفينيقيون وأقاموا فيها قبل سقوط طروادة بخمس سنوات، وجُعلت مركز مطرانية، وكان تحت رئاسة مطرانها ١٢٥ أسقفا. وكان لمطرانها امتياز خاص ورثه بموجب تقليد قديم، فقد كان له الحق أن يأخذ من أية إيبارشية خاضعة لمطرانيته أحد الإكليريكيين فيقيمه أسقفاً. ولما انتصر الإمبراطور جوستنيان (٤٨٣- ٥٦٥م) على الفندال في أفريقيا، وصارت تحت سلطانه، منح أسقف قرطاجنة بمرسوم منه الاستقلال في إدارته الكنسية، فيتم انتخابه وتنصيبه من قِبَل أساقفته. وقد أمست قرطاجنة اليوم أطلالاً دارسة، ومن خرائبها بُنيت مدينة تونس الشهيرة على بعد ١٢ ميلاً إلى الشرق منها.

القديس كبريانوس الشهيد ليثبّت الشريعة التي وضعها المجمع السابق بشأن إعادة المعمودية. فحدد ما يلي:

- كل الإكليريكيين الذين كانوا في الكنيسة وهجروا الإيمان يُقبلون عند ارتدادهم كالعلمانيين.

- كل معمودية قام بها المبتدعون باطلة، وكل من يرتد بعد معمودية كهذه، يجب أن يُعمَّد معمودية أرثوذكسية، ولا يعني ذلك عمادة ثانية بل هي المعمودية الواحدة، إذا لم يسبق لهم أن نالوا المعمودية الحقيقية.

وأرسل المجمع رسالة إلى إسطفانوس أسقف روما (٢٥٤-٢٥٧م)، ليشرح له فيها ما تحدد بخصوص إعادة المعمودية.

المجمع الثالث: عُقد في السنة نفسها، أي سنة ٢٥٨م، برئاسة القديس كبريانوس، وحضره ٨٤ أسقفاً، وذلك بعد تلقّي رد الأسقف إسطفانوس على الرسالة التي أرسلها اليه المجمع الثاني السابق ذكره. فلقد عقد الأسقف إسطفانوس مجمعاً في روما وحدد فيه: أن معمودية المبتدعين الذين يعمّدون كما تعمّد الكنيسة، لا يجوز إعادتها. وهدد أساقفة أفريقيا بالطرد من شركة الكنيسة إذا استمروا في تنفيذ هذه الممارسة. ولقد وصلت كنائس الغرب إلى حد أنها كانت تقبل الأشخاص الذين اعتمدوا بمعمودية الهراطقة بمجرد وضع الأيدي عليهم[٤].

فدعا القديس كبريانوس إلى عقد هذا المجمع الثالث ليثبت أن معمودية المبتدعين تعد باطلة، ويلزم تعميد المرتدين خلافاً لما حدده الأسقف إسطفانوس. فنشب خلاف بين أساقفة روما، وأساقفة أفريقيا.

ومثل هذا الخلاف كان قد نشب أيضاً بين الأسقف إسطفانوس وأساقفة آسيا، فقد كتب إليهم أسقف روما ألاّ يعيدوا معمودية

٤- *O D C C*, (edition 2), op. cit., p. 128.

المبتدعين، طالما تمت بحسب طقس الكنيسة الجامعة. فعقد أساقفة آسيا مجمعاً في إيقونية سنة ٢٥٨م، برئاسة القديس فرمليانوس أسقف قيصرية الجديدة، وحضره آباء من كبادوكية، وليكية، وغلاطية، وغيرها من الإيبارشيات الشرقية، وارتأوا عدم قبول شئ من الأسرار التي يقوم بها المبتدعون لأنها باطلة بما فيها معموديتهم وسيامتهم.

أما رسالة القديس كبريانوس التي كتبها في المجمع الثالث لتكون بمثابة قانون له، فقد جاء فيها:

"... إننا نرى ونعتقد متيقنين أنه لا يمكن لأحد أن يُعمَّد خارج الكنيسة، بمعنى أنه ليس هناك إلاّ معمودية واحدة في الكنيسة المقدسة. وقد جاء في الكتاب المقدس قول الرب نفسه: «تركوني أنا ينبوع المياه الحية، وحفروا لأنفسهم آباراً مشققة لا تمسك الماء» (إرميا ٢:١٣)... فالماء إذاً يجب أن يُنقى ويُقدَّس بواسطة الكاهن لتُغسل فيه، بالمعمودية، خطايا المستنير، تصديقاً لقول الرب بفم حزقيال النبي «وأنضح عليكم ماءً طاهراً فتطهرون من جميع نجاساتكم، وأطهركم من جميع أصنامكم، وأعطيكم قلباً جديداً، وأجعل في أحشائكم روحاً جديدة» (حزقيال ٣٦:٢٥،٢٦). ولكن كيف يستطيع من هو نفسه غير طاهر أن يُطهّر ويقدّس الماء، وهو خال من الروح القدس؟ ولذلك يقول الرب في سفر العدد «وكل ما يلمسه النجس يكون نجساً، وكل من لمس النجس يكون نجساً إلى المغيب» (عدد ١٩:٢٢). وكيف يستطيع من لا يقدر أن يحرر نفسه من خطاياه، وهو خارج الكنيسة أن يمنح آخر في تعميده غفران خطاياه؟

بل إن الأسئلة التي تُطرح على المتقدم للإستنارة تشهد بالحقيقة. فعندما نسأله: أتؤمن بالحياة الأبدية ومغفرة الخطايا بواسطة الكنيسة المقدسة؟ نعني أن مغفرة الخطايا لا تُمنح إلاّ في الكنيسة. ولما لم يكن للمبتدعين كنيسة، فيستحيل عليهم مغفرة الخطايا...

ثم إنه لابد للمعتمد أن يُمسح للرب بمنحه مسحة الميرون المقدس، وحصوله في داخله على نعمة المسيح، أما الذي ليس له كنيسة ولا مذبح، فلا يستطيع أن يقدّس الزيت...

وما هو نوع الصلاة التي يقدمها كاهن رجس خاطئ في المعمودية؟ وقد كُتب «إن الله لا يسمع للخطاة، ولكن إن كان أحد يتقي الله ويعمل مشيئته فإنه يستجيب له» (يوحنا ٩: ٣١). ومن يستطيع أن يعطي ما ليس عنده؟ أو كيف يقدر أن يقوم بالأعمال الروحية من قد حُرم هو نفسه من الروح القدس؟ ...

وهكذا فكل من خُدع وحُمل على السير في طريق الضلال، واغتسل خارجاً يجب أن يخلع عنه هذا أيضاً بالمعمودية الحقيقية في الكنيسة...الخ[٥]».

بعد هذا الشد والجذب بين الشرق والغرب، وضع الموت خاتمة موقتة لهذا المشهد، إذ انتقل إسطفانوس الأول أسقف روما سنة ٢٥٧م، وبعده بسنة واحدة استشهد القديس كبريانوس.

وسرعان ما انتعش النزاع من جديد مع بداية القرن الرابع الميلادي، بواسطة الدوناتيين Donatists أتباع دوناتس المبتدع[٦]، والذي

٥- الأرشمندريت حنانيا كساب، مجموعة الشرع الكنسي، منشورات النور، ١٩٧٥م، ص ٧٥٥- ٧٥٩

٦- هو أسقف أفريقي، انشق هو وأتباعه عن الكنيسة الجامعة بحجة أن كاكليانوس أسقف قرطاجنة الذي سيم سنة ٣١١م، قد خان الإيمان في زمن الإضطهاد، فسلم الكتاب المقدس لمأموري محكمة التفتيش الوثنية. ولكن الأرثوذكسيين كانوا قد رفضوا هذا الزعم متهمين الدوناتيين بأنهم كانوا يعطفون على من خانوا وسقطوا، بالإضافة إلى إتهامهم بالبدعة الأريوسية.

وتقول هذه الشيعة: إن الخطاة في الكنيسة ينقلون عدوى خطاياهم إلى الآخرين، كما يُعدي المرضى الأصحاء. فينبغي أن يُقطع الخطاة من شركة الكنيسة وعضويتها.

ولقد عقدت هذه الشيعة عدة مجامع لها في كل من أفريقيا وإيطاليا.

زعم بصلاحيـة المعموديـة إذا مُنحـت بواسـطة هرطوقـي أو حتـى خـادم كنسي غير مستحق. أما مجمع آرل Arles الـذي عُقـد سـنة ٣١٤م، فقـد عدَّل فقط هذه النظرة، موضحاً أن معموديـة الهراطقـة تصبـح شـرعية إذا مُنحت باسم الثالوث، وهو التعليـم الـذي انتشـر في الغـرب علـى نطـاق واسع تحت تأثير تعليم القديس أغسطينوس الذي قرر اعتماد قانونية السر بوجوب شكله الصحيح الذي وضعه السيد المسيح، بغض النظر عن إيمان أو أهلية خادم السر(٧).

في هذا الخضم من الارتباك، عُقد مجمع نيقية المسكوني الأول سنة ٣٢٥م، وقرر في قانونه التاسع عشر أن معمودية الهراطقة يجـب أن تُعـاد، معززاً قانون مجمـع قرطاجنـة بخصـوص لـزوم إعـادة معموديـة الهراطقـة. فيقـول: "إننـا نحـدد أن أتبـاع بولـس الساموسـاطي(٨) الذيـن لجـأوا إلى الكنيسة الجامعة يجب أن تُعاد معموديتهم على كل حال...الخ".

أما مجمع اللاذقية الذي عُقد سنة ٣٤١م، فقد أكّد في قانونه الثامن على وجوب إعـادة معموديـة المونتـانيين أتبـاع مونتـانوس(٩)، وأن يقـوم بتعميدهـم أساقفة الكنيسة وقسوسها. وهكذا أيضاً قرر المجمـع المسـكوني الثاني في القسطنطينية سنة ٣٨١م، في قانونه السابع رفض معموديتهم.

٧- *O D C C*, (edition 2), p. 128

٨- صار أسقفاً نحو سنة ٢٦٠م، على أنطاكيا، وكان يعلّم ضد الثـالوث، وأسـقطه مجمع مكاني في أنطاكية عُقد فيها سنة ٢٦٩م.

٩- هم أتباع مونتانوس، وكان وثنياً اعتنق المسيحية في القـرن الثـاني، وادّعـى أن الروح القدس أوحى إليه بطريقة خاصة أن يتنبأ. وتبعه عدة أشخاص كان مـن بينهـم العلامة ترتليـانوس، وبعـد أن حكمـت الكنيسـة عليه، أنشـأ أتباعـه شيعة اشـتهرت بصرامة تقشـفها، ولم تحـدث هـذه الشيعة في بداية أمرهـا تبديـلاً في مـواد دسـتور الإيمان، ودامت زمنا طويـلاً، وانتشـرت في فريجيـة. ولـذا دُعي أيضـا أتباعهـا باسـم الفريجيين.

وبرغم كل ذلك ظلت مشكلة الاعتراف بصحة معمودية المونتانيين من عدمها زمناً طويلاً في الكنيسة، وكان تردد الكنيسة في هذا الأمر آنئذ يعود إلى أسباب عديدة:

- يؤكد العلامة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م) أن إيمان المونتانيين صحيح، وأن لهم الأسرار نفسها، ولاسيما سر المعمودية.
- شهد القديس إيفانيوس (٣١٥- ٤٠٣م) أن تعليمهم فيما يختص بالآب والابن والروح القدس هو كتعليم الكنيسة الجامعة.
- شهد البابا ديونيسيوس الكبير (٢٤٨- ٢٦٥م) بصحة معموديتهم.

أما بعض آباء الكنيسة الآخرين فقد نظروا إلى المونتانيين نظرة شك وريبة، لأن إعرابهم عن إيمانهم يكتنفه شيء من الغموض. فهم يدعون زعيمهم مونتانوس بأنه الروح القدس. لذلك انتقدهم فرمليانوس، وباسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م)، وكيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م)، معتبرين معموديتهم باطلة.

فيرى القديس باسيليوس أن المونتانيين يعمّدون باسم الآب والابن ومونتانوس. وهم وإن لم يغيّروا شيئاً من رسم المعمودية إلاَّ أن تعبيراتهم الغامضة عن مونتانوس والروح القدس كافية للقول بأن الأفضل أن تُعتبر معموديتهم باطلة. بالإضافة إلى أن عدداً وافراً منهم قد سقط في هرطقة سابيليوس، وعلى ذلك تُعتبر معموديتهم باطلة حتماً[١٠].

ومجمع قرطاجنة الذي عُقد سنة ٤١٩م، وحضره ٢١٧ أسقفاً، في زمن الإمبراطور ثيودوسيوس الصغير (٤٠١- ٤٥٠م) والمعروفة قوانينه

١٠- حنانيا كساب، مجموعة الشرع الكنسي، مرجع سابق، ص ١٩٩

باسم "قوانين الكنيسة الأفريقية[١١]"، كان قد عُقد لإصدار الحكم ضد بعض المبتدعين أمثال بيلاجيوس وكليستيوس تلميذه، ودوناتس...الخ، وأورد هذا المجمع عن الدوناتيين القوانين ٤٧، ٦٨، ٦٩، ويظهر منها زيادة إنتشار هذه الشيعة في أفريقيا، وامتداد نفوذها، مما استوجب من الكنيسة الجامعة معاملتهم بما يضمن سلام الكنيسة وهدوئها.

ففي القانون ٤٧، يستشير المجمع بعض الأساقفة فيما يختص بالأطفال الذين عمدهم الدوناتيين، لأنهم لم يفعلوا ذلك باختيارهم، بل لضلال والديهم، فهل يمنعهم ذلك عند ارتدادهم للكنيسة عن التقدم لخدمة المذبح؟

وفي القانون ٦٨، سمح المجمع للدوناتيين من الإكليريكيين أي من الأساقفة والقسوس وغيرهم، إذا أرادوا الرجوع إلى الكنيسة الجامعة، ألاّ يُمنع قبولهم بحسب رتبهم، إذ يحسن أن الجميع يخلصون وأن يستتب السلام في الكنيسة ويزدهر.

ويقول أريستينوس معقباً على هذا القانون: إن الدوناتيين الذين تابوا ولعنوا بدعتهم، يُسمح لهم بأن يبقوا في رتبهم الإكليريكية، ذلك لأن الكنيسة الجامعة في أفريقيا كانت تعاني من نقص شديد في عدد الإكليريكيين، وهو ما رآه أيضاً جونسون[١٢] الذي أضاف بأن كل أسقف في إيبارشيته، وبحسب نص القانون، قد تُركت له حرية قبول الإكليريكيين من الدوناتيين إذا شاء قبولهم.

والقانون ٦٩، استحسن أن تُرسل وفود تبشّر وتعلم الدوناتيين من

---

١١ - كان من أشهر آبائه أوريليوس أسقف قرطاجنة، وظل منعقداً ست سنوات كاملة، واختتم أعماله سنة ٤٢٤م، ووضع ١٤٠ قانوناً.

١٢ - هو صموئيل جونسون (١٧٠٩ - ١٧٨٤م)، أحد لاهوتيي كنيسة إنجلترا البارزين في القرن الثامن عشر. *ODCC*, ed. 2, p. 755

أساقفة وشعب، لوعظهم ودعوتهم إلى السلام والوحدة، وإيمان الكنيسة.

وظلت معمودية الهراطقة تقلق الكنيسة حتى القرن السابع الميلادي، عندما عُقد مجمع ترولو سنة ٦٩٢م، ولخّص في قانونه الخامس والتسعين كل القوانين السابقة للمجامع التي سبقته بخصوص هذا الأمر، وكيفية قبول المرتدين من المبتدعين إلى الإيمان. وبرغم أن الكنائس الشرقية القديمة، لا تعترف بهذا المجمع، ولا بقوانينه، إلاّ أنه يعنينا فقط من الوجهة التاريخية.

ويلخّص العالم القانوني هيفيليه[١٣] القضية كلها بقوله: الذي يلوح لي وأكاد أجزم به، أنه مهما كان الأمر، فعلماء اللاهوت والآباء الأقدمون كانوا يعتقدون أنه ولو أتمّ المنشقون أو المبتدعون الطقس الخارجي للمعمودية المقدسة بصورة قانونية، فالشخص الذي يعمدونه، لم ينل نعمة الروح القدس. ولم يكن هذا الرأي منحصراً في الشرق، بل كان شائعاً في الغرب أيضاً[١٤].

وجدير بالذكر أن مجمع قرطاجنة الذي عُقد سنة ٤١٩م، يذكر في قانونه رقم ٧٢ ما يلي:

"قد استحسن المجمع أنه حيث لا يوجد شهود ثقة، يشهدون بأن الأطفال قد عُمدوا، وهؤلاء لصغر سنهم لا يدركون أن يعطوا جواباً عن أنفسهم إن كانوا قد نالوا هذا السر، فيجب أن يُعمّدوا بدون تردد، لئلا يُحرموا لهذا السبب من نعمة التطهير والتقديس. وقد ألحّ بهذا الطلب

---

١٣ – اسمه بالكامل "كارل جوزيف هيفيليه – Karl Joseph Hefele " (١٨٠٩–١٨٩٣م) وهو مؤرخ كنسي، وأستاذ التاريخ في جامعة توبنجن Tübingen، وصار أسقفاً على روتنبرج Rottenburg سنة ١٨٦٩م، ومن أشهر مؤلفاته "تاريخ المجامع الكنسية". *ODCC*, ed. 2, p. 627

١٤ – حنانيا كساب، مجموعة الشرع الكنسي، مرجع سابق، ٦٠٦، ٦٠٧

إخوتنا الغائبون في مراكش (المغرب) وجنوبي أسبانيا، لأنهم يحررون عدداً وافراً من الأطفال من بلاد البربر".

ثانياً: معمودية الذين يعتمدون من أجل الأموات:

وهي أحد المشاكل التي ظهرت في أيام القديس بولس الرسول، واستمرت في الكنيسة حوالي سبعة قرون أو يزيد قليلاً، فيكتب الرسول بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس ويسأل: «وإلاّ فماذا يصنع الذين يعتمدون من أجل الأموات. إن كان الموتى لا يقومون البتة فلماذا يعتمدون من أجل الأموات؟» (١ كورنثوس ١٥:٢٩). فهؤلاء الذين كانوا يعتمدون من أجل موتاهم كانوا يؤمنون بالقيامة، فكانوا يعتمدون من أجل الذين ماتوا و لم يعتمدوا لئلا يخسروا ميراث الحياة الأبدية.

وهذه العادة الغريبة نسمع عنها أيضاً في القرن الخامس في مجمع قرطاجنة المكاني الذي عُقد هناك سنة ٤١٩م، وذلك في القانونين ١٨، ٢٠، ففي القانون ١٨ يقول: "لا يجوز أن تعطى جثث الموتى سر المعمودية...". وفي القانون ٢٠ يقول: "... يجب ألاّ يدفع القسوس جهلهم إلى تعميد الأموات". ولكن الأكثر غرابة أن نسمع عن هذه الممارسة أيضاً حتى القرن السابع، إذ كانت لا تزال عادة التعميد من أجل الأموات سارية بين الناس، مما استلزم مجمع ترولو سنة ٦٩٢م، أن يصدر قانوناً (القانون ٨٣) يحرّمها، معيداً التذكير بقوانين سبقت في هذا الشأن.

والأغرب من هذا وذاك أن هذه المعمودية الغريبة قد سلّم بها العلامة ترتليان[١٥] (١٦٠- ٢٢٥م)، وآخرون أتوا من بعده، مثل بطرس

١٥- *Contra Marcion*, l. V, C. X

أسقف كلوني Cluny، وثيوفلاكت[١٦]، وغيرهم.

ولاشك أن هناك صعوبات لاهوتية تواجهنا في هذا الشأن، وهو ما دفع كثيرين من مفسري الأسفار المقدسة أن يقدموا شروحات متباينة في ذلك. فالقديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م)، ومعه آخرون فهموا النص بالأسلوب الآتي: "فلماذا يعتمدون لجسد هو عرضة للموت". أما ثيودوريت (٣٩٣- ٤٦٦م) ومعه آخرون فقد رأوا أن التعميد من أجل الأموات يعني التعميد من أجل الأعمال الميتة للخطيَّة. وظهرت شروحات أخرى تفسّر النص على أنه معمودية أولئك الذين يعتمدون على فراش الموت في مرضهم الأخير الذي يكونون فيه كالأموات...وهكذا.

وإن كان العلامة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م)، والقديس إبيفانيوس (٣١٥- ٤٠٣م)، قد شهدا لتلك المعمودية التي من أجل الأموات[١٧]، فإن القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م) في عظته الحادية عشرة على الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس، قدّم عن هذه المعمودية الغريبة تفصيلات أغرب، فيقول إنه عندما يموت واحد من أتباع ماركيان الهرطوقي، يضطجع واحد من الأحياء تحت سرير الميت، ثم يطلبون إلى جثة الميت إن كانت تستطيع أن تتقبل المعمودية، فيجيب الحيّ عن الميت بالإيجاب، ويقبل المعمودية في مكانه بدلاً عن الميت[١٨].

وهناك نص عند القديس إيريناوس (١٣٠- ٢٠٠م) ربما كان تفسيراً لنفس هذا الأمر[١٩]. وفي زمن القديس أغسطينوس (٣٥٤-

---

١٦- هو شارح للأسفار المقدسة، ومتضلع فيها، وهو بيزنطي، عاش في القرن الحادي عشر.

١٧- *Contra Marcion*, 1. V, C. X & Epiphane, *Contra Haer.*, XXVIII, cvi

١٨- Jean Chrysost., *Homil., XI, in 1 Cor.* - *PG* LXI, col. 347.

١٩- Theodor. Hæret. Fabul., 1. I, c. xi - *PG* LXXXIII, col. 361.

٤٣٠م) نجد أن معمودية الموتى كانت تُمارَس بواسطة بعض الجهّال من المؤمنين، مما استوجب أن يدافع مجمع قرطاجنه الثالث عن عدم شرعية معمودية الموتى، أو منحهم سر الإفخارستيّا.

والنص الذي أورده القديس بولس يقبل في هذا الخصوص تفسيراً طبيعياً جداً، لأن النص لا يقر أمراً بوجوب هذه الممارسة، لكنه يستخدم هذه الممارسة التي شاعت في ذلك الزمان، كحجة وبرهان يؤكد ويثبت وجود قيامة للأموات، لأنه إن كان الموتى لا يقومون فما هي جدوى قبول المعمودية لأجلهم من أولئك الذين يمارسون هذه الممارسة الغريبة. فهذه الممارسة إذاً قد استخدمها الرسول لصالح أولئك الذين يدافعون عن قيامة الموتى[٢٠]. لكنها من جهة أخرى توضح مقدار أهمية المعمودية وخطورتها في ذهن الكنيسة، إذ بموجبها فقط يمكن للإنسان أن يقوم من الموت في اليوم الأخير لنصيب في الحياة الآتية، إصغاءً لقول الرب: «من لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت السموات»، أو حتى يعاين هذا الملكوت.

وسرعان ما تلاشت هذه المعمودية الغريبة، ليس من جهة ممارستها فقط، بل من ذهن المؤمنين الذين صاروا يعمدون أولادهم منذ طفولتهم، فلم يعودوا يخشون موتهم قبل معموديتهم. وفي ذلك نذكر ما قاله الأب ألكسندر شميمان: "إن المسيحيين الآن يبذلون المستحيل ليعمدوا أولادهم، {ليجعلوهم} مسيحيين، ولكن كم شخصاً بينهم يهتم حقاً بأن يفهم كيف تجعل المعمودية الإنسان مسيحياً؟، وماذا يحصل فعلاً في المعمودية؟ ولماذا يحصل ما يحصل؟[٢١]" .

٢٠- *DACL*, t. 2, p. 380, 381

٢١- ألكسندر شميمان، بالماء والروح، مرجع سابق، ص ٨٢

الفصل الخامس

زمان ومكان المعمودية

أولاً: زمان المعمـــــودية

كانت المعمودية تُعطى في البداية في ليلة عيد الفصح، وسرعان ما تبعه عيد العنصرة كمناسبة ثانية لمنح المعمودية، ثم بعد قليل صار عيد الظهور الإلهي أيضاً هو المناسبة الثالثة للتعميد. ففي مقال العلامة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م) عن المعمودية (فصل ١٩) يقول:

> [الفصح هو الوقت الذي نحتفل فيه بآلام المسيح، والذي فيه نعتمد. بعد ذلك العنصرة حيث هناك متسع كبير جداً من الوقت لهذا الغرض. لأنه في ذلك الوقت أظهر المسيح نفسه حياً للتلاميذ، وفيه أيضاً أُعطيت نعمة الروح القدس، وبشّر الملائكة بمجيئه الثاني].

ولقد راعت الكنيسة السريانية عادة المعمودية في مناسبة عيد الفصح، بشهادة كتاب عهد الرب، وأفراهات السرياني[1] (أوائل القرن

١- هو أول آباء الكنيسة السريانية، عاش في زمن اضطهاد شابور الثاني ملك الساسانيين (٢١٠- ٢٧٩م)، له ثلاث وعشرون عظة، كانت العظة العاشرة سنة ٣٣٧م، واكتملت العظة ٢٢ في سنة ٣٤٤م، أما العظة الأخيرة فكانت سنة ٣٤٥م. (*ODCC.*, ed. 2, p. 68)

الرابع)، والقديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م)[٢].

والقديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات (٣٢٩- ٣٨٩م) يخاطب الذين يؤجلون المعمودية، ويشير إلى عيد الغطاس كمناسبة كنسية أخرى لممارسة المعمودية فيقول:

[البعض يقول إنه سوف ينتظر الغطاس، اليوم الذي اعتمد فيه المسيح وظهر للعالم، والآخر يقول إنه يهتم بالفصح أكثر من غيره من الأعياد، والثالث يقول إنه سوف ينتظر العنصرة] (مقالة ٤٠ عن المعمودية).

ولقد حافظت كنيسة أورشليم، ومعها الكنيسة الأرمنية على هذه المناسبات الكنسية الثلاث في منح سر المعمودية[٣]، أما كنيسة مصر فتشير الوثائق القديمة إلى أنها كانت تمنح المعمودية في عيدي الفصح والغطاس، أما بعض الكنائس الشرقية الأخرى، بحسب شهادة المؤرخ سقراط (٣٨٠- ٤٥٠م)، فكانت تمنح المعمودية في ليلة عيد الغطاس فقط. (كتاب ٥:٢٢).

ولكن ظلت ليلة عيد القيامة، هي أكثر هذه المناسبات شهرة في منح المعمودية لطالبي العماد، إذ كان يسبقها فترة الصوم المقدس الكبير، كفترة ملائمة جداً لتلقين طالبي المعمودية مبادئ الإيمان المسيحي قبل معموديتهم. وفي ذلك يقول القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م):

[... كنت أسعى لأن أخبركم لماذا تغافل آباؤنا كل مواسم السنة، ورسموا أن تعتمدوا في هذا الموسم. إن

٢- *DACL*, t. 2, p. 276

٣- *DACL*, t. 2, p. 295

مراعاة الوقت ليس أمراً بسيطاً قد أُختير عبثاً، فهي دائماً نفس النعمة ولا يعوقها موسم دون غيره، لأن النعمة هي من الله... لكن لماذا رسم آباؤنا هذا العيد (ليكون فيه وقت المعمودية)؟ إن مِلِكَنا الآن قد انتصر في حربه ضد البربر، وكل الشياطين برابرة، وأكثر وحشية من البربر، الآن هو قد محا الخطيَّة، وداس الموت، وأخضع إبليس واسترد أسراه. فنحن في هذا اليوم نحتفل بذكرى هذه الانتصارات، لهذا رسم آباؤنا أن عطايا الملك توزّع في هذا الوقت، لأن هذه هي عادة المنتصرين... ولكي تكون أنت شريك الرب.. فاصلب نفسك بمعموديتك، لأنه يقول المعمودية صليب وموت (رومية ٦:٣)...] (تعليم المعمودية ١٠:٦،٧).

ويحدد القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م) ميعاد المعمودية بالضبط، أنها منتصف ليلة عيد الفصح، أي قبل بداية قداس العيد مباشرة، وفي حديث بهيج يعبّر عن فرحة الكنيسة كلها بأعضائها الجدد يقول:

[... بعد يومين يكون العُرس، قوموا اشعلوا مصابيحكم، وفي ضيّها الوهّاج استقبلوا ملك السموات. قوموا واسهروا لأن العريس سيأتي ليس أثناء النهار، بل في منتصف الليل، فهذه عادة الموكب الزيجي، أن تُعطى العروس لعريسها مؤخراً في المساء...] (تعليم المعمودية ١١:١).

وهو نفس ما تحدث عنه أيضاً في أنطاكية في عظة له في ليلة عيد

القيامة فيقول: [الذين مساء يوم أمس قد استحقوا نوال المعمودية(٤)].

إن اللحظة الفعلية التي كانت تُمنح فيها المعمودية، أي لحظة التغطيس في الماء في كنيسة مصر، كانت هي ساعة صِياح الديك ليوم الأحد gallicinium، أما في سوريا وفلسطين، فكانت تُمنح المعمودية في بداية سهر نصف الليل الذي يبدأ غروب يوم السبت، وهو ما ذكره العالم الليتورجي جور Goar في الإفخولوجيون السرياني القديم الذي نشره سنة ١٦٤٧م، "إبتداءً من الغروب، فليُعمَّد المقبلون للمعمودية بعد قراءة واحدة". والقديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م) في حديثه إلى المعمدين الجدد في كنيسة أورشليم يقول لهم: [اعرفوا الفعل الذي تم فيكم في تلك الليلة(٥)].

إن ليلة الفصح العظيم هي الحد الفاصل المتوسط بين الحادثين العظيمين المقدسين، وهما دفن الرب في القبر، وقيامته منتصراً على الموت بعد ثلاثة أيام، فصار الغطس في الماء ثلاث مرات، وخروج المعمَّد منه ثلاث مرات في هذه الليلة المقدسة هو مثال حيٌّ لموت المسيح ودفنه، ثم قيامته لخلاصنا(٦).

ليلة عيد القيامة، هي أم جميع الأمسيات، كما يدعوها القديس أغسطينوس، فيا لها من ليلة سماوية تمتلئ فيها الكنيسة بتسابيح الفرح والحبور، وتختلط فيها أفراح القيامة، ببهجة ميلاد النفوس الجديدة، كعروس قد تهيأت تماماً لعريسها السماوي القائم من الموت. لم تكن فرحة المقبلين إلى المعمودية بأكثر من فرحة باقي المؤمنين الآخرين الذين

٤- Homil. *in resurrection & Domini*, 4 (*PG* xlix, col. 439B)

٥- *PG* xxxiii, col. 1067

٦- انظر: حنانيا كساب، مجموعة الشرع الكنسي، مرجع سابق، ص ٢٣١

آزروهم بصلواتهم وطلباتهم طيلة أيام الصوم الكبير، ليستحقوا قبول السر العظيم، سر الميلاد الفوقاني، سر النجاة والخلاص والقيامة.

لقد ظلت عادة قبول المعمودية في ليلة عيد الفصح مرعية حتى القرن الثاني عشر، إذ نجد شواهد على وجود معموديات في الليلة الفصحية حتى القرن الثاني عشر في الشرق والغرب. ولكن هذه المعطيات والتي تشهد على ارتباط المعمودية بليلة عيد الفصح تبدأ في النقصان منذ القرن التاسع والعاشر الميلادي، حتى تنعدم في المرحلة اللاحقة، ومنذ القرن الثاني عشر وما بعده[٧].

وإن عدنا إلى التقليد القبطي القديم، يتضح لنا أنه وإن كانت العادة في كنيسة الإسكندرية هي منح المعمودية المقدسة في ليلة عيد الفصح، إلاّ أن الطقس القبطي القديم يكشف لنا أن بداية المراحل النهائية لمنح المعمودية كانت تبدأ عقب الانتهاء من صلوات يوم الجمعة العظيمة. ولدينا شهادة على ذلك من القديس ساويرس أسقف الأشمونين (القرن العاشر الميلادي)، حيث أورد قصة المرأة الأنطاكية التي عبرت البحر لتعمّد أولادها عند البابا الإسكندري القديس بطرس خاتم الشهداء (٣٠٠- ٣١١م) في مدينة الإسكندرية، وبعد أحداث غير مواتية حدثت للمرأة مع طفلها في عرض البحر، وصلت إلى الإسكندرية. ويذكر النص اللاتيني لهذه القصة العبارة الهامة التالية:

"وبعد يوم الاستعداد العظيم، ipso die parasceves Dominicæ
وهو الجمعة السادسة من sextæ je junii quadragesimalis
الصوم الأربعيني حيث تُمنح quo in fantibus baptismus

٧- مجلة النور، العدد السادس، لبنان، ١٩٨٥م

المعمودية للأطفال[٨]..." administrabatur...

لكن اصطلاح "الاستعداد – Parasceves " وهو الاسم القديم ليوم الجمعة العظيمة[٩]، لم يظهر بوضوح في ترجمة العالم إيفيت M. Evetts لكتاب تاريخ البطاركة للأسقف ساويرس، فنقرأ في هذه الترجمة: "...ذلك اليوم (أي يوم وصول تلك السيدة الأنطاكية إلى الإسكندرية) كان في أسبوع المعمودية، وهو الأسبوع السادس من الصوم عندما كان الأطفال يُعمَّدون[١٠]".

أما الأب فانسليب الدومينيكي الذي زار كنائس مصر في القرن السابع عشر، فقد أورد شهادة عن هذا الأمر منسوبة لمكاريوس أسقف ممفيس Memphis الذي عاش في زمن البطريرك الإسكندري قزما الثاني (٨٥١– ٨٥٨م). وبرغم ما يقوله البعض بأن هذه الرواية منحولة[١١]، إلا أننا نرى فيها تأكيداً أو إثباتاً لما ذكره أنبا ساويرس أسقف الأشمونين[١٢].

ولقد احتفظ لنا مخطوط بربريني Barberini، والذي يعود إلى القرن الثامن الميلادي بطقس كنيسة القسطنطينية والذي ترجمه الأب فين Finn، فيقول: "يتم رفض الشيطان وموافقة المسيح في الجمعة العظيمة السابقة للفصح، عندما يجتمع الموعوظون كلهم في الكنيسة المقدسة برئاسة رئيس

٨- نلاحظ هنا، كملاحظة عابرة الآن، أن الصوم المقدس الكبير هو أربعين يوماً تشتمل على أسبوع الفصح، وذلك قبل أن ينفصل أسبوع الفصح (أسبوع الآلام) ليصبح أسبوعاً قائماً بذاته، ولاحقاً مباشرة للصوم المقدس الكبير.

٩- *PG* xiv, col. 1047

١٠- Graffin et Nau, *Patrologia Orientalis,* The History of The patriarchs of The Coptic Church of Alexandria, Paris, 1905, t. 1, p. 387

١١- A. J. Butler, *The Ancient Coptic Churches of Egypt,* Oxford , vol. II, 1884, p. 264.

١٢- *DACL,* t. 2, p. 258

الأساقفة" (١٣). وكذلك أفخولوجيون يوناني سينائي يعود إلى القرن الحادي عشر(١٤)، يأتي بإثبات آخر لهذا الطقس القبطي القديم، وذلك ضمن عنوان يسبق طقس جحد الشيطان والاعتراف بالإيمان، هكذا:

Ἀπόταξις καὶ σύνταξις γενομένη ὑπὸ τοῦ ἀρχιεπισκόπου τῇ ἁγίᾳ παρασκευῇ τοῦ πάσχα.

أي "طقسا الجحد، والالتصاق (بالمسيح) اللذان يصيران بواسطة رئيس الأساقفة في يوم استعداد الفصح المقدس". وهي هنا طقوس إعداد الموعوظين، وليست طقوس إجراء مراسيم التغطيس في الماء، كآخر مرحلة من مراسيم التعميد. فهذا الاستعداد παρασκευῇ السابق للمعمودية يُحتفل في غده بمراسيم سهر الفصح المقدس ومنح المعمودية المقدسة. وهكذا يتأكد الطقس القبطي القديم بمخطوطات يونانية أيضاً.

وهذه الوثائق القديمة تعود بنا إلى الفترة التي كان لا يزال فيها طقس إعداد الموعوظين يحظى بكل معناه الفعلي، عندما كان غالبية طالبي المعمودية من البالغين. فالوثيقة تتضمن في الحقيقة تعليماً حقيقياً متميزاً يُقَدَّم للموعوظين إحساساً بميثاق مزدوج هم مزمعون أن يعلنوه، ويرتبطون به. ميثاق جحد إبليس وكل ملائكته، وميثاق الاعتراف بالمسيح وكل وصاياه المؤدية للحياة. وهذا هو نفس ما يعلنه الكتاب السابع من المراسيم الرسولية (٧: ٤٠) "... في ذات الوقت يجب أن يتعلم الموعوظ الأمور المختصة بجحد الشيطان، والالتصاق بالمسيح".

ويعقب الجحد والاعتراف كطقسين مرتبطين ببعضهما، صلوات ذات مرد litaniques، ثم صلاة قصيرة oraison. أما الطقس الذي دُوّن

---

١٣ - Finn, *op. cit.*, p. 114- 118

١٤ - وهو تحت رقم cod. 959

بعد ذلك في زمن متأخر من أجل معمودية الأطفال الصغار، فلم يحتفظ لنا سوى بصيغ التعهّد، ثم بصلاة ختامية، فاختفي من طقس المعمودية بعض خصائصه القديمة الهامة(١٥).

فيتضح إذاً لدينا أن يوم الجمعة العظيمة، والتي تُسمى "يوم الاستعداد"، هي بداية المراحل النهائية لمراسيم المعمودية، إذ لم يكن ممكنا مع الأعداد الكبيرة التي تتقدم إلى المعمودية أن تنحصر مراسيم طقوس معموديتها في يوم واحد، فصار يوم السبت المقدس العظيم، وقبل بداية صلوات عيد الفصح المقدس، هو يوم النزول إلى الماء للتغطيس فيه.

وقوانين الرسل القبطية تشير إلى تلك المراحل النهائية السابقة على النزول في الماء، وهي المراحل التي كانت تجري قبل يوم السبت المقدس العظيم، فنقرأ: "فإذا اقترب اليوم الذي سيعمَّدون فيه، فليستحلف الأسقف كل واحد منهم، لكي يعرف أنهم أطهار" (١:٣٣:٤).

إذاً لم تكن القوانين التنظيمية التي وضعها البابا خريستوذولوس (١٠٤٧- ١٠٧٧م) الـ ٦٦ من باباوات الكنيسة القبطية تتعارض مع هذا الطقس القبطي القديم، والتي ذكرت منع منح المعمودية في أسبوع الآلام، وفي أيام الخمسين المقدسة. ولكن يتضح منها أن مراسيم جحد الشيطان والاعتراف بالمسيح التي كانت تتم عقب يوم الجمعة العظيمة، قد زحف عليها تكميل طقس المعمودية إلى نهايته بالتغطيس في الماء، وهو ما نهت عنه القوانين السابق ذكرها.

وكذلك أيضاً مارست الكنيسة القبطية المعمودية بكثرة في عشية

١٥- *DACL*, t. 2, p. 290

عيد الظهور الإلهي (١١ طوبه) في مناسبة عماد السيد المسيح له المجد[١٦]. وفي أديسا أيضاً فإن عيد الإيبفانيا كان يوماً متميزاً لتتميم المعمودية المقدسة، وألحان القديس أفرآم السرياني التي تُرتل فيه تثبت ذلك[١٧].

وعلى الرغم من كل هذا فإن الكنيسة كانت تمارس المعمودية في أي وقت تراه مناسباً. وفي ذلك يقول القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) في عظة ١٣ له عن المعمودية:

> [لكل شيء وقت وفصل، هناك وقت للنوم، ووقت للسهر، ووقت للحرب، وآخر للسلام، لكن لا يوجد وقت خاص للمعمودية، لأن عمر الإنسان كله للمعمودية. كل وقت هو وقت لقبول الخلاص هو وقت مقبول، سواء كان بالنهار أم بالليل، فكل ساعة ودقيقة ولحظة تصلح للمعمودية].

وحتى ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م) نفسه الذي أخبرنا عن أوقات المعمودية يعود ويؤكد في نفس مقالته عن المعمودية:

> [كل يوم هو يوم للرب، وكل ساعة صالحة للمعمودية].

وقوانين البابا الإسكندري غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) البطريرك الـ ٨٨ تشير إلى أن المعمودية كان يمكن إجراؤها في أي وقت عند الضرورة، فيقول: "إذا أحضروا إليك طفلاً يقصدوا عماده قبل طُهر

١٦- *Coptic Encyclopedia*, p. 338

١٧- *DACL*, t. 2, p. 276

أمه، فعمده حالاً ولو أنه ابن يومه[١٨]".

وقد سجّل لنا سوزومين المؤرخ (أوائل القرن الخامس) تذكاراً لممارسة خاصة في أورشليم، وهي تذكار تكريس كنيسة الجلجثة التي بناها الإمبراطور قسطنطين، حيث كانت تحتفل الجماعة المسيحية في هذا التذكار السنوي في أورشليم بإجراء طقس المعمودية المقدس[١٩].

وفيما بعد، وفي زمن لم نعثر على تأريخ له حتى الآن، اختصّ يوم الأحد الذي يسبق أحد الشعانين، وهو المعروف بـ "أحد المولود أعمى"، أو "أحد التناصير"، اختص بتعميد كثير من الأطفال، ليس في كنيستنا القبطية فحسب، بل في كثير من الكنائس الشرقية الأخرى. ويبدو لنا أنه تقليد قديم، فالقديس كيرلس الكبير (٤١٢- ٤٤٤م) له عظة توضح العلاقة بين المعمودية وبين معجزة تفتيح عيني المولود أعمى، وقد سبق الإشارة إليها.

ثم أننا نجد أن القانون المصري ومعه الأثيوبي أصبح يحدد أن الاحتفال بمنح المعمودية المقدسة يكون في فجر يوم الأحد، دون أن يحدد أنه يلزم أن يكون يوم أحد عيد القيامة بالتحديد.

ثانياً: مكان المعمـــــودية

اعتمد الرب في الأردن، وعمَّد فيلبس الشماس الخصّي في مكان

---

١٨ – الأنبا غبريال الخامس، الترتيب الطقسي، تحقيق ونشر الأب ألفونس عبد الله الفرنسيسكاني، مطبوعات المركز الفرنسيسكاني للدراسات المسيحية الشرقية، القاهرة، ١٩٦٤م، الطبعة الثانية، ص ١٩

١٩ – Sozomen, *Hist. Eccl.*, l. II, c. xxvi

قرب الطريق العام، وعمَّد بولس الرسـول سجّان فيلبي في بيته. ويقـول العلامة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م) في مقالته عن المعمودية:

[ليس فرق سواء اعتمد إنسان في البحر أم في بحيرة، أم في نهر، لأن الروح الواحد هو نفسه يقدّس المياه في كل مكـان، ويهب الروح للمياه قوة التقديس بالاستدعاء والصلاة].

ولكن سرعان ما انحصرت مراسيم المعمودية داخـل الكنيسـة بعـد انقضاء زمن الاضطهاد، وبناء الكنائس في كل مكان، وذلـك في حجـرة مخصصة للتعميد baptistery يوجد بها جرن المعموديـة، كـانت في البداية غير ملحقة بمبنى الكنيسة، ثم أصبحت بعد ذلك ملحقة به، وجـزء مـن ملحقاته الثابته. ويُدعى جـرن المعموديـة في الكنيسـة بـ "الأردن"، وهـو الاسم الطقسي التقليدي القديم له. فنسمع القديس أمبروسـيوس (٣٣٩- ٣٩٧م) يخاطب الموعوظين في عظة له قائلا:

[تعالوا إلى نبـع التقديـس، حيـث يوجـد الأردن الـذي اعتمد فيه المسيح، والذي فيه تغرق كل الخطايا. والمعموديـة في الأردن لا تسـتدعي السـفر إلى فلسـطين، حيـث يوجـد النهـر، لأنـه حيـث يوجـد المسيح، يوجـد الأردن، وبَرَكَـة تقديس الأردن قد شملت كل أنهار العالم] (عظة ٤١).

ومن المعـروف أن أقـدم حجـرة معموديـة في الكنيسـة المسـيحية، كانت في عين دورا قبل سنة ٢٥٦م[٢٠].

وتخبرنا الوثائق المصرية القديمـة، أنـه في يـوم السـبت مسـاءً يجمـع الأسقف طالبي المعمودية إلى مكان معيّن، دون تحديد واضح لهذا المكـان،

٢٠- *ODCC*., ed. 2, p. 129

ولكنه بالتأكيد لم يكن هو حجرة المعمودية baptistére نفسها. تلك التي لم يكن مسموحاً بدخولها إلاَّ عند لحظة تبريك المياه.

ويحتفظ الطقس القبطي بالتقليد القديم، بألاّ يدخل الكاهن إلى حجرة المعمودية إلاَّ في وقت تبريك مياه المعمودية لتتميم التعميد(٢١).

ومنذ القرن الثالث الميلادي، صارت كنائس حوض البحر الأبيض المتوسط تقيم حجرة المعمودية في جانب مستقل يقع غربي الكنيسة، ولكن مع انتشار معمودية الأطفال نُقل جرن المعمودية ليكون أيضاً في الجانب الغربي من الكنيسة، ولكن ملاصقاً لها(٢٢).

وقبل القرن الرابع الميلادي، كان دهليز المعمودية أو رواق المعمودية في مصر القديمة يُبنى عادة خارج الكنيسة كما نراه في الدير الأبيض بسوهاج، والذي شيده الأنبا شنوده رئيس المتوحدين في القرن الرابع الميلادي، حيث نجد فيه أن مكان المعمودية مجهّز برواق أو دهليز. ولكن فيما بعد عَدَلَت الكنيسة عن تشييد حجرة المعمودية خارجاً عن مبنى الكنيسة نفسه.

والدسقولية العربية التي تمثّل صياغة مصرية لكتاب المراسيم الرسولية (النصف الأول من القرن الرابع)، تفرّق بوضوح بين مكان المعمودية، ومكان المراسيم النهائية السابقة على النزول في الماء، فتقول: "ليكن مكان معمودية الموعوظين، وأيضاً مكان جحد الشيطان، في الجانب الشمالي الغربي للمنارة، في جانب الكنيسة، لكي يتمكن الموعوظون الذين فيه من سماع القراءات المختارة والترانيم الروحية

٢١- *ibid.*, p. 201

٢٢- *ODCC.*, ed. 2, p. 129

والمزامير التي تُتلى في الكنيسة". لكنها لم تذكر أن هذين المكانين يجب أن يكونا معزولين عن الكنيسة.

فكل التعليمات القديمة بدءًا من القرن الخامس الميلادي توضّح وجود بهو للموعوظين، إلى جانب جرن كبير للمعمودية يحتل مكانا خارج الناحية الغربية للكنيسة، وهو ما يوافق وصف كتاب الدسقولية العربية. وهو ما يُعني به البهو الخارجي le narthex. ذلك لأن الكنائس القبطية تراعي دائما وبكل تدقيق الاتجاهات الجغرافية في بناء الكنائس.
Les églises Coptes observent toujours très réguliérement l'orientation

وهو نفس ما يشير إليه طقس الكنيسة القبطية في القرن الخامس عشر حيث يذكر البابا غبريال الخامس (١٤٠٩ – ١٤٢٧م) في كتابه "الترتيب الطقسي" أن موضع الرشومات التي تسبق المعمودية هو مكان غير حجرة المعمودية ذاتها. فيقول: "كل كنيسة لها مكان بمفردها للرشم على عادتها[٢٣]".

والتقليد الأرمني القديم يرفض منح المعمودية خارجاً عن الكنيسة، أو عن حجرة المعمودية، باستثناء الحالات الضرورية جداً. ففي القانون المنسوب للبطريرك نيرسيس Nersés الثاني (القرن السادس الميلادي)، وهو القانون الذي أُعلن رسمياً سنة ٥٢٧م، في سنودس دوفان Dovan يقول:
"يجب ألاَّ يتجرأ الكاهن ويمنح سر العماد في غير بيت المعمودية إلاَّ في حالة خطر الموت".

---

٢٣ – أنبا غبريال الخامس البطريرك القبطي ٨٨، الترتيب الطقسي، الطبعة الثانية، تحقيق الأب ألفونس عبد الله الفرنسيسكاني، مطبوعات المركز الفرنسيسكاني للدراسات المسيحية الشرقية، القاهرة ١٩٦٤م، ص ٤

ولقد عارض نفس هذا البطريرك انحرافاً كان قد ظهر في بعض الأماكن، كان يبيح للكهنة أن يباركوا مياه المعمودية فقط دون أن يمنحوا المعمودية بأنفسهم، حيث يسلّمون الأطفال للنساء، ويأمروهن أن يعمّدن في بيوتهن، فقطع بقانون كنسي منع منح المعمودية في البيوت[٢٤].

ومع شيوع معمودية الأطفال اعتاد الأقباط تشييد جرن المعمودية، ليس بقرب البهو الخارجي للكنيسة وإلى الناحية البحرية منه، بل في أماكن أخرى غير محددة، في كنائسهم، وأحياناً ضمن كنائس صغيرة جانبية Chapelles [٢٥].

ومنذ القرن الثاني عشر في كنيسة مصر حدَّد الأنبا بطرس أسقف البهنسا (القرن الثاني عشر) أن يكون بناء حجرة المعمودية ناحية الشرق عن يمين الكنيسة، وهو الأسقف الذي وضع طقس تكريس المعمودية الجديدة. فيذكر العالم الطقسي شمس الرئاسة ابن كبر (+ ١٣٢٤م) عن تكريس المعمودية الجديدة العنوان التالي:

"ترتيب تكريز المعمودية. يُقرأ عليها ثلاث أواشي مختصة بها، وتُرشم بالميرون. والذي رتبه أنبا بطرس أسقف البهنسا في تكريزها إذا بُنيت بناءً جيداً، أن يكون بناؤها في الشرق عن يمين البيعة، ويُصوَّر فوقها صورة يوحنا المعمِّد وهو يعمِّد سيدنا له المجد[٢٦]...".

٢٤- *DACL*, t. 2, p. 296

٢٥- *DACL*, t. 2, p. 259

٢٦- كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كبر، (مخطوط لم يُنشر بعد، وصلنا من بلجيكا، بمجهود مشكور للأب أوجو زانيتي Ugo Zanitti اليسوعي)، وهو الجزء الثاني من هذا الكتاب. يبتدئ بصفحتين من الباب الثاني عشر، ثم الأبواب من الثالث عشر إلى الرابع والعشرين. أما الأبواب الاثنا عشر الأولى فقد نشرتها مكتبة الكاروز في القاهرة سنة ١٩٧١م، تحت عنوان: مصباح الظلمة في إيضاح

حيث استقر وضع جرن المعمودية في الكنيسة الآن في الناحية الشرقية القبلية منها، كما يذكر دنزنجر في مؤلفه: "الطقوس الشرقية[٢٧]". ويذكر العالم الطقسي ابن كبر (+ ١٣٢٤م) أن تُحفظ المعمودية بباب وقفل، وتكون مكرّزة، وتملأ بماء جديد نظيف، وتوقد حولها الشموع والمصابيح لتكون منيرة. (الباب ١٥ من كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة).

أما الكنيسة الكاثوليكية فقد سمحت في سنة ١٩٦٩م، بأن يُقام جرن المعمودية في أي مكان خاص داخل الكنيسة، ليسمح للشعب بالمشاركة في مراسيم المعمودية[٢٨].

الخدمة، للقس شمس الرياسة أبو البركات المعروف بابن كبر، تحقيق الأب سمير خليل اليسوعي.

٢٧- Denzenger, *Rit. Orient.*, t. 1, p. 25

٢٨- *ODCC.*, ed. 2, p. 521

الفصل السادس

الموعوظون وطالبو المعمودية

طالبو المعمودية هم آخر درجة من درجات الموعوظين، وهم المستعدون لقبول المعمودية بعد اجتيازهم كل مراحل التعليم والوعظ.

والموعوظ هو كل من يسمع كلام الوعظ والتعليم في الكنيسة، بغرض الانضمام إلى شركة المؤمنين، بنوال نعمة التبني في المعمودية المقدسة.

وكان الخوروس الذي يجمعهم في الكنيسة يُسمى "خوروس الموعوظين"، وكان يقع في الجانب الغربي للكنيسة. أما جرن المعمودية فكان يقع في الجهة البحرية من هذا القسم. وبحسب الدسقولية "ويكون في غربي بحري، موضع المعمودية للمصبوغين، موضع معتزل في الكنيسة، ليكون الموعوظون فيه ليجدوا السبيل إلى سماع الكتب المقدسة، والمزامير والتسابيح الروحانية التي تُقال في الكنيسة" (الباب ٣٥)[1].

أولاً: فئات الموعوظين

هناك ثلاث فئات للموعوظين هم:

• موعوظون من أصل يهودي: وتقدم لهم دراسات في نبوات

---

١ – انظر: دكتور وليم سليمان قلادة، الدسقولية – تعاليم الرسل، الطبعة الأولى، القاهرة، سنة ١٩٧٩م.

العهد القديم، وتحقيقها الذي تم في شخص الرب يسوع، وأن المسيحية تكميل للناموس اليهودي.

• موعوظون من أصل وثني: وتقدَّم لهم دراسات تتناسب وثقافتهم ودراساتهم السابقة، فلا عجب أن رأينا معلّمين تخصَّصوا في دراسة الفلسفات الوثنيَّة ليجتذبوا الوثنيين إلى النور.

• موعوظون هم أطفال المسيحيين المؤمنين: وهم تحت مسؤولية وعهدة آبائهم وأشابينهم(٢).

وكان الموعوظون يبقون في رعاية الكنيسة لمدة سنتين أو ثلاث، ينتقلون خلالها من درجة إلى أخرى، إلى أن تطمئن الكنيسة إلى حسن نيتهم، وجديتهم في طلب الخلاص وتمسكهم بالإيمان، وقبولهم لحمل الصليب، والسير خلف المسيح.

ثانياً: درجات التائبين في الكنيسة الأولى

(أ) الباكون النائحون:

وكانوا يقفون خارج باب الكنيسة، ولا يحضرون الصلوات. وقد قال القديس غريغوريوس العجائبي (٢١٣- ٢٧٠م) في ذلك:

[يجب أن يكون البكاء خارج الكنيسة، حيث يقف الخاطئ ويلتمس من المؤمنين الداخلين إلى الكنيسة أن يصلوا من أجله].

٢- عن "الإشبين" انظر: الفصل الخاص بمعمودية الأطفال.

فهؤلاء الباكون يمثلون الصف الأول من التائبين. فتأمل أي مشاعر تقوية تطغى على نفس كل العابرين إلى الكنيسة للصلاة، عندما يرون هؤلاء النائحين الذين يلتمسون منهم الصلاة لأجلهم. كانت الكنيسة في عصورها الأولى حارة بالروح، موضع مقدّس للصلاة، وللصلاة فحسب.

(ب) السامعون:

وهم يمثلون الصف الثاني من التائبين. وهؤلاء كان يُسمح لهم باجتياز باب الكنيسة الكبير، حيث يقفون في الدهليز **Narthex**، وهو ردهة ضيقة بعرض الكنيسة، ومفصولة عنها. ويُسمح لهم بسماع فصول الكتب المقدسة (الرسائل والإنجيل)، ثم العظة. وينصرفون بعد العظة مباشرة. ففي المراسيم الرسولية (٨:٦:١،٢) نقرأ: "بعد نهاية كلمة التعليم، ليقف الجميع، وليصعد الشماس إلى موضع مرتفع، ويعلن: لا يقف هنا واحد من السامعين، أو غير مؤمن" . فلم يكن مسموحاً لهم بحضور الصلوات في الكنيسة.

(ج) الراكعون الخاشعون:

ومكانهم الجزء الأخير من صحن الكنيسة، والذي يفصله عن الدهليز أو النارثكس درابزين من عوارض خشبية؛ في منتصفه باب يُدعى "الباب الجميل"، أو "الباب الملكي". في هذا المكان وقرب الباب الجميل، كان يقف الصف الثالث من التائبين، وقد سُموا الراكعين، لأنه كان يُسمح لهم بالبقاء لسماع الكتب المقدسة، والاشتراك في بعض الصلوات التي وُضعت خصيصاً لأجلهم، وهي الأواشي أو الطلبات التي تلي العظة، وهو ما نعرفه اليوم بـ "قداس الموعوظين"، والذي يكون قبل القبلة المقدسة مباشرة. وكانوا قبل خروجهم من الكنيسة يركعون وينكبون

على وجوههم معفرينها في الأرض، حيث يضع الأسقف يده عليهم، وهم راكعين. ولقد عُرفت الصلاة الخاصة بصرف الموعوظين بصلاة وضع اليد.

ولقد وصفهم القانون الخامس من قوانين مجمع قيصرية الجديدة بالراكعين، أما القانون ١٩ من قوانين مجمع ترولو فيدعوهم "التائبين"، فيقول: "وبعد أن يخرج الموعوظون تتلي الصلاة لأجل التائبين، وبعد أن يمر هؤلاء تحت يد الأسقف وينصرفوا، تتلى صلوات المؤمنين".

أما القانون ١٤ من قوانين مجمع نيقية المسكوني الأول فيقول عن هذه الفئة: "قرر المجمع العظيم المقدس أن الموعوظين الذين سقطوا، يصبحون سامعين ثلاث سنوات، وبعد ذلك يُسمح لهم بالصلاة مع الموعوظين". ومن هذا القانون يتضح لنا أن فئة الموعوظين هم هؤلاء الراكعين الذين لهم حضور صلوات الموعوظين، أما السامعون، وهم الفئة التي تلي درجة الموعوظين، فلا يلقّبون بهذا الاسم.

(د) طالبو المعمودية:

وهم آخر درجات الموعوظين ويُدعون في الكنيسة الشرقية "المستنيرين"، ويُسمون أيضاً "المستعدين". أما الكنيسة الغربية فتدعوهم "الكاملين" أو "المختارين". وهم المنتخبون من فئة الراكعين، في بدء الصوم المقدس الكبير، لكي يؤهلوا طيلة الصوم بالتعليم وتسليم الإيمان، استعداداً لقبول المعمودية المقدسة ليلة عيد القيامة.

ولم يكن لهم مكان مخصص للوقوف في الكنيسة، ولكنهم كانوا يقفون مع الراكعين الخاشعين.

وكتاب التقليد الرسولي لهيبوليتس، والذي دُون سنة ٢١٥م، وهو

أقدم وثيقة كنسية – بعد الديداخي – نتعرف من خلاله على كثير من نواحي الحياة الليتورجية في الكنيسة الجامعة، ولاسيما الكنيسة القبطية، إذ حظي الكتاب باهتمام بالغ لديها، يقول في إشارة إلى طريقة انتخاب الموعوظين لقبول المعمودية: "وعندما يُختار من ينالون المعمودية، فلتفحص حياتهم، هل عاشوا بتقوى عندما كانوا موعوظين؟ وهل أكرموا الأرامل؟ وهل عادوا المرضى وأكملوا كل شيء حسناً؟" (التقليد الرسولي ٢٠:١)[٣].

وحينئذ تُسجل أسماؤهم في سجل الكنيسة. إلاّ أن أوقات تسجيل الأسماء لم تكن واحدة في كل الكنائس. ففي أورشليم كان تسجيل الأسماء يتم في الأحد الثاني من الصوم الكبير[٤]، وفي كنائس شمال أفريقيا يتم في الأحد الرابع[٥]، وفي الكنيسة الأشورية يتم في يوم الإثنين من الأسبوع الثالث[٦]، وفي عظة للقديس أغسطينوس (٣٥٤– ٤٣٠م) عن المعمودية (عظة ١٣ عن حديثي الإيمان) يقول إن الوقت المعيّن لتسجيل الأسماء هو بدء الصوم المقدس الكبير، حيث يطرح الموعوظون أسماءهم القديمة الوثنية، أو اليهودية، ويتخذون أسماءً مسيحية[٧].

والقانون ٤٥ من قوانين مجمع اللاذقية الذي عُقد سنة ٣٦٤م، يقول: "لا يجوز قبول المرشحين للمعمودية بعد الأسبوع الثاني من الصوم الكبير". وفي نص قديم للقانون يقول: "بعد مرور أسبوعين من الصوم

٣– هو نفس قانون الرسل ١:٣٣، من قوانين الرسل القبطية.

٤ – كيرلس الأورشليمي، عظاته في التعليم المسيحي:٣

٥– أوغسطينوس، عظة ٢١٧

٦– Anton Baumstark, *Comparative Liturgy*, English Edition By F. L. Cross, London, 1958, p. 82

٧– تاريخ الكنيسة لسقراط ٢١:٧ (انظر: الأرشيمندريت حنانيا كساب، مجموعة الشرع الكنسي، مرجع سابق، ص ٨٢)

الكبير لا يجوز قبول أحد إلى الاستنارة، لأن الجميع يجب أن يبدأوا الصوم من أوله".

وكان المرشحون للمعمودية يقضون الوقت كله في الصوم والسهر والصلاة وقراءة الكتب. وكان يُطلب إلى المتزوجين منهم أن يلازموا الإمساك التام.

أما عن نوعية قراءات الموعوظين، فقد أشار إليها البابا أثناسيوس الرسولي عندما قسّم كتب العهد القديم إلى قسمين، وذكر الكتب القانونية، والكتب التي يحسن قراءتها وتدريسها للموعوظين وهي: حكمة سليمان، وحكمة يشوع بن سيراخ، وأستير، ويهوديت، وطوبيا[٨].

إن الحقيقة الليتورجية الهامة التي نود التأكيد عليها هنا هي أن فصول القراءات الكتابية التي وُضعت في أيام الصوم المقدس الكبير، لاسيما في الأسابيع التي تقترب من عيد الفصح، وُضعت بعناية لتعليم الموعوظين، قبل أن تكون فصولاً كتابية تُقرأ في الليتورجيا، ذلك لأنه من المعروف أن فصول القراءات في الصوم المقدس الكبير في أيام الصوم من الإثنين إلى الجمعة، عُرفت في الكنيسة المسيحية الأولى قبل أن يُعرف إقامة الليتورجية اليومية طيلة أيام الصوم، فلم تكن إقامة الليتورجية طيلة أيام الصوم هي الطقس القديم للصوم. أما مكان هذه الفصول الكتابية فكان في وقت صلوات الصباح والمساء في الكنيسة، دون إقامة الخدمة الإفخارستية (القداس الإلهي). أي الاجتماعات الكنسية الصباحية والمسائية Synaxis التي لا ترفع فيها الذبيحة الإلهية.

٨- يذكر قانون الرسل ٢:٥٥ سفر أستير ضمن الكتب القانونية، أما مجمع قرطاجنه فيجعل سفر أستير بالإضافة إلى حكمة سليمان، وسفر يهوديت، وسفرطوبيا، بين الكتب القانونية.

لقد كان إعداد طالبي المعمودية لقبول السر المقدس، واحداً من الأعمال الليتورجية الرئيسية التي تمهّد للعيد الكبير، فعظات القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥ـ ٣٨٦م)، ومذكرات الحاجة الأسبانية إيجيريا (نهاية القرن الرابع) تنقل لنا جانباً وافياً عن هذه الاستعدادات التي كانت تسبق عيد الفصح تمهيداً للاحتفال بالمعمودية.

وكتاب القراءات الأرمني القديم Armenian Lectionary، وكذلك كتاب القراءات حسب الطقس الجيورجي Georgian Kanonarion، وبدءًا من الأسبوع الثالث قبل عيد الفصح فصاعداً، ينظم مجموعة من الفصول التي تقرأ من العهد القديم، ومن رسائل القديس بولس الرسول لتعليم الموعوظين، وذلك من يوم الإثنين إلى يوم الجمعة من كل أسبوع.

وفي الكنيسة الأشوريَّة، وطبقاً لعظات عن تسجيل الأسماء (nomendare) لجورج أسقف أربيلا George of Arbela منذ حوالي القرن العاشر، كانت تنظِّم مجموعة من الفصول الكتابيَّة للموعوظين بدءًا من يوم الإثنين من الأسبوع الثالث من الصوم. وفي يوم الأربعاء من نفس الأسبوع تبدأ صلوات طرد الشياطين exorcisms تمهيداً للمعموديَّة، تلك الصلوات التي تجري صباحاً ومساءً، ونفس هذا الطقس الذي كانت تجريه الكنيسة الأشوريَّة في هذه الفترة وُجد أيضاً في طقوس كل من أنطاكيا، وأسبانيا[٩].

وكان طقس طرد الشياطين يجري على طالبي المعمودية يومياً، بحسب شهادة التقليد الرسولي (٢٠:٣) "وبدءًا من اليوم الذي يقدمونهم فيه، توضع عليهم اليد كل يوم ويُقسِموا عليهم".

٩ـ Anton Baumstark, *op. cit.*, p. 82

والمرحلة الأخيرة من التعليم غالباً ما كان يقوم بها الأسقف بنفسه، أو كاهن قادر على التعليم، وشرح حقائق الإيمان. ولقد كرّس القديس ساويرس الأنطاكي (٤٦٥- ٥٣٨م) عظاته التي كان يلقيها كل سنة في مساء الأحد الأول من الصوم المقدس الكبير، لشرح المراسيم الكنسية التي كانت تتم عند الاقتراب من جرن المعمودية. وهو نفس النظام الذي اتبعته أيضاً كنيسة أسبانيا كما نعرف ذلك من يوستنيانوس أسقف فالينسيا Valencia والذي يحمل في المخطوطات اسم القديس إلديفونسوس أسقف توليدو St. Ildefonsus of Toledo [١٠].

أما مادة الوعظ التي كانت تُقدم لهم فكانت نظام السلوك والتأدب في الكنيسة، ودراسات تأملية لاهوتية لأهم العقائد المسيحية، وطبيعة الأسرار المقدسة. ولقد ترتبت هذه الدراسات بعد مجمع نيقية المسكوني في القرن الرابع الميلادي بصدور قانون الإيمان، مع العلم أن قانون الإيمان النيقاوي لم يكن هو أول قانون إيمان في الكنيسة الجامعة، إذ أن أقدم قانون إيمان معروف هو باسم "قانون دير البلايزة"، وكان يُستخدم في المعمودية، وهو ذات القانون الذي يردده الأسقف أو البطريرك أثناء الرسامة، ونصه كالآتي بحسب أقدم مخطوطات طقس المعمودية القبطي:

"أؤمن بإله واحد، الله ضابط الكل، وبإبنه الوحيد يسوع المسيح ربنا، وبالروح القدس المحيي، وبقيامة الجسد، وبالكنيسة الواحدة الجامعة المقدسة".

ولقد أشار العلامة أوريجانوس (١٨٥- ٢٥٤م) في عظته الثامنة على سفر الخروج إلى هذا القانون، كما أشار إليه أيضاً البابا ديونيسيوس الكبير (٢٤٨- ٢٦٥م) في رسالته إلى سميّه ديونيسيوس أسقف روما

١٠- cf. Anton Baumstark, *op. cit.*, p. 191

بخصوص نوفاتيان[١١].

وهناك قوانين أخرى في الكنائس المختلفة، مثل قانون الإيمان الروماني، وقانون كنيسة أورشليم، كما سجله القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م). فلم يكن من المعقول أن تعيش الكنيسة حوالي ثلاثة قرون بدون قانون للإيمان، أو صيغة للاعتراف بالإيمان. ولقد دُعي قانون الإيمان في هذه الفترة المبكرة بـ "قاعدة الإيمان"، أو "الأمانة".

ويظهر اهتمام الكنيسة بتسليم قانون الإيمان في أن الأسقف هو الذي يقوم بذلك، إذ نجد أن القديس أمبروسيوس (٣٣٩- ٣٩٧م) أسقف ميلان يكتب رسالة إلى أخته مارسلينا ويقول لها:

> [... وفي اليوم التالي إذ كان يوم الرب، بعد الدروس والعظة - لما خرج الموعوظون - سلّمت لطالبي العماد قانون الإيمان في معمودية البازيليكا] (أمبروسيوس، رسالة ٢٠).

ويقول الأسقف يوحنا، وهو خليفة القديس كيرلس الأورشليمي في رسالته إلى جيروم (٣٤٢- ٤٢٠م):

> [إن العادة عندنا أن نسلّم تعليم الثالوث الأقدس بصورة عامة خلال الأربعين يوماً للذين سيعتمدون].

وكان على الموعوظين بعد أن يتعلّموا قانون الإيمان أن يتلوه غيباً أمام الأسقف، أو الكهنة، في يوم الخميس الكبير[١٢]. لذلك كان

١١- تاريخ الكنيسة، ليوسابيوس القيصري، ترجمة القمص مرقس داوود، القاهرة، ١٩٧٩م الطبعة الثانية، ٨:٧.

١٢- انظر رأي العالم هيفيليه في تعليقه على القانون ٤٦ لمجمع اللاذقية سنة ٣٤٣- ٣٨١م، وكذلك القانون ٧٨ لمجمع ترولو. (حنانيا كساب، مجموعة الشرع الكنسي، مرجع سابق).

لا يجوز قبول المرشحين للمعمودية بعد الأسبوع الثاني من الصوم المقدس الكبير[١٣].

وبعد تعليم قانون الإيمان، يتم شرح الصلاة الربية "أبانا الذي في السموات...". وفي هذه الفترة الأخيرة يقوم المعلمون بتحفيظهم بعض الصلوات القصيرة. وبحسب شهادة القديس جيروم (٣٤٢- ٤٢٠م) كانت الكنيسة تؤجل إعلان كلمات قانون الإيمان والصلاة الربية حتى نهاية فترة التعليم، واقتراب الصوم الأربعيني، حيث تبدأ فترة إعلان الأسرار الخاصة بالتعليم. (رسالة ٦١:٤).

أما في فترة أسبوع الفصح (أسبوع الآلام) السابقة للعيد مباشرة، فكان يتركّز عمل الكنيسة في الانشغال بالتأمل في آلام الرب وموته الخلاصي. وهكذا يتفرغ طالبو المعمودية للتأمل في هذا الأمر وفيما هم مزمعون أن يتمموه حينما يشتركون في شبه موت الرب، فتزداد غيرتهم لحمل الصليب معه، مقتفين آثار خطواته.

على أن ما يتلقّنه الموعوظ قبل معموديته يعتبره القانون الثاني لمجمع نيقية المسكوني الأول أنه "النذر اليسير"، ويقرر "أن الموعوظ نفسه يحتاج إلى وقت للاختبار مدة أطول بعد المعمودية، يعني أولئك الذين يُرقّون إلى درجة أسقف أو قس بعد عمادهم مباشرة[١٤]".

١٣- انظر: القانون ٤٥ مجمع اللاذقية سنة ٣٤٣- ٣٨١م.

١٤- نيقية (القانون ٢)، الرسل (القانون ٨٠)، سرديقه (القانون ١٠)، اللاذقية (قانون ٣). وجدير بالذكر أن سقراط المؤرخ قد ذكر أنه إن كانت الشريعة عموماً لا تسمح بقبول الموعوظين في الدرجات الكهنوتية، فقد اعتاد أساقفة الإسكندرية أن يسمحوا بترقية بعض الموعوظين إلى رتبة قارئ أو مرتل. (انظر: الأرشيمندريت حنانيا كساب، مرجع سابق، ص ٥٤٠).

إن هذه التهيئة الطويلة لقبول المعمودية، والتي كانت تستغرق ما بين سنة إلى ثلاث سنوات، لازال الطقس الحالي في كل كنيسة يحتفظ بشذرات منها بعد أن طغت معمودية الأطفال، وأصبحت هي الأمر الشائع في الكنيسة، وتوقف فيها تقريباً تعميد البالغين.

فأوشية الموعوظين التي تتصدر طقس المعمودية في الكنيسة القبطية تؤكد على أنها لم تكن أوشية تقال قبل المعمودية مباشرة، بل خلال فترة إعداد الموعوظين. ويُظن أنها كانت تعقب العظات التي تلقى عليهم لتعليمهم، فهي تقول: "أيها السيد الرب الإله ضابط الكل... عبيدك الموعوظين الذين وُعظوا ارحمهم... امنحهم أن يعرفوا ثبات الكلام الذي وُعظوا به"، ثم تكمل الأوشية بما يقطع أن المعمودية لم تكن تعقب هذه الصلاة مباشرة، فتقول: "... وفي الزمن المحدد فليستحقوا حميم الميلاد الجديد لغفران خطاياهم...".

ومن الحقائق الثابتة لدي علماء الليتورجيا، أن عادة منح المعمودية لكبار السن البالغين قد دامت في كنيسة أرمينيا زمناً طويلاً أكثر من أي كنيسة أخرى، وهي أحد الأدلة التي تبيّن قدم طقس المعمودية في الكنيسة الأرمنية. ويعتقد العالم الليتورجي كونيبير Conybeare أن ذلك كان نتيجة الأفكار والتعاليم والممارسات التي كانت لدى مذهب البولسيين[١٥] Pauliciens حيث ذاعت وانتشرت هذه المبادئ أصلاً في

١٥- البولسيون: هم أعضاء شيعة ظهرت في الإمبراطورية البيزنطية، وقد استمدوا اسم شيعتهم على الأرجح من بولس الساموساطي (القرن الثالث) حيث ربطتهم به صلات قوية. أما أصل هذه الشيعة فهو مبهم، ويبدو أن مؤسسهم هو قسطنطين Constantine الذي من مانانالي Mananali، وهي قرية قريبة من ساموساطا، حيث أسس جماعة في كيبوسا Kibossa في أرمينيا تحت حكم قسطنطين الثاني (٦٤١-٦٦٨م)، ولكن في سنة ٦٨٤م، اضطهدوا اضطهاداً شديداً، ورُجم مؤسس جماعتهم بالحجارة. وفي القرن التاسع عانوا مرة ثانية تحت حكم الإمبراطور ليو في أرمينيا.

أرمينيا، وكان أصحاب هذه الشيعة لا يعترفون بمعمودية أخرى قانونية سوي معمودية البالغين[١٦]. ولكن سرعان ما انتشرت معمودية الأطفال في أرمينيا في غضون القرن الثامن الميلادي.

ثالثاً: التسليم السري

يتحدث القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م)، في كتابه عن الروح القدس، عن مكانة وأهمية التسليم السري في الكنيسة، وأنه إلى جانب التعليم المكتوب أو المعلَن يشكلان معاً دعامة الإيمان الصحيح، فإذا رفض الأول يشوش الثاني ويفقده قوته فيقول:

[العقائد والممارسات التي تقبلها الكنيسة وتحفظها، يستند بعضها إلى التعليم المكتوب، والبعض الآخر قبلناه سراً وهو تسليم الرسل، وهذان هما دعامة الإيمان الصحيح، ولهما نفس القوة. وهو ما لا يعترض عليه أحد، لاسيما من توفّرت له خبرة في ممارسات الكنيسة. ونحن لا نستطيع أن نرفض ما استقر من عادات في الكنيسة، بدعوى أن هذه العادات لا تستند إلى برهان مكتوب، أو أن قيمتها صغيرة. لأننا إن رفضنا عادات الكنيسة، فسوف نجرح الإنجيل نفسه، بل نحوّل التعليم إلى اسم بلا معنى. والمثال الذي أريد أن أقدمه في هذا الشأن، هو عن موضوع عام...

وأرادت الإمبراطورة ثيودورة (٥٠٠- ٥٤٧م) زوجة الإمبراطور جستنيان أن تضع نهاية لوجودهم. وفيما بعد انتحل كثير منهم الدين الإسلامي. وكانوا يميزون بين إلهين، إله للخير هو رب السماء وخالق الأرواح، وآخر للشر هو حاكم العالم المادي. وكانوا ينكرون حقيقة جسد المسيح، وعمل الفداء، ويعتبرون أن أعظم عمل قدّمه المسيح هو مجرد تعاليمه. وهم إن كانوا يكرمون الأناجيل إلاّ أنهم ينكرون العهد القديم، وإنجيل لوقا ورسائل بولس الرسول. (*ODCC*, ed. 2, p. 1053)

١٦- *DACL*, t. 2, p. 295

ما هو المصدر المكتوب الذي تعلّمنا منه أن نرشم بعلامة الصليب أولئك الذين يثقون بربنا يسوع المسيح، ويطلبون الخلاص في المعمودية؟... وتقديس مياه المعمودية والميرون وطريقة قبول وتعميد الموعوظين، هل لها مصدر مكتوب؟

أليس مصدر كل هذا هو ما لا يُعلن؟ (أي التسليم السري).

ما هي الكلمات المكتوبة التي علّمتنا مسحة الميرون؟ وأيضاً ما هو المصدر المكتوب الذي يحدد أن تكون غطسات المعمودية ثلاث؟ ويمكن أن نسأل عن العادات الأخرى الخاصة بالمعمودية، مثل جحد الشيطان وكل ملائكته، ما هو المصدر المكتوب الذي يُعلن لنا هذا؟

أليس كل ذلك من التعليم العظيم والسري غير المُعلَن. والذي احتفظ به الآباء في سرية تامة، لكي لا يعرفه المتشككون والمتطفلون فيحفظون بذلك هيبة الأسرار؟ فالذي لا يجوز إعلانه لغير المعمَّدين، هو ما لا نسمح لهم بحضوره، ولا حتى تسجيله مكتوباً...

الرسل والآباء قد أرسوا دعائم الشرائع الكنسية، وحفظوا هيبة الأسرار وكرامتها بالإبقاء عليها سراً، وعدم إذاعتها، لأن ما يُعلن ويُعرف لدى عامة الناس يفقد هيبته، ولا يصبح سراً، وهذا هو السبب في وجود التسليم غير المكتوب الذي يحوي عقائد وممارسات لا تُعلن ولا تُدوَّن حتى لا تصبح من توافه الأمور متى صارت مألوفة للكل. العقيدة والتعليم اللذان يتم إذاعتهما هما شيئان متمايزان: الأولى نحتفظ بها في صمت، والثانية يمكن إذاعتها لكل الدنيا...

وسوف أحتاج إلى وقت طويل جداً إذا حاولت أن أسرد أسرار الكنيسة غير المكتوبة... أما عن الاعتراف بإيماننا بالآب والابن والروح القدس... فما هو المصدر المكتوب لهذه العقيدة؟

إن كنّا حقاً قد اعتمدنا، فإن التسليم الخاص بالمعمودية يحتم

الإيمان والاعتراف بصيغة معروفة عند معموديتنا... فإذا كان التسليم غير المكتوب يتضمن عوائد كثيرة تؤثر بشكل واضح في "سر التقوى" (١ تيموثاوس ٣:١٦)، فلماذا يعارضون في حرف واحد استلمناه مع الأمور الأخرى التي تسلمناها من الآباء، وهي ثابتة لدينا في الممارسات والعادات التي تحتفظ بها الكنائس المحافظة... هذا ما يجعلنا مضطرين من أجل صوت الإيمان أن نجعل الاعتراف بالروح القدس الذي يُقال اسمه مع الآب والابن مع الاعتراف بالإيمان في المعمودية هو أساس الذكصولوجية التي تقدّم للثالوث ومصدرها[١٧]].

وعندما كان القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات (٣٢٩-٣٨٩) يعظ عن الأسرار، كان يقول للشعب:

> [لقد تحدثت كثيراً عن السر حسبما هو مسموح لنا أن نتحدث علناً، وأمام الناس، أما باقي الحديث فسوف تسمعونه في السر لكي يبقى هذا الكلام سراً خاصاً بكم] (عظة ٤ على المعمودية).

ويحدد القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م) أن المعمودية والإفخارستيا وزيت الميرون، هي من الأمور التي لا يُسمح لغير المعمَّدين بالنظر إليها، أو الاطلاع عليها[١٨]. ولقد أحصى الذين درسوا مؤلفات القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م) خمسين موضعاً منها على الأقل استعمل فيها عبارة متكررة هي: [سوف يفهم معنى كلامي المعمَّدون فقط]. والقديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م) في تعليمه للموعوظين يقول لهم:

١٧- القديس باسيليوس الكبير، الروح القدس، ترجمة الدكتور جورج حبيب بباوي، القاهرة، ، ٦٧،٦٦:٢٧

١٨- القديس باسيليوس، الروح القدس، مرجع سابق، فصل ٢٧.

[نحن لا نتحدث علناً عن الأسرار أمام الموعوظين، بل نتحدث بطريقة غير واضحة لا يعرفها إلاّ المؤمنين فقط، أما الذين لا يعرفون فلا تؤذيهم الكلمات التي سمعوها].

ولقد انعكس هذا الأمر على المصادر المسيحية نفسها، أي أن كل ما سجله الآباء كان هو التعليم العلني المعروف الذي يخص كل الشعب، أما التعليم السري غير المعلن فقد تسلمته الكنيسة بدون تدوين، بل وأبقت عليه غير معروف، حتى أن المؤرخ سوزومين[١٩] (أوائل القرن الخامس)، والذي كان معاصراً للمؤرخ سقراط[٢٠] (٣٨٠- ٤٥٠م)، امتنع عن تسجيل كلمات قانون الإيمان، لئلا يقع كتابه في تاريخ الكنيسة

١٩- اسمه بالكامل Salmaninius Hermias Sozomenus مؤرخ كنسي، لا يُعرف عن بواكير حياته سوى القليل، وهو من مواليد بتليا Bethelia قرب غزة بفلسطين، وبعد رحلات كثيرة استقر في القسطنطينية وهناك أكمل تاريخ الكنيسة تكميلاً للعمل الذي بدأه يوسابيوس القيصري، وقد أكمل التاريخ الكنسي حتى إلى أيامه، وذلك في تسع مجلدات غطت الفترة من سنة ٣٢٢٣- ٤٢٥م. وقد نسج تاريخه بتوسع مقتدياً في ذلك بمعاصره سقراط المؤرخ، ولكن تاريخه كان أقل تماسكاً من حيث سرده للموضوعات من تاريخ سقراط، إلاّ أن أسلوبه في عرضه للأحداث كان يعبر عن تفهم أكثر وأدق من هذا الأخير. ولقد أفادنا تاريخ سوزومين في عدة موضوعات استفاض في شرحها، منها انتشار المسيحية بين الأرمن، والغوطيين وغيرهم، وعلى الرغم من أرثوذكسيته إلاّ أنه أظهر فهماً قليلاً لما دار في زمانه من مجادلات عقائدية. (*ODCC*. ed., 2, p. 1296).

٢٠- مؤرخ كنسي بيزنطي، وُلد في القسطنطينية، كتب تاريخه في سبعة كتب، كل واحد منها يغطي تاريخ واحد من الأباطرة بدءًا من الإمبراطور ديوكلتيانوس، ليكمل تاريخ يوسابيوس القيصري، وعموماً فتاريخ سقراط هو تاريخ موضوعي، سهل الفهم، لكن معالجته للأحداث أقل تنوعاً، لا يميل إلى الجوانب اللاهوتية في تاريخه، أظهر تعاطفاً مع النوفاتيين. وبعد نشره لتاريخه، انهمك في تدوين كتابات البابا أثناسيوس الرسولي والتي دفعه إليها الأخطاء الكثيرة التي وردت عنها في تاريخ روفينوس (٣٤٥- ٤١٠م). (*ODCC*., ed., 2, p. 1285)

في حوزة غير المؤمنين (كتاب ١:٢٠)[٢١].

ويقول القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م) في مقاله الافتتاحي لطالبي المعموديَّة:

[عندما تتسلم تعليماً، إن سألك موعوظ من الخارج قائلاً لك: ماذا يقول المعلمون؟ لا تجبه بشئ. إننا نسلمك سراً ورجاءً في الحياة المقبلة، فاحفظ السر لذاك الذي يهبك المكافأة.

لا يقل لك أحد ماذا يصيبك لو عرفته أنا أيضاً؟ فإنه كالمريض الذي يطلب خمراً، وإذ يأخذه في وقت غير مناسب يحدث له هذيان، وبهذا يتحقق شرّان: المريض يموت، والطبيب يُلام... إنك كنت يوماً موعوظاً و لم أخبرك بما أُعلنه لك الآن. إنك ستختبر كيف أن أمور تعاليمنا عالية، وعندئذ تدرك أن الموعوظين لم يتأهلوا بعد لسماعها].

أهمية التسليم الصحيح:

يتحدث القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م) عن أهمية التسليم الصحيح الذي تسلمناه لخلاصنا، وأن من لا يتبع هذا التعليم الصحيح يصير غريباً عن مواعيد الله، وحياة الكنيسة، فيقول:

[كيف نصبح مسيحيين؟ الإجابة المعروفة للكل "بالإيمان". وبأي طريقة نخلص؟ بوضوح نولد من جديد بالنعمة التي تعطى في معموديتنا. وهل طريقة أخرى سوى

٢١ـ انظر: الدكتور جورج حبيب بباوي، مذكرات في المعمودية في الأربعة قرون الأولى، ص ٨٥- ٨٩

ذلك نخلص بها؟ فإذا عرفنا أن خلاصنا ثابت على أساس هو الآب والابن والروح القدس، فهل نتخلى عن صورة التعليم الصحيح التي تسلمناها (رومية ٦:١٧). وإذا تخلينا عن التعليم الصحيح ألا يصبح هذا مصدراً للأنين، لأننا الآن صرنا أبعد عن الخلاص من اليوم الذي آمنا فيه (رومية ١٣:١١).

إن من غادر الدنيا بدون معمودية لا يختلف عمن اعتمد معمودية "ناقصة" وليست حسب التسليم. فالخسارة واحدة في الحالتين. وكل من لا يتمسك بالاعتراف الصحيح بالإيمان الذي سُجل في سجلات الكنيسة، عندما قبل كموعوظ يوم عُتقنا من الأوثان ورجعنا إلى الله الحيّ (١ تسالونيكي ١:٩)، يصبح غريباً عن مواعيد الله (أفسس ٢:١٢)، بل مخالفاً لما وقّعه بخط يده عندما اعترف بالإيمان.

وبالنسبة لي، فمعموديتي هي بداية الحياة الجديدة، ويوم المعمودية هو أول يوم من أيام الولادة الجديدة. وهذا يعني أن كل ما اعترفت به عندما نلت نعمة التبني هو أعظم ما عندي. فهل أرضى بأن يخدعني هؤلاء بكلمات جوفاء، وأتخلى عن التسليم الذي قادني إلى النور، والذي به نلت معرفة الله. وأنا الذي كنت عدواً له بالخطيَّة، وصرت بالمعمودية إبناً لله، لكنني أنا أصلي لكي أغادر هذه الحياة إلى الرب، وأنا محتفظ بنفس الاعتراف بالإيمان النقي إلى يوم مجئ المسيح، غير منفصل عن الآب والابن، لأن هذا

هو الإيمان الذي قبلوه واعترفوا به في تمجيد الثالوث، وهو التعليم الذي قبلوه في معموديتهم[٢٢]].

وعن أهمية التسليم الصحيح كضمانة لنوال الحياة الأبدية، يكمّل القديس باسيليوس فيقول:

[لا يستطيع أحد أن يقول بأن المعمودية التي استُدعي فيها الروح القدس وحده هي معمودية كاملة. لأن التسليم الذي قبلناه بواسطة النعمة المحيية يجب أن يظل كما هو بدون تعدٍ. لأن الثالوث هو الذي فدى حياتنا من الهلاك، أعطانا قوة التجديد الكامنة في السر، والذي يعطي لنفوسنا الخلاص العظيم، ولذلك فإن الإضافة أو الحذف تعني فقدان الحياة الأبدية نفسها[٢٣]...].

٢٢- القديس باسيليوس، الروح القدس، مرجع سابق، ١٠:٢٦

٢٣- نفس المرجع، ١٢:٢٨

الفصل السابع

حول معمودية الأطفال

في هذا الفصل نتحدث عن معمودية الأطفال ومن ثمَّ نتطرق إلى الحديث عن الإشبين، ثم عن مفهوم الخطيَّة الجديَّة عند آباء الكنيسة.

أولاً: معمودية الأطفال

وضعت الكنيسة لمعمودية الراشدين شرط الإيمان أولاً لجواز معموديتهم، ولم تخل بهذا الشرط عينه عند تعميد الأطفال المنتمين إلى الكنيسة على إيمان آبائهم، الذين سبق لهم أن أعلنوا إيمانهم، ويرغبون الآن ألاّ يُحرم أولادهم من ثمرة إيمانهم الذي سبق أن أعلنوه.

وربما تكون معمودية الأطفال بغير ذي معنى إن كانت الكنيسة تعمِّد أي أطفال، ولكن إن كانت تفحص أولاً سلامة إيمان ذويهم أو المسؤولين عنهم كشرط لتعميدهم فلا غرابة في ذلك.

والمقابلة التي يذكرها القديس بولس الرسول مقارناً فيها بين الختان والمعمودية (كولوسي ٢:١١،١٢) لها مدلولها الواضح. فالمعروف أن الختان بدأ بإبراهيم وشمل كل الذكور «ابن ثمانية أيام يُختتن فيكم كل ذكر في أجيالكم» (تكوين ١٧:١٢). وعن المعمودية يقول: «وبه أيضاً ختنتم ختاناً غير مصنوع بيد، بخلع جسم خطايا البشرية بختان المسيح... مدفونين معه في المعمودية التي فيها أقمتم أيضاً معه بإيمان عمل الله الذي أقامه من الأموات» (كولوسي ٢:١١،١٢).

فكما أن المعمودية هي ختم العهد الجديد، فالختان هو ختم العهد القديم (رومية ٤ : ١١). وهناك كان الختان يُعطى على أساس ما سيأتي، كان الطفل يُختتن لأنه سيفهم فيما بعد، فالختان كان يُعطى لكل من يولد لإبراهيم، ليدخل في عهد الختان، هنا معمودية الأطفال واضحة.

فلأن المعمودية مثل الختان من حيث كونها ختم مختاري الله ليصيروا أعضاء في شعبه، فهي تُمنح فقط لأولئك الذين تتحقق الكنيسة من أنهم يحملون فعلاً إحدى علامات اختيارهم. ففي معمودية البالغين تكون هذه العلامة هي اعترافهم بالإيمان، أما في معمودية الأطفال فهي عهدهم المقدس من خلال والديهم، وفي هذه الحالة الأخيرة، فإن المعمودية مثل الختان، تسبق إدراك الإيمان وتتقدم عليه[1]. «لأن الرجل غير المؤمن مقدَّس في المرأة المؤمنة، والمرأة غير المؤمنة مقدَّسة في الرجل، وإلاَّ فأولادكم نجسون. وأما الآن فهم مقدَّسون» (١ كورنثوس ٧ : ١٤).

ثم أن الراشدين أنفسهم لم يكن يُطلب منهم سوى إعلان الإيمان قبل معموديتهم كشرط لها، ولكنهم لم يكونوا يدركون كل الإيمان أو يستوعبون أعماقه، وهو ما كان يستغرق منهم كل حياتهم بعد معموديتهم. وهكذا الأمر بالنسبة للأطفال، فليس الفهم الكامل للإيمان هو شرط معموديتهم، لأنه أيضاً (أي الإيمان) ثمرة من ثمراتها (أي المعمودية)، لأن نمو الإنسان في معرفة المسيح والكنيسة لا يكون إلاَّ بالروح القدس الذي نناله في سري المعمودية والميرون، فبالروح القدس نعرف المسيح رباً ومخلصاً «وليس أحد يقدر أن يقول يسوع رب إلاَّ بالروح القدس» (١ كورنثوس ١٢ : ٣)، وبالمسيح نقترب إلى

١- *Studia Liturgica*, vol. 1, p. 41

الآب «ليس أحد يأتي إلى الآب إلاّ بي» (يوحنا ١٤:٦).

هذا النمو المتنامي دائماً هو:

إيمان بالمسيح وفيه، «ننمو في كل شئ إلى ذاك الذي هو الرأس المسيح» (أفسس ٤:١٥)، و «ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم وأنتم متأصلون ومتأسسون في المحبة حتى تستطيعوا أن تدركوا... وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة، لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله» (أفسس ٣:١٧-١٩). وهو ما يستغرق منا كل الحياة.

وإيمان بالكنيسة ومن داخل الحياة فيها، إيمان تغذيه الأسرار الكنسية، التي هي نبع القوة فيها، ومضمون إيمانها ومحتواه.

لم يرد في العهد الجديد تعليم واضح عن معمودية الأطفال، ولكنها كانت أمراً شائعاً تعرفه الكنيسة المسيحية منذ أيام الرسل القديسين. ففي أكثر من مناسبة خاصة بالمعمودية ذُكرت عبارة "أهل البيت"، مثل بيت كرنيليوس[٢]، وبيت ليديا[٣]، وبيت سجان فيلبي[٤]، وبيت كريسبوس[٥]، وبيت اسطفاناس[٦]. والاحتمال الغالب هو وجود الأطفال في بعض تلك البيوت إن لم يكن في كلها.

ولقد كان الوعد بغفران الخطايا وقبول عطية الروح القدس هو للمؤمنين ومعهم أولادهم، فيقول بطرس الرسول: «توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم الرب يسوع المسيح لغفران الخطايا، فتقبلوا عطية الروح القدس... لأن الوعد هو لكم ولأولادكم ولكل

٢- أعمال ١٠:٤٨

٣- أعمال ١٥:١٦

٤- أعمال ١٦:٣٣

٥- أعمال ١٨:٨

٦- ١ كورنثوس ١:١٦

الذين على بعد، كل من يدعوه الرب إلهنا» (أعمال ٢:٣٨،٣٩).

والقديس يوستينوس الشهيد (١٠٠- ١٦٥م) في دفاعه الأول الذي كتبه ما بين سنة ١٤٠- ١٥٠م، يتحدث عن المسيحيين الذين صار لهم آنئذ ستون أو سبعون سنة منذ أن تتلمذوا للمسيح في طفولتهم ἐμαθητεύθησαν فيقول:

[وكثيرون من الرجال والنساء الذين اعتمدوا في المسيح منذ الطفولة، ظلوا أنقياء بعد عمر ستين أو سبعين سنة، وأنا أعتز أني أوضح هذا الأمر لكل جنس البشر(٧)].

وهذا ما يؤكد لنا أن كثيرين فيما بين سنة ٧٠- ٩٠م، كانوا يُعمَّدون منذ الطفولة، وهو زمن ملاصق لعصر الآباء الرسل أنفسهم(٨). وهو أيضاً ما يذكّرنا بقول القديس بوليكاربوس الشهيد (٦٩- ١٥٥م)، قبيل استشهاده أنه عبد للمسيح منذ ٨٦ سنة(٩).

وهو نفسه الذي قال في واحدة من رسائله:

[المعمودية هي للجميع، وخصوصاً للأطفال الصغار] (رسالة ٥٩).

ويقطع القديس إيريناؤس (١٣٠- ٢٠٠م) أبو التقليد الكنسي في ذلك الأمر بقوله:

[أتى يسوع ليخلّص الجميع، أي الذين وُلدوا به ثانية سواء كانوا أطفالاً أو شباناً أو شيوخاً] (ضد الهراطقة ٢:٢٢:٩).

والكنيسة القبطية لديها شهادات كثيرة قديمة تؤكد وجود

٧- *Apol.*, 1, 15

٨- *Studia Liturgica*, vol. 1, p. 39

٩- *Mart. Polyc.*, 19

معمودية الأطفال في هذه العصور المبكرة في مصر[١٠].

فالعلامة أوريجانوس المصري (١٨٥- ٢٥٤م) الذي وُلد من أبوين مسيحيين عن أجداد مسيحيين يقول في تفسيره للرسالة إلى أهل رومية:

[استلمت الكنيسة من الرسل تقليد منح المعمودية أيضاً للأطفال[١١]].

وفي عظته الثامنة على سفر اللاويين يشير إلى معمودية الأطفال كعادة مستقرة في زمانه، استلمتها الكنيسة من الرسل القديسين[١٢].

والعلاّمة ديديموس الضرير (٣١٣- ٣٩٨م) اللاهوتي الخطير ومدير مدرسة الإسكندرية اللاهوتية، يقول في معرض حديثه عن الثالوث:

[جعلت المعمودية الجميع إخوة دون تمييز بين من هم صغار بالميلاد، أو كبار في السن[١٣]].

ويقول القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات (٣٢٩- ٣٨٩م):

[ألك طفل؟ فلا يسوده الشر حيناً، بل ليتقدس وهو رضيع، ويُكرّس للروح منذ نعومة أظفاره، أيتها الأم إنك ترهبين الختم لضعف الطبيعة، ذلك لأنك ضعيفة النفس وقليلة الإيمان. لكن حنّة قبل أن تلد صموئيل وهبته للرب، وحال ولادته كرسته ونشأته بحلة كهنوتية، ولم تخف من الضعف البشري، بل آمنت بالله].

١٠- *DACL*, t. 2, p. 258

١١- *Studia Liturgica*, vol. 1, p. 38 - cf. *PG* xiv, col. 1047

١٢- *Hom. in Lev.*, viii, 4

١٣- *PG* xxxix, col. 710

وهكذا يحتفظ لنا التقليد منذ القرن الثالث الميلادي، بأن الأطفال الذين يولدون من أبوين مسيحيين كانوا يقبلون المعمودية[١٤].

ويشهد القديس أغسطينوس (٣٥٤- ٤٣٠م) بالقول:

[إن الكنيسة تتمسك دائماً بتعميد الأطفال متسلمة إياه من إيمان السلف، ولم تزل حافظة له إلى الآن، وسوف تحفظه إلى الانقضاء أيضاً] (خطاب ١٧٦).

وهذه الشهادات الكثيرة نراها أيضاً في المراسيم الرسولية (منتصف القرن الرابع)، والقديس أمبروسيوس (٣٣٩- ٣٩٧م)، والقديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م)، وفي المؤلفات المنسوبة إلى ديونيسيوس الأريوباغي (القرن الخامس)، وكثيرون غيرهم[١٥].

ومنذ منتصف القرن الخامس الميلادي شاعت معمودية الأطفال وطغت ممارستها واستعمالها في الكنيسة الجامعة[١٦].

أما العلامة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م)، فكان ضد معمودية الأطفال، إذ حرَّض عل تأجيل معموديتهم حتى يمكنهم التعرّف على المسيح[١٧]، على الرغم مما ذكره الإنجيل المقدس «دعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم، لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات» (متى ١٩:١٤). وكذلك تأجيل معمودية البالغين غير الناضجين روحياً، لأنه كان

١٤- *ODCC.*, ed. 2, p. 701

١٥- جراسيموس مسرة، الأنوار في الأسرار، بدون تاريخ، ص ٤٩

١٦- O. H. E. Khs Burmester, *The Canons of Cyril III Ibn Laklak 75th Patriarch of Alexandria, dans Bulletin de La Société d'Archéologie Copte (BASC)*, t. 12, 1947, p. 27

١٧- *De Bapt.*, 8

يعلّم بصعوبة أو استحالة غفران الخطايا التي تُرتكب بعد المعمودية، وهو نفس التعليم الذي علّم به "كتاب عهد الرب" (القرن الخامس) والذي حظى في الشرق بانتشار واهتمام بالغَين، قد أثّر تأثيراً سيئ العواقب، إذ دفع كثيرين إلى تأجيل معموديتهم إلى قرب ساعة احتضارهم، كما فعل الإمبراطور قسطنطين على سبيل المثال.

وابتداءً من القرن الخامس تقريباً، وحينما أصبحت معمودية الأطفال من الأمور الشائعة العادية، والغالبة في ممارسة السر، تقهقر طقس قبول الموعوظين وإعدادهم، وحُذفت الوصايا والتعاليم التي كانت تعطى لطالب المعمودية، البالغ السن. أما طقوس جحد الشيطان والاعتراف بالمسيح، والمسح بالزيت، فقد صارت طقوساً مختصرة، يُستهل بها خدمة سر المعمودية[١٨].

وفي الكنيسة الأرمنية فقد تثبتت لديهم عادة تعميد الأطفال في اليوم الثامن بعد ولادتهم، منذ القرن الثامن الميلادي بواسطة الكاثوليكوس يوحنا أسقف أودسون Jean d'Odsun. ولقد كان سبب تأخير ظهور معمودية الأطفال في الكنيسة الأرمنية هو وجود مذهب البولسيين، الذي ظهر وانتشر في أرمينيا[١٩].

واليوم صارت الكتب الطقسية الخاصة بالعماد في كافة الكنائس الشرقية، ومعها الكنيسة القبطية تخدم معمودية الصغار فقط، لا الكبار.

١٨- O. H. E. Khs Burmester, *The Baptismal Rite of the Coptic Church, dans Bulletin de La Société d'Archéologie Copte (BASC)*, t. 11, 1945, p. 61.

١٩- *DACL*, t. 2, p. 295

أما الصلاة التي يقول فيها الكاهن "أيها السيد الرب يسوع المسيح... طهّر هؤلاء الأطفال الذين جاءوا ليكونوا موعوظين..."، فيجب أن تُفهم على سبيل المجاز، لأنه بعد سطور قليلة تالية لهذه الصلاة نقرأ: "امنحهم غفران خطاياهم، وأعطهم نعمتك أن يُشفوا من الخطية المميتة"، مما يتضح معه أن نص الصلاة كان في الأصل لموعوظين بالغين، ثم عُدِّل ليناسب الأطفال. وفي كل الصلوات اللاحقة تحت عنوان: "صلاة على الموعوظين"، يتضح أنها من أجل راشدين، وليس لأجل أطفال[٢٠].

ولقد فرضت الكنيسة تأديباً على الوالدين إذا أجلا عماد طفلهما، سواء لإهمال منهما أو بسبب نذر العماد في مكان معيّن، أو على يد كاهن معيّن، فمات الطفل دون عماد، والتأديب الكنسي قانونه الصوم والحرمان من شركة الأسرار المقدسة لمدة سنة كاملة.

وتذكر قوانين البابا كيرلس بن لقلق (١٢٣٥- ١٢٤٣م): "من أمكنه العماد اليوم فلا يؤخره إلى غد بسبب غيبة والد، أو صديق أو ملبوس، أو كاهن معظّم، أو عمل فرح. فمن أخّره إلاّ لضرورة قاطعة فإن الله سيدينه[٢١]". وفي قوانينه أيضاً: "لا تُغيَّر العوائد المستقرة في البيع القبطية، كالختان قبل التعميد، ما لم تقطعه ضرورة...الخ[٢٢]".

ومنذ القرن الرابع عشر في الكنيسة القبطية لدينا تعليمات تختص بمعمودية الأطفال وهي: "إذا عُمد صغير، فلا يُسقى لبن أمه ولا غيرها إلاّ بعد تناول القربان. فإنه إن شرب لبن أمه امتنع من

٢٠- *BASC.*, t. 11, p. 62

٢١- *BASC.*, t. 12, p. 89

٢٢- *BASC.*, t. 12, p. 86

القربان، ولا يجب معموديته بلا قربان، فتحرزوا من ذلك.

وإذا كان المعمَّد طفلاً مرضعاً، فيُقدَّم قداس السراير عندما يبتدىء بخدمة المعمودية لكي يكون فراغهما معاً، فيُعمَّد ويُقرَّب قبل رضاعه من لبن أمه. ويجب أن تحترزوا في ختان أولادكم، ولا تعمِّدوا إلاَّ من قد ختن، فإنه لا ختان بعد المعمودية[٢٣]».

وفي الكنيسة الشرقية، يتبع المعمودية مباشرة، منح سر الميرون المقدس، ثم سر الإفخارستيّا - كما كان الطقس القديم منذ عصر الآباء الرسل - حتى بعد أن تعمَّمَت معمودية الأطفال.

أما في الغرب فقد أُرجئ منح هذين السرين الأخيرين حتى سن الإدراك باستثناء حالات الخطر، وذلك منذ زمن القديس أغسطينوس (٣٥٤- ٤٣٠م) الذي يعتقد أن الأطفال لا ينبغي أن يقتربوا إلى المائدة المقدسة، لأنهم لا يقدرون بعد على اختبار أنفسهم (١ كورنثوس ١١:٢٨)[٢٤].

ويتضح من هذا التعليم، التضاد بين المنع من سر الإفخارستيّا لعدم القدرة على اختبار النفس، ومنح سر المعمودية، في نفس الحالة من عدم القدرة على اختبار النفس أيضاً. لأن اختبار النفس قبل التقدم للأسرار هو للراشدين الذين صاروا يميزون بين الخير والشر، ليس من جهة أهلية تلك النفس للتقدم للأسرار، بل من جهة منتهى احتياجها إليها، والفرق شاسع بين الحالتين. أما الأطفال الأبرياء فالرب نفسه هو الذي أمر بقوله: «دعوا الأولاد[٢٥] τὰ παιδία يأتون

٢٣- كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كبر، الجزء الثاني (مخطوط)، مرجع سابق، الباب ١٥

٢٤- *Studia Liturgica*, vol. 1, p. 44

٢٥- الكلمة اليونانية παιδίον تعني: طفل صغير a little or young child

إليّ ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت السموات» (متى ١٩:١٤)، فإن لم يأتوا إليه في سر جسده ودمه الأقدسين على المذبح، فكيف يأتون إليه؟

والقديس أغسطينوس نفسه هو الذي قال:

> [إننا نؤمن ونصدق بتقوى وصواب أن إيمان الوالدين والأشابين يفيد الأطفال، وعلى هذا الإيمان يعتمدون] (رسالة ٣:١٩٣).

وفي سنة ١٩٦٩م، وضعت الكنيسة الكاثوليكية بعض القيود على معمودية الأطفال إذا كان والدا الطفل مسيحيين بالاسم فقط، وأن تربية الطفل في الحياة الكنسية معرَّضة للتعوق، فتُرجأ معمودية الطفل في هذه الحالة أو تُرفض لحين تلقين الوالدين التعليم الكنسي الكاثوليكي. وجدير بالذكر أن هذه التعليمات الحديثة قد لاقت مقاومة من بعض اللاهوتيين الغربيين أنفسهم[٢٦].

أما المعمدانيين والبروتستنت عموماً فلا يعترفون بمعمودية الأطفال، قائلين إنها بلا سند من الكتاب المقدس، وهي والحالة هذه لا تكون سوى مراسيم أو فرض كنسي، ولكن ليست سراً كنسياً، لذلك فهي لا تستطيع أن تنقل هبة أو نعمة روحية لمتقّبل غير مدرك لها. ولأن الكنيسة البروتستنتية لا تعترف بالتقليد المقدس إلى جانب الكتاب المقدس، فليست هناك أرضية مشتركة للحوار في هذا الشأن.

٢٦- *ODCC.*, ed. 2, p. 702

ثانياً: الإشـــبين أي العـــرّاب

معمودية الأطفال تقودنا بـالضرورة للحديـث عـن "الإشـبين" أي "العرّاب". و"الإشبين" كلمة سريانية تعني "الوصي أو الحارس"، ويقابلهـا كلمـة "العـرّاب" في اللغـة العربيـة. أمـا الكلمـة اليونانيـة المقابلـة فهـي ἀναδεχόμενος وتعني "ضامن المدين أو المتكفّل بالمدين[٢٧]".

والإشبين هو الذي يشهد لمن قدّمـه إلى المعموديـة أنـه يسـتحقها، فنقرأ في التقليد الرسولي (دُوّن قبل سنة ٢١٥م): "وعندما يُختار من ينالون المعمودية، فلتُفحص حياتهم، هل عاشوا بتقوى عندما كانوا موعوظين؟ وهل أكرموا الأرامل؟ وهل عادوا المرضى وأكملوا كل شئ حسناً؟ فإذا شـهد لهم الذين أتوا بهم أنهم فعلوا هكذا، فليسمعوا الإنجيل" (٢٠:١،٢).

وهو ما يتضح معه أن "الإشبين" كان ضرورياً للكبـار، كمـا هـو للصغار أيضاً، وهو للكبار بمثابة المعلم الكنسي، والأب الروحي للمعمَّـد، والذي يقوده في الطريق الروحي بعد المعمودية، ولكنـه لا يجيـب عنـه في أثناء مراحل طقوس التعميد، وهو مـا يؤكـده كتـاب (الرئاسـات الكنسـية ٢:٨) المنسوب لديونيسيوس الأريوباغي .

أما للصغار فهو المسؤول عن تربية ابنه أو ابنته في المعمودية، وهـو لا يتدخل في تكميل أو تتميم مراسيم المعمودية نفسها، سوى أنـه يجيـب نيابة عن الطفل الذي يمنعه سنه من الكلام أو الإدراك، وذلـك في طقـس جحد الشيطان، والاعتراف بالإيمان. أما الشمامسة فهم الذين يعود إليهم مهمة مساعدة الكاهن في مراسيم التعميد لاسيما لحظة التغطيس في المـاء.

٢٧- Finn, The Liturgy of Baptism in the Baptismal Instructions of St. John Chrysostom, p. 57 مقتبس عن: ألكسـندر شميمـانّ، بالماء والروح، مرجع سـابق، ص ٢٢٩.

أما الشماسات فلا ذكر لهن في مراسيم التعميد سوى في كتاب عهد الرب، وهو الكتاب الذي يصف مراسيم المعمودية في الطقس السرياني[٢٨].

وكان اسم المعمَّد يُكتب مع اسم العرّاب الذي كفله، تأكيداً لمسؤوليته الروحية. ونظراً لهذه القرابة الروحية بين الإشبين وابنه أو ابنته في المعمودية، فقد منعت قوانين الإمبراطور جوستنيان (٤٨٣- ٥٦٥م) الزواج بينهما.

ولقد أكّد التقليد الكنسي على ضرورة اختيار الوالدين إذا كانا يصلحان، وإلاّ فاختيار عرّاب من نفس الجنس، راشداً مشهوداً له بالحكمة والتعقّل، عارفاً بقواعد الإيمان والأسرار، ذا تقوى متحلياً بالفضائل

والتقليد المصري يحدد أن يكون الإشبين أحد الوالدين أو أحد أفراد العائلة[٢٩]. وهو ما نقرأ عنه في كتاب التقليد الرسولي:

"وليعمِّدوا أولاً الأطفال الصغار، ومن يقدر أن يتكلم عن نفسه فليتكلم. ومن لا يقدر، فليتكلم آباؤهم عنهم، أو واحد من أهلهم" (٤:٢١).

ذلك لأن الذي يجيب عن الطفل في المعمودية لابد أن يكون هو إشبينه المتكفّل به، وهو المسؤول عنه أمام الله.

وكذلك القانون ١٠٥ من قوانين القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م)، والتي يُظن أنها قوانين مصرية الأصل موطناً وتأليفاً، تحدد الأب أو الأم أو الأخ إشبيناً للمعمَّد.

٢٨- *DACL*, t. 2, p. 269

٢٩- *DACL*, t. 2, p. 269

وفي حديث عن المعمودية للقديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) يوجّه كلامه إلى العرّابين فيقول:

[أترغبون في أن أوجّه كلمة إلى عرّابينكم، ليعرفوا هم أيضاً أية مكافأة يستحقون إن أظهروا عناية فائقة بكم؟ وأية إدانة ستلحق بهم إذا تهاونوا؟ فكّروا ملياً أيها الأحباء، بأولئك الذين يكفلون شخصاً في أمور مادية، كيف يصبحون مسؤولين قانونياً عن كفالتهم. فإذا كان المدين خيّر الطبع، فإنه يخفّف الحمل عن كفيله، أما إن كان سيئ الطبع فإنه يُعرّضه للخطر. ولذا ينصحنا الحكيم قائلاً: «من يجعل نفسه ضمانة، فليفكّر وكأنه سيدفعها» (سيراخ ١٣:٨).

وإذا كان الذين يكفلون غيرهم فيما يخص المال، يجعلون أنفسهم عرضة لدفع قيمة الضمانة كلها، فيجب على الذين يكفلون غيرهم فيما يخص الروح ويتعلق بالفضيلة، أن يكونوا أكثر تيقظاً. عليهم أن يُظهروا محبتهم الأبوية بتشجيع أولئك الذين يكفلونهم ونصحهم وتأديبهم، وألاّ يظنوا أن ما يحدث هو أمر بسيط، بل عليهم أن يعلموا أنهم مشاركون لفضيلة أولئك الذين ائتمنوا على قيادتهم في الطريق، وفي المقابل معرَّضون لعقاب شديد إذا تهاون أولئك الذين ضمنوهم.

ولذا جرت العادة أن يُسمى العرّابون "آباء روحيين". فإذا كان من النُبل أن نقود إلى حماسة الفضيلة أولئك الذين لا يمتّون إلينا بصلة، فبأي مقدار يجب أن نتمم هذه

الوصية نحو من هو ابن روحي لنا] (التعليم عن المعمودية ٢:١٥،١٦).

ويعقب الأب فين Finn على القول السابق بقوله: "إن قبول العرّاب للمعتمد بوصفه إبناً له، كان يرمز بوضوح إلى مسؤوليته عن متابعة نمو ابنه في الفضيلة المسيحية بعد المعمودية، ومن سوء الحظ، لا يتكلم ذهبي الفم بوضوح عن مسؤولية العرّاب قبل المعمودية. ولكن يظهر من التعليمات أن العرّاب كان يشهد لخُلق المرشح وأحواله وحياته، لدى تسجيل اسمه، وأن العرّابين والمرشحين للمعمودية يستمعون إلى التعليم سوية. يضاف إلى ذلك أن العرّاب كان يقوم بدور مهم في البناء الروحي للمرشح خلال فترة موعوظيته، وربما كان له دور أيضاً في تثقيفه عقائدياً وليتورجياً[٣٠] "

وكتب الأب فين Finn يقول: "اشتدت الحاجة إلى العرابين، وخصوصاً منذ بداية القرن الرابع الميلادي بسبب ازدياد أعداد المقبلين إلى الكنيسة ازدياداً كبيراً. ولم يكن في إمكان ممثلي الكنيسة في المدن الكبرى مثل أنطاكية أن يعرفوا خُلق المرشحين العديدين الراغبين في المعمودية أو طباعهم، ولم يكن في إمكانهم توفير الاهتمام الخاص والضروري من أجل تربية مسيحية كاملة. وهكذا فإن العرّاب إضافة إلى كونه كفيلاً، صار معلماً ومرشداً أيضاً[٣١]".

ويقول ثيؤدور الموبسويستي (٣٥٠- ٤٢٨م):

[أما أنت أيها المقبل إلى المعمودية، فاعلم أن شخصاً يُعيَّن في الوقت المناسب يدوّن اسمك في سفر الكنيسة،

٣٠- ألكسندر شيمان، بالماء والروح، مرجع سابق، ص ٢٢٩

٣١- نفس المرجع.

> وإلى جانبه اسم عرّابك الذي يُسأل عنك، ويصير مرشدك في المدينة، ودليل مواطنتك فيها، ويحدث هذا لتعرف قبل الأوان، وأنت ما زلت على الأرض، أنك مسجّل في السماء، وأن عرّابك المقيم فيها لديه الاهتمام الكافي ليعلّمك، أنت الغريب عن تلك المدينة (أي السماء)، والقادم إليها حديثاً، كل ما يختص بها، وبالمواطنة فيها، لكي تصير ملماً بحياتها دونما حرج أو قلق...] (في المعمودية: ١٢).

وفي الطقس القبطي، يوصي الكاهن والدي المعمَّدين أو أشابينهم في ختام صلوات طقسي المعمودية والميرون قائلاً:

"اعلموا أيها الإخوة المباركون مقدار هذه الكرامة التي نالها أولادكم الذي عُدّوا من المختارين، والنعمة التي أُسبغت عليهم، وصاروا من جملة المسيحيين بالصبغة الطاهرة التي أمر بها مخلص العالمين... فاليوم يا أحبائي صار أولادكم وارثين الحياة مع السيد المسيح... ألم تسمعوا الكلام المخوف المرهوب الذي قيل لكم عن المعمودية المقدسة؟ ألم تجيبوا عن أولادكم قائلين: نجحدك أيها الشيطان وكل أعمالك النجسة؟ ألم تقبلوا بهم إلى الشرق، وتخضعوا للرب قائلين: نؤمن بإله واحد؟

فالآن يا أحبائي، إعلموا أنكم تسلمتم أولادكم من المعمودية المقدسة الطاهرة الروحانية، وأنه يطالبكم بهم إذا غفلتم عنهم، وعن تأديبهم وردهم عن الأمور غير المرضية.

اجتهدوا في تعليمهم تلاوة الكتب المقدسة التي هي أنفاس الله، وملازمة الكنيسة باكر وعشية، وصوم يومي الأربعاء والجمعة، والأربعين المقدسة وكل الأصوام، والقوانين الكنسية، والأوامر الرسولية، فإنهم من الآن صاروا مستحقين التناول من الأسرار المقدسة الإلهية، التي هي جسد

ودم ابن الله المسفوك عن خلاص البرية.

احتفظوا بأولادكم ولا تمكنوهم من المضي إلى الأماكن غير المرضية، لكي يحرسهم الرب من التجارب الشيطانية. ازرعوا فيهم الخصال الجميلة، وازرعوا فيهم البر والتسبيح، ازرعوا فيهم الطهارة والطاعة والمجد والقداسة... الرحمة والصدق والعدل... التقوى والصلاح والصبر...

وأنتم أيها الأشابين المباركون، والإخوة الأنقياء الأمناء... إعلموا أنكم قد صرتم بهذا العماد كفلاء وضامنين، وأنتم منذ اليوم والديهم الروحانيون، والمطلعون على أسرارهم، والمتولون عن أوزارهم، والمشاهدون كل يوم جميع أحوالهم، فأنتم من اليوم مسؤولون عن أعمالهم وأقوالهم. وقد ضمنتموهم من السيد المسيح ضماناً صحيحاً... لتجاوبوا عنهم في يوم الدين... وتسلمتم هذه الوديعة بمقتضى الشريعة، وقد شهد عليكم كهنة الله والكنيسة لتجتهدوا في تعليمهم بالأدب والوقار، وتعلّموهم طرق الله الخفية...".

ولقد أصبح دور العرّاب الآن في طقس المعمودية شكلياً، ففي الغالب تقوم أم الطفل بدور الإشبين لطفلها، حتى وإن كانت تجهل حقائق الإيمان، ولا ينطبق عليها الشروط التي وضعتها الكنيسة لاختيار العرّاب. فتقتصر وظيفتها على فترة الخدمة الليتورجية لسر المعمودية وحسب. والنتيجة هي؛ أن كل الأطفال المولودين من أبوين مسيحيين يعتمدون في الكنيسة بلا استثناء تقريباً، لكن ما أقلّ من يلازم الكنيسة منهم بعد إدراكهم وبلوغهم، فالإحصائيات تقول إن نسبة المواظبين على صلوات الكنيسة وقدّاساتها بين الأقباط لا تتعدّى ٢٠٪ من مجموعهم.

إن الجهاد الشديد الذي يبذله الخدّام والرعاة في اجتذاب النفوس

- لا أقول غير المؤمنة، بل المؤمنة اسماً - للمسيح والكنيسة، كان يمكن توفيره إن تربّى الطفل في رعاية إشبين أو عرّاب صحيح الإيمان، يحيا الكنيسة، فالخمس سنوات الأولى من عمر الطفل هي أخطر سني حياته، إذ عليها ينبني مستقبله كله. فلقد تأكد بما لا يترك مجالاً لجدال، أن حياة الإنسان بجملتها روحية كانت أو نفسية أو احتماعية، تتشكل بتدقيق في السنوات الأولى من عمره. ولا يمكننا أن ندّعي أن خدمة مدارس الأحد والتي يحضر فيها الطفل في حدود الخامسة أو السادسة من عمره، ولمدة ساعة أو ساعتين في الأسبوع، يمكنها وحدها أن توجّه حياة الطفل توجيهاً عميقاً، وتخط فيه سمات شخصيته، وإنما هو البيت.

هذا هو حجم التبعة الملقاة على عاتق الأم التي صارت إشبين طفلها، فأي جواب تجيبه إن لم تربي طفلها في مخافة الله وحب الكنيسة. ومن جهة أخرى لا يمكننا أن نغفل تغاضي الكنيسة في كثير من الحالات في البحث عن أهلية الأم كعرّابة لطفلها. إن الأمر جد خطير لأن أمهات اليوم هنّ كنيسة الغد.

ثالثاً: الخطيَّة الجدِّية

معمودية الأطفال تقودنا أيضاً للحديث عن الخطيَّة الجديَّة، أو الخطيَّة الموروثة، ذلك التعبير الذي ورد بكثرة في اللاهوت اللاتيني وعند الكتّاب اللاتين ولاسيما القديس أغسطينوس (٣٥٤- ٤٣٠م)، أما مفهومه ومعناه وإن لم يغب في الكنيسة الشرقية وعند الكتّاب اليونانيين، إلاّ أنه لم يكن يمثل لديهم تلك الأهمية وذلك الضوء المبهر الذي سُلّط عليه في الكنيسة الغربية.

يفهم كل آباء الكنيسة الشرقية في الشرق المسيحي هذه الوراثة على أنها وراثة للموت والفساد أكثر من كونها وراثة للذنب. فالذنب – في مفهومهم – هو نتيجة فعل شخصي، يرتكبه الشخص بكامل حريته. وهو ما يسير جنباً إلى جنب مع رؤيتهم للخلاص على أنه نصرة للحياة على الموت، أكثر منه كفّارة قانونية للخطيَّة، فالخوف من الموت هو الوجه الآخر للافتخار بالحياة.

وهناك إشارات في كتابات الآباء الرسوليين (القرن الثاني الميلادي)، إلى منشأ الخطيَّة، وذلك ضمن تعبيرات عامة في معظمها، فالبشرية خاطئة وجاهلة وفي حاجة إلى خلاص، ولكن الآباء الرسوليين لم يولوا اهتماماً لكيفية وصول البشرية إلى هذه الحالة. ذلك لأن موضوع خطيَّة آدم وانتقال هذه الخطيَّة أو آثارها إلى الأجيال التالية، لم يظهر كموضوع ذي شأن، ولا كان مجالاً للجدال حتى بداية القرن الخامس.

فعندما ذكر القديس يوستينوس الشهيد (١٠٠– ١٦٥م) نشأة الخطيَّة وأسبابها المباشرة، أرجعها عادة إلى نشاطات الشياطين، وفي غير ذلك كان يقرر مسؤولية الإنسان المباشرة عن الخطيَّة، ويبدو واضحاً في حواره مع تريفو (٨٨:٤) أنه ليس له أي اتجاه فكري لموضوع وراثة الخطيَّة. ولسنا نجد عند القديس إيريناؤس (١٣٠– ٢٠٠م) أي إشارة إلى وراثة للخطيَّة.

ومنذ القرن الثالث الميلادي ظهر مفهوم وراثة الخطيَّة الجديَّة أولاً في الإسكندرية على يد العلاّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠– ٢١٥م)، ومن بعده العلاّمة أوريجانوس (١٨٥– ٢٥٤م)، وكذلك من شمال أفريقيا بواسطة العلاّمة ترتليان (١٦٠– ٢٢٥م)، والقديس كبريانوس (+ ٢٨٥م)، وإن لم يكن يحمل ذات هذا التعبير "الخطيَّة الجدَّية" بالذات.

ففي الإسكندرية، قد ميّز العلاّمة كليمندس الإسكندري - كبقية المؤلفين اليونان - بين الصورة والمثال. وأن الإنسان مدعو ليكون شريكاً في خلاص نفسه عن طريق ممارسة حرية إرادته (المتفرقات ٦:١٢،١٩). فالخطيَّة هي حرية شخصية وفعلية، ولكن مع ذلك ففي كتاباته إشارات عن الاشتراك مع آدم في خطيئته.

أما العلامة أوريجانوس، ففي حديثه عن التطهيرات في معرض تفسيره لسفر اللاويين يقول:

[يظهر أنه بواسطة الميلاد الجسداني، تأخذ كلِ نفس صبغة الخطيَّة والإثم... وإلاّ فلماذا يلزم أن تمنح المعمودية لغفران الخطايا ضمن ممارسة طقسية في الكنيسة حتى للأطفال الصغار؟ فبدون شك، إن لم يكن هناك شئ في الأطفال الصغار يحتاج إلى عفو وغفران فإن نعمة المعمودية تصبح ليست بذي قيمة].

وفي تفسيره لرسالة رومية (٥:١٢- ٢١) يقول:

[لأن كل البشر كانوا في صلب آدم عندما كان في الفردوس، وعندما طُرد منه، وهكذا فإن الموت الذي جناه آدم في معصيته قد انتقل بواسطته إلى جميع هؤلاء الذين في دمه. وهذا ما قاله الرسول: «كما في آدم يموت الجميع، هكذا في المسيح سيحيا الجميع» (١ كورنثوس ١٥:٢٢)][٣٢].

إن المعمودية لا تقتصر في مفعولها على محو الخطيِّة فحسب،

٣٢- *PG* 14, 1010

> [لماذا يجب على الطفولة البريئة أن تأتي بمثل تلك السرعة إلى ترك الخطيَّة؟ دعهم يأتون بينما هم يبلغون النضوج، ويتعلمون ما سيأتون إليه (أي المعمودية)، دعوهم يكونون مسيحيين عندما يكونون قادرين على معرفة المسيح] (مقالة على المعمودية ١٨:٥).

يتضح مما سبق مفهوم ترتليان عن الخطيَّة الجدية دون الإشارة إليها بذات هذا التعبير، لاسيما عندما يدعو آدم كأصل جنسنا، وخطيَّتنا (على العفة ٢:٥). وإن موقفه تجاه معمودية الأطفال يشير إلى أنه كان يعتبر الخطيَّة الجدّية شيئاً غير ذي بال بالنسبة لهم.

أما القديس كبريانوس الشهيد (+ ٢٨٥م) أسقف قرطاجنة، فلم يتطرق إلى هذا الموضوع بنفس الاستفاضة التي عرض لها ترتليان، وربما يكون الاختلاف بينهما هو في التشدد الذي قاد ترتليان إلى المونتانية. ولا ينبغي أن نغفل أن مفهوم الخطيَّة الجدية ظل متأصلاً في كنيسة شمال أفريقيا، حتى أننا نقرأ في القانون ١١٠ لمجمع قرطاجنة المنعقد سنة ٤١٩م، والمعروفة قوانينه باسم "مجموعة القوانين الأفريقية": "إن كل من ينكر أن يُعمِّد الأطفال المولودين حديثاً، وكل من يقول إن المعمودية هي لغفران الخطايا، وإن الأطفال لا يرثون من آدم الخطيَّة الجدَّية التي تحتاج إلى التنقية بحميم الولادة الثانية، ويستنتج من ذلك أن رسم المعمودية لغفران الخطايا للأولاد هو رسم باطل لا حقيقي، فليكن محروماً". مما يتضح معه أنه كانت هناك مقاومة لمفهوم "وراثة الخطيَّة الجدَّية" مما استوجب من المجمع وضع قانون للتصدي لها.

أما عند آباء القرن الرابع، فكان الاهتمام الأول للبابا

أثناسيوس الرسولي (٢٩٦- ٣٧٣م) هو الخلاص، وهو يؤكد أن البشرية فاسدة بحسب الطبيعة، ومائته بحسب الطبيعة (تجسد الكلمة ٣:٤)، إلاَّ أنه لم يستعمل قط تعبير "خاطئة بحسب الطبيعة". ولم ترد في كل كتاباته أي إشارة لتعبير "الخطيَّة الجدَّية".

لم ينشغل البابا أثناسيوس بالخطيَّة - كما فعل القديس أغسطينوس - قدر انشغاله بالخلاص الذي قدَّمه المسيح للعالم. فماذا يهم إن تصارعنا على وجود ما يُسمى "الخطيَّة الجدَّية" أو عدم وجودها، ألم يصبح الخلاص الذي قدمه المسيح لنا خلاصاً من كل أنواع الخطايا؟

أما القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م)، فيشير إلى الخطيَّة الجدَّية في حديث عابر، فيقول إن الموت هو النتيجة العامة لسقوط آدم، والخطيَّة مرتبطة بالموت. أما موضوع انتقال الخطيَّة من آدم إلى نسله فقد تُرك بدون فحص، ويرى أن فساد الإنسان غالباً ما يكون بسبب خطاياه الشخصية، والتي تغفر في المعمودية.

وبين الآباء الكبادوك، نجد أن الخطيَّة الجدّية غير واضحة في عقيدة القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م). إلاَّ أنها واضحة تماماً عند أخيه القديس غريغوريوس النيسي (٣٣٠- ٣٩٥م)، فهو أقرب الآباء الشرقيين إلى أغسطينوس (٣٥٤- ٤٣٠م)، ذلك لأن المكونات الأساسية لمبادئ أغسطينوس اللاهوتية موجودة في أنثروبولوجيا غريغوريوس النيسي. أما القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات (٣٢٩- ٣٨٩م) فهو واحد من الآباء الذين تكلموا عن عقيدة وراثة الذنب، إلى جانب وراثة الفساد والموت.

وفي القرن الخامس، يرى القديس أغسطينوس (٣٥٤- ٤٣٠م) أن عقيدته عن الخطيَّة الجدّية هي امتداد للتقليد الكنسي، ليس فقط في قانون الإيمان، ولكن في الأسفار المقدسة أيضاً. وقد أورد خمسة شواهد كتابية لإثبات ذلك، اثنان منها من العهد القديم، وثلاثة من العهد الجديد، أوضحها على الإطلاق من رسالة رومية. وهذه الشواهد هي:

- «هأنذا بالإثم صُوِّرت وبالخطيَّة حبلت بي أمي» (مزمور ٥١:٥).
- «من يُخرج الطاهر من النجس. لا أحد»، «أصُورت أول الناس أم أُبدئت قبل التلال» (أيوب ١٤:٤، ١٥:٧).
- «المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح» (يوحنا ٣:٦).
- «الذين نحن أيضاً جميعاً تصرفنا قبلاً بينهم في شهوات جسدنا عاملين مشيئات الجسد والأفكار، وكنّا بالطبيعة أبناء الغضب كالباقين أيضاً» (أفسس ٢:٣).
- «من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطيَّة إلى العالم، وبالخطيَّة الموت، وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع» (رومية ٥:١٢).

وبرغم أن القديس أغسطينوس اقتبس على الأقل ثماني مرات من عظة القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م)، في تفسيره لرسالة رومية (٥:١٢-٢١)، ليؤكد عقيدته عن الخطيَّة الجدّية، إلاّ أن ذهبي الفم لم يقرر بوضوح أن الخطيَّة نفسها قد وُرِّثت من خلال التناسل،

وأنها أصبحت مغروسة في طبيعتهم[٣٣]. إذ كان ذهبي الفم يؤكد مراراً أن الموت وليس الخطيَّة هو الذي انتقل كميراث من آدم[٣٤].

أما القديس كيرلس الكبير (٤١٢- ٤٤٤م) فيقول في ذلك:

[كيف جُعل الكثيرون خطاة من خلاله؟ لماذا وقع عصيانه علينا؟ وكيف أن كل هؤلاء الذين لم يولدوا يُحكم عليهم فيه؟ فلدينا هذا القول الإلهي: «لا يُقتل الآباء عن الأولاد، ولا يُقتل الأولاد عن الآباء. كل نفس بخطيتها تُقتل» (تثنية ٢٤:١٦) فما هو التفسير لذلك؟

أليس حقاً أن النفس التي تخطئ هى نفسها التي تموت، لأننا جميعاً خطاة من خلال عصيان آدم. فقد جُبل آدم أولاً على الحياة وعدم الفساد، والأكثر من ذلك، فإن الحياة التي عاينها في فردوس النعيم هي تلك التي تناسب القديسين. إذ كان عقله يُختطف دائماً في رؤية الله، وكان جسده في هدوء كامل، لأنه لم يكن في داخله قابلية للدوافع الغريبة، ولكنه حينما تعرّض للسقوط في الخطيَّة وغاص فيها حتى وصل إلى أعماق الفساد والموت، من هذا الوقت فصاعداً بدأت

٣٣- *Quasten* 4, p. 478

٣٤- نلاحظ هنا أن القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م) لا يخرج عن نص رومية ٥:١٢ الذي يقول أن الموت هو الذي احتاز إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع. والذين يدافعون عن عدم انتقال ما يُسمى "الخطيَّة الجدّية" إلى نسل آدم، يقولون أن الترجمة اللاتينية التي اقتبس منها أغسطينوس شواهده، وهي الترجمة التي ظلت مقررة في الكاثوليكية حتى العصور الوسطى، أغفلت ذكر الموت في الجزء الثاني من رومية ٥:١٢، وتحقق فيما بعد أنه بينما أن كلمة "الموت" في اللغة اليونانية هي في صيغة المذكر، فإن "الخطيَّة" هي في صيغة المؤنث، مما يؤكد أن الجزء الثاني من النص المذكور لا يتحدث عن الخطيَّة بل عن الموت... الخ.

الشهوات غير الطاهرة مهاجمتها للطبيعة الجسديَّة، وبدأ ناموس الخطيَّة ينشب أظافره في أعضائنا. ولذلك فالطبيعة البشريَّة احتضنت مرض الخطيَّة من خلال عصيان إنسان واحد هو آدم. وبهذه الطريقة أصبح الكثيرون خطاة، ليس هكذا بتعدِّيهم الفعلي ـ لأنهم لم يكونوا قد وُجدوا في الحياة الفعليَّة بعد ـ ولكن إذ صار لهم نفس الطبيعة البشريَّة، سقطوا تحت ناموس الخطيَّة مثل آدم ... وهكذا نمت الطبيعة البشريَّة ضعيفة، وقابلة للفساد في شخص آدم بسبب فعل المعصية، وهكذا دخلت في معاناة الآلام ... ولكن في شخص المسيح نالت البشريَّة حريَّتها وصارت مطيعة لله الآب، ولم تعد ترتكب خطيَّة(٣٥)].

وهنا لا يخرج القديس كيرلس الكبير عن قول القديس بولس الرسول في رومية ٥:١٢، مع توضيح وشرح. وهو يشير إلى خطيَّة انتقلت من آدم إلى نسله في قوله: [لأننا جميعاً خطاة من خلال عصيان آدم ... فالطبيعة البشريَّة احتضنت مرض الخطيَّة من خلال عصيان إنسان واحد هو آدم. وبهذه الطريقة أصبح الكثيرون خطاة]. وهذه الخطيَّة التي يشير إليها هنا ليست هي الخطية الفعليَّة، إلاَّ أنه في ذات الوقت لم يشر إلى اسمها بـ "الخطيَّة الجديَّة"، مكتفياً بالقول: إنه بعد أن صار لنا نفس الطبيعة البشرية الساقطة، صرنا بالضرورة ساقطين تحت ناموس الخطيَّة.

لذلك فإن الشرق المسيحي وإن لم ينكر أن الإنسان مولود بالخطيَّة لأنه من ذات الطبيعة البشريَّة الفاسدة التي سقطت بالعصيان،

٣٥ـ *PG* 74, 788D- 789B

إلاَّ أن هذا التعبير "الخطيَّة الجدَّية" في ذاته، لم يكن يعرفه الشرق المسيحي، لكنه نتاج اللاهوت المسيحي الغربي.

أما أول رد فعل في الشرق عن تعبير "الخطيَّة الجدَّية" فكان في القرن السادس حين أقرَّت الكنيسة الأشوريَّة في سنودسها (بمجمع أساقفتها) الذي عُقد سنة ٥٩٦م، بعدم وراثة المولود الجديد للخطيَّة الجدَّية، وهو ما دفع كنيسة روما لأن تتّهم كل كنيسة لا تعترف بوراثة الخطيَّة الجدَّية أنها واقعة في خطأ البيلاجيَّة[٣٦].

لقد كان للقديس أغسطينوس (٣٥٤- ٤٣٠م) مفاهيمه الخاصة والتي تأثّر بها الغرب المسيحي تأثراً واسع النطاق. فهو الذي قرَّر اعتماد قانونيَّة سر المعموديَّة إن تمت باسم المسيح، أو باسم الثالوث على حد سواء، وأن المعموديَّة تكون صحيحة متى تمِّمت بموجب مراسيمها الصحيحة حتى ولو كانت على يد هراطقة، وتمسك برأيه بأن الروح القدس يُنتج في المعموديَّة فعلاً مستقلاً لنعمة تقديسيَّة تختِم روح المعتمد ليصبح ملكاً للثالوث، ويظل هكذا حتى ولو ارتدَّ عن الإيمان، كالختم الملكي الذي يبقى على العملة، ويسمح للنفس المسيحيَّة أن تظل مميَّزة حتى وإن كانت في الجحيم.

هذه هي بعض تعاليم الكنيسة الكاثوليكيَّة عن سر المعموديَّة والتي استقرَّت بقوانين في مجمع ترنت Trent (١٥٤٥- ١٥٦٣م)، وهو المجمع الذي ركَّز على حقيقة أن المعموديَّة ليست علامة نعمة فحسب، لكن هي بالفعل تحوي هذه النعمة، وتمنحها لأولئك الذين

٣٦ـ بلاجيوس هو راهب بريطاني المولد، ترهّب في أواخر القرن الرابع الميلادي، وعاش في روما، وكان يؤكد في تعليمه على الجهاد البشري، دون لزوم من مساندة النعمة لتكميل خلاص الإنسان، وقد انشغل القديس أغسطينوس بالصراع معه.

لا يضعون عوائق قبالتها، وهي بالحري (أي المعموديَّة) أداة يستخدمها الله لتبرير غير المؤمنين.

ثم عادت الكنيسة الكاثوليكيَّة سنة ١٩١٨م، لتسن في قوانينها (٧٣٧- ٧٧٩)[٣٧] تشريعاً جديداً بخصوص المعموديَّة.

وفي سنة ١٩٦٩م، تم وضع كتاب جديد لترتيب المعمودية ليصبح هو مرجع الممارسات الحالية للمعموديَّة[٣٨].

وفي سنة ١٩٧٢م، أضافت تعليمات جديدة لمعمودية البالغين.

ثم عادت لتصدر سنة ١٩٩٣م، كتاب "التعليم المسيحي - Catechism " لتصحِّح به كثيراً من تعاليمها السابقة، معطية أهمية قصوى للعودة إلى فكر آباء الكنيسة الشرقية الذين كتبوا باليونانية إلى جانب الذين كتبوا باللاتينية أيضاً، فعدّلت كثيراً من المبادئ التي نادى بها أغسطينوس، والتي - بحسب تعبيرها - لم تعد تناسب العصر!!.

٣٧- *Codex Iuris Canonici* (1918)

٣٨- *The Ordo Baptism Parvulorum*

الفصل الثامن

تحـــليل المـــرأة

تحليل المرأة هو الطقس الذي تجريه الكنيسة على المرأة الوالدة بعد أربعين يوماً من ولادتها لذَكَر أو ثمانين يوماً من ولادتها لأنثى. والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن دائماً هو: متى عُرفت هذه الممارسة الطقسيَّة في الكنيسة القبطيَّة؟ وما هو تاريخها الطقسي في الكنيسة الشرقيَّة؟

لقد كان العبرانيون وبحسب ناموسهم هم أول من دقّقوا في موضوع الطاهر والنجس بتفصيلات بلغت مداها، فكانوا يمنعون من كان في حالة نجاسة وعدم طهارة من دخول الهيكل ومن الاشتراك في عيد الفصح، ومن الأكل من الخبز المقدس فضلاً عن لحوم الذبائح، والاقتراب إلى الأقداس، وخبز الوجوه... الخ لأن المطهَّرين فقط هم الذين يمكنهم الاقتراب إلى الإله القدوس[١].

والأصحاح الثاني عشر من سفر اللاويين، على وجه الخصوص، هو الأكثر حديثاً من غيره من أصحاحات العهد القديم في موضوع "الطاهر والنجس". أما أسفار العهد الجديد فتنص صراحة على أن ما طهَّره الله لا يجب أن يدنسه الإنسان[٢]. وأن النجاسة تكمن في الخطيَّة وحدها وهي التي تبعدنا عن الله. أما كل ما قد سنّه الناموس من فرائض تطهيريَّة طبقاً للكهنوت اللاوي، أو كهنوت هارون، مما كان يُعتبر نجساً بحسب الناموس القديم، قد ألغاه العهد الجديد الذي تأسَّس على كهنوت المسيح الذي صار على رتبة ملكي صادق، وليس رتبة هارون بقول رسالة العبرانيين، «لأنه إن تغيَّر الكهنوت فبالضرورة يصير تغيُّر للناموس

---

١ ـ لاويين ١٩:٧ ـ ٢١؛ ٢٢:٣؛ عدد ٦:٩؛ ١١:١٨؛ ١ صموئيل ٥:٢١
٢ ـ انظر: أعمال ١٥:١٠

أيضاً« (عبرانيين ٧:١٢). وبرغم ذلك ظل موضوع "الطاهر والنجس" يؤرق كنيسة العهد الجديد، بسبب أنها قد نشأت في وسط يهودي في البداية، ولم يكن من السهل أبداً التخلُّص من قيود الناموس القديم، برغم ما كتبه القديس بولس الرسول في رسائله، لينقل فكر الكنيسة من فرائض وناموس العهد القديم، إلى نعمة العهد الجديد.

والمسيح نفسه له المجد قد خضع لشريعة الطاهر والنجس لكي يعتق بني العهد الجديد من فرائض عتيقة أكملها هو عنا ليرفعها عن كاهلنا، وهكذا جاء المسيح ليكمِّل كل بر[٣].

والعذراء القديسة مريم قد خضعت هي الأخرى لكل الناموس اللاوي وأكملت شريعته، واعتبرت بحكم الناموس غير طاهرة سبعة أيام بعد ولادتها للطفل الإلهي، وهي العذراء الطاهرة والقديسة كل حين. وأقامت ثلاثة وثلاثين يوماً بعد ذلك في دم تطهيرها! (لاويين ١٢:٤) وهي التي ولدت الابن الكلمة وبتوليتها مختومة. وهكذا بحواء الثانية بطلت خطيَّة حواء الأولى، بعد أن أكملت عنها حكم الناموس، فبالأولى كانت اللعنة، وبالثانية صار الخلاص؛ الخلاص من حكم الناموس وفرائضه القديمة.

وبادئ ذي بدء، ينبغي أن نعرض لثلاثة أمور:

١ـ موقف الكنيسة من الإفرازات الطبيعية، وفترة تطهُّر المرأة الحائض أو الوالدة.

٢ـ اختلاف فترة تطهُّر المرأة عند ولادتها ذَكَراً عن ولادتها لأنثى.

٣ـ طقس تحليل المرأة بعد كمال فترة تطهُّرها.

٣ـ متى ٣:١٥

أولاً: موقف الكنيسة من الإفرازات الطبيعيـة، وفـترة تطهّـر المـرأة الحائض أو الوالدة:

التقليد القبطي القديم والذي امتد علـى مـدى القـرون المتتابعـة لا يرى في الإفرازات الطبيعية للرجل أو المرأة أي مانع من الصـلاة أو قـراءة الكتاب المقدس، أو حضور الكنيسة، باستثناء ممارسـة الأسـرار الكنسـية كالمعموديَّة والإفخارستيًّا لاسيَّما في فـترة التطهُّـر مـن الحيـض أو النفـاس بالنسبة للمرأة. ليس لسبب نجاسـة، لأنـه بعـد حميـم المعموديـة، لا تعـود هناك نجاسة أو دنس، إلاَّ نجاسة الخطيَّة فقط.

وهذا هو المفهوم الذي ساد في كنيسة الإسـكندريَّة منـذ البدايَّـة، ذلك لأن التعليم الذي يُعلِّم بـه التقليـد الرسـولي لهيبوليتـس، والـذي انتشر في كنيسة مصر منذ القرن الثالث الميلادي تحت اسـم "الـترتيب الكنسي المصري" (دُوِّن قبل سنة ٢١٥م) يقول:

"وليتعلم الذين يُعمَّدون أن يستحموا ويغتسـلوا في اليـوم الخـامس من الأسبوع. وإن كانت بينهم امرأة طامث، فلتُعزل ناحيـة، وتتعمَّـد في يوم آخر" (٢٠:٦،٧).

وكذلك أيضاً: "أنت المرتبط بالزيجة لا تكسل عن الصلاة، فإنكمـا لستما نجسيَن. لأن الذيـن قـد اصطبغـوا، لا يحتـاجون أن يسـتحمّوا مـرة أخرى لأنهم أطهار" (٣٦:٩).

وهو نفس التقليد القبطي الذي تحدَّث عنه البابا ديونيسيوس الكبير (٢٤٨- ٢٦٥م) في رسالته إلى باسيليدس أسقف بنتابوليس (الخمس مدن الغربية) حين يقول له:

[... أمـا فيمـا يختـص بالنسـاء في فـترة الامتنـاع (الحيض) فأعتقد أنهن لو كن مؤمنات وتقيات، فـإنهن

سيجدن أنفسهن في ذلك الوقت جزعات من أن يقتربن من المائدة المقدَّسة، أو يلمسن جسد الرب. والحقيقة أن المرأة نازفة الدم لم تلمس الرب نفسه، بل لمست فقط هدب ثوبه ... لأن أي إنسان إذا لم يكن طاهراً تماماً نفساً وجسداً، فإنه يُمنع من الاقتراب إلى قدس الأقداس(٤)].

ويقول أيضاً في نفس هذه الرسالة:

[وبخصوص الذين يحصل لهم فيض (احتلام) ليلي بدون إرادتهم، فعليهم أن يتبعوا شهادة الضمير. فالذي يتشكَّك كما في أمر أكل اللحم، فإنه يُدان إن أكل. لذلك ففي مثل هذه الأمور، يلزم أن يكون لكل واحد يريد أن يقترب إلى الله، ضمير طاهر وثقة حسنة على قدر حكمه هو بنفسه(٥)].

ويمتد هذا التقليد القبطي عينه إلى زمن البابا أثناسيوس الرسولي (٢٩٦ - ٣٧٣م) حين يكتب في رسالته إلى أمون أب رهبان جبل نتريا، يجيبه رداً على استفسارات وردته:

[كل الأشياء التي صنعها الله جميلة وطاهرة، لأن كلمة الله لم يصنع شيئاً عديم النفع أو غير طاهر. لأننا «رائحة المسيح الزكية في الذين يخلصون» (٢ كورنثوس ٢:١٥) كما يقول الرسول. ولكن بما أن سهام إبليس متنوعة وماكرة، وهو يتحايل لإزعاج البسطاء، ويحاول أن يعيق الإخوة عن الممارسات العادية ملقياً بينهم سراً أفكاراً عن

٤ - *ANF.*, VI, p. 96

٥ - *ibid.*, p. 96

النجاسة والدنس، لذلك دعنا بالإيجاز نطرد خطأ الشرير بواسطة نعمة المخلّص...

ما هي الخطيَّة أو النجاسة التي توجد في أي إفراز طبيعي؟ كما لو كان فكر الإنسان مهتماً بأن يجعل من إفرازات الأنف أو بصاق الفم وهي ضرورة طبيعية أمراً يستحق اللوم؟... إن الإنسان هو عمل يدي الله، فكيف يمكن أن ينتج عمل دنِس من قوة نقية؟ وإذا كنّا نحن ذريّة الله حسب ما جاء في أعمال الرسل الإلهية[٦]، فليس في أنفسنا شئ نجس. ولكننا حينما نرتكب الخطيَّة، وهي أكثر الأشياء قذارة، فعندئذ فقط يُجلب الدنس.

ولكن عندما يحدث أي إفراز جسدي بدون تدخل الإرادة، فإننا نعرف بالخبرة أن هذا يحدث كما في أشياء أخرى بضرورة الطبيعة....

فمبارك هو الذي - إذ قد حمل نير الزواج في شبابه بحريته - ينجب أطفالاً بالطريقة الطبيعية، ولكن إذا استعمل الطبيعة بفجور، فإن عقاب ذلك يكتب عنه الرسول أنه ينتظر العاهرين والزناة[٧].

وهكذا فإن اعتراضاتهم النجسة الشريرة تكون قد وجدت الحل الصحيح المعطى من القديم في الكتب الإلهية[٨]].

ويسير البابا تيموثاوس الأول (٣٨٠- ٣٨٥م)، على نفس الطريق،

٦- أعمال ١٧:٢٨

٧- عبرانيين ١٣:٤

٨- د. وليم سليمان قلادة، الدسقولية - تعاليم الرسل، مرجع سابق، ص ٤٢٧- ٤٣٠

ففي إجاباته القانونية على الأسئلة التي وُجهت إليه نقرأ:

سؤال ٥: هل يجوز للرجل أو المرأة أن يتناول أحدهما الأسرار المقدسة بعد المضاجعة ليلاً؟

الجواب: لا، فقد قال الرسول: «لا يمنع أحدكما الآخر عن ذاته إلاّ بموافقة إلى حين، لكي تتفرغا للصلاة ثم عودا إلى ما كنتما عليه لئلا يجربكما الشيطان لعدم عفتكما (حسب المرجع)» (١ كورنثوس ٧:٥).

سؤال ٦: إذا اتفق لامرأة من الموعوظات أن حدث لها عادة النساء في اليوم المعيّن لاستنارتها بالمعمودية، فهل يجوز أن تُعمَّد في ذلك اليوم؟

الجواب: لا تُعمَّد حتى تعود نقية.

سؤال ٧: هل يجوز لامرأة وهي في دور حيضها أن تشترك (أي تتناول)؟

الجواب: لا، إلى أن تعود نقية[٩].

وإن جئنا إلى القرن الخامس أو السادس للميلاد، نجد أن قوانين هيبوليتس التي وصلتنا مترجمة إلى اللغة العربيَّة، والتي كُتبت أولاً باليونانية في أواخر القرن الخامس أو أوائل السادس تسير على نفس النهج القديم[١٠]، حيث تقول:

٩ـ حنانيا كسّاب ، مجموعة الشرع الكنسي، منشورات النور، لبنان، ١٩٧٥، ص ٩٠٩

١٠ـ يؤكد العالم كوكان Coquin في مقدمة كتابه عن قوانين هيبوليتس أنه لم يتبق أي شذرة من النص القبطي ولا من النص اليوناني لهذه القوانين، ومع ذلك يؤكد أنها مترجمة من أصل قبطي صعيدي مفقود مترجم بدوره من أصل يوناني مفقود، وذلك بناءً على تحليل بعض الكلمات والعبارات اللغوية الواردة في القوانين العربية.

R.G. Coquin, *Les Canons D'Hippolyte*, dans Patrologia orientalis (PO), tome 31, fascicule 2, Paris, 1966, p. 277 sq.

"وإن كانت امرأة، يتفق أن يلحقها الطمث، فلا تتعمَّد في تلك الدفعة، بل تتأخر إلى أن تطهر" (القانون ١٩:٥).

وأيضاً: "الذي هو مرتبط بالزيجة، ولو أنه حتى يقوم من عند زوجته، فليصل، لأن الزيجة غير نجسة، وهو لا يحتاج إلى حميم بماء من بعد الولادة الثانية، ما خلا غسل اليدين لا غير. لأن الروح القدس يرشم جسد المؤمن ويطهره جميعه" (٣:٢٧).

وفي القرن العاشر نتعرَّف على مفهوم الكنيسة القبطية وتقليدها المستقر فيها في هذا الأمر، والذي يشرحه واحد من أساقفتها المرموقين، وهو أنبا ساويرس أسقف الأشمونين، المؤرخ المشهور، فيقول:

[لما أطاع آدم وحواء الشيطان وسمعا له، تخلّت عنهما قوة الله فصارت فيهما شهوة الزواج من تلك الساعة... ولذلك أمر نسلهما أن يصوموا عنها في وقت من الأوقات، كما يقول كتاب التوراة في السفر الثاني، إن الله لما أراد أن ينزل على الجبل، ويخاطب بني إسرائيل، قال لموسى: مرهم أن يعتزلوا عن نسائهم ثلاثة أيام ويتطّهروا. وبعد ذلك أنزل وأخاطبك قدامهم (خروج ١٦:١٩)، ويقول أيضاً كتاب التوراة في سفر الناموس، إن الرجل إذا واقع زوجته يجب عليه أن يستحم بالماء ويبقى نجساً إلى ليل ذلك اليوم، وإذا لم يستحم يكون نجساً سبعة أيام (لاويين ١٥:١٦،١٧).

هذا القول قاله الله ليحقق لنا أن هذه الشهوة حدثت فينا منذ المخالفة، وأنها تنجسنا إذا خرجت منّا، وأن الواجب علينا الصوم على قدر طاقتنا، لأنها طبيعة فينا. فلما جاء ربنا يسوع المسيح، وحلّنا من رباط ناموس

التوراة، وربطنا بنيره الحلو الخفيف، لم يأمرنا أن نعتزل عن نسائنا ثلاثة أيام قبل أن نسمع كلامه، كما فعل ببني إسرائيل. ولا جعلنا نتنجس بسبب الرقاد مع الزوجة، ولا منعنا عنها وعن الرقاد معها، ولا أحوجنا إلى حميم الماء بسبب الرقاد معها، ولا بسبب الجنابة، ولا منعنا الصلاة، ولا من دخول الكنيسة بسبب ذلك كما فعل ببني إسرائيل، بل خفّف علينا نيره، وحلّل لنا ناموسه لكي نستطيع أن نحمله، وقال إنها ليست نجاسة بل فطر، والذي يفطر لا يمتنع عن الصلاة من أجل أنه فاطر، ولا من دخول الكنيسة، ولا عن حضور القداس، بل عن تناول القربان فقط ...

ليست الجنابة تنجّس بعد المعمودية، ولا الرقاد مع الزوجة الحلال نجس، بل فطر فقط، والفاطر لا يتنجس، ولا يلازمه خطيَّة في فطره إلاّ إن فَطَر في يوم صوم، لأن الذي يفطر في يوم صوم يخطئ كما أخطأ آدم لما أكل وكان منهياً عن الأكل. لذلك يأمر بولس الرجل والمرأة أن لا يمتنعا عن بعضهما البعض إلاّ بالاتفاق بينهما في أيام الصوم، ولم يمنعهما عن الصلاة، ولا عن حضور القداس، بل عن تناول القربان فقط (١ كورنثوس ٧:٥)...

ولا يذكر الحميم جملة، لأن مجامعة الزوجة الحلال ليست بنجس، وإن كانت نجساً، فليس الماء يطهّر النجس، بل يطهّر وسخ الجسد فقط، ولكن المجامعة الحلال ليست بنجس، بل الزنا هو النجس، ولا يطهر من زنى ولو استحم بكل ماء البحار والأنهار، بل يطهر إذا هو ندم

وتاب عن زناه. والحكم بسبب الجنابة في النـوم، كـالحكم في المتزوج إذا رقد مع زوجته...(١١)].

هذا هو تقليد الكنيسة القبطيَّة الذي استمر واستقر فيها على مدى الألف سنة الأولى، موثَّقاً بنصوص آبائيَّة.

أمـا بخصـوص تطهُّـر المـرأة بعـد ولادة الأطفـال - وهـي حالـة لا تختلف عمَّا سبق ذكـره مـن كتابـات الآبـاء بخصـوص مضاجعـة الزوجـة لإيجاد النسل، إذ لا فرق بين حالة امرأة تحبل بزرع بشر أو امـرأة تلـد - فنقرأ للعلاَّمة أوريجانوس (١٨٥- ٢٥٤م) رأياً مستقلاً به في ذلك الأمـر، حينما كان يفسِّر الأصحاح الثاني عشر من سفر اللاويين، الـذي يقـول: «وكلّم الرب موسـى قـائلاً: كلّـم بـني إسـرائيل قـائلاً. إذا حبَلَـتْ امـرأة وولدت ذَكَراً تكون نجسة سبعة أيام. كمـا في أيـام طمـث علتهـا تكـون نجسة. وفي اليوم الثامن يُختن لحم غرلته، ثم تقيم ثلثة وثلثـين يومـاً في دم تطهيرها. كل شئ مقدّس لا تمس، وإلى المقدس لا تجئ حتى تكمـل أيـام تطهيرها» (لاويين ١٢: ١-٤)، وفي ذلك يقول العلاَّمة أوريجانوس:

[إن واضع الناموس أضاف هذه الكلمة "حَبَلَتْ"، لكي يميِّز تلك التي حبلت وولـدتْ بـدون زرع بشـر عـن بـاقي النساء، لكي تُحسب نجسةً كـل امـرأة تلـد إلاَّ تلـك الـتي حبلت وولدتْ بدون زرع بشر. ويمكن أن يُضـاف أيضـا إلى هذه الحقيقة، أن هذه الشريعة كُتبت بخصوص النجاسة التي تتعلّق بالنساء. أمـا عـن القديسـة مريـم، فقـد قيـل إن

---

١١ ـ القديس أنبا ساويرس الشهير بابن المقفع أسقف الأشمونـين، الـدر الثمـين في إيضـاح الدين، إصدار مدارس التربية الكنسية بكنيسة رئيس الملائكة الجليل ميخائيل بطوسون، شبرا، بدون تاريخ، المقال الثامن، ص ١٧١ وما بعدها.

"عذراء" حبلت وولدت طفلاً. إذن، فدعْ النساء يحملن نير الناموس، أما العذارى فإنهن متحصِّنات منه ...

والآن دعنا نتساءل أيضاً عمَّا يكون السبب في أن امرأة، وهي تؤدِّي خدمة في هذا العالم لأولئك الذين يولدون، يُقال عنها أنها تصبح "نجسة"، ليس فقط عندما تحبل بزرع بشر، بل أيضاً عندما تلد! ومن أجل هذا فإنها تُطالَب بأن تقدِّم "صغار الحمام أو اليمام ذبيحة خطيَّة" عند باب خيمة الاجتماع لتطهيرها، لكي يكفِّر عنها الكاهن، كما لو كانت مدينةً بكفارة أو تطهير من أجل خطيَّة، لأنها قدَّمت خدمة الحَبَل بإنسان في أحشائها، وولدته في هذا العالم. لأنه هكذا مكتوب: إن الكاهن «يكفِّر عنها فتطهر» (لاويين ١٢:٧).

أما من جهتي، فلست أجرؤ أن أقول شيئاً بخصوص هذه الأمور، إلاَّ أنني أظن أن هناك أسراراً مخفيَّة تحتويها هذه الأمور، وهناك سرٌّ عميق في كَوْن المرأة التي تحبل بزرع بشر وتلد تُدعى نجسة، تماماً مثل من يقترف إثماً يُطالَب بتقديم ذبيحة خطيَّة عن الخطيِّة لكي يتطهَّر.

ولكن الكتاب المقدس يُعلن أيضاً أن الإنسان نفسه الذي يولد سواء كان ذَكَراً أو أنثى "ليس طاهراً من دنس ولو كانت حياته يوماً واحداً (على الأرض)" [١٢]. وإنه يليق بكم أن تعرفوا أن هناك شيئاً عظيماً في هذا الأمر، وأنه لم يأت على فكر أيٍّ من القديسين أن يحتفل بيوم ميلاده، ولا أحد منهم فرح بيوم ميلاد ابنه أو ابنته ...

١٢ـ أيوب ١٤:٤،٥ حسب السبعينية، وكذلك أوشية الراقدين.

ولكن إن كان يوافقكم أن تسمعوا ما يفكّر به قديسون آخرون بخصوص يوم الولادة، فاسمعوا داود يتكلم قائلاً: «هأنذا بالإثم حُبل بي وبالخطايا ولدتني أمي» (مزمور ٥٠:٧ حسب السبعينية)؛ مبيناً بذلك أن كل نفس تولد بالجسد إنما هي محاطة بدنس الإثم والخطيَّة، ومن أجل هذا يمكننا أن نقول ما سبق أن ذكرناه سالفاً: "ليس أحد بلا دنس ولو كانت حياته يوماً واحداً"...[١٣].

هنا يتّضح أن العلاَّمة أوريجانوس له رأيه الخاص الذي يختلف عن السياق العام لفكر آباء كنيسة الإسكندريَّة في هذا الأمر.

أما التقليد السرياني القديم فهو يوافق التقليد القبطي القديم باستثناء واحد هو السماح بالتناول من الأسرار المقدَّسة في فترة التطهُّر الطبيعي للمرأة. وهوما أشارت إليه الدسقوليَّة العربيَّة (الترجمة العربية للمراسيم الرسوليَّة) والتي تعود إلى النصف الأول من القرن الرابع الميلادي، بالقول:

"إن الزواج مكرَّم ومرغوب، وولادة الأولاد طاهرة، وليس شئ من الشر في ما هو خير. ولا أيضاً الطُهر الطبيعي بمرذول قدَّام الله الذي دبَّره لأن يكون للمرأة في خلال ثلاثين يوماً لأجل منفعة وعافية. لأنهن (حينئذ يكن) بالأكثر غير متحرِّكات وجالسات في البيت كل حين".

"فلا تتحفظوا من الأعمال الناموسية والطبيعية، وتظنوا أنكم تتنجسون بها، ولا تطلبوا اعتزالات اليهود[١٤]...". (٣٣:١١٢– ١١٤).

"نطلب إليكم ... بالرب لكي تبتعدوا من العادات القديمة،

١٣_ Sources Chrétiennes 287, *On Lev. Hom.* 8, 3

١٤_ د. وليم سليمان قلادة، الدسقولية – تعاليم الرسل، الطبعة الأولى ١٩٧٩، ص ٤٢٤

والرباطات الباطلة، والاغتسالات، والاحتراز من الأطعمة، والغسل في كل يوم، لأن الأمور الأولى مضت، وقد تجددت كلها[١٥]". (٣٣:٥٧).

"فأنت أيتها المرأة، إن كنت كما تقولين بغير روح قدس في أيام عادات النساء، فالروح النجس ملأك، فإن كنت لا تصلين، ولا تقرأين في الكتب، فإنك تجذبينه إليك، وتوجهين إرادته، لأن الروح النجس يحب غير الشاكرين أكثر من كل شئ..." (٣٣:١٠٣).

"... أيتها المرأة، ابعدي عن كل كلام بطال، واذكري الله الخالق كل حين، وصلي له لأنه ربنا ورب كل شئ، واتلي أيضاً في ناموسه، ولا تبتعدي من شئ من العمل اللائق بسبب ما هو تطهير طبيعي، أو بسبب شركة الزواج الناموسي، أو الولادة، أو الإجهاض، أو شئ من عيب الجسد، لأن هذا الاحتراس هكذا بلا طائل، وباطل، وعدم فهم لرجال جهّال... لأجل هذا يا أحبائي، ابعدوا من الاحتراسات التي قلناها، واهربوا منها لأنها من أعمال الوثنيين[١٦]" (٣٣:١٠٤، ١٠٧).

"فإن كنت أيتها المرأة المقيمة في الدم سبعة أيام تفتكرين أنك صرت مقفرة من الروح القدس لهذا السبب، فإنك إذا مت بغتة، تذهبين، وقد صرت غريبة من الروح القدس، وتعوزك الدالة والرجاء الكائن لنا عند الله.

ولكن الروح ساكن فيك بغير افتراق، لأنه ليس بمحصور في مكان واحد، فيجب عليك أن تصلي كل حين، وتنالي من الشكر (أي الإفخارستيا)، وتغتنمي حلول الروح القدس عليك. (٣٣:٩٩).

لأنه بهذه الأعمال لا يكون المؤمنون مع المخالفين، وهي (أي هذه

---

١٥ ـ نفس المرجع، ص ٣٩٩

١٦ ـ نفس المرجع، ص ٤٢٠، ٤٢١

الأعمال) لا تقدر أن تنجِّس طبيعة الرجل، أعني الزواج كالناموس، ولا حمل الأولاد، أو الدم القاطر، أو فيض الحلم، ولا تقدر أن تفرِّق منا الروح القدس[١٧]" (٣٣: ١٠٠).

والنسخة السريانيَّة للمراسيم الرسوليَّة في ترجمتها الفرنسيَّة[١٨]، تورد النص الآتي بدلاً من الفقرة (٣٣: ٩٩) السابق ذكرها:

"فإذا كنتِ تملكين الروح القدس فيك، وتبتعدين دون أن تُمنعي من الصلاة والكتب والإفخارستيا، فتفطَّني وابصري أن الصلاة تُسمع بواسطة الروح القدس، والإفخارستيا تُقبل وتُقدَّس بالروح القدس، والكتب (المقدَّسة) هي كلمات الروح القدس، فإذا كان الروح القدس فيكِ، فلماذا تحترسين من الاقتراب إلى أعمال الروح القدس مثل الذين يقولون: من يحلف بالمذبح لا يخطئ، أما الذي يحلف بالتقدمة التي على المذبح فإنه يخطئ. كما قال مخلصنا: أيها الجهَّال والعميان، أيما أعظم التقدمة أو المذبح الذي يقدِّس التقدمة؟ إن من يحلف بالمذبح يحلف به وبما عليه، ومن يحلف بالهيكل فإنه يحلف به وبالساكن فيه، ومن يحلف بالسماء يحلف بعرش الله وبالجالس عليه (متى ٢٣: ١٨-٢٢).

فإذا كان لك الروح القدس، وتتحفظين من ثماره فلا تقتربين إليها، فاسمعي أيضاً ربنا يسوع المسيح: أيتها الغبية والعمياء، أيما أعظم، الخبز أو الروح القدس الذي يقدّس الخبز؟ فإذا كان لك الروح القدس فإنك تراعين عادات باطلة، أما إذا لم يكن الروح القدس فيك، فكيف تستطيعين عمل البر؟ لأن الروح القدس يبقى على الدوام لدى الذين يملكونه. فإذا خرج (الروح القدس) من واحد فإن الروح النجس يلتصق به، لأن الروح النجس إذا خرج من إنسان يذهب ويختار أماكن بلا ماء،

١٧ـ نفس المرجع، ص ٤١٧، ٤١٨

١٨ـ *La Didascalie des Douze Apôtres*, par F. Nau, Paris, 1912

أي أناس لم ينزلوا في الماء، أي لم يعتمدوا[١٩]...".

واضح إذا بحسب التقليد السرياني، أن التطهُّر الطبيعي للمرأة الحائض أو الوالدة، لا يعيقها عن الصلاة وقراءة الكتاب المقدس وحضور الكنيسة والتناول من الأسرار المقدسة أيضاً. وأن بقاءها في البيت لمدة ثلاثين يوماً بعد ولادتها لطفلها بحسب التقليد السرياني ليس بسبب نجاسة لحقت بها بل لأجل منفعة وعافية لها.

ثانياً: اختلاف فترة تطهُّر المرأة عند ولادتها ذَكَراً أو أنثى

اختلفت فترة تطهُّر المرأة الوالدة من عصر إلى عصر، ومن ديانة إلى أخرى، ومن شعب إلى شعب آخر. ففي مصر الفرعونيَّة مثلاً، ومن برديَّة "وستكار" نعرف أن المرأة المصرية القديمة كانت تتطهَّر بعد أربعة عشر يوماً بعد الولادة[٢٠].

والقانون الهندي يعتبر الأم التي تلد غير طاهرة لمدة أربعين يوماً، ويأمر الأب أن يستحم بالماء بمجرد أن تلد زوجته، ويمنع كل العائلة لفترة من الوقت من ممارسة أي طقوس دينيَّة، حيث يلزمون أنفسهم بتأمل داخلي باطني في معبودهم الذي يعبودنه. وفي العائلة البرهمانيَّة فإن هذا

١٩ـ وتقول المراسيم الرسولية في نصها السرياني أيضاً مقابل الفقرة (٣٣:١٠٤): "... إذا كنت بحسب التثنية تغتسل بعد فيض أو بعد علاقات زوجية، فيجب عليك أيضاً أن تغتسل إذا سرت فوق فأر (لاويين ١١:٢٩-٣١). ولن تكون قط طاهراً، لأن حذاء قدميك مصنوع من جلد أموات، أي جلد حيوانات مذبوحة. ملابسك أيضاً مصنوعة بصوف حيوانات مماثلة. وإذا دست بقدميك عظم ميت، أوسرت فوق قبر فلابد أن تتطهّر (لاويين ١٩:١٦)، ولن تصل قط لأن تكون طاهراً. إنك تنقض معمودية الله، وتجدد خطاياك، وتوجد من جديد في خطاياك الأولى..." (انظر: د. وليم سليمان قلادة، الدسقولية ـ تعاليم الرسل، مرجع سابق، ص٤١٧، ٤٢٠).

٢٠ـ د. سمير يحيي الجمّال، تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر الفرعوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤، ص ١٢٣

القانون يمتد ليشمل الأسرة حتى الدرجة الرابعة من القرابة، ولمدة عشرة أيام، وفي نهايتها يستحمون كلهم بالماء[٢١].

وفي الإمبراطورية الفارسيَّة، وطبقاً للقانون الفارسي، فإن الأم وطفلها يستحمان بالماء. وتعيش الأم في عزلة لمدة أربعين يوماً تجوز بعدها بعض الطقوس التطهيريَّة.

والعرب يعتبرون الأم غير طاهرة لمدة أربعين يوماً من بعد ولادتها لطفلها. أما اليونانيُّون القدامى فلا يجيزون أن تكون الولادة أو الموت في أماكن مكرَّسة. وكل من الأم وطفلها يجب أن يستحما بالماء. ولا يُسمح للأم أن تقترب إلى المذبح لمدة أربعين يوماً.

والرومانيُّون لديهم أيضاً ما يُسمى يوم التطهير Lustricus dies للمرأة الوالدة، حيث تجوز هي وطفلها بعض الطقوس التطهيريَّة عندما يمنحون للمولود الجديد اسمه، وذلك في اليوم الثامن للولادة إن كان المولود بنتاً، وفي اليوم التاسع إن كان ولداً. وفي هذا اليوم تُقدَّم بعض أنواع التقدمات (الذبائح). ولدى اليونانيين أيضاً مثل هذه الطقوس التطهيريَّة التي تتم للطفل عندما يُعطى اسمه الجديد ربما بين اليوم السابع والعاشر لولادته[٢٢].

إذاً هو شعور غريزي تجاه بعض الأمور المتصلة بالولادة - كما في بعض الأمراض أيضاً - أنها نجسة أو دنسة، وإزاء ذلك فقد وُجدت بعض الطقوس التطهيريَّة التي تستعيد الشعور بالتطهُّر.

ومن الملاحَظ أنه في الخمسة قرون الأولى للمسيحيَّة لا توجد

٢١- H.D.M. Spence and Joseph S. Exell, *The Pulpit Commentary*, vol. 2, U. S. A., 1980, p. 188

٢٢- *ibid.*, p. 188

إشارة واحدة إلى فترة تطهير للمرأة، فلا ذكر لها في كتاب التقليد الرسولي، كما تخلو من ذكرها بمجموعات القوانين المنسوبة للرسل، وقوانين المجامع المسكونية، وعظات القدِّيس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م) وهي أوضح وصف للمعمودية في الكنيسة الأولى. كما أن كتاب العهد الجديد يخلو هو الآخر من أي إشارة إلى ذلك.

أما العلاَّمة أوريجانوس ففي عظته الثامنة لشرح سفر اللاويين (الأصحاح الثاني عشر)، لم يستطع أن يفسِّر لماذا تكون المرأة نجسة سبعة أيام بعد ولادة الذَكَر وأسبوعين إذا ولدت أُنثى، ولكنه يبدي تفسيره المجازي الروحي لذلك فيقول:

[... إلاَّ أنه في الوقت المعيَّن، "في اليوم الثامن"، فإن المولود الذَكَر يُختتن، والتي وَلَدَت ذكراً تُصبح طاهرة. وليس من السهل بمكان أن نناقش هذا الأمر في هذا الوقت الضيِّق، إلاَّ أنه يمكننا أن نقول شيئاً في عجالة: فهذا الأسبوع يمكن أن نراه ممثّلاً للحياة الحاضرة، لأن العالم قد أُكمل في سبعة أيام.

وطالما نحن هنا في هذا الجسد، فإننا لا يمكن أن نكون أطهاراً إلاَّ بمجيء اليوم الثامن، أعني الدهر الآتي ...[٢٣]].

ويفسِّر لنا القديس كيرلس الكبير (٤١٢- ٤٤٤م) لماذا يظل الطفل الذكر غير طاهر طيلة الأسبوع الأول من ولادته، وذلك بقوله: إن الطفل نفسه يكون غير طاهر حتى اليوم الثامن من ولادته، إذ لا توجد

٢٣- Sources Chrétiennes 287, *On Lev. Hom.* 8, 4

عليه أي علامة عهد(٢٤).

كما أن ما يذكره العلاّمة لوريجانوس في القول السابق مباشرة يتّضح منه أن النجاسة التي تتّصل بالطفل تلحق بالأم الوالدة أيضاً، وهو نفس ما يذكره كتاب العهد الجديد، وبالتحديد في الأصحاح الثاني والعشرين من بشارة القدّيس لوقا البشير (٢:٢٢) حين يقول: «ولما تمت أيام **تطهيرهما** حسب شريعة موسى...». وكلمة "تطهيرهما" هنا تعني الأم الوالدة وطفلها.

ولكن مع ذلك يتعذّر علينا - مما ذكره العلاّمة أوريجانوس - أن نفسّر لماذا تظل الأم التي تلد أنثى في دم تطهيرها فترة من الوقت ضعف فترة تطهيرها عندما تلد ذكراً، وما هو دخل هذا الأمر في وجود مراسيم دينيّة لتطهير الطفل الذكر في اليوم الثامن لولادته، أي ختانته، في حين لا وجود لهذه المراسيم الدينية في حالة ولادة الأنثى.

وباستثناء نصوص سفر اللاويين، قد ساد الاعتقاد في أنحاء العالم القديم بضرورة بقاء الأم بعيداً عن الحياة الاجتماعية، واحتياجها في حالة ولادة الأنثى لضِعف الوقت لكي تتطهَّر.

وربما كان وراء فكرة الأربعين أو الثمانين يوماً، قاعدة طبيّة قديمة، عرفها الأطباء اليونان منذ زمن هيبوقراط. وحجة هؤلاء أن الجنين الذكر يكتمل تكوينه في مدة أربعين يوماً، بينما الجنين الأنثى ضعيف، ويحتاج لاكتمال تكوينه إلى ضعف هذه المدة. ولعل الكتاب القيِّم عن تاريخ علم الأجنّة في العالم، والذي وضعه العالم الإنجليزي نيدام J.

٢٤- H. D. M. Spence and Joseph S. Exell, *The Pulpit Commentary*, vol. 2, p. 190

Needham يكفي للدلالة على ذيوع هـذه الفكـرة في العـالم القديـم. وفي شرح فيلو اليهودي لسفر التكوين يقول: "لأن تكوين الذكَر أكمـل مـن تكوين الأنثى، فتحتاج الأنثى إلى ضعف الوقت...". كما يؤكد التلمـود البابلي هذه الحقيقة.

وعلى كل حال، فإن مالدينا من نصوص يهوديَّة أو وثنيَّة لا يشـير إلى أي علاقة بين قصة السقوط بغواية حواء، وبين فترة التطهير المضاعفـة في حالة ولادة الأنثى. لأنه إن كان السقوط قد صار بسبب حواء الأولى، فإن الخلاص صار بواسطة حواء الثانية التي هي العذراء القديسة مريم.

ويتبقى أمامنا الآن الحديث عمَّا يذكره القانون الثامن عشر من قوانين هيبوليتس في نصها العربي المحفوظة في تقليد الكنيسة القبطيَّة، وفيما يلي نـص هذا القانون الثامن عشر:

"المرأة التي تلد، فلتقم خارجاً عن الموضع المقدس أربعـين يومـاً إن كان الـذي ولدتـه ذكـراً، وإن كـانت أنثـى فثمـانين يومـاً. وإذا دخلـت الكنيسة تصلّ مع الموعوظين" (القانون ١٨: ٧)

"والنساء القوابل لا يتناولن من السرائر إلاَّ بعـد أن يتطهـرن أولاً. وطهارتهن تكون هكذا: إن كان المولود الذي قبلنه ذكراً، فعشرين يوماً، وإن كـانت أنثـى، فـأربعين يومـاً. ولا يهملـن النفسـاء، بـل يصلـين لله لأجلها. وإذا مضت القابلة إلى بيت الله من قبـل أن تطهَّـر، فلتصـلّ مـع الموعوظين الذين لم يُقبلوا بعد، ولا استحقوا الخلطة" (القانون ١٨: ٢، ٣).

ولن ندخل في شرح لموضوع قوانين هيبوليتـس، إذ أفردنـا لهـا كتاباً خاصاً[٢٥]، ولكننا هنا نذكر – كما سبق أن أشرنا منذ قليل –

٢٥ـ انظر للمؤلف: قوانين هيبوليتس القبطيَّة. وهو كتاب برقم (١/١١).

أن العالم كوكان - Coquin قد أوضح في المقدمة القيِّمة والمطوَّلة التي قدَّم بها لهذه القوانين قائلاً: "... إن النص العربي الذي حفظ لنا حتى اليوم قوانين هيبوليتس، هو ترجمة لنص قبطي في لهجته الصعيديَّة، وهذه الترجمة القبطيَّة الصعيديَّة مأخوذة بدورها عن ترجمة يونانيَّة أسبق منها، وأن كلا الترجمتين اليونانيَّة والقبطيَّة مفقودتان[٢٦]". أما العالم الليتورجي المدقّق جريجوري دكس Dix فيرجِّح أن بداية زمن تأليف هذه القوانين (في نصها اليوناني أو القبطي الصعيدي المفقودين) ينحصر فيما بين نهاية القرن الخامس أو بداية القرن السادس الميلادي[٢٧].

فضلاً عن أنه لا توجد أي ترجمة لاتينيَّة قديمة لهذه القوانين، إذ لم تجذب قوانين هيبوليتس في ترجمتها العربيَّة انتباه المستشرقين إلاَّ في سنة ١٨٧٠م، عندما نشرها لأول مرة العالم هنيبيرج D. B. von. Hneberg مع ترجمة لاتينيَّة لها، معتمداً في ذلك على مخطوطتين من مجموعة قوانين مقارة الكاتب[٢٨].

نخلص إذاً إلى أنه لا توجد لقوانين هيبوليتس سوى الترجمة العربيَّة المحفوظة لدينا حتى الآن، وهي من مدَّونات القرن الثاني عشر الميلادي على أقل تقدير وليس قبل ذلك[٢٩]. ومن جهة أخرى ليس لها نصوصٌ يونانيَّة أو قبطيَّة أو لاتينيَّة.

وبناءً على ما سبق يمكننا تحديد النقاط التالية:

- يتفق القانون رقم (١٨) من قوانين هيبوليتس مع السياق العام

٢٦- R.G. Coquin, *op. cit.*, p. 31.

٢٧- Gregory Dix, *The treatise on The Apostolic Tradition of St. Hippolytus of Rome*, London, 1968., p. Lxxvii- Lxxx.

٢٨- Barb. or.4. et Vat. ar.149

٢٩- R.G. Coquin, *op. cit.*, p. 33

للتقليد القبطي القديم الذي لا يمنع المرأة الوالدة من الصلاة دون التناول من الأسرار المقدَّسة.

– لا نستطيع أن نقطع ما إذا كان هذا القانون قد أُضيف مؤخراً على نص القوانين في صورتها القديمة بعد ترجمتها إلى العربيَّة أم لا، لأنه ليس لدينا سوى النص العربي لها فقط دون بقية النصوص الأخرى المفقودة.

– لا يمنع أن يكون هذا القانون الثامن عشر من قوانين هيبوليتس هو من أصل القوانين في صورتها القديمة، لأنه منذ القرن السادس بدأ الحديث عن فترة تطهُّر المرأة بأربعين يوماً أو ثمانين حسب جنس المولود، ولاسيَّما في الكنيسة البيزنطيَّة.

– من المرجح أن تكون المدة التي يذكرها القانون كزمن تطهُّر المرأة الوالدة بأربعين أو ثمانين يوماً حسب جنس المولود هي أول إشارة قبطيَّة تصل إلينا عن هذا الأمر. وكون أن أنبا ساويرس أسقف الأشمونين لم يذكرها، لا يكون دليلاً كافياً على عدم وجودها في الكنيسة القبطيَّة في القرن العاشر، كونها واحدة من المسلَّمات التي لم يشر إليها في حديثه.

– من جهة أخرى ربما يكون مترجم هذه القوانين إلى العربيَّة في القرن الثاني عشر قد أضاف هذا القانون الثامن عشر إلى هذه القوانين بناء على ما صار منتشراً وشائعاً في الشرق تحت اسم "قوانين الملوك[٣٠]"، وعنه نقل مقارة الراهب في موسوعته، ومن ثمَّ انتقل القانون إلى مجموعة قوانين ابن العسَّال ومن بعده كل من أتى وراءه.

٣٠– هي قوانين بدأ ظهورها في الكنيسة البيزنطيَّة في القرن السادس الميلادي، في عصر الإمبراطور جوستنيان (٥٢٧–٥٦٥م)، واتسعت في أواخر القرن التاسع في عهد الإمبراطور باسيل الأول (٨٦٧ – ٨٨٦م)، وابنيه ليو السادس وقسطنطين السابع. وهي ترد في موسوعة مقارة الراهب في الكتب أرقام (٢٧–٣٠)، والكتب (٢٧،٢٨،٢٩،٣١) عند الأب جورج جراف Graf.

ولقد دخلت تشريعات الملوك في مجموعة القوانين الشرقيَّة بعد مجمع ترولو أي "مجمع القبّة" الذي عُقد سنة ٦٩٢م[٣١]، فهو المسؤول عن دخول هذه التشريعات إلى الكنيسة البيزنطيَّة بصفة رسميَّة.

وعندما بدأت حركة التعريب في مصر بدءًا من القرن العاشر قام علماء الأقباط بتجميع تشريع مدني من كتب الروم والملكيين وسموه "كتب الملوك الأربعة"، لأن معظم تشريعاته صادرة عن الأباطرة البيزنطيين". أما الكتاب الأول منها فقد أصدره الإمبراطور باسيليوس الأول (٨٦٧-٨٨٦م) مع ابنيه وشريكيه في الإمبراطوريَّة، ليو السادس وقسطنطين السابع. وهذا يفسِّر لنا الالتباس الذي وقع فيه مقارة الراهب حين نسبه لقسطنطين الكبير وبالتالي لمجمع نيقية، وعنه نقل ابن العسَّال، وابن كبر[٣٢].

وفي الكتاب الرابع من هذه القوانين وعدته ٢٦ قانوناً، كان القانون العاشر منها "في حدود التطهير من دم الحيض ودم الولادة[٣٣]". وبعد هذه القوانين وتحت عنوان: "ما أُثبت من أحكام العتيقة" وعدتها ١١٤ حكماً، جاء البند الثامن عشر مختصاً بـ "تطهير المرأة من دم النفاس بالذكر والأنثى.

وهذا الكتاب الرابع من قوانين الملوك هو في الواقع ترجمة عربيَّة للكتاب المعروف عند الروم باسم Εκλογὴ των νόμων أي "مختارات

٣١ـ هو مجمع لا تعترف به الكنائس اللاخلقيدونية، وهو محسوب عند الكنائس الخلقيدونية، أنه المجمع المسكوني الخامس السادس لديها. وتمثل قوانينه أهمية تاريخية لدراسة الطقوس الكنسيَّة في الشرق المسيحي.

٣٢ـ القس أبو البركات، مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة، مرجع سابق، ص ١٣٩

٣٣ـ نفس المرجع، ص ١٤٧

القوانين[٣٤]"، وقد أصدره الإمبراطور لاون الثالث الإيزوري مع ابنه وشريكه في المُلك قسطنطين كوبرونيم سنة ٧٤٠م، أما نسبتها إلى جوستنيان فبسبب أنها مختارات من القوانين التي كان جوستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) قد نشرها قبل ذلك[٣٥].

أما الإشارة التي أعقبت ما ورد في قوانين هيبوليتس بخصوص اختلاف فترة تطهُّر المرأة إن ولدت ذَكَراً أو أنثى فنجدها عند يوحنا ابن سباع (القرن الثالث عشر)، في كتابه "الجوهرة النفيسة في علوم الكنيسة[٣٦]".

ومع ذلك فلا تورد قوانين هيبوليتس، ولا يوحنا بن سباع شيئاً عن تحليل يُصلىّ للمرأة الوالدة عند دخولها إلى الكنيسة بعد فترة تطهُّرها.

ثالثاً: طقس صلوات تحليل المرأة بعد كمال فترة تطهُّرها:

المخطوطات الخاصة بالكنيسة القبطيَّة لا تعرف هذه الصلوات حتى القرن الثالث عشر، أما بالنسبة للكنيسة السريانيَّة، فإن صلوات خدمة المعموديَّة كما جاءت في طقس تيموثاوس الإسكندري أو غيره، فلا

٣٤- الترجمة العربيَّة لهذا الكتاب الرابع تتفق مع الأصل اليوناني في نص القوانين، لكنها تختلف عنه في تقسيمها وترتيبها. وهناك بعض التصرف في الترجمة وعلى الأخص في الأحوال الشخصية. ولكن يبدو أن هذا لا يرجع إلى المترجم العربي، بل إلى المخطوطة اليونانيَّة التي كانت بين يديه. ويُلاحظ أن هناك اختلافات بين النص الذي يستعمله أبو البركات، والنص الذي أورده مقارة الراهب.

٣٥- في بداية القرن العاشر جُمعت خلاصة شرائع جوستنيان في ستين كتاباً وهي التي تُدعى "باسيليكا"، فصارت المرجع الرسمي الوحيد للشرائع البيزنطيَّة منذ القرن الحادي عشر.

٣٦- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، كتاب الجوهرة النفيسة في علوم الكنيسة، حققه ونقله إلى اللاتينية الأب فيكتور منصور مستريح الفرنسيسي، مؤلفات المركز الفرنسيسكاني للدراسات الشرقية المسيحية، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٧٩

تعرف "طقس تحليل المرأة".

وأول من أشار إلى هذه الممارسة هو قس كنيسة السيدة العذراء (المعلّقة) أبو البركات ابن كبر (+ ١٣٢٤م). وهذا الطقس هو خدمة ليتورجيَّة من أجل "تطهير" المرأة بعد ولادة الطفل، ويُفسَّر هذا الطقس عند البعض على أنه نتيجة نظرة غير دقيقة لخدمة النساء في الكنيسة في فترة من الفترات[٣٧].

والآن نعرض لطقس تحليل المرأة كما أورده ابن كبر (+ ١٣٢٤م) في القرن الرابع عشر في كتابه "مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة"، ثم ما ذكره البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) في كتابه "الترتيب الطقسي" والذي دوّنه في سنة ١٤١١م، ومقارنة هذين الطقسين بالطقس الحالي طبقاً لكتاب "صلوات الخدمات في الكنيسة القبطيَّة الأرثوذكسيَّة".

(أ) طقس تحليل المرأة في القرن الرابع عشر:

"والذي يُعتمد في تحليل النفساء إذا ولدت ذكراً بعد كمال أربعين يوماً، تمضي إلى الكنيسة، وتقف خارجاً عند باب الكنيسة. وإذا كان وقت قراءة الفصول قبل صلاة الإنجيل يُحلّلن، ويُعتمد في تحليلهن أن تُقال أوشية الشكر، ويُرفع البخور (ثم يذكر فصول القراءات، وهو ما سنذكره فيما بعد) ويُقال السلامة والآباء والجماعة والأمانة المقدسة، وأوشية واحدة، وتُكمّل الصلاة، ويدهن الكاهن النفساء وولدها بالزيت، ثم تدخل البيعة وتتناول من السرائر المقدسة كقول القوانين المقدسة.

٣٧- BASC., t. 11, p. 62

والمرأة التي تلد، فلتقم أربعين يوماً خارجاً عن الموضع المقدس إن كان ذكراً، وثمانين يوماً إن كانت أنثى. والقوابل لا ينلن من السرائر إلاّ بعد أن يطهرن أولاً، فإن كان ذكراً فعشرون يوماً، وإن كانت أنثى فأربعون يوماً[٣٨]».

«... يُحضر الطفل المُعمَّد مع إشبينه، ويعتمد ما هذا وضعَه (أي ويراعي الترتيب التالي)، وهو يبتدئ أولاً بالصلاة على أم الطفل...[٣٩]».

(ب) طقس تحليل المرأة في القرن الخامس عشر:

تحت عنوان (ترتيب المعمودية المقدسة والتحليل):

«أول ذلك إن كانت أم الطفل لم تحلل[٤٠]، فيحللها الكاهن.

أولاً يبتديء الكاهن في بيت النساء بقراءة (أولاً)[٤١] الشبهموت (أي صلاة الشكر)، وأم الطفل خلف ظهره، ويرفع البخور بأوشية باكر. وبعد ذلك يقولون كرياليصون، الليلويا

---

٣٨ ـ كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كبر، الجزء الثاني (مخطوط)، مرجع سابق، الباب ٢٠

٣٩ ـ نفس المرجع السابق، الباب ١٥

٤٠ ـ عبارة «لم تحلل» وردت «ما تحللت».

وعند إيرادنا لنص الترتيب الطقسي، سنورده مصححاً طبقاً لتحقيق الأب ألفونس عبد الله الفرنسيسكاني، والذي بذل جهداً كبيراً في تصحيح الأخطاء النحوية، وهو ما يوجب الثناء والشكر. ولتصحيح الأخطاء الهجائية والتي تركها الأب المذكور دون تصحيح حفاظاً على النص القديم للكتاب، فقد رأينا أن نضيف الهمزة التي ترد غالبا في صورة ألف أو واو أو ياء، وأحياناً لا توجد بالمرة. والثاء (ث) التي كتبت غالباً تاء (ت)، والذال (ذ) التي تكتب دال (د)، أما الطاء (ط) والتي ذكرت دائماً ظاء (ظ) فقد أعادها الأب ألفونس إلى أصلها.

٤١ ـ يورد كتاب الترتيب الطقسي كلمة «خاصة» وهو يعني بها دائماً كلمة «أولاً».

ذكصابـتري، وجـابنيوت (أي الصـلاة الربيـة)، ومزمــور ٥٠ وبعــده البولس قبطياً، ويُفسر عربياً مــن كتـاب التحليـل. إن كـان ذَكَـر مـا يلائمه، وإن كانت أنثى[٤٢] ما يلائمها. وبعد البولس أجيوس الثلاثة، وأوشية الإنجيل، ويُطرح المزمور. ويقرأ الكاهن الإنجيل قبطي، ويُفسَّر عربـي. ومـرد الإنجيـل ⲧⲱⲃϩ ⲉϩⲣⲏⲓ ⲉϫⲱⲛ ⲡⲉⲛⲓⲱⲧ ⲉⲑⲩ ⲛ̀ⲇⲓⲕⲉⲟⲥ ⲁⲃⲃⲁ ⲥⲓⲙⲉⲱⲛ ⲡⲓⲉⲡⲓⲥⲕⲟⲡⲟⲥ ⲛ̀ⲧⲉϥ... (أي: أطلــب عنــا يــا أبانــا القديس الصدّيق أنبا سمعان الأسقف! لـ...)[٤٣]. وبعـد ذلـك الثـلاث أواشي السلامة، والآباء، والجماعــة. والأمانـة. والطلبـة. وأبانـا، وتحليـل الابـن. ويرفـع الصليـب ويقولـون كريـاليصون. ثـم يدهنهـا بـالزيت في جبهتها، والكفّين وأعلاهما، وهـم يرتلون القانون ⲧϣⲉⲗⲉⲧ ⲭⲉⲣⲉ ⲉⲧⲉⲣⲟⲩⲱⲓⲛⲓ (أي السلام للعـروس المضيئـة...)، ثـم يختـم ذلـك بقـراءة البركة، ويدخل إلى مكان دهن الأطفال...[٤٤]".

وتحت عنوان (ترتيب صلاة الرشم قبل المعمودية):

"كل كنيسة لها مكان بمفردها للرشـم علـى عادتهـا، يوضـع أمـام الكاهن دكّة أو أنجيلية أو المنـارة، ويضعـون عليهـا درج البخـور، وحُـق الميرون، ووعاء الزيت الطيب. أولاً يبتدئ الكـاهن المعمِّـد يلبـس التونيـة والبلـين، وكذلـك الشـماس، ويقـول الشـبهموت (أي الشـكر). ويرفـع البخور بأوشية باكر، وهــم يرتلـون كريـاليصون، وبعدهـا ⲧⲉⲛⲟⲩⲱϣⲧ (أي نسـجد...) بالنـاقوس، وبعدهـا ⲭⲉⲣⲉ ϯⲉⲕⲕⲗⲏⲥⲓⲁ (أي السـلام

---

٤٢ ـ ترد هذه العبارة في النص: "وان كان انسا"، وذكرنا ذلك علـى سـبيل المثـال فقط، لإيضاح التصحيح النحوي والهجائي للنص.

٤٣ ـ ما بين القوسين ( ) مسبوقاً بكلمة أي، هو من عندنا للتوضيح.

٤٤ ـ الـترتيب الطقسـي للأنبـا غبريـال الخـامس، حققـه ونشـره الأب ألفونـس عبـد الله الفرنسيسكاني، ضمن مطبوعات المركز الفرنسيسكاني للدراسات المسيحية الشرقية القـاهرة ١٩٦٤م، ص ٤٠٣

طفلها بعد أربعين يوماً أو ثمانين حسب جنسه، إلاّ أنها لا تمنعها من التناول قبل تعميد وليدها.

ونورد هنا الملاحظات التالية على الشق الأول من طقس تحليل المرأة:

١ـ يقصد ابن كبر بعبارة "كقول القوانين المقدسة" أي قوانين الملوك، والتي أشار هو إليها في كتابه "مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة"، وهي القوانين التي تحدثت عن فترة تطهير المرأة دون طقس تطهيرها، وقد سبق الإشارة إليها.

٢ـ طبقاً للقرن الرابع عشر، يتم هذا الطقس عند الباب الخارجي للكنيسة، في وقت القراءات الكنسية، والأم تحمل وليدها على يديها. وطبقاً لطقس القرن الخامس عشر، يتم هذا الطقس في بيت النساء داخل الكنيسة، دون تحديد لوقت تتميمه. أما الطقس الحالي فلا يحدد لذلك مكاناً بعينه.

والوقوف على باب الكنيسة الخارجي، تقليد يمتد إلى العهد القديم، فيصف العلاّمة الألماني إيدرزهايم Edersheim اليهودي المتنصر، في كتابه: "خدمة الهيكل"، كيف قدَّمت العذراء القديسة مريم بكرها للرب بعد اكتمال أيام تطهيرها حسب شريعة موسى، كقول القديس لوقا الإنجيلي[٤٦]، فيقول: "لما جاءت لتقديم ذبيحة تطهيرها، كان عليها أن تدخل الهيكل عبر بوابة الأبكار، وتقف منتظرة عند بوابة نيكانور، في الوقت الذي يُصعد فيه البخور على المذبح الذهبي، وخلفها في رواق النساء، كانت جموع العابدين، بينما كانت هي نفسها واقفة عند أعلى درجات سلّم اللاويين الذي يؤدّي

٤٦ـ لوقا ٢:٢٢،٢٣

إلى الرواق الكبير، حيث يمكنها أن تشاهد ما يجري في القدس.

وأخيراً أتي إليها عند بوابة نيكانور واحد من الكهنة المكلّفين بالخدمة، وأخذ من يديها تقدمة الفقير التي أحضرتها. وكانت تقدمة الصباح قد انتهت... اقترب منها الكاهن، ونضح عليها من دم الذبيحة مُعلناً أنها قد صارت طاهرة... ومن المحتمل أنها بينما كانت تهمّ بالنزول على درجات السلّم أن سمعان الشيخ أخذ الطفل من بين ذراعيها وبارك الله...(٤٧)".

ونلاحظ مدي التطابق الشديد بين ما يذكره القس أبو البركات في هذا الطقس، وبين ما سبق ذكره مباشرة عن مجئ العذراء الطاهرة إلى الهيكل بعد كمال فترة تطهيرها، وهي الطاهرة كل حين.

٣- يكتفي القس أبو البركات بالقول: "ويُرفع البخور".

أما البابا غبريال فيقول: "ويُرفع البخور بأوشية باكر"، أي يُصلىّ سر بخور باكر، بعد أن يضع البخور في الشورية، وهي الصلاة الموجهة للآب، والتي بدايتها: "يا الله الذي قبل إليه قرابين هابيل الصدّيق، وذبيحة نوح وإبراهيم، وبخور هرون وزكريا، اقبل إليك هذا البخور من أيدينا نحن الخطاة رائحة بخور غفراناً لخطايانا...".

أما كتاب صلوات الخدمات الذي يحوي الطقس الحالي، فيكتفي بالقول: "ثم يُرفع البخور". وهو في ذلك يتوافق مع ما ذكره القس أبو البركات، خلافاً لما أشار إليه البابا غبريال الخامس. ونلاحظ دائماً أن الطقس كلما يوغل في القِدم، ينحو إلى البساطة.

٤- بعد رفع البخور تبدأ قراءة الفصول الكتابية مباشرة عند القس أبو البركات، أما البابا غبريال فيذكر قبل القراءات أنه يُقال

٤٧- مجلة مرقس، سبتمبر، ١٩٩٨م، ص ٢٤

"كرياليصون، الليلويا ذكصابتري، وجابنيوت (أي الصلاة الربية)، ومزمور ٥٠". ويقتفي كتاب صلوات الخدمات طقس القس أبي البركات دون ذكر لما أشار إليه البابا غبريال الخامس في ذلك.

وهنا يلزم الإشارة إلى أن ترديد المزمور الخمسين قبل فصول القراءات نجده هو الطقس المعروف حتى اليوم في مناسبات كنسية أخرى، مثل قداس الماء في ليلة عيد الغطاس، وباقي قداسات اللقانات، وصلاة السجدة في يوم عيد العنصرة. مما يدل على احتمال سقوط هذا الترتيب عينه من كتاب صلوات الخدمات، في طقس تحليل المرأة.

٥- يورد القس أبو البركات فصول القراءات، وهي البولس، ومزمور الإنجيل والإنجيل، لتقال لكلا الجنسين الذكور والإناث، وهي:

- **فصل البولس**: «والباقون أقول لهم أنا لا الرب... لأن الرجل غير المؤمن مقدَّس في المرأة، والمرأة غير المؤمنة مقدَّسة في الرجل، وإلاَّ فأولادكم نجسون، وأما الآن فهم مقدَّسون» (١ كورنثوس ٧:١٢- ١٤).

- **مزمور الإنجيل**: «قامت الملكة عن يمينك بلباس مذهَّب، مزينة بكل نوع» الليلويا. (مزمور ٤٤:١٢).

- **فصل الإنجيل**: «وفيما هم سائرون دخل قرية، فقبلته امرأة اسمها مرثا في بيتها... فأجاب يسوع وقال لها: مرثا مرثا أنت تهتمين وتضطربين لأجل أمور كثيرة، ولكن الحاجة إلى واحد، فاختارت مريم النصيب الصالح الذي لن يُنزع منها» (لوقا ١٠:٣٨- ٤٢).

هذا ما أورده القس ابن كبر ليُقرأ عند تحليل المرأة سواء ولدت ذكراً أو أنثى، أما البابا غبريال فأشار إلى أن فصل البولس تتغير قراءته طبقاً لجنس المولود فـ "إن كان ذَكَر ما يلائمه، وإن كانت

أنثى ما يلائمها"، وهو ما يذكره كتاب صلوات الخدمات أيضاً. علماً بأن ما ذكره ابن كبر من قراءات هو ما يذكره كتاب صلوات الخدمات ضمن تحليل المرأة إذا ولدت أنثى.

أما فصول القراءات ضمن طقس تحليل المرأة إذا ولدت ذكراً فهي:

- **البولس**: «وأما عن الابن، كرسيك يا ا لله إلى دهر الدهور. قضيب استقامة هو قضيب ملكك... أنت هو أنت وسنوك لن تفنى» (عبرانيين ١:٨-١٢).

- **مزمور الإنجيل**: «طوباهم الذين تُركت لهم آثامهم، والذين سُترت خطاياهم. طوبى للرجل الذي لم يحسب الرب عليه خطيَّة، ولم يوجد في فمه غش» الليلويا. (مزمور ٣١:١،٢).

- **فصل الإنجيل**: «ولما تمت ثمانية أيام ليختتنوا الصبي سُمي يسوع... وعندما دخل بالطفل يسوع أبواه ليصنعا له حسب عادة الناموس، أخذه سمعان على ذراعيه، وبارك ا لله وقال: الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام... لتُعلن أفكار من قلوب كثيرة» (لوقا ٢:٢١- ٣٥).

والقارئ المدقق يلاحظ أن فصول القراءات التي أوردها ابن كبر تدور حول المرأة الوالدة، بغض النظر عن الوليد ذَكَراً كان أم أنثى. لذلك صارت موافقة لأي منهما. ونلاحظ أيضاً أن التطور الذي حدث عندما يشير البابا غبريال إلى قراءات مستقلة لتقال في حالة ولادة ذَكَر، أنه أورد فصل البولس وآيات المزمور وهي تختص بابن ا لله الوحيد، الذي سنوه لا تفنى، والذي لم يوجد في فمه غش. وهي بعيدة أن تكون ذات علاقة قريبة بالمولود الذَكَر. أما فصل الإنجيل الذي يتحدث عن دخول المسيح إلى الهيكل بعد أربعين يوماً،

فهو يصير موافقاً إن قيل في مناسبة تعميد الطفل الذَكَر، أما كونه فصل إنجيل ضمن صلاة تحليل المرأة التي حضرت إلى الكنيسة بعد أربعين يوماً للتناول من الأسرار المقدسة، فيوافقه فقط «ولما كملت أيام التطهير».

وبينما يذكر القس أبو البركات بن كبر فصل الإنجيل والمزمور الذي يسبقه، أنه يُقال بعد فصل البولس مباشرة، يذكر البابا غبريال الخامس أن أجيوس الثلاثة وأوشية الإنجيل تسبق فصل الإنجيل والمزمور، وهو ما يذكره كتاب صلوات الخدمات.

٦ـ لا يذكر القس أبو البركات مرداً يُقال للإنجيل، أما البابا غبريال فيورد المرد بالقبطية وهو " اطلب عنا يا أبانا القدّيس الصدّيق أنبا سمعان الأسقف لـ (يغفر لنا الرب خطايانا)". وليست هناك أي وثائق تحت أيدينا، أو تقليد قبطي متوارَث، يقول إن سمعان الشيخ كان أسقفاً.

ثم أن البابا غبريال لم يذكر مرداً للإنجيل يُقال على فصل الإنجيل في حالة ما إذا كانت المولودة أنثى، إذ لن يصلح هذا المرد.

وعلى كلٍ قد أغفل كتاب صلوات الخدمات أي مرد يُقال على فصل الإنجيل.

٧ـ اتفقت كل المصادر على وجود الثلاث أواشي السلامة والآباء والجماعة في هذا الطقس، ولا ينبغي أن نستغرب وجودها هنا، لأنها عامل مشترك أعظم في جميع صلوات وطقوس الكنيسة القبطية، حتى عند الصلاة على المنتقلين، إلى حد أن كتاب "صلوات الخدمات في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية" والذي نشرته مكتبة المحبة، يورد هذه الأواشي الثلاث، لتُقال على المتوفى، دون أي ذكر

لأوشية المنتقلين نفسها!.

٨ـ "الأوشية الواحدة" التي يشير إليها ابن كبر، و "الطلبة" التي يذكرها البابا غبريال، هي الطلبة التي وردت في كتاب صلوات الخدمات والتي تقول:

"أيها الرب الإله ضابط الكل، أبو ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح، كنز النور، الخالق المخضع جميع الأمراض...من أجل الإنسان الذي صنعته، وفعل المرأة التي أخرجتها منه معينة له، كشركة الزواج الشرعي، وباركت ثمرة الولادة الناموسية المساوية لصورتك ومثالك، وجعلت نظام الطبيعة سارياً بتناسل الزرع... نسأل ونطلب منك يا محب البشر لكي تتطلع على أمتك (فلانة) حتى يتجدد روح قدسك في أحشائها. طهرها من أدناسها، لتتجدد نفسها وجسدها وروحها. اعتقها من كل لائمة ومن جميع أعمالها القديمة، غفراناً لجميع آثامها...الخ[٤٨]".

٩ـ يكتفي القس أبو البركات بالقول: "وتُكمَّل الصلاة"، أما البابا غبريال فيذكر أنه بعد الطلبة والصلاة الربية، يُقال "تحليل الابن"، أما كتاب صلوات الخدمات، فيذكر أنه تُقال التحاليل الثلاثة.

١٠ـ الدهن بالزيت في نهاية الصلاة، ويشير إليه القس أبو البركات بالقول: "ويدهن الكاهن النفساء وولدها بالزيت، ثم تدخل إلى البيعة وتتناول من السراير المقدسة".

أما البابا غبريال فيقول: "يدهنها بالزيت في جبهتها، والكفّين وأعلاهما، وهم يرتلون القانون ⲭⲉⲣⲉ ⲧϣⲉⲗⲉⲧ ⲉⲧⲉⲣⲟⲩⲱⲓⲛⲓ (أي

٤٨ـ صلوات الخدمات في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، الناشر: مكتبة المحبة، القاهرة، ١٩٧١م، ص ٢٣.

السلام للعروس المضيئة...)، ثم يختم ذلك بقراءة البركة، ويدخل إلى مكان دهن الأطفال...".

أما الكتاب المطبوع لطقس المعمودية (كتاب صلوات الخدمات) فاكتفى بالقول: "يدهن المرأة بالزيت، وتدخل الكنيسة وتتناول من الأسرار المقدَّسة".

واضح هنا أن كتاب صلوات الخدمات يقتفي طقس القرن الرابع عشر الذي أورده القس أبو البركات، حيث يتفقا في:

- عدم تحديد مكان الدهن بالزيت.
- هذا الطقس لأجل السماح للمرأة بالتناول من الأسرار المقدسة.
- هذا الطقس كان يتم خارج الكنيسة. ويؤيد ذلك أيضاً ما أورده الطقس البيزنطي عن مراسيم اليوم الأربعين للولادة، حيث يقول:

"وتأتي الأم بالطفل بعد تطهيرها واغتسالها، وتقف هناك في المدخل (مدخل الكنيسة) راغبة في تقبُّل الطقس...".

والاختلاف الذي أمامنا الآن فيما أورده كل من القس أبي البركات، والبابا غبريال الخامس هو، أن الطقس الذي يذكره الأول يختص بالمرأة التي حضرت الكنيسة مع وليدها لا لتعمّده، بل ليُسمح لها هي بتناول القربان المقدس، فيقول في النهاية:

"ثم تدخل البيعة وتتناول من السرائر المقدسة".

أما نفس هذا الطقس الذي يذكره الثاني فهو ما يسبق عماد الطفل مباشرة، حيث تكون أمه في بيت النساء، والطفل في موضع الرشم، لذا لم يذكر البابا غبريال شيئاً عن التناول من الأسرار المقدسة، فأوانه يكون بعد إجراء مراسيم المعمودية. ولكن يظل طقس ابن كبر أكثر دقة، وإن كان أقل شرحاً وتوضيحاً.

وبخصوص اللحن الذي أورده البابا غبريال والذي بدايته "السلام للعروسة المضيئة..." والذي يُقال أثناء دهن الأم الوالدة بالزيت، فقد دوَّنه كتاب صلوات الخدمات في نهاية طقس سر الزيجة! ونصه هو:

"السلام للعروس المضيئة، أم الذي يضيء. السلام للتي قبلت إليها الكلمة الكائن في أحشائها. السلام للتي هي أكرم من الشاروبيم. السلام للتي ولدت لنا مخلص نفوسنا. المجد للآب والابن والروح القدس، الآن...[٤٩]".

أما عن **الشق الثاني**، فنلاحظ الآتي:

يكتفي القس أبو البركات، قس كنيسة المعلقة، بذكر الصلاة التي تصلىّ على أم الطفل، وهو نفس ما يذكره كتاب صلوات الخدمات. أما البابا غبريال الخامس فيعيد ثانية كل ما ذكره من ترتيب للصلوات على المرأة الوالدة في بيت النساء، ليُقال مرة ثانية عند موضع الرشم، حيث الطفل أو الأطفال المنتظرون المعمودية، باستثناء الآتي:

- تُضاف هنا "أرباع الناقوس".
- ويُضاف كذلك قوله: "يطوف الكاهن بالبخور على الكهنة والشمامسة والشعب".
- في أثناء ترتيل المزمور الخمسين "يتوجه الكاهن بمفرده إلى بيت النساء ويقرأ على أم المعمَّد الأوشية المدوَّنه في كتاب العماد".
- لا وجود للقراءات مرة ثانية، ولم تفلت الأواشي من التكرار هنا.

أما الأوشية التي تُقال هنا على أم الطفل بحسب تعبير البابا غبريال، أو "الصلاة" بحسب تعبير ابن كبر، أو "التحليل" بحسب كتاب صلوات الخدمات، فهي:

---

٤٩ ـ صلوات الخدمات في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، مرجع سابق، ص ١١٨.

"أيها السيد الرب الإله ضابط الكل، خالق الدهور، الذي أمر عبده موسى في الناموس، وعرّفه حدود الطهارة الواجبة على كل النساء اللواتي يلدن، أن يلبثن أياماً قلائل كما رسمت لهن لكي لا يمسسن شيئاً من قدسك... نطلب ونتضرع إلى صلاحك عن أمتك، هذه التي حفظت ناموسك، وأكملت وصاياك، واشتهت أن تدخل إلى موضع قدسك، وتسجد أمام هيكلك مشتاقة إلى التناول من أسرارك المحيية...

بارك عبدتك، وحاللها وطهرها من كل نجاسة غريبة من طهرك، ولتستحق شركة أسرارك المقدسة، بغير وقوع في دينونة.

هكذا أيضاً يا سيدنا هذا الطفل المولود منها، باركه وقدسه، وائت به إلى حد القامة والبلوغ، ولينمُ كمشيئتك الطاهرة...".

هذا التحليل السابق ذكره موضوع تحت عنوان: "ترتيب المعمودية المقدسة". وإننا نرى من نص التحليل أنه يشير بصريح العبارة إلى تحليل المرأة الوالدة لتتناول من الأسرار المقدسة، لا إلى تحليل لها يسبق معمودية طفلها. لأنه إن كان الأمر كذلك (أي إن كان هذا التحليل من أجل السماح للمرأة الوالدة أن تتناول) فما هو سبب طقس تحليل المرأة السابق ذكره (في شقه الأول)؟!

في حين أن "الطلبة" التي ذُكرت في طقس تحليل المرأة (في شقه الأول)(٥٠) لا تورد أي إشارة عن التضرع للرب ليسمح للمرأة بالتناول من الأسرار المقدسة، بل هي تتحدث عن "ثمرة الولادة الناموسية"، وأيضاً "نظام الطبيعة (الذي جعله الرب) سارياً بتناسل الزرع".

وإننا إزاء هذا التداخل نكاد أن نقطع بأنه ربما قد حدث تبديل

٥٠ـ وهي الطلبة السابق ذكرها: "أيها الرب الإله ضابط الكل... كنز النور، الخالق المخضع جميع الأمراض...".

بين "الطلبة" التي وردت في الشق الأول من طقس تحليل المرأة، وبين "التحليل" الذي ورد في الشق الثاني منه. إذ بتبديل كل منهما مكان الآخر يستقيم المعنى، ويكتمل المضمون.

وعلى كلٍ، فيندر أن يُمارَس هذا الطقس بشكله الليتورجي المدوَّن به، والذي يتضح منه أنه يُمارس في حضور كل شعب الكنيسة. وإن تبقّى منه شئ فهو "الطلبة" التي يقولها الكاهن من أجل الأم، وسراً، وفي ركن غير منظور من الجماعة في الكنيسة. ففقد الطقس مضمونه، والذي هو عودة أحد أعضاء الكنيسة للانضمام إلى عضويتها المقدسة، بعد غيبة دامت عدة أسابيع، لينحصر الطقس في مفهوم تحليل المرأة من "نجاستها"، وهو معنى لا يعبّر سوى عن إدراك مريض لمفهوم "الطاهر والنجس" في كنيسة العهد الجديد.

إن الأم وهي تحمل طفلها على يديها لتقدّمه للكنيسة بيت الرب ليقتبل المعمودية المقدسة، تحمل عضواً جديداً هو "نسل ملكوت السموات"، وغرس جديد في كرمة رب الجنود، وهكذا تتكرر صورة العذراء القديسة مريم وهي تحمل طفلها على يديها، لتقدّمه إلى هيكل الرب بعد أربعين يوماً، لكن بمعنى مغاير تماماً لما كانت تمارسه العذراء القديسة مع طفلها يسوع، فقد كانت العذراء تكمّل في إبنها شريعة العهد القديم، لنعتق نحن أولاد العهد الجديد منها بعد أن أكملها المسيح عنا.

هذه نقطة في غاية الأهمية، نود أن نلفت الانتباه إليها مراراً وتكراراً، فالسيد المسيح له المجد عندما يتمم وصايا وفرائض الناموس التي أمرت بها شريعة موسى، لم يكن يتممها لنقتفي نحن آثاره في ذلك، بل على العكس تماماً، كان يتممها لكي يعتقنا من تتميمها، إذ بتكميله هو في نفسه ما أمر الناموس به، يعتقنا نحن من عبوديتنا لهذا الناموس القديم

وفرائضه. وفي ذلك يقول القديس كيرلس الكبير (٤١٢- ٤٤٤م) في عظته الثالثة في تفسير إنجيل القديس لوقا، عندما شرح أربع آيات من الأصحاح الثاني من هذا الإنجيل، فيقول:

[... المسيح افتدى من لعنة الناموس أولئك الذين بوجودهم تحت الناموس، كانوا عاجزين عن تتميم قوانينه. وبأي طريقة افتداهم؟ بتتميم الناموس ... لذلك حينما تراه يحفظ الناموس، فلا تتعثّر، ولا تضع الحُر بين العبيد، بل بالحري تأمل في عمق تدبير الخلاص ... لذلك خُتّن المسيح في اليوم الثامن وأخذ اسمه كما قلت، فحينئذ خلّصنا، وبواسطته، وفيه، كما هو مكتوب «وفيه ختنتم ختاناً غير مصنوع بيد بخلع جسم خطايا البشرية، بختان المسيح، مدفونين معه في المعمودية التي فيها أُقمتم أيضاً معه» (كولوسي ٢:١١) ... فبعد ختانه أبطل طقس الختان بمجيء ما كان يرمز له، وأعني المعمودية، ولهذا السبب فإننا لم نعد نُختتن ...].

إذاً فعندما خُتّن المسيح ليكمّل الناموس أعتقنا نحن من الختان، وكذلك عندما كملت أيام تطهير العذراء حسب شريعة موسى، فصعدت به إلى الهيكل لتقدّمه للرب بذبيحة هي زوج يمام أو فرخي حمام، لا يكون ذلك إلاّ تكميلاً لناموس العهد القديم كي تبطل هذه الشريعة القديمة عن كل أم جازت معمودية العهد الجديد، فتطهّرت وإلى التمام مرة واحدة، ولم يعد لها احتياج بعد إلى تطهيرات وغسلات طقسية عتيقة كانت موضوعة إلى زمان الإصلاح والتقديس(٥١)، الزمان

٥١ـ عبرانيين ٩:١٠

الذي صار فيه يسوع وسيط عهد أعظم قد تثبّت على مواعيد أفضل(٥٢).

الأم وهي تحمل طفلها على ذراعيها، تستمد أمومتها من أمومة العذراء القديسة، لا لتتميم ناموس قديم، بل اقتداء بوصية جديدة، متمثلين فيها بالمسيح نفسه له المجد، عندما قُدّم طفلاً على ذراعي أمه لتتبارك الطفولة فيه، لتنمو في النعمة إلى حد القامة والبلوغ. فهكذا تطلب الكنيسة للطفل الجديد، البركة والتقديس والنمو في القامة بحسب مشيئة الله الطاهرة، ثابتاً في الإيمان والرجاء والمحبة. هذه هي أول صلاة تُقال على الغصن الجديد في الكنيسة المقدسة، وهو مزمع وشيكاً أن يتّحد بأصل الكرمة ذاتها، فهي صلاة رجاء لنمو بحسب مشيئة الله الذي دعانا دعوة مقدسة بحميم الميلاد الجديد وتقديس الروح القدس.

إن هذه الطقوس الأولية والسابقة للمعمودية مباشرة، قد انحصر تفسيرها على أنها "تطهير للمرأة من نجاستها وأدناسها!" بسبب نصوص صلوات التحليل التي وردت فيها، بينما أن فصول القراءات الكتابية نجد أنها بعيدة عن هذا المعنى.

ففي الصلاة الأولى لتحليل المرأة يقول الكاهن: "طهّرها من أدناسها، لتتجدد نفسها وجسدها وروحها. اعتقها من كل لائمة، ومن جميع أعمالها القديمة، غفراناً لجميع آثامها...".

وفي صلاة التحليل الثانية: "بارك عبدتك وحاللها من كل نجاسة غريبة من طهرك...".

وفي الكنيسة البيزنطية - وفي نفس هذا الطقس "تحليل المرأة" - يصلي الكاهن على المرأة الوالدة ثلاث صلوات في اليوم الأول لولادة

٥٢ـ عبرانيين ٨:٦

الطفل، وفي المكان الذي ولدت فيه، وهي كلها تخص الأم.

في الصلاة الأولى يطلب إلى الله: "الشافي كل مرض، وكل استرخاء" أن يشفي أيضاً أمته هذه، و "ينهضها من سريرها المطروحة عليه"، وتضيف الصلاة: "لأنه حسب ما قال داود النبي: بالآثام حُبل بنا، ونحن كلنا مدنّسون أمامك...".

وفي الصلاة الثانية يقول: "... ارحم أمتك هذه التي ولدت هذا الطفل الحاضر في هذا اليوم... واحفظها بيدك العزيزة، وانعم عليها بالقيام سريعاً، ونقها من الدنس، واشف أوجاعها، وامنحها القوة والصحة نفساً وجسداً... وطهّرها من الدنس الجسدي... وانهضها برحمتك السريعة لتقويم جسدها الضعيف...".

وفي الثالثة يقول: "... لأنك أنت قلت يارب: انموا واكثروا واملأوا الأرض، فلذلك نحن عبيدك نطلب إليك... ونهتف بخوف نحو اسم ملكوتك القدوس قائلين: إطلع من السماء وانظر إلى ضعفنا نحن المحكوم علينا. واغفر لأمتك هذه ولجميع المنزل الذي فيه الطفل، وللذين دنوا منها، ولجميع الموجودين ههنا...!".

هذا عدا صلوات أخرى تُقال على المرأة في اليوم الأربعين من ولادة الطفل عندما تأتي الأم بطفلها إلى الكنيسة، وهي صلاة قريبة الشّبه إلى التحليل الثاني الذي يُقال على الأم في الطقس القبطي. تقول: "... إليك نطلب وإليك نبتهل، فطهّر عبدتك من كل خطيَّة، هذه التي خلّصتها بمشيئتك، ونقها من كل دنس، إذ هي مقبلة إلى كنيستك المقدسة، لكي تستحق بغير مداينة أن تتناول من أسرارك المقدسة، وبارك هذا الطفل المولود منها، وقدسه...".

وكأن ولادة البنين من داخل سر الزيجة المقدس قد شابها الدنس

وعدم الطهارة، وكيف هذا والرسول بولس يقرِّر بوضوح أن الأولاد المولودين من أبويهما هم مقدَّسون[٥٣]، إذ كيف تنتج القدسة من النجاسة كقول البابا أثناسيوس، والأنبا ساويرس بن المقفع؟ الرسول يقول أيضاً: «ليكن الزواج مكرَّماً عند كل أحد، والمضجع غير نجس» (عبرانيين ١٣:٤). وهو الذي يشير هنا إلى المضجع غير النجس، يقول أيضاً: «إني عالم ومتيقن في الرب يسوع، أن ليس شيء نجساً بذاته، إلاَّ من يحسب شيئاً نجساً، فله هو نجس» (رومية ١٤:١٤). ثم يكرر هذه الحقيقة مرة اخرى بقوله: «كل شيء طاهر للطاهرين، وأما للنجسين وغير المؤمنين فليس شيء طاهراً، بل قد تنجّس ذهنهم أيضاً وضميرهم» (تيطس ١:١٥).

وإلاَّ كيف يصبح سر الزيجة سراً مقدساً؟ ألم يقل السيد الرب بنفسه بفمه المبارك: «يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً» (مرقس ١٠:٧). فماذا يعني أن يصير الرجل وامرأته جسداً واحداً إلاَّ في الطُهر والقداسة؟.

أما الأب ألكسندر شميمان فله رأيه في ذلك الأمر حين يقول: "إنه لمن الخطأ فعلاً أن نظن أن الكنيسة حينما تشجب وتدين الجنس خارج الزواج بوصفه "شراً"، تكون قد أكدت أنه "حسن" داخل الزواج. فالمسألة كلها أن الجنس من حيث أنه شهوة، سواء كان خارج الزواج أو داخله، ينتمي إلى هذا العالم ... فالجنس يقع تحت الناموس لا تحت النعمة... وإذا كان الجنس يُمنع خارج الزواج، ويُسمح به داخله، فلأن الزواج ـ رغم فساده في العالم الساقط ـ ينتمي إلى تلك الرؤية السامية، وهو قادر على دخول ملكوت الله ...[٥٤]". ويظل الرأي رأياً ذاتياً.

٥٣ـ ١كورنثوس ٧:١٤

٥٤ـ ألكسندر شميمان، بالماء والروح، مرجع سابق، ص ١٩٤ـ ٢٠٠

إن الخطيَّة التي دخلت إلى العالم لوَّثت كل شيء فيه، حتى إلى ضمير الإنسان الذي لازال يحمل في نفسه "ضمير خطايا". فحتى قضية "الطاهر والنجس" والتي احتلّت مكاناً أساسياً في خدمة العهد القديم، والتي تغيرت جذرياً في العهد الجديد بدم الصليب وفعل القيامة، ظلت حتى اليوم تؤرق ضمير الإنسان الذي لم يستطع بعد أن يدرك عمق غنى ما صنعه المسيح لأجلنا. إذ لم يعد شيء يمكنه أن ينجّس الإنسان سوى عدم الإيمان بخلاص المسيح الشامل، وصنيعه معنا، لأن كل ما ليس من الإيمان هو خطيَّة. وهذا هو فقط الذي ينجّس الإنسان.

لقد وقف كثير من المسيحيين، ومن بينهم كهنة ولاهوتيون، من صلوات تحليل المرأة بين مؤيد ومعارض ومتغافل. فبينما رأى البعض فيها طقوساً لا تجد في أقوال الآباء نصيراً، ولا في نعمة العهد الجديد مكاناً بعد أن أبطلت المعمودية كل أنواع التطهيرات الطقسيَّة؛ رأى فيها البعض الآخر إلزاماً ووجوباً لاستمرارية لم تنقطع بين كنيستي العهدين القديم والجديد. وإذا حاول فريق ثالث التوفيق بين الطرفين، فسرعان ما ينضم إلى أيهما، لأن التوفيق بين متضادين لا يُنتج سوى تشويشاً. فالأب ألكسندر شميمان الذي بعد أن ناقش قضية "الطاهر والنجس" ومعناها في القديم والحديث، محاولاً التوفيق بين الفريقين، يعود ويقرر بقوله: "الأشياء كلها طاهرة، لأنها كلها تأتي من الله... لكن الأشياء كلها نجسة أيضاً لأن الإنسان حرَّفها عما خلقها الله من أجله. إلاَّ أن الأشياء كلها افتُديت عندما افتدي الإنسان في المسيح، وكلها تكون مجدداً طاهرة للطاهرين، لأنها في النهاية خُلقت لكي تكون وسيلة لحياة الإنسان مع الله ولدخوله إلى ملكوت الله.

هذا هو المدخل المسيحي الأساسي إلى فهم العالم، والذي يتجاوز تعابير "الطاهر"، و "النجس"، إلى تعابير "القديم والجديد" وهو ما يجري

تجاهله وخيانته كلما اختُزلت حياة الكنيسة إلى استمرارية محضة أو إلى انقطاع بحت[٥٥]".

ثم يعود ليقرِّر رأيه بوضوح في النهاية، ويلخِّص الأمر كله في عبارة واحدة نوافقه عليها حين يقول: "والطريقة الفُضلى للتغلُّب على هذا الاختزال، هي أن نفهم ما تفعله الكنيسة، وأن نصغي إليها ببساطة، وأن نتلقى منها المعنى الحقيقي لطقوسها، لا أن نملي عليها فرضياتنا المسبقة، وعوامل كبتنا[٥٦]".

٥٥ـ نفس المرجع، ص ١٩١، ١٩٢

٥٦ـ نفس المرجع، ص ١٩٢

الفصل التاسع

مصادر طقس المعمودية في الكنائس الشرقية

ما هي المصادر التي اعتمدت عليها كل كنيسة من الكنائس الشرقية في ترتيب ووصف طقس المعمودية بها، ومعه سر الميرون المقدس؟ هذا هو السؤال الذي نريد الإجابة عليه في هذا الفصل. وتكمن أهمية السؤال في أن الإجابة عليه تسرد أمامنا المصادر الأولية التي سجلت ما كانت تمارسه كل كنيسة بالفعل من ممارسة طقسية للسر. فالإجابة إذاً هي توثيق لما كانت تحياه الكنيسة - كل كنيسة على حدة - في هذه الفترة المبكرة من تاريخها. وإن قيمة هذا التقسيم تجعلنا قادرين على التمييز بسهولة بين الممارسات الطقسية المختلفة في الكنائس المختلفة للسر الواحد.

والآن نعرض لمصادر طقس المعمودية قديمها وحديثها في كل من الكنائس الآتية:

- الكنيسة القبطية ومعها الكنيسة الأثيوبية.
- الكنيسة السريانية بفرعيها الغربي والشرقي، أي كنيسة أنطاكية والكنيسة الأشورية (الكلدانية بعد انضمام بعض أعضائها إلى كنيسة روما).
- الكنيسة البيزنطية.
- الكنيسة الأرمينية.

أولاً: مصادر الطقس الإسكندري لسر المعمودية:

إن الآثار السحيقة في القدم لطقس المعمودية في كنيسة مصر قد حُفظت لنا في المجموعات القبطية والأثيوبية، والتي تشكل اليوم القانون الكنسي للأقباط ومعهم الأحباش أيضاً. وهي مجموعات قانونية مؤلّفة من وثائق تستند إلى أصل رسولي.

ولقد وضع الأقدمون هذه الوثائق تحت اسم "قوانين الرسل"، وتثبتوا من أصالتها، فهي على العموم تعود في أصولها الأولية إلى القرون الأولى. وبرغم انتشارها في كل مكان في الشرق المسيحي، إلاّ أنه قد ثبت أن منشأها وموطنها الأصلي هو كنيسة مصر، حيث عُرفت هذه القوانين أولاً في لغتها اليونانية، ثم تُرجمت إلى القبطية الصعيدية، وبعد ذلك إلى القبطية البحيرية، ثم إلى اللغة العربية. ومن كنيسة الإسكندرية عبرت هذه القوانين إلى الكنيسة الأثيوبية حيث نجد ترجمة لها بلغة البلاد الوطنية.

أما المجموعات القانونية التي تعود إلى العصور الوسطى في كنيسة مصر فهي تطابق بحال أو بآخر قوانين الرسل السابق ذكرها، ولكن بعد تقسيمها إلى تقسيمات مختلفة، وأشهرها تقسيمها إلى واحد وسبعين قانوناً، يعقبها ستة وخمسون قانوناً أخرى (أي ١٢٧ قانوناً) في كتابين. ولقد عرضنا لها في كتاب بعنوان "قوانين الرسل القبطية"، فارجع إليه.

ولقد وُجد طقس المعمودية L'ordo du Baptême في جزء كبير منه في هذه القوانين. وإن مخطوط مكتبة فيرونا الذي يعود إلى القرن السادس يحوي ترجمة للقوانين يتضح منها أنها تعود في أصولها إلى القرن الرابع الميلادي. ونصه يقدم لنا بأوضح بيان توافقه مع الترجمة الأثيوبية لهذه

القوانين، ونظراً لقدم هذا المخطوط فإنه يثبت وجود أصل يوناني للقوانين المصرية يعود إلى حدود القرن الثالث الميلادي، ولكنه مفقود حتى اليوم.

وهنا يجب أن نشير إلى أن الترجمة الأثيوبية للقوانين المصرية تضيف بعد القانون الأربعين طقساً آخر يُمارس لسر المعمودية، هو مزيج من القوانين المصرية مع صيغ حديثة أدخلها الطقس الأثيوبي على هذا السر.

وإن كتاب عهد الرب Le Testament de Notre Seigneur هو قريب جداً في نصه من قوانين هيبوليتس المصرية، بل يُظن أنه ترجمة متأخرة لها، ولقد ترجمه يعقوب أسقف أديسا Jaques d'Edesse من اليونانية إلى السريانية سنة ٦٨٧م. وهذه الوثيقة السريانية التي ترجع إلى أواخر القرن السابع الميلادي قد لعبت دوراً هاماً في مجموعات القوانين القديمة في نصيها العربي والأثيوبي كما يعتقد غالبية علماء الليتورجيا. وهكذا أصبح كتاب عهد الرب يشكل في مجموعة قوانين مقارة الراهب (النوموكانون) وعند أبي البركات بن كبر أول الكتب الثمانية لاكليمندس.

وهناك مخطوطتان أثيوبيتان لم يسبق طبعهما تسجلان في بداية قوانين كل منهما هذا الكتاب. وهناك أيضاً مخطوط في مكتبة الفاتيكان بروما[١] يحوي كتاب عهد الرب في ترجمة عربية عن نسخة قبطية يعود تاريخها إلى سنة ٦٤٣ للشهداء/ ٩٢٧م. وقد تعرفنا على هذه الوثيقة بفضل العالم الألماني أنطون بومشتارك A. Baumstark، وهي تحوي صلوات الرسامات وصلوات الإفخارستيّا. وليتورجية المعمودية فيها قد حل محلها صيغة ليتورجية منسوخة في نهاية هذه الوثيقة، وهي من جميع الوجوه مختلفة عن الوثيقة السريانية. وهذه الصيغة الليتورجية هي صيغة

١- Borgia K, IV, 24

مصرية الأصل تماماً إذ نجد فيها، وفي جزء كبير منها، ما يمارسه الطقس القبطي لسر المعمودية، ولقد نشرها بومشتارك مع ترجمة لاتينية لها، وأرجع تاريخها إلى حوالي القرن السادس الميلادي، وذكر أنها قريبة الشبه جداً من الصيغ القديمة التي تظهر في القوانين المصرية Règlement Égyptien وقوانين هيبوليتس، وقوانين القديس باسيليوس الكبير القبطية.

هذه الكتابات المختلفة والتي هي في الحقيقة تنقيح متتابع لنفس القوانين الأولى القديمة تزودنا بكل المعلومات المطلوبة سواء فيما يختص بمراسيم إعداد الموعوظين للمعمودية، أو لطقس المعمودية نفسه. ولكننا نلاحظ أنه لا يوجد بها صيغ التعزيم لطرد الشياطين exorcisme ولا صيغ البركة. ولعل السبب في ذلك أن هذه الصلوات في الأصل كانت متروكة للإلهام الشخصي للآباء قبل أن تأخذ صيغاً محددة بذاتها.

وبدءًا من القرن الرابع الميلادي نجد أنه قد تشكل خولاجي كامل يحوي صيغة بركة لجرن المعمودية، وصلوات تعزيم على الموعوظين، وصلوات أخرى كثيرة تحدد تتابع خطوات منح المعمودية المقدسة للموعوظين، وهو خولاجي الأسقف سرابيون أسقف تمويس، وقد عثر عليه ونشره للمرة الأولى ديمتريفسكي M. A. Dmitrievsky سنة ١٨٩٤م. ومن بعده دكتور ووبرمين Dr. G. Wobbermin الذي نشره سنة ١٨٩٩م، طبقاً لنفس المخطوط اليوناني رقم ١٤٩ بدير لافرا Lavra في جبل آثوس، وهو المخطوط الذي يعود إلى القرن الحادي عشر.

وفي رأي العالم أخيلس M. H. Achelis إن خولاجي سرابيون هو وثيقة مصرية أصيلة إذا ما قورنت بالقوانين المصرية Constitution Égyptienne تعطينا انطباعاً بأنه توجد وثيقة أخرى أقدم من كليهما قد نقلتا كل منهما عنها. وبرغم أن صيغ المعمودية في خولاجي سرابيون غير

مرتبة إلى حد ما، إلاّ أنه يمكننا أن نتعرف من خلالها بسهولة على الطقس المصري L'ordo Égyptien كما وصفته لنا الوثائق السابق ذكرها.

إن ترتيب طقس المعمودية القبطي برغم أنه تشكّل في خطوطه العريضة منذ القرنين الثالث والرابع الميلاديين، إلاّ أنه قد تقنن نهائياً بعد الانقسام الخلقيدوني الذي كان في منتصف القرن الخامس الميلادي، إلاّ أن هذا الانقسام لم يتسبب في إحداث أي تغييرات أساسية في الترتيب الطقسي القبطي القديم. وإن كنيسة الإسكندرية كانت ولا تزال تضع كل فخرها في أمانتها وحفظها لطقوسها القديمة.

وهكذا أيضاً كنيسة أثيوبيا التي تسلمت إيمانها وترتيبها الطقسي من كنيسة الإسكندرية في زمن البابا أثناسيوس الرسولي، تتمسك بتدقيق شديد بعاداتها القديمة.

إذاً فالطقس القبطي ومعه الطقس الأثيوبي لسر المعمودية قد قدما لنا في خطوط عريضة نظام كنيسة الإسكندرية القديم[٢].

لقد ظل طقس المعمودية القبطي يُنسخ من مخطوط لآخر حتى منتصف القرن الثامن عشر عندما ظهرت أول طبعة لطقس المعمودية القبطي في روما مع ترجمة لاتينية له، وذلك حينما استعانت لجنة نشر الدعوة بروما بروفائيل الطوخي وألحقته بكليتها الخاصة كأستاذ للغة القبطية، وكان قد أحضر معه من مصر مخطوطاً طقسياً مصحّحاً، ومثبوتاً أصالته، وقبل البدء في طباعته قابله مع مخطوط المطران يوسف شمعون

٢- *(DACL)*, t. 2, p. 252-256.

السمعاني (١٦٨٧- ١٧٦٨م)[٣]. ونشره في ثلاثة أجزاء، الأول سنة ١٧٤٩م في تعليم الموعوظين، والثاني في نفس السنة أيضاً في المعمودية، والثالث سنة ١٧٥٠م في سر التثليث. وذلك ضمن موسوعة Codex Liturgicus Ecclesiæ Universæ. وفي المقدمة التي وردت على رأس هذه الثلاثة أجزاء، أكد الطوخي التجانس التام بين نص السمعاني ونص المخطوط الذي أحضره من مصر.

وهذا المخطوط نفسه قد أخذه الطوخي كأساس للطبعة الرسمية للجنة نشر الدعوة بروما، ونجد فيها الترتيب الكامل لطقس المعمودية، وسر الميرون، والرسامات الكهنوتية، وطقس تكريس الزيوت، وتكريس جرن المعمودية. ولكن هذا الأخير (تكريس جرن المعمودية) كان قد نشره من قبل، الراهب اليسوعي أثناسيوس كيرشر Athanase Kircher سنة ١٦٤٣م.

وهناك مخطوط أكثر قدماً من مخطوط السمعاني موجود في مكتبة باريس، يحوي طقس المعمودية في الكنيسة القبطية، ترجمه العالم رينودوت Eusebe Renaudot إلى اللاتينية مع حواشي تفسيرية له، وذلك ضمن موسوعته عن الخدمات المختلفة لطقوس الأسرار في الكنيسة القبطية. Officia Varia Sacramantalia Coptitarum et Syrorum Latine Versa cum Comentariis وظل بدون نشر حتى طبعه العالم ديزنجر .H

٣- هو من أخصب المؤلفين المسيحيين في الشرق في العهد العثماني، قضى معظم حياته في مكتبة الفاتيكان يكتب ويؤلف وينقب في المخطوطات، كان ملماً بجميع اللغات الشرقية القديمة، وبأكثر اللغات الحديثة الشرقية والغربية، ولا تزال مؤلفات السمعاني مرجعاً هاماً للباحثين الشرقيين رغم مرور أكثر من مائتي سنة على وفاته. وللأهمية، انظر ترجمة مفصلة له ضمن أعلام الكنيسة المارونية، وذلك في سلسلة كتب "الكنائس الشرقية وأوطانها" للكاتب.

Dezinger للمرة الأولى في سلسلة الطقوس الشـرقية Ritus Orientalium. وقد اشتمل الجزء الأول من هذه السلسلة على طقس المعمودية القبطي مع إعادة نشر النص اللاتيني لمخطوط السمعاني.

بعد ذلك ظهرت ترجمتان جديدتان، الأولى بالإنجليزية سنة ١٨٨٨م، للعالم إيفت Evetts بناء عن مخطوط مشابه للمخطوط الذي استعان به رينودوت[٤]، والثانية بالفرنسية بدءًا من سنة ١٩٠٠م، للعالم إيرموني Ermoni الذي وضع النص الفرنسي مقابل النص القبطي للمخطوط الذي نقل عنه[٥].

أما لجنة نشر الدعوة بروما فقد نشرت طقس المعمودية القبطي[٦]، في طبعة أخرى أكثر حداثة لتستخدمها الكنائس الكاثوليكية التي تمارس الطقس القبطي وتتبع رئاسة روما Uniates.

والطقس الأثيوبي لسري المعمودية والميرون هو قريب جداً إلى الطقس القبطي، ذلك لأنه منقول أساساً عنه، باستثناء اختلافات طفيفة هي نتاج تطور مستقل. وهو السبب الذي منع السمعاني من نشر الطقس الأثيوبي كطقس مستقل.

ولقد نُشر الطقس الأثيوبي باللاتينية في غضون سنة ١٥٤٩م، بواسطة الأرشيمندريت بطرس، تحت اسم Tasfa Sion حيث خضع هذا

٤- B. T. A. Evetts, *The Rites of The Coptic Church, The Order of Baptism and The Order of Martimony*, London, 1888, p. 17-43.

٥- V. Ermoni, *Ritue Copte du Baptême*, dans La Revue de L'Orient Chrétien, t. V, 1900, t. VI, 1901, t, VII, 1902, t. IX, 1904.

٦- cf. F. E. Brightman, *Liturgica*, dans Journal of Theological Studies, 1903, t. IV, p. 154.

النص لكثير من التحويرات والتعديلات بغية الاقتراب به من الطقس الروماني أفقدته أصالته الأولى!!!.

وفي سنة ١٨٧٨م، قدّم ترامب M. E. Trumpp طبعة لهذا الطقس الأثيوبي أكثر أصالة مع ترجمة ألمانية له، وذلك بموجب مخطوط محفوظ في المكتبة الملكية بميونخ تحت رقم ٢٩.

ولا نعرف على وجه التحديد العصر الذي تثبّت فيه كلا الطقسين القبطي والأثيوبي بشكلهما الذي نراه بهما حالياً، ويُعتبر البابا غبريال الخامس البطريرك الإسكندري الـ ٨٨ (١٤٠٩- ١٤٢٧م) هو الذي أعاد صياغة الطقس القبطي الحالي لسر المعمودية، وذلك في مؤلفه الشهير "الترتيب الطقسي" ووضع له حواشي بالعربية، وهي الحواشي التي نجدها في طبعتي السمعاني والطوخي.

ويرى العالم الليتورجي إيفيت M. Evetts أن الطقسين القبطي والأثيوبي يعودان إلى زمن الفتح العربي في القرن السابع الميلادي فيقول: "إن إستقلالية الصيغ القبطية عن الصيغ الأثيوبية في طقس المعمودية تتضح من الاختلافات بينهما، إلاّ أن آثارهما القديمة الواحدة تظهر أيضاً التشابه بينهما[٧]".

وهنا يلزم أن نوضح أن الطقس القبطي لسر المعمودية كان قد اكتمل مضمونه في غضون القرن السادس الميلادي، وهو ما نجده بعد ذلك في كتاب عهد الرب بنصيه القبطي والعربي، والذي نشره العالم الألماني بومشتارك A. Baumstark.

٧- B. T. A. Evetts, *The Rites of The Coptic Church*, op. cit., p. 10

أما عن كنيسة أثيوبيا، فكل الشواهد تشير إلى أن تبني كنيسة أثيوبيا للطقس القبطي كان بعد القرن الثاني عشر بكثير. ولقد اعتمد ترامب Trumpp على ما ذكره دنزنجر Denzinger الذي افترض أن سنة ١١٤١م، هي التاريخ المحدد لترجمة الطقس القبطي ليستخدم في الكنيسة الأثيوبية، بينما أن التاريخ الحقيقي هو سنة ١٤١١م[٨].

ثانياً: مصادر الطقس السرياني لسر المعمودية:

وهو يشمل:

(أ) طقس أنطاكية، وهي الكنائس التي تتكلم اليونانية في كل من سوريا وفلسطين، ولا تتبع الكنيسة البيزنطية، ويتبعه الموارنة أيضاً.

(ب) الطقس الأشوري.

(أ) مصادر الطقس الأنطاكي لسر المعمودية:

تحتفظ كنيسة أنطاكية وكل الكنائس المحيطة بها والتي مارست أنطاكية تأثيراً واضحاً عليها بدءًا من القرن الثاني الميلادي، وكذلك في باقي الكنائس الشرقية، بأقدم وثائق تختص بطقس المعمودية. وبفضل المجموعات القانونية القديمة، ولاسيما كتاب المراسيم الرسولية Constitutions Apostoliques انتشر طقس المعمودية في المراكز الدينية في سوريا وفلسطين والصحراء العربية.

وكان للقوانين السريانية الموحَّدة تأثير قوي في ظهور وحدة ليتورجية منظمة في هذه الكنائس المختلفة، وهو ما ساعدنا على البحث

٨- *DACL*, t. 2, p. 256- 257.

في الطقس السرياني القديم، ليس فقط في أنطاكية ولكن أيضاً في الكراسي الأسقفية الشرقية المحيطة بها، والتي مارست عليها أنطاكية سلطتها الكنسية.

إن الكتابات القانونية السريانية تمدنا بمعلومات غالية القيمة تكمل الوثائق الآبائية التي تعود إلى القرن الرابع الميلادي.

وفي البداية يليق بنا أن نشير إلى "الديداخي - تعليم الرسل"، وهو المصدر الذي استقت منه كل المصادر التالية له معلوماتها مباشرة، إذ يعود تاريخه إلى نهاية القرن الأول الميلادي أو بداية الثاني، وأصوله السريانية أو الفلسطينية هي بمنأى عن أي ريبة أو شك. والفصل السابع منه يختص بالمعمودية[٩].

وهناك كتاب آخر هو "الدسقولية - تعاليم الرسل"، وهو مصدر جاء بعد الديداخي ونقل عنه واستعار منه. والدسقولية هي أقدم وثيقة قانونية معروفة، وهي من أصل سرياني فلسطيني. أما زمن تدوينها فهو النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي بحسب رأي العالم فونك Funk، ويتفق معه في ذلك هارناك Harnak.

وبرغم أن الدسقولية قد استعارت من الديداخي، إلاّ أن ما أوردته الدسقولية عن المعمودية هو أكثر بكثير عما ذكرته الديداخي عنها.

لقد تم تأليف الدسقولية باليونانية للجماعات السريانية المتكلمة باليونانية، ومنذ وقت مبكر تُرجمت إلى اللاتينية ثم السريانية. ولقد شهد القديس إبيفانيوس باستخدامها في كل من سوريا وفلسطين.

٩- لتفصيل أوفر، ارجع إلى كتاب "الديداخي أي تعليم الرسل" للكاتب.

ولقد نُشر نصها السرياني للمرة الأولى مع ترجمة يونانية غير مكتملة بواسطة العالم لاجارد Lagard سنة ١٨٥٤م، وبعد ذلك بنصف قرن من الزمان تُرجمت إلى اللغة الألمانية سنة ١٩٠٤م، بواسطة العالم فليمينج M. Johs. Flemming، ثم نُشرت في نصها السرياني مع ترجمة إنجليزية لها سنة ١٩٠٣م، بواسطة Margaret Dunlop Gibson. وكان نصها اللاتيني قد اكتُشف ونُشر سنة ١٩٠٠م، بواسطة هولر Hauler حاوياً فقط ٣٧٪ من مضمونها الكلي.

ويوجد كتاب الدسقولية في الستة كتب الأولى من كتاب المراسيم الرسولية، والذي يعود تأليفه إلى النصف الثاني من القرن الرابع[١٠]، والكتاب الثالث من هذه الكتب الستة الأولى يحوي كل ما أوردته الدسقولية عن سر المعمودية المقدس. أما الكتاب السابع من المراسيم الرسولية، والذي أعاد نشر ما يخص المعمودية كما ورد في الديداخي، ففيه طقس كامل للمعمودية، وقد وضع فيه المؤلف كثيراً من بنات أفكاره[١١] Le compilateur a dû y mettre beaucoup de son cru.

أما الكتاب الثامن من كتب المراسيم الرسولية فهو قريب الصلة جداً بقوانين هيبوليتس من جهة، وبالكتاب الثاني من قوانين الرسل القبطية Constitutions égyptiennes، ولكن مقتطع منه ما يخص طقس المعمودية المقدسة، والذي سبق ذكره في الكتاب السابع.

أما عن كتاب عهد الرب الذي كُتب باليونانية، فلم يكن أصله السرياني من الأمور المقطوع فيها، إذ ظل ترجيحه لأصول مصرية قائماً،

١٠- لشرح أشمل يمكن للقارئ العزيز الرجوع إلى كتاب "المراسيم الرسولية" للكاتب.

١١- F. E. Brightman, M. A., Liturgies, *Eastern and Western*, Vol. 1, *Eastern Liturgies*, Oxford, 1967, p. 33

لأنه لم يوجد في نصه الكامل سوى في القبطي والعربي، أما اليوم فإن معظم علماء الليتورجيا يجمعون على أنه كُتب باللغة اليونانية في سوريا أو في آسيا الصغرى في النصف الثاني من القرن الخامس، إذ يحوي نصاً سريانياً متميزاً تماماً عن النص القبطي له، وخصوصاً فيما يختص بطقس المعمودية. وقد اكتشف البطريرك إغناطيوس رحماني سنة ١٨٩٩م، النص السرياني المعروف حتى الآن عن مخطوط يعود إلى سنة ١٦٥٤م، وهو مخطوط سرياني لكتاب عهد الرب مترجم عن مخطوط يوناني ضائع أقدم بكثير من هذا التاريخ، إذ جاء في آخره "تم الكتاب الثاني لأكليمندس، المترجم من اللغة اليونانية إلى اللغة السريانية على يد يعقوب المسكين سنة ٦٨٧م"، ومعلوم أن يعقوب هذا هو يعقوب الرهاوي (٦٣٣- ٧٠٨م) أسقف الرها (أديسا).

وطقس مراسيم المعمودية التي يشرحها كتاب عهد الرب هي قريبة الصلة إلى حد بعيد بقوانين هيبوليتس والقوانين المصرية Constitutions égyptiennes، ولكن جانب كبير من صيغ المعمودية فيها يختص بكتاب عهد الرب، وهي تمثل استخداماً سورياً متوافقاً مع التقليد القديم، وهو ما نراه مرعياً بالتساوي في كل من أنطاكية والإسكندرية.

والنص السرياني لكتاب عهد الرب لا يبدو أنه يعود إلى ما قبل القرن السابع[١٢] لأن النص السرياني قد حفظ لنا اسم كاتبه "يعقوب الذي من أديسا" والذي عاش في هذه الفترة. أما الأصل اليوناني الذي يبدو أنه يعود إلى النصف الثاني من القرن الرابع فهو يشتمل على صفات أو خصائص سحيقة في القدم.

١٢- بينما يرى د. ماكلين Maclean أنه يعود إلى الفترة ما بين سنة ٣٥٠- ٣٦٣م.

كل هـذه النصوص تشهد لطقس المعمودية في القرنين الثالث والرابع الميلاديين، ولاسيما أنه يوجد لدينا أيضاً نصوص كاملة من القرن الرابع الميلادي لطقس المعمودية نتعرف عليه من عظات القديس كيرلس الأورشليمي، وكذلك مذكرات السائحة الأسبانية إيجيريا فيما يختص بليتورجية أورشليم. وكذلك في جانب من أعمال القديس يوحنا ذهبي الفم.

ومنذ أزمنة مبكرة فإن مدينة أديسا قد تسلمت من أنطاكية بشارة الإنجيل والطقوس المسيحية الأساسية، وعلى الرغم من تباين اللغات، فإن العلاقة بين السريان الشرقيين وبطريركية أنطاكية وبطريركية أورشليم كانت وطيدة إلى زمن طويل. وامتد تأثير أنطاكية عن طريق أديسا حتى إلى ما بين النهرين وبلاد فارس وبابل، حيث وصلت الإرساليات إلى ما بعد شواطئ جنوب الهند، وتأسست المسيحية في المالابار. أما الطقوس السريانية التي استخدمتها هذه الكنائس بعد زمن الانقسام فكلها نتاج طقس كنيسة أنطاكية، ومن ثم تآلفت بينها جميعاً وحدة ليتورجية واحدة.

والقديس أفرآم السرياني شماس أديسا قد كرَّس الجانب الأكبر من ألحانه لسر المعمودية، وكثير من هذه الألحان قد أُدخلت في الطقس السرياني. وتقدم لنا أيضاً عظات مار أفرآم السرياني التي دُونت سنة ٣٣٧م، ٣٤٤م، ٣٤٥م معلومات طقسية عن سر المعمودية.

والمقال الشهير عن "الرئاسات الكنسية" المنسوب لديونيسيوس الأريوباغي قد نقل لنا وصفاً وافر التفصيلات عن طقس المعمودية والذي يوضح التحول أو الانتقال الذي حدث في وثائق القرنين الثالث والرابع بعد الإنقسام الذي سببه مجمع خلقيدونية. وإن ما يلفت النظر في طقس المعمودية في كتاب "الرئاسات الكنسية" أن مراسيم إعداد الموعوظين ليست منعزلة عن زمن الاحتفال بالمعمودية،

إذ تؤلف معها عملاً ليتورجياً واحداً، لأن التعليمات التي تُعطى لطالبي العماد لا تكون في مكان آخر غير مكان المعمودية. أما الفصلان الثاني والثالث من هذا الكتاب فهما مخصصان لمراسيم المعمودية وعنوانهما هو "معمودية البالغين - περὶ τῶν ἐν τῷ φωτίσματι τελουμένων ".

وبعد الانقسام الذي سببه مجمع خلقيدونية فإن اللاخلقيدونيين تبنوا اللغة السريانية لغة ليتورجية لهم. أما الخلقيدونيون من السريان الذين يؤمنون بمجمع خلقيدونية ومقرراته فقد تبنوا الطقس اليوناني البيزنطي، وترجموه إلى اللغة السريانية، ولكن صارت لغتهم هي اليونانية. أما اللاخلقيدونيون من السريان فقد حافظوا على الطقس السرياني القديم. فأصبح هناك خمسة طقوس للمعمودية تمارسها الطوائف السريانية المختلفة:

(أ) السريان الأنطاكيين الأرثوذكس أصحاب الطبيعة الواحدة، والذين يُسمون أحياناً "اليعاقبة".

(ب) السريان الكاثوليك الذين انضموا إلى روما.

(ج) الموارنة الكاثوليك. وهم السريان الذين عاشوا في جبل لبنان وخضعوا لرئاسة روما.

(د) كنائس ما بين النهرين

(هـ) كنيسة الفرس. والتى كانت حتى القرن السادس الميلادي تعتمد على أنطاكية، ثم انفصلت عنها بسبب هرطقة نسطور، وهي قد حفظت طقوساً ليست في الحقيقة سوى تشويه للطقس السرياني القديم.

من بين الكتابات الكثيرة للقديس ساويرس الأنطاكي[١٣] بطريرك أنطاكية (٤٦٥- ٥٣٨م)، والتي دونها باليونانية، دوَّن طقس المعمودية بحسب كنيسة أنطاكية، وهو الطقس الرئيسي لهذه الكنيسة والذي أُخذت عنه باقي الطقوس الأخرى للمعمودية، والتي نُسبت لآباء آخرين من نفس الكنيسة الأنطاكية. فهناك أيضاً نص لطقس المعمودية لا يختلف سوى في القليل النادر عن طقس ساويرس الأنطاكي، وهذا النص الآخر منسوب أيضاً للبطريرك ساويرس، ولكن يبدو أنه ترجمة سريانية مختلفة نوعاً عن نفس طقس المعمودية الذي دونه ساويرس البطريرك قبلاً باليونانية، برغم أنه يحمل في المخطوطات عنواناً يؤكد أنه من وضع القديس ساويرس الأنطاكي. وهذا النص الآخر لطقس المعمودية قد نشره المستشرق الفرنسيسكاني Guy Le Févre de La Boderie بالسريانية واللاتينية وفقاً لمخطوط قديم يعود إلى سنة ١٥٧٢م، في ترجمة غير موفقة، تحت عنوان يحمل اسم "ساويرس الإسكندري"، وهو عنوان دُوِّن بطريق الخطأ، لأنه لا يوجد بين بطاركة الإسكندرية من يحمل هذا

١٣- درس في الإسكندرية و Berytus، وتعمد سنة ٤٨٨م، ثم ترهَّب، وفي سنة ٥٠٨م، ذهب إلى القسطنطينية ونجح في تأمين مناصرة الإمبراطور أنسطاسيوس (٤٩١- ٥١٨م) للرهبان المضطهدين من أصحاب الطبيعة الواحدة، وفي سنة ٥١٢م، صار بطريركاً لأنطاكيا بدلاً من فلافيان الثاني Flavian II المخلوع عن كرسيه. خلع هو أيضاً عن كرسيه، فالتجأ إلى مصر في أيام البابا الإسكندري تيموثاوس الثالث (٥٢٠- ٥٣٦م)، وبعد فشل محاولات صلح مع الإمبراطور جستنيان، عُقد مجمع في القسطنطينية سنة ٥٣٦م، قرر قطعه من شركة الكنيسة (البيزنطية). والقديس ساويرس هو من الآباء اللاهوتيين البارزين المدافعين عن أصحاب الطبيعة الواحدة Monophysites، وكثير من أعماله لم تُطبع بكاملها بعد، ويوجد لدينا ١٢٥ عظة له، بالإضافة إلى ٤٠٠ رسالة محفوظة كلها في ترجمات سريانية، وقد دُونت سيرة حياته حتى سنة ٥١٢م، بواسطة صديقه زخارياس أسقف ميتيلين Mitylene (تنيح بعد سنة ٥٣٦م). cf. F. L. Cross & E. A. Livingstone, *The Oxford Dictionary of The Christian Church (O. D. C. C.)*, (edition 2), 1988, p. 1266.

الإسم[١٤].

أما أقدم نص سرياني لطقس المعمودية والمعروف بطقس الرسل L'ordo apostolique فهو في الحقيقة من أعمال القديس يعقوب السروجي أسقف ساروج Saroug (+ ٥٢١م). وطقس المعمودية الذي سجله يحمل في المخطوطات السريانية العنوان التالي: "طقس المعمودية المقدسة الذي وضعه مار يعقوب أسقف ساروج"، وكان السمعاني هو أول من ترجمه سنة ١٧٤٩م وأدخله في مجموعته المعنونة بالطقوس الشرقية.

والجزء الخاص بإعداد الموعوظين للمعمودية، والذي يبتدئ بصلاة L'oraison مطلعها: "أيها الرب إلهنا يا من بحسب شريعة الأربعين يوماً - Domine Deus noster qui secundum legem quadraginta dierum"[١٥] لم يدرك السمعاني أنه من وضع وترتيب القديس يعقوب السروجي نفسه، وأخفق في ذلك أيضاً دكتور نبيل[١٦] Neale. أما رينودوت Renaudot فلم يكن أكثر توفيقاً منهما إذ أعدَّ ترجمة مستقلة لهذا الجزء من الطقس (طقس إعداد الموعوظين) جاءت مغايرة لترتيب طقس القديس يعقوب السروجي أسقف ساروج Saroug.

ومن المعروف أن طقس المعمودية للقديس يعقوب السروجي هو الترجمة السريانية لطقس المعمودية الذي دوَّنه القديس ساويرس الأنطاكي

١٤- *DACL*, t. 2, p. 269- 274

١٥- نتقدم بخالص الشكر إلى الأب الدكتور كميل وليم أستاذ العهد القديم، والأب الدكتور كريستيان اليسوعي أستاذ الديانات المقارنة، بكلية العلوم الإنسانية واللاهوتية بالمعادي بالقاهرة، لتفضلهما بترجمة النصوص اللاتينية الكثيرة التي وردت في مقال "المعمودية" بقاموس الآثار المسيحية والليتورجيا، وذلك خلال فترة تواجدهما بالدير في يونيو سنة ١٩٩٥م.

١٦- J. M. Neale, *A History of The Holy Eastern Church*, London, 1850, c. v., p. 981

باليونانية. وجدير بالذكر أيضاً أن الأسقف غريغوريوس بن العبري (١٢٢٦- ١٢٨٦م)[١٧] قد لخَّص طقس المعمودية للقديس يعقوب السروجي، ودُعي باسمه أي "طقس المعمودية لغريغوريوس بن العبري".

نخلص إلى أن طقس المعمودية في الكنيسة السريانية الأنطاكية موجود في خمسة مصادر رئيسية وهي:

- طقسا القديس ساويرس الأنطاكي الأول، والثاني.
- طقس القديس يعقوب السروجي.
- طقس غريغوريوس بن العبري، وهو اختصار للطقس الذي دونه القديس يعقوب الرهاوي.
- طقس المعمودية لمؤلف مجهول يُظن أنه هو نفسه طقس القديس ساويرس في ترجمة مختلفة له.

وهذه الخمسة نصوص السابق ذكرها لطقس المعمودية لا تخرج في مضمونها عن مصدر رئيسي هو طقس البطريرك القديس ساويرس الأنطاكي. وتوضع هذه النصوص المختلفة لطقس المعمودية جنباً إلى جنب في كتب الطقس السريانية الأنطاكية، أما ما يميزها عن بعضها البعض، فهو بعض قطع صلوات منقولة من هنا أو هناك، ومزامير على النص الأصلي، أو قراءات وقطع ملحنة أُضيفت في أزمنة مختلفة على طقس المعمودية. ولكن الهيكل العام لهذا الطقس يظل واحداً. فيتضح أن لدينا عملاً واحداً لطقس المعمودية متمثل في عدة صيغ مختلفة متوافقة مع بعضها البعض في أساسيات الطقس وصيغتة الأولية.

أما طقس القديس يعقوب السروجي فهو ينفرد قليلاً عن باقي

١٧- انظر ترجمة له ضمن أعلام الكنيسة الأنطاكية، وذلك في سلسلة كتب "الكنائس الشرقية وأوطانها - الكنائس الشرقية القديمة" للكاتب.

النصوص الأخرى بوجود صيغ كثيرة تميزه عن غيره، ثم أنه طقس غني بألحانه وصلواته التي أُضيفت في نواتها الأولية كقطع مختارة ومستعارة من أجزاء كثيرة من أنافورات قديمة ليست لها في الغالب أي صلة مباشرة بالمعمودية. ولكن ذلك - كما يقول بعض علماء الليتورجيا[١٨] - يوضح أن الممارسة القديمة لمنح سر المعمودية المقدسة كانت تجري من خلال الاحتفال بالإفخارستيا، وهو ما يفسر لنا وجود قراءات لفصول كتابية من الرسائل والإنجيل في طقوسنا، وهو ما استعاره قداس الموعوظين، ليصبح سمته الرئيسية ومحتواه.

وهناك صيغ سريانية تسبق قراءة فصل الرسالة، ربما كانت من أصل سحيق في القدم، نجد فيها بانتظام إشارة لمعمودية ربنا في الأردن، وبعض هذه الصيغ قد استعير من القديس أفرآم السرياني، ونجدها مسجلة في طقس القديس ساويرس الأنطاكي الثاني، وخصوصاً الغريب منها، مثل الحوار الذي دار بين الرب والقديس يوحنا المعمدان، وهو الحوار المستعار من الأناجيل المنحولة.

ومع كل هذه الغزارة في القطع الليتورجية، فلا يوجد منها ما هو مدوَّن في وثائق تعود إلى ما قبل القرن السادس الميلادي، وهو ما لم يشر إليه القديس يعقوب أسقف أديسا ولا مرة واحدة.

أما طقس المعمودية الذي دونه غريغوريوس بن العبري تلخيصاً للطقس الذي ترجمه يعقوب أسقف أديسا عن طقس القديس ساويرس الأنطاكي، فقد ورد به بعض التعليمات الغالية القيمة.

وبمساعدة هذه المصادر المختلفة يكون من السهل علينا أن نتتبع

١٨- أمثال نيبل Neal، وماكلان Maclean، وديتريش Diettrich.

مراحل طقس المعمودية السريانية الأنطاكية خلال أزمنة مختلفة، بالإضافة إلى مراقبة عوامل التطور التي لحقت به[١٩].

(ب) مصادر الطقس الأشوري لسر المعمودية:

ترتبط مجموعة النصوص المختلفة لطقس المعمودية في الكنيسة السريانية الأنطاكية السابق ذكرها بطقس المعمودية الأشوري أو الكلداني، ولكن في رباط واهن ضعيف بسبب أن الكنيسة الأشورية بعد أن انعزلت عن الكنيسة الأنطاكية بسبب بدعة نسطور، أصبحت كنيسة مستقلة تحكم نفسها بنفسها autocéphale. فاستقلت محافظة على لغتها الليتورجية السريانية بطقوسها القديمة.

وطبقاً لتقليد هذه الكنيسة فإن طقس المعمودية فيها - كما أيضاً ليتورجيتها الإفخارستيّة - يُنسب إلى الرسولين أدي وماري. وفي القرن السابع الميلادي قنن إيشوعاب الثالث Jesuyab III أسقف أديابين Adiabene (٦٤٧- ٦٦٠م) سمتها النسطورية بعد أن نقّح كتبها الطقسية لتوائم عقيدتها الجديدة.

وكان السمعاني هو أول من نشر الطقس الأشوري سنة ١٧٢٨م، ثم عاد ونشر نصاً كاملاً للطقس الأشوري معتمداً على مخطوطات مختلفة وموضحاً المقابلة بين نصوص المخطوطات المختلفة، وذلك ضمن كتاب ليتورجي له تحت اسم (Codex Liturgicus)، وهو ما أُعيد نشره بعد ذلك بواسطة العالم الليتورجي دنزنجر Denzinger في مؤلفه "الطقوس الشرقية[٢٠]"، ولكن مع الأسف فقد وُجد به آثار لاستعارات من

١٩- *DACL*, t.2, p. 274- 275

٢٠- Denzinger, *Rit. Orient.*, t.1, p. 364- 377

الليتورجية اللاتينية أفقدته نقاوته السريانية الأولى. وفي سنة ١٨٥٢م، قدّم لنا العالم بادجر Badger كتاباً في طقوس الكنيسة الأشورية بموجب مخطوط قديم(٢١).

بعد ذلك نشرت إرسالية أنجليكانية النص الأشوري لكتاب الطقوس الذي تستخدمه الكنيسة الأشورية بموجب ثلاث مخطوطات، وهو ما يُستخدم في الوقت الحاضر، ومعه ترجمة إنجليزية(٢٢). وفي سنة ١٩٠٣م، ظهرت ترجمة ألمانية لطقس المعمودية الأشوري للعالم دكتور ديتريش G. Diettrich معتمدة على الترجمة الإنجليزية السابق ذكرها والتي نشرتها الإرسالية الأنجليكانية، بالإضافة إلى اعتمادها على مخطوطات أخرى تعود إلى ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر.

أما النص الأشوري لطقس المعمودية فهو ما يمارسه أيضاً مسيحيو المالابار الذين انضموا إلى روما، حيث قبلت هذه الجماعة المسيحية في القرن الرابع الميلادي إرساليات من بلاد ما بين النهرين، ولكن يبدو أنه في نفس هذه الفترة كان لديها جالية سريانية، وعلى كل حال فإن ليتورجيتها قد استخدمت أولاً اللغة السريانية.

وفي سنة ١٥٩٩م، أُبيدت كل الكتب الطقسية لكنيسة المالابار، لكن طقس المعمودية فيها قد حُفظ لنا في مخطوط منسوخ سنة ١٥٥٧م، وهو تحت رقم ١٦ طقس بمكتبة الفاتيكان، وقد نشره السمعاني.

٢١- G. P. Badger, *The Nestorians and their rituals*, London, 1852

٢٢- *The Liturgy of Adai and Maris... and The Order of Baptism*, London, 1893, p. 63- 82.

cf. also, A. J. Maclean and W. H. Browne, *The Catholicos of The East and his people*, London, 1892, p. 267 sq.

ولما انفصل عدد من مسيحيي كنيسة المالابار عن كنيستهم وانضموا إلى روما، عدّلوا طقوسهم لتتواءم مع الأسلوب الروماني وعُرفوا باسم "الكنيسة الكلدانية". وفي أواخر القرن السابع عشر عاد جماعة كبيرة منهم وانضموا إلى الكنيسة الأنطاكية وتبنوا طقوسها.

إن الطقس الأشوري في شكله الذي وضعه البطريرك إيشوعاب الثالث لم يزودنا سوى بمعمودية الأطفال. إذ اكتفى هذا البطريرك بقوله: إن معمودية البالغين، وبالتالي تأسيس الليتورجية، وتعليم الموعوظين هي أمور يجئ إيضاحها في كتاب "أسئلة عن المعمودية" للبطريرك إيشوعاب الأول (٥٨٠- ٥٩٦م).

ولتطويع طقس المعمودية ليلائم الأطفال الصغار، فإن إيشوعاب الثالث قد عدَّل تماماً في سمة طقس المعمودية القديم كما كانت تمنح للموعوظين لاغياً منه طقس طرد الشياطين exorcisme وطقس جحد الشيطان Le renoncement، واحتفظ بترديد قانون الإيمان فقط، ففقد طقس المعمودية أصالته الأولى بسبب هذه التغييرات الجذرية التي أجريت عليه، واحتفظ الطقس الأشوري بممارسات طرد الشياطين، وجحد الشيطان، والاعتراف بالإيمان، في حالات معمودية البالغين فقط[٢٣].

ثالثاً: مصادر الطقس البيزنطي لسر المعمودية:

وفيه نركز حديثنا عن الأصول الأولى لليتورجية المعمودية المستخدمة في كنائس آسيا الصغرى، وكنائس القسطنطينية. ثم نتحدث عن مصادر طقس الكنيسة الأرمنية.

٢٣- *DACL*, t. 2, p. 283, 284

(أ) كنائس آسيا الصغرى وكنيسة القسطنطينية:

وهي الكنائس التي كونت في القديم إيبارشية آسيا، حاوية مقاطعات بنتس وكبادوكيا، وإن كانت كنيستا الإسكندرية وأنطاكية قد حافظتا على مر العصور على طقوسهما الخاصة، ونظمتها ضمن عائلات ليتورجية ذات خصائص واضحة، إلاّ أن كنائس آسيا لم تنقل إلينا أي طقس خاص بها. وكان السبب في ذلك أنها قد دخلت منذ زمن مبكر في مجال تأثير أساقفة القسطنطينية حتى جاء اليوم الذي أصبحت فيه كنائس آسيا ضمن البطريركية البيزنطية.

ومنذ زمن القديس يوحنا ذهبي الفم، كان هذا التأثير متميزاً وواضحاً، ولكنه لم يمتد بعد ذلك إلاّ لقرن واحد من الزمان.

إننا نعرف القليل عن الأصول الأولى لليتورجية القسطنطينية، فالمسيحية في بيزنطه لم تبدأ سوى في القرن الرابع الميلادي، وصيغ القداس التي حُفظت إلى يومنا هذا في الطقس البيزنطي تحمل أسماء القديسين يوحنا ذهبي الفم، وباسيليوس الكبير، مما يعني أن التقليد اليوناني قد قنن ليتورجيته في الزمن الذي بدأ فيه الاتحاد بين كنائس آسيا والقسطنطينية. وبديهي أن يكون كتاب الطقس البيزنطي قد تقنن في نفس الزمن الذي قُننت فيه ليتورجية القداس، فليس هناك ما يدفعنا إلى الاعتقاد أن كتاب الطقس البيزنطي جاء متأخراً عن كتاب ليتورجية القداس، وبالتالي فإن نمط تكوينه وإنشائه يجب أن يكون متجانساً مع الليتورجية.

إن ليتورجية آسيا القديمة، وعلى الأقل تلك الخاصة بقيصرية الكبادوك قد عاشت في صيغتها البيزنطية تحمل اسم القديس باسيليوس الكبير جنباً إلى جنب مع ليتورجية القسطنطينية الخاصة بالقديس يوحنا ذهبي الفم. وكذلك فإن توحيداً مشابهاً أو مماثلاً في طقوس أخرى أمكن

إجراؤه كما في مراسيم وطقوس الرسامات الكهنوتية ordines. إذاً يكون من الجسارة أن نبحث في الخولاجي البيزنطي عن آثار طقوس آسيوية قديمة إلى جانب تلك التي تركتها فيه ممارسات ليتورجية كنيسة القسطنطينية.

إن طقس المعمودية لكنيسة القسطنطينية قد دُون على الأقل في خطوطه العريضة، وفي نصه الثابت في غضون القرن الرابع أو الخامس الميلادي، ونحو هذه الفترة تبنت كنائس أرمينيا وجورجيا تقاليد جديرة بالاعتبار، صارت هي سماتها التي تميزها على غيرها من الكنائس.

وكتاب الإفخولوجيون Εὐχολόγιον اليوناني أو البيزنطي هو أكثر المخطوطات البيزنطية قدماً، أما نصه فقد طُبع في طبعات لا حصر لها، بدأت منذ القرن السادس عشر. وأقدم إفخولوجيون معروف اليوم هو الموجود في مكتبة الفاتيكان مع مجموعة بربريني Barberini، وقد حُفظ تحت رقم (Gr. III, 55).

ولقد طبع السمعاني طقوس إعداد الموعوظين، وطقس المعمودية، وطقس الميرون بموجب النص الرسمي لطبعة "جور – Goar ".

وهناك مؤلفان ألفهما ديمترفسكي M. A. Dmitrievsky أستاذ الأكاديمية الكنسية في كييف Kiev تعرفنا من خلالهما على عدد كبير من الإفخولوجيون اليوناني لأزمنة وأماكن مختلفة مما وفّر علينا إمكانية تتبع تطوره قرناً بعد قرن بدءًا من المراحل الأولى للطقس في شكله البسيط الأولي.

أما المؤلّف الثاني من هذين المؤلّفين فهو في غاية الأهمية، حيث نجد فيه طقس المعمودية مدوّناً طبقاً لتحقيق ما يقرب من ثمانين مخطوطاً، ثلاثة منها تعود إلى القرن التاسع والعاشر الميلاديين. وعلى الرغم من ذلك، فلم يكن طقساً مكتملاً يمكن استخدامه لتتميم مراسيم سر

المعمودية. ولكن أمكن تكميل مراسيم السر بمساعدة نبذة ظهرت في سنة ١٨٨٤م، نشر فيها ديمتريفسكي طقسين للمعمودية بموجب مخطوطات يونانية تعود إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، مشيراً إلى طبعة جور Goar (طبعة فينيسيا سنة ١٧٣٠م) وإلى طبعته الخاصة به عند شرحه للإفخولوجيون اليوناني الذي أصدره.

وفي أوائل القرن التاسع عشر نشر العالم كونيبير M. F. C. Conybeare - وباستقلالية كاملة عمن سبقه من ناشرين - نصاً محققاً لطقس المعمودية طبقاً للتقليد البيزنطي، فأعاد نشر الإفخولوجيون القديم الخاص بمجموعة بربريني Barberini، والتي تعود إلى القرن الثامن عشر الميلادي، فراجع النص وقابله مع ثلاثة إفخولوجيون قديمة تعود إلى القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر موجودة في منطقة "جروتا فيراتا[٢٤] - Grotta Ferrata "، وكذلك في مكتبة بودليين Bodléienne بأكسفورد.

والطقس الحالي لسر المعمودية، والذي حافظ على الليتورجية القديمة في لهجتها السلافونية يتبع تماماً الإفخولوجيون اليوناني، ولكنه لا يمدنا بأي معلومات عن ليتورجيا المعمودية في كنيسة القسطنطينية في زمن تحول السلافيين إلى المسيحية، وذلك بسبب أن الكتب الليتورجية الروسية تم تنقيحها في نهاية القرن السابع عشر منذ إصلاح نيكون Nicon.

أما الكتب الطقسية للكنيسة الروثينية فيبدو أنها تقدم لنا مميزات تؤكد أنها أكثر قدماً، برغم أننا لم نستطع الاستفادة منها كما ينبغي.

وباستثناء ممارستين تمارسان حالياً في طقس سر المعمودية وهما مراسيم اليوم الثامن (منح الاسم والرشم بالزيت)، ومراسيم اليوم

٢٤- هي منطقة بقرب روما، بها دير قديم اشتهر وذاع صيته في بداية القرن العشرين.

الأربعين (تطهير المرأة بعد ولادة الطفل)، يلزمنا أن نفرِّق بين أربعة أقسام متجانسة في الطقس البيزنطي الحالي، كانت في القديم منفصلة بعضها عن بعض بفاصل زمني يفصل كل منها بمجموعة مختلفة من المراسيم، ولكنها في مخطوط بربريني الذي يعود إلى القرن الثامن الميلادي قد أصبحت قسماً واحداً بينما ظلت هذه الأقسام الأربعة محتفظة بعناوين تلك المراسيم القديمة التي صاحبتها حتى إلى الإفخولوجيون الحالي، مما مكننا من التعرف على هذه التقسيمات الأولية، ونقدمها هنا بموجب وثائق قديمة:

– **القسم الأول**: صلاة قبول الموعوظين Εὐχὴ εἰς τὸ ποιῆσαι κατηχούμενον. ويشمل النفخ في الوجه ثلاث مرات، رشم الجبهة والفم والصدر، ثم صلاة مصحوبة بوضع اليد.

– **القسم الثاني**: Ἀφορκισμοί. ويشمل التعزيم ثلاث مرات (أو تعزيم بسيط في حالة ضرورة التعميد في الحال)، والنفخ في الوجه ثلاث مرات، والرشم consignation.

– **القسم الثالث**: جحد الشيطان: Ἀποτάξις ثم الاتحاد بالمسيح Συντάξις، حيث يتبع ذلك ترديد قانون الإيمان ثم صلاة ختامية.

– **القسم الرابع**: صلوات المعمودية المقدسة Εὐχαὶ τοῦ ἁγίου Βαπτίσματος. ويشمل صلوات تبريك مياه المعمودية، مسح الموعوظين بالزيت، التغطيس في الماء، صلاة تمهيدية للمسح بالميرون المقدس، المسح بزيت الميرون، ثم الاحتفال بالإفخارستيا، وأخيراً التناول من الأسرار المقدسة.

وهكذا تثبت منذ القرن الثامن الميلادي، أو ربما قبل ذلك الوقت، المضمون العام لطقس المعمودية اليوناني، والذي لم يتغير منذ ذلك الحين في خطوطه العريضة. فبعض هذه الأقسام السابق ذكرها بقيت كاملة

تماماً، وهي صلوات التعزيم الثلاث exorcismes، وصيغة صلوات تقديس مياه المعمودية، وصلاة الشكر التي تتبعها.

وفي المقابل فهناك بعض أقسام أخرى أقل أهمية قد تغيرت تغيراً كبيراً à l'infini، وهي تلك المردات أو الطلبات التي يقولها الشماس والتي تحتل مقدمة صلوات تبريك المعمودية.

وفي النهاية نقول، إن بعض الصيغ وبعض الطقوس الثانوية قد أُضيفت إلى الطقس الأصلي في وضعه الأولي البسيط، فزادته طولاً، مثل الصلوات العديدة لمراسيم قبول المرأة في الكنيسة بعد الولادة Relevailles وكذلك طقس البصق على الشيطان la sputation في لحظة الجحد، وتقاليد لبس ملابس المعمودية، والقراءات المختلفة، وبعض الألحان.

ومع كافة التعليمات الخاصة بالمعمودية rupriques والمراسيم الحديثة، فإن طقس المعمودية لم يستقر كما هو عليه الآن إلاّ نحو القرن الخامس عشر الميلادي(٢٥).

(ب) مصادر طقس المعمودية في الكنيسة الأرمنية:

الطقس الأرمني في أصوله الأولى يتصل بالطقس البيزنطي ويرتبط به، ولكن منذ البداية فقد اعتمد الأرمن على الكنيسة السريانية عندما استقبلوا الإرساليات الأولى التي وفدت إليهم سواء من أديسا أو أنطاكيا. ومن المؤكد أنه منذ القرن الرابع الميلادي فإن القديس غريغوريوس المنور

٢٥- *DACL*, t. 2, p. 285- 287.

قد أدخل التقليد اليوناني إلى بلاده أرمينيا[٢٦]. وخلال القرن الرابع الميلادي ساد التأثير الهليني على كنيسة أرمينيا تماماً، حيث حلّت اللغة اليونانية محل اللغة السريانية في الليتورجية، وكانت السريانية مستخدمة حتى ذلك الوقت في جنوب أرمينيا بين الأرمن الذين كانوا قد قبلوا المسيحية.

وفي النهاية ثبّت القديس غريغوريوس المنور في التقليد الأرمني الطقوس الليتورجية التي استعار جانباً كبيراً منها من الكنائس اليونانية في آسيا الصغرى. وفي غضون القرن الخامس الميلادي ترجمت كتب الطقس الأرمني إلى لغة البلاد الوطنية، وذلك في الزمن الذي ألّف فيه مصروب Mesrob الأبجدية الأرمنية. والجانب الأعظم من كتب الطقس الأرمني تعود إلى هذه الفترة.

أما بعض الخدمات الكنسية التي من بينها طقس المعمودية، فهي تحمل اسم يوحنا ماندا كوني Jean Mandakuni كاثوليكوس الكنيسة الأرمنية في نهاية القرن الخامس الميلادي. ومنذ القرن السادس الميلادي، وبالرغم من النزاعات المتواصلة بين الأرمن واليونان من جهة، أو بين الأرمن والسريان من جهة أخرى، فإن الكنيسة الأرمنية ظلت كنيسة ملهمة في أمور عبادتها حتى زمن استخدامها لليتورجيتها الخاصة بالقداس الإلهي.

ومنذ سنة ١٩٠٥م، لدينا طبعة ممتازة ومترجمة من كتاب الطقس الأرمني Mashtotz arménien، وكان السمعاني هو أول من نشر كتاب الطقس الأرمني باللغة اللاتينية، ولكن مع الأسف الشديد ضمّن الطقس

٢٦- وُلد القديس غريغوريوس المنور في أرمينيا، وتربى في قيصرية الكبادوك حيث عاش يكرز بالإنجيل في نواحي أرمينيا لكل الغرباء عن الإيمان، وهناك اقتبل نعمة الأسقفية على يد القديس باسيليوس الكبير.

شروحات كثيرة مستعارة من الطقس الروماني الغربي، إذ أن هذه الطبعة اللاتينية للطقس الأرمني كانت تحت سيطرة لجنة نشر الدعوة في روما Propaganda. وهو نفس ما تعرضت له كل بقية الطقوس الشرقية الأخرى ومن بينها الطقس القبطي أيضاً.

أما دنزنجر Denzinger فقد نشر الطقس الأرمني مترجماً من اللاتينية إلى الإنجليزية حسب النص اللاتيني الذي نشره السمعاني، وفي سنة ١٨٣٢م، نشر مجموعة من الرهبان الأرمن الكاثوليك Les méchitaristes de Venise أول طبعة للطقس الأرمني في فينيسيا، وهي ذات دراسة نقدية، معتمدين في ذلك على أقدم مخطوط معروف للطقس الأرمني، يعود إلى القرن الثامن أو التاسع الميلادي.

وفي سنة ١٨٥٠م، قدَّم الدكتور نييل Neal في مؤلَّفه "قصة الكنيسة الشرقية المقدسة" وصفاً لطقس المعمودية في الكنيسة الأرمنية مستعيناً بترجمة روسية لكتاب الطقس الأرمني لكنيسة أتشميادزين Etshmiadsin.

أما الدكتور إيسافردينز Issaverdenz فترجم ونشر طقس المعمودية الأرمني باللغة الإنجليزية سنة ١٨٦٧م، طبقاً لطبعة فينيسيا السابق ذكرها، والتي نشرها الرهبان الأرمن الكاثوليك سنة ١٨٣٢م. وكان نص هذه الطبعة أفضل من تلك التي قدمها السمعاني.

وفي سنة ١٨٨١م، قدم الدكتور تسولاكيدس M. D. Tsolakidés ترجمة يونانية لطقس المعمودية الأرمني في القسطنطينية سنة ١٨٨١م، تحت عنوان: Ἀκολουθία τοῦ ἁγίου Βαπτίσματος τῆς ἀνατολικῆς ἀρμενικῆς Ἐκκλησίας, "طقس المعمودية المقدس للكنيسة

الأرمينية الشرقية".

وفي سنة ١٩٠٥م، قدَّم دكتور كونيبير M. F. C. Conybeare ترجمة إنجليزية كاملة للكتاب الطقسي الأرمني Mashtotz بموجب أقدم وأفضل مخطوطات قام بفحصها بنفسه، وليس بموجب النصوص المطبوعة التي لا تشهد سوى للممارسة الحالية للطقس الأرمني. وكان هدفه من مؤلفه هذا هو إثبات أن الطقس الأرمني باستطاعته أن يستعيد سماته القديمة المميزة له(٢٧). وإن ما أوردناه عن الطقس الأرمني في سر المعمودية مستعار في معظمه من هذه الطبعة الأخيرة(٢٨).

وفي هذا الصدد نذكر أن المجمع المقدس للكنيسة القبطية الأرثوذكسية قد أصدر قراراً في سنة ١٩٩٠م، بقبول معمودية الكنائس الأرثوذكسية الخلقيدونية، وحتى الآن يُكتفى بدهن أي مسيحي من رعايا الكنيسة البيزنطية يرغب في الانضمام إلى الكنيسة القبطية بزيت الميرون المقدس، لتصبح معموديته قانونية في الكنيسة القبطية.

٢٧- F. C. Conybeare, *Ritual Armenorum*, Oxford, 1905, p. 86- 106

٢٨- *DACL*, t. 2, p. 294, 295

الباب الثاني

الطقس القبطي لسر المعمودية

الفصل الأول

المراحل الأخيرة

قبل نزول مياه المعمودية

تعرَّضت خدمة سر المعمودية في القرون الثلاثة الأولى إلى إضافات وتعديلات متتابعة. وأُعيدت صياغتها في كل من الكنيستين القبطية والسريانية لتأخذ الطابع الذاتي لخدمة الليتورجيا أي سر الشكر. ومع ذلك فقد حافظ الطقس القبطي - أكثر من غيره من الكنائس الشرقية الأخرى - على ملامح الطقوس الأولى لهذا السر.

وجدير بالملاحظة أن هناك بعض الصلوات، وبعض الشروحات الطقسية rubrics لهذا السر المقدس تصل أحياناً إلى حد التطابق بين الكنيستين القبطية واليونانية، مما يرجّح استخدام هذه الصلوات في خدمة سر المعمودية في الكنيسة الجامعة، لاسيما في الشرق المسيحي قبل الانشقاق الذي حدث سنة ٤٥١م، حيث نستبعد أي احتمال لاقتباس حدث بين الكنيستين القبطية والبيزنطية بعد هذا التاريخ[١]، باستثناء بعض الاقتباسات في زمن البابا الإسكندري كيرلس الرابع (١٨٥٣- ١٨٦١م) في العصر الحديث.

أما اكتمال التطور في خدمة سر المعمودية حسب الطقس القبطي كما وُجد في المخطوطات - مع اختلافات طفيفة في الطبعات الحديثة للسر - قد قُسم إلى قسمين: القسم الأول هو الصلاة على الموعوظين، والقسم الثاني هو طقوس المعمودية ذاتها مع الدهن بزيت الميرون[٢].

١- *BASC.*, t. 11, p. 27

٢- *ibid.*, p. 61

أولاً: طقوس طرد الشياطين في الكنـــائس الشرقية المختلفـة

لم تضع الكنيسة الشرقية بوجه عام والقبطية على وجه التخصيص تعليماً محدداً بخصوص الشياطين، فلا توجد صيغة إيمانية بعينها توضّح حدود هذا التعليم.

ولكن نعرف من الوثائق القديمة أن كل شئ يختص بالموعوظين الذين لم يدخلوا في شركة الكنيسة المقدسة بعد، كان يلزم أن يجوز (أي هذا الشئ) صلوات "تعزيم" سواء كان الزيت الذين يُدهنون به، والذي يُسمى "زيت الاستحلاف أو الاستقسام أو التعزيم"، أو حتى الخبز الذي يأكلونه، والذي كان يُسمى أيضاً "خبز استقسام" وهو ما نقرأه في قوانين الرسل القبطية: "والموعوظون أيضاً يأخذون خبز استقسام" (٣:٣٧:١)، وتوضّح قوانين هيبوليتس أنه خبز مُصلىّ عليه بواسطة الأسقف: "ويرسل الأسقف للموعوظين خبزاً قد تطهَّر بالصلاة، فينالوا شركة الكنيسة" (٢:٢٠). ولا يعني ذلك أن الخُبز المصلىّ عليه لم يكن يُعطى للمؤمنين أيضاً، ولكن في صيغة صلاة تناسب شركة المؤمنين الذين تناولوا من الأسرار المقدسة معاً، فتقول قوانين هيبوليتس في ذلك: "ومن بعد القربان يُعطى لهم خبز مصلىّ عليه من قبل أن يجلسوا" (١:٣٣)، فلم يكن يُسمح للموعوظين أن يشتركوا مع المؤمنين في الأكل حتى في الولائم المحبيّة[٣].

ولقد ورثت المسيحية عن اليهودية أنه لا توجد آلهة أخرى سوى "الله" وأية قوة أخرى تتوسط بينه وبين الإنسان فهي "الملائكة"، أما

٣- انظر: قوانين هيبوليتس ٢:٣٣

الأرواح الأخرى التي بخلاف ذلك فتنضوي تحت لواء "القوى الشيطانية المعادية لله"، ولذلك جاءت ترجمة الأصل العبري لكلمة "أوثان" أو "أصنام" في بعض آيات الترجمة السبعينية بكلمة δαίμων أو δαιμόνιον وهي الكلمة اليونانية التي انتشرت في اللغات الأوربية بكلمة **demon** أي شيطان، مثل:

- «ذبحوا لأوثان δαιμονίοις (شياطين) ليست الله، لآلهة لم يعرفوها» (تثنية ٣٢:١٧).
- «كل آلهة الشعوب أصنام δαιμόνια » (مزمور ٩٦:٥).

ويصادق العهد الجديد على أن عبادة الأوثان مقدّمة أساساً للشياطين، فيقول في ذلك:

- «ما يذبحه الأمم (من ضحايا) فإنما يذبحونه للشياطين... لا تقدرون أن تشربوا كأس الرب وكأس شياطين، لا تقدرون أن تشتركوا في مائدة الرب ومائدة شياطين» (١ كورنثوس ١٠:٢٠، ٢١).

ويعتبر العهد الجديد أن كل أفعال السحر والعرافة والزنى والدعارة والرذيلة عموماً، تحركها دوافع شيطانية (غلاطية ٥:١٩،٢٠)، ويصرّح القديس بولس الرسول متنبأً بحدوث نشاط شيطاني رهيب في أواخر الأزمنة (١ تيموثاوس ٤:١)، وهو ما قاله أيضاً يوحنا اللاهوتي في رؤياه (رؤيا ١٦:١٣،١٤).

هذه هي الصورة التي واجهتها الكنيسة الأولى، فالعالم كله والمسكونة بأسرها في يد الشيطان وقواته الشريرة. والرب يسوع نفسه قال: «إن كنت أنا بروح الله أُخرج الشياطين، فقد أقبل عليكم ملكوت الله» (متى ٢٢:٢٨؛ لوقا ١١:٢٠). وهذا هو ما قاله التلاميذ بفرح للرب بعد إرساليتهم: «... حتى الشياطين تخضع لنا باسمك» فأجابهم: «رأيت

الشيطان ساقطاً مثل البرق من السماء» (لوقا ١٠:١٧،١٨). وقبل صعود الرب إلى السماء قال: «... هذه الآيات تتبع المؤمنين، يخرجون شياطين...» (متى ٢٨:١٨؛ مرقس ١٦:١٧،١٨).

ولقد ترك آباء القرن الثاني أدباً متسعاً يكشف عن كل الضلالات التي كانت كل أمم العالم الوثني وقتئذ غارقة فيها، وكيف صار الخلاص منها في المسيح يسوع.

فيكتب القديس يوستينوس الشهيد (١٠٠- ١٦٥م) في دفاعه الأول موضحاً خبث الشياطين وحيلهم الردّية فيقول:

[هوذا نسبق فننبهكم أن تحترسوا من الشياطين لئلا تخدعكم وتحوّل وجوهكم عما نسطّره لكم، إذ أنهم يجاهدون ليتسلطوا عليكم حتى تكونوا خدّاماً لهم، أحياناً بظهورات في أحلام، وأحياناً بوسائط سحرية، حتى يستعبدوا كل من لا يجاهد لحفظ الخلاص. هذا ما حدث معنا نحن الذين نتبع الآن ابن الله الوحيد. كنّا نبتهج بالدعارة، والآن نعتنق الطهارة، كنا نستعمل قبلاً وسائط السحر، والآن قد قدَّسنا أنفسنا لله الصالح غير المولود. نحن الذين كنا نعتبر الممتلكات والغنى هما أثمن ما في الدنيا، أصبحنا نأتي الآن بأموالنا لتكون في متناول الجميع، نعطي كل واحد حسب احتياجه. نحن الذين كنّا نبغض وندمّر أحدنا الآخر بسبب تباين الطبائع، فلا نعايش من كان من جنس آخر، الآن بعدما جاء المسيح نعيش المودّة مع الجميع، ونصلي حتى من أجل أعدائنا، ونعظ الذين

يبغضوننا ظلماً، ليعيشوا بما يوافق مبادئ المسيح، ليشتركوا معنا في رجائنا المفرح(٤)].

ويستكمل تاتيان (١١٠- ١٧٢م) تلميذ يوستينوس الشهيد فضح أعمال الشياطين لخداع البشرية فيقول:

[إنها تصيب بالأمراض حتى يلتجئ المريض إلى المشعوذين والدجّالين الذين سبقت معرفتهم الخصائص الطبية لبعض الأعشاب والنباتات، فيقفون في الأماكن العامة والميادين والأسواق، ويمارسون الشفاء أو يلجأون للسحرة فيستعملون عظام الموتى أو الوسائط السحرية الأخرى كالتعاويذ وذلك في الأماكن العامة وأمام الجمهور، حتى تتم الخدعة، ويؤمن الناس بالشياطين باعتبارها آلهة شافية من أمراض الجسد، وبذلك يتحولون عن معرفة الإله الحقيقي المغروسة فطرياً في الطبيعة البشرية(٥)].

ويعطينا أثيناغوراس (١٧٧م) تفسيراً يُضاف على أسرار الحياة الشيطانية فيقول:

[إنهم يدفعون الإنسان للذبائح الوثنية، ليست الحيوانية فقط، بل والآدمية أيضاً، لأنها (أي الشياطين) تشتهي دماء الذبائح، وتلعقها بنهم وشره(٦)].

وتتجسّم كل هذه النتائج في مدرسة الإسكندرية اللاهوتية، فيقول القديس كليمندس الإسكندري (١٥٠- ٢١٥م):

٤- *1st. Apol.* XIV

٥- Tatian, Orat. ad. Gr. 14,16,18

٦- *Plea for Christ*, 26, 27

[الملائكة حادوا عـن جمـال الله إلى الجمـال الزائـل(٧)، فسقطوا من السماء إلى الأرض(٨)].

ويقول أيضاً:

[في الأزمنة الماضية، بعض الملائكة لم يكونوا متعففـين، بل أُسروا من الشهوة، فسقطوا من السماء إلى الأرض(٩)].

ويقول العلامة أوريجانوس (١٨٥- ٢٥٤م) عنهم:

[علينا أن نلاحظ متفقين مع الكتب المقدسة، كيف أن القوات المضادة التي تصارع البشرية تثير الناس وتستفزهـم إلى الخطيَّة، أول كل شئ ما جاء في سـفر التكويـن، الحيـة المذكور عنها أنها أغوت حواء، يقول عنها رئيس الملائكـة ميخائيل، وهو يحاجج بخصوص جسد موسـى النبي، إنهـا كانت مدفوعة إلى ذلك بواسطة إبليـس، وهـذه هـي علّـة تعدي آدم وحواء(١٠)].

ويؤكـد أوريجـانوس مـا سـجله يوسـتينوس الشـهيد مـن قبـل، أن الشياطين اقتربت كثيراً مـن الأرض، بسـبب الذبـائح ومـا يصاحبهـا مـن أبخرة ودخان، فيقول بحسب رأيه:

[البعض يستخف بالواقع المختص بالشياطين، أعني أنـه لكي يبقوا في الهواء ويقـتربوا إلى الأرض، يعوزهـم القـوت الخارج من الذبائح، فيتجمَّعون حيث يتوفَّر الدخان والـدم والبخور. فالشياطين وكل الذين يتسببون في اقـترابهم مـن

٧- الإشارة هنا إلى سفر التكوين ٦:١-٤

٨- Paed, III, 2: 42

٩- Strom. III, 7: 59

١٠- De Princip. III, 2:1

الأرض مسؤولون مسؤولية متساوية عن الأضرار التي تصيب الناس، لأنه بدون الدخان والذبائح التي هي غذاء الشياطين لا تقوم لهم قائمة (حولنا)[١١]].

كما يقرر اعتقاد الكنيسة الأولى أنهم وراء البلايا والكوارث:

[إن كان لنا أن نتكلم بأكثر جرأة، نقول إن الشياطين يتدخلون لإحداث المجاعات، لإسقاط الأشجار والكروم، لنشر الأوبئة بين الناس والحيوانات، هذه كلها هي المهام الحقيقية التي تمارسها الشياطين[١٢]].

إذاً بحسب الفكر الكنسي الإسكندري، فإن قوى الشياطين لا تعمل في الأفراد فحسب، بل يمتد عملها إلى المجتمعات الإنسانية والدول ومصالح الشعوب. والأسقف سيرابيون أسقف تمويس وصديق البابا أثناسيوس الرسولي، يذكر بكل وضوح عمل الشياطين في النفس كما في العالم، وذلك في صلاة رائعة له تختص بمسح المعمَّدين بالزيت فيقول:

[أيها السيد محب البشر، ومحب النفس، الرؤوف الرحوم، يا إله الحق، ندعوك طائعين وواثقين بمواعيد ابنك الوحيد الذي قال: «من غفرتم خطاياهم تغفر لهم[١٣]» فندهن بهذا الزيت المتقدّمين والمتقدمات لهذا الميلاد الجديد الإلهي. ونطلب لكي يمنحهم ربنا يسوع المسيح به قوة شافية ومثبّتة، لكي يُستعلن الزيت ويشفي من نفوسهم وأجسادهم وأرواحهم كل أثر للخطيَّة والإثم أو سبب شيطاني، وأن يمنحهم بنعمته الخاصة المغفرة حتى بعدما

١١- Exhort. to Martyr. 45

١٢- C0nt. Celsus, VII: 31

١٣- يوحنا ٢٠:٢٣

يبتعدوا عن الخطيَّة يحيوا في البر، ولكيما يتجددوا بواسطة هذه المسحة، ويتطهروا بالحميم، ويستطيعوا أن يقهروا سائر القوات المهاجمة والمعاندة لهم، وخداعات هذه الحياة[١٤]...] (٢٢:١،٢).

ففي فكر الكنيسة الراسخ، أن الذين لم يجوزوا المعمودية لم يكونوا قد انفكّوا بعد من قيود الشياطين ورباطاتهم، لذلك كانت خدمة طرد الشياطين هي أول مرحلة من مراحل الإعداد للمعمودية.

ولقد كانت هذه الخدمة في الكنيسة الأولى منوطة بأناس يُدعون "المعزّمين"، لهم موهبة خاصة في ذلك الأمر، وهو ما نقرأ عنه بوضوح في سفر أعمال الرسل (١٩:١١- ٢٠). ويتضح لنا من قوانين مجمع اللاذقية الذي عُقد سنة ٣٦٤م، أن المعزِّمين كانوا يُعتبرون ضمن الدرجات الكنسية الصغري غير الكهنوتية، فيقول القانون: "لا يجوز لأحد من أرباب الكهنوت، من قسوس وشمامسة أو لمن هم في السلك الكنسي كالإيبودياكون والقارئ والمرتل والمعزِّم والبواب، أو لأحد من النسّاك أن يدخل إلى خمّارة" (القانون ٢٤). وهو ما يتضح معه أنه لم يكن يُقام حتى في هذه الدرجات الصغري إلاَّ الموهوبين فقط، وليس أي أحد.

ولقد أورد القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م)، مرات عديدة ذكر هؤلاء المعزِّمين فيقول مثلاً:

[... لماذا نرسلكم من هنا بدون ثياب أو أحذية لتسمعوا كلمات المعزِّمين؟... لماذا كلمات المعزِّمين، تلك الكلمات المخيفة والمرعبة...] (تعليم المعمودية ١٠:١٤،١٦).

١٤- John Wordsworth, *Bishop Serapion's Books*, p. 74, 76

وفي حديث المراسيم الرسولية عن المواهب الكنسية، يبدو أن موهبة إخراج الشياطين كانت تحظى بإعجاب الناس واستحسانهم، مما يُظن معه تكالب الناس عليها، فنقرأ الآتي:

"والآن ليس من الضروري على كل مؤمن أن يخرج الشياطين، أو يقيم الموتى، أو يتكلم بألسنة. فإن الذي يستحق هذه المواهب، فإنه يستحقها لعلة" (المراسيم الرسولية ٨:١:٤).

"وليس كل من يخرج الشياطين قديساً" (المراسيم الرسولية ٨:٢:١).

و لم تكن هذه الخدمة مرتبطة حتماً بدرجة كهنوتية، وهو ما تشرحه كلٌ من المراسيم الرسولية وقوانين الرسل القبطية:

ففي المراسيم الرسولية (النصف الأول من القرن الرابع): "لا يُقسم المعزّم، لأن المكافأة هي لـلإرادة الحسنة، لخدمة تطّوعية، ولنعمة الله بالمسيح، بإلهام الروح القدس. لأن الذي ينال نعمة (إجراء) الأشفية، يُظهَر بإعلان الله. والنعمة التي فيه تلفت انتباه الكل.

وإن كانت هناك ضرورة له أن يصير أسقفاً، أو قساً، أو شماساً، فليُقسَم" (٨:٢٦:٢،٣).

وهو نفس ما نقرأه في قوانين الرسل القبطية "لا يُقسم المعزّم، لأن هذا الأمر هو لإرادة النيّة، وهو لموهبة الله والمسيح يسوع. لأن الروح القدس إذا سكن في الإنسان الذي ينال نعمة إجراء الشفاء، فإنه يُظهَر بالنعمة التي فيه، والتي تنير لكل الناس.

وإذا دعت الحاجة أن يصير أسقفاً أو قسيساً أو شماساً، فلتوضع اليد عليه[١٥]" (١:٥٥:٤،٥).

١٥- cf. also, *Ante - Nicene Fathers*, vol 7, p. 493

وكانت خدمة طرد الشياطين تجري كل يوم على الموعوظين خلال فترة إعدادهم لقبول المعمودية: وهو ما يقول به التقليد الرسولي (أوائل القرن الثالث) أقدم نص ليتورجي وترتيب طقسي للمعمودية في الكنيسة الجامعة: "وبدءًا من اليوم الذي يقدمونهم فيه. توضع عليهم اليد **كل يوم** ويُقسِموا عليهم" (٢:١٩).

وهو نفس ما تذكره قوانين الرسل القبطية: "توضع اليد عليهم **كل يوم**، ويقسموا عليهم" (١:٣٣:٤).

وكانت الكنيسة تصلي من أجلهم كل يوم ضمن أوشية خاصة بهم كما نقرأ ذلك في ليتورجية المراسيم الرسولية: "صلّوا أيها المأسورون من الأرواح النجسة. ولنصل كلنا بحرارة لأجلهم، لكي الله محب البشر بالمسيح، ينتهر الأرواح النجسة والشريرة، ويخلص سائليه من ظلم المعاند، وذاك الذي انتهر لجيئون من الشياطين، وانتهر إبليس رئيس الشر، ينتهر الآن أيضاً المبغضين للتقوى، ويحرر خليقته، التي خلقها بكثير من الحكمة، من سلطانهم وينقّيها.

لنتوسل لأجلهم بحرارة: خلّصهم يا الله، وأقمهم بقوتك.

احنوا رؤوسكم أيها المربوطون من الشياطين لتتباركوا" (المراسيم الرسولية ٨:٧:٢،٣).

وبحسب شهادة النبيلة الأسبانية إيجيريا كان المستنير يخضع لطقس طرد الشياطين طوال مدة الصوم الكبير، ويؤكد ذلك القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م) إذ يقول:

[خلال طرد الشياطين يجب أن يظل الرجال مع الرجال، والنساء مع النساء. على أن يقرأ الرجال الكتب النافعة عندما يصلي على غيرهم لطرد الأرواح

عنهم، أما النساء فإنهن يرتلن المزامير في صمت حتى لا يشتت صوتهن تفكير الباقين].

وكان المعزِّم يمارس هذه الخدمة في الكنيسة، ليس من داخل الخدمة الليتورجية، ولكن بعيداً عن السر الكنسي نفسه، والذي لم يكن يحق ممارسته لغير الكهنة فقط. فمن داخل السر الكنسي كان الأسقف أو القسيس يقوم بهذه الخدمة بنفسه:

فعن دور الأسقف في هذه الخدمة نقرأ: "وإذا وضع يده (أي يد الأسقف) عليهم، فيقسم على كل روح غريب أن يهرب منهم، ولا يعود إليهم بعد الآن" (قوانين الرسل القبطية١:٣٣:٨). "يجمع الأسقف الذين يتعمَّدون، ويدعهم يحنون رؤوسهم إلى الشرق، ويبسط يديه عليهم ويصلي الاستحلاف، ويطرد عنهم كل روح خبيث" (قوانين هيبوليتس ١٩:٦).

ومن النصوص القديمة التي يقولها الأسقف في ذلك: "أيها الإله الابن الوحيد، ابن الآب العظيم، انتهر هذه الأرواح الشريرة، وحرِّر عمل يديك من سلطان الروح الغريب. لأن لك، وبك لأبيك، المجد، والكرامة، والتبجيل. في الروح القدس إلى الآباد آمين." (المراسيم الرسولية٨:٧:٨).

وعن خدمة القسيس في طرد الأرواح النجسة، تقول المراسيم المصرية بعد الانتهاء من جحد الشيطان: "فإذا اعترف بهذا فيمسحه (أي القسيس) بزيت الاستحلاف قائلاً: ليُبعد عنه كل روح خبيث" (قوانين الرسل القبطية١:٣٤:٩).

ومع الأسف فقد تلاشت فئة "المعزِّمين" من الكنيسة، كموهبة من مواهب الروح القدس الواضحة في خدمة الكنيسة المقدسة. وصارت

تُمارس كمجهودات فردية يُنظر إليها غالباً بعين الريبة والشك.

الحقيقة المحزنة أو الفظيعة – على حد قول الأب ألكسندر شيمان – هي أن معظم المسيحيين لم يعد بإمكانهم أن يعاينوا وجود الشيطان وعمله في هذا العالم، وفقدوا شعورهم بالحاجة إلى رفض أعماله وعبادته، إنهم لا يتبينون الوثنية الواضحة "المعشعشة" في أفكار البشر وقيمهم، وهي تقولب حياتهم وتوجهها وتستعبدها بشكل يفوق عبادة الأصنام في الوثنية القديمة[١٦]. وهكذا أصبح الناس ينظرون إلى طقس طرد الشياطين، والذي يسبق المعمودية، على أنه طقس عفاه الزمن، وصار لديهم أمراً غريباً لا يجب الأخذ به بجدية، إذ لا يعدو أن يكون سوى ممارسات طقسية قديمة، ضمن مراسيم كنسية كثيرة.

ليس الشيطان كائناً خرافياً كما ينظر إليه الإنسان المعاصر، فأعماله المخرّبة في الطبيعة والكائنات بما فيها الإنسان هي أمر لا يمكن تجاهله، وهي الأمور التي ينظر إليها الغربيون بعين الاستخفاف.

يقول فردريك و. فارار أسقف وستمنستر بإنجلترا: "كان اليهود مثل كل الأمم القديمة يعتقدون أن كل شر إنما ينجم من عمل الشياطين حتى سُكر نوح. وكانوا يعتقدون أنه إن لم تضع المرأة غطاء على رأسها، جلس الشيطان على شعرها، وجاء في التلمود أنه إن ثار في الحقل ثور، فإن الشيطان هو الذي يقفز بين قرنيه. فكل لوثة عقل، وكل مرض مفاجئ، وكل ميل للكآبة، عائق مباغت، كان ولا يزال يعتبر في الشرق أنه أثر الشيطان مباشرة، وكانوا يعتقدون أن الشياطين هي أرواح الأردياء، ومن المحقق أنهم كانوا يقولون عمن به مرض الصرع أو الجنون أن به شيطاناً. وأمثال هذه المعتقدات اليهودية التي لا يمكن إيراد المزيد

١٦– ألكسندر شيمان، بالماء والروح، مرجع سابق، ص ٣٨.

منها شاركهم فيها أغلب الأمم. وقد ذكر يوسيفوس الكثير عنها.

والمشادة القائمة بين الشراح.والمفسرين في هذا الموضوع تدور عما إذا كان الأمر لا يزيد عن مجرد الإصابة بالأمراض أي السماح للشيطان بضرب الإنسان بها، أو إذا كان امتلاك الشيطان الفعلي شيئاً عادياً...[١٧]".

وسرعان ما يصطدم الأسقف فارار بحديث الكتاب المقدس عن الشياطين، ولاسيما عن لقاء مجنون كورة الجدريين بالسيد المسيح (مرقس ٥:٢، لوقا ٨:٢٧)، ولا يجد مخرجاً من الحرج الذي وقع فيه عندما أراد أن يجعل من الحواس، دون سواها، حَكَماً يمكّنه من أن يعقل كل ما يقع تحت تأثيرها المحسوس فيقول عن خروج الشياطين من المجنون ودخولها في قطيع الخنازير: "الكلام صعب لدينا فهمه، ولو أُخذ حرفياً يدخلنا في مباحث غامضة تماماً، ومجهولة لدينا، ولا يوجد لها مفتاح إرشاد عن معناها الحقيقي، ثم لن نكسب شيئاً باستنباط الظنون عنها... يرى بعضهم أنه عند النوبة الأخيرة الشديدة التي كثيراً ما تصحب الشفاء من هذا المرض الغريب الشنيع، قد ارتبك بخوف شديد بكيفية ما، قطيع كبير من الخنازير فارتمى من الجرف إلى البحيرة (هكذا)... إن كنّا غير ملزمين أن نصدّق ظن الرجل بأن ستة آلاف شيطان قد امتلكت روحه، فهل نحن ملزمون أن نعتقد بما تخيله عقله المخبول من وجوب خروج أرواحه النجسة إلى الخنازير[١٨]؟ ... إمتلاك الشياطين لا يقر به بعض العلماء في وقتنا الحاضر، وهو على أي حال أمر غير خطير الأهمية في التقدير

١٧- فريدريك فارار، حياة المسيح، تعريب الدكتور جورج يوسف عقداوي، المنصورة ١٩٤٩م، ٢١٥

١٨- ينبغي أن نلاحظ أن الرجل المجنون لم يقل ذلك، بل الإنجيل المقدس نفسه هو الذي قال هذا.

المسيحي (كذا)... أما رأيي الخاص فهو: اليهود ككل الأمم غير العلمية في الأزمنة الغابرة، كانوا يعزون أكثر الأمراض العصبية والجسمية لسكنى الشيطان، والتي نعزوها نحن لأسباب طبيعية. ولكني أقر أنه في العصر المظلم البائس الذي شهد مجيء المخلّص كانت توجد أنواع من الجنون تأثيراتها المباشرة من امتلاك الشيطان. ولا أحد شخصياً صعوبة أو ثقلاً في قبول هذا المعتقد، ولكنني فقط كنت أحاج ضد الجهد غير الرحيم والممقوت أن ندمج هذا البحث في الإيمان المسيحي الواجب على الكل (معرفته).

والموضوع غامض، حتى على العلم نفسه، ليجزم المرء برأي قاطع على أي من الجانبين. وبعد كتابة ما تقدم، تحققت أن كاتبين مجيدين بعيدين عن كل فطنة وهما نيندر وبرزنس يتمسكان بنفس اعتقادي[١٩]».

لقد ساد اعتقاد في الغرب في القرن التاسع عشر وما قبله، أنه لا وجود لما يُسمى شياطين أو قوى روحية مضادة، يمكن أن تتدخّل بفعل محسوس في حياة الناس ومصائرهم لتعيقهم بالأمراض أو الأوبئة أو المصائب المختلفة، وعلى النقيض من هذا فقد تطرف البعض في الشرق عندما نسب كثيراً من الأمراض النفسية أو العصبية أو العضوية إلى قوى شيطانية.

ومع اقتراب القرن العشرين من نهايته، عاد الغرب ليتيقن من أن الشيطان هو قوة فعلية محسوسة تسبب كثيراً من الأوبئة والمصائب والحروب والأمراض للأفراد والدول والجماعات. حتى لقد أعجبني قول قائل من الغرب نفسه، وهو هيرمان بيزيل Hermann Bezzel "لقد تشيطنت البشرية إلى الدرجة التي فيها صارت تؤمن بأن الشيطان غير

١٩- فارار، حياة المسيح، مرجع سابق، ص ٣٠١- ٣٠٣

موجود[٢٠]". لكن الشيطان إزاء قوة الصليب والإيمان الراسخ في المسيح له المجد يفقد كل قوته، وتتبدد كل مشوراته الشريرة. وفي ذلك يقول القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م):

[العدو بالنسبة للأبرار، لا يقدر أن يفعل شيئاً إلاَّ أن يخيف (فقط)[٢١]].

وعلى العموم، فلقد استقر في الشرق والغرب كلاهما معاً في أواخر هذا القرن العشرين رؤية مشتركة واضحة لهذه المملكة الشريرة، أي مملكة الشيطان وكل قواته، لأنه يعمل الآن بقوة عالماً أن زمانه قد اقترب[٢٢]. وفي المقابل فإن مملكة السماء بقديسيها وأبرارها تعمل هي أيضاً بقوة لتعين البشر والعالم على عبور هذه الأيام العصيبة الأخيرة التي تردت فيها البشرية إلى مستوى لم تتردى فيه من قبل إلى هذا الحد.

إن الشيطان هو روح عاقل ذو قوة عقلية مستبدة، ومدخله الأساسي للإنسان عن طريق الفكر، وهو يستطيع أن يصيب العقل كما الجسد أيضاً بأي نوع من الأمراض، لكن منفذه الحقيقي للجسد يكون عن طريق الفكر إذا ملك عليه، فالفكر هو مركز النفس، والنفس تحرّك الجسد كله. بل تستطيع النفس الطبيعية بمواهبها الطبيعية أن تُهَيمن على الجسد كله. فإن تشبّع الفكر بالخطيَّة واقتنعت النفس بذلك، مارس الجسد فعل الخطيَّة بسهولة. وهكذا يمكن أن يُصاب الجسد بكافة أنواع

٢٠- القمص تادرس يعقوب ملطي، عبادة الشيطان في العصر الحديث، ص ١٥٦

٢١- *in Philip.*, Hom. 4

٢٢- إنه لمن الغريب حقاً أن يصدر كتاب في الغرب ألّفه ريك جوينر Rick Joyner بعنوان (The Final Quest - التكليف الأخير) طُبعت منه عدة ملايين من النسخ، وترجم إلى كثير من لغات العالم، وهو يتحدث عن قوات الشر ومملكة الشيطان التي تحارب حروبها الأخيرة ضد أولاد الله. فهذا تحول جذري في الفكر المسيحي الغربي.

الأمراض بتأثير النفس المريضة. فمن هذا المدخل يدخل الشيطان ويسيطر على الإنسان بكليته. وهذا ما يعنيه الإنجيل المقدس في قول الرب عن المرأة المنحنية منذ ثماني عشرة سنة، «ربطها الشيطان» (لوقا ١٣: ١٠-١٧)، فيستطيع الشيطان اصطناع جميع الأمراض ليصيب بها الإنسان عندما يملك حياته.

وفي ذلك يقول العلاّمه أوريجانوس:

> [قبل مجئ ربنا ومخلصنا، ملكت كل الشياطين على عقول الناس وأبدانهم، واستقرت في أرواحهم، ثم ظهرت نعمة الرب المخلص، ورحمته على الأرض، تعلّمنا كيف يجدر بنفسٍ كل إنسان أن تستعيد الحرية، وتسترد صورة الله التي خلقت عليها...] (الدفاع ضد كلسوس ١:٥٤).

وعندما يتقدّم طالب المعمودية لينال السر المقدس، فأنه يجحد الشيطان أولاً وكل أعماله، وكل عبادته، وكل مشوراته، وكل نواميسه، وكل بهرجاته المؤدية للهلاك. وما دام الإنسان حافظاً عهده المقدس لا تقوى كل قوات الشر عليه، لأنه حينئذ يكون محفوظاً بقوة علوية سماوية ترتعب وتهرب منها الشياطين.

ثانياً: الوثائق القبطية القديمة تشـرح طقوس جحد الشيطان

يُعتبر كتاب "الترتيب الكنسي المصري"، وهو نفسه كتاب "التقليد الرسولي" (٢١٥م)، المصدر الأول الذي نقلت عنه المصادر الأخرى التي أتت من بعده، فيقول في مرحلة ما قبل المعمودية مباشرة:

"وفي يوم السبت يجمع الأسقف الذين سيعُمدون في موضع واحد، ويأمرهم كلهم بالصلاة والركوع. وإذا وضع يده عليهم، فيقسم على كل روح غريب أن يهرب منهم، ولا يعود إليهم بعد الآن. وإذا فرغ من الإستحلاف ينفخ في وجوههم، وإذا رشم جباههم وآذانهم وأنوفهم، فليقمهم. وليقضوا كل الليل في السهر، ويقرأون لهم، ويعظونهم" (٢٠:٧- ٩).

"والذين سيعمَّدون لا يحملون معهم أى إناء آخر إلاّ ما يُحضره كل واحدٍ للإفخارستيّا، لأنه يجب على الذي صار مستحقاً، أن يقدِّم قربانه في نفس الساعة" (٢٠:١٠).

"في الوقت الذي يصيح فيه الديك فليصلّى أولاً على الماء. وليكن الماء يجري إلى المغطس أو يخر عليه. وليكن الأمر هكذا إذا لم تكن ضرورة، وإن كان ثمّ اضطرار، فيُستخدم الماء الذي يوجد" (٢١:١،٢).

"وليتعروا. وليعمِّدوا أولاً الأطفال الصغار، ومن يقدر أن يتكلم عن نفسه فليتكلم. ومن لا يقدر، فليتكلم آباؤهم عنهم، أو واحد من أهلهم" (٢١:٣،٤)

"ثم فليعمِّدوا الرجال الكبار، وأخيراً النساء بعد أن يحللْن شعورهن، ويضعن عنهن حلي الذهب التي عليهن. ولا ينزل أحدٌ بشئ غريب معه إلى الماء" (٢١:٥).

"وفي الوقت المحدّد للتعميد، فليشكر الأسقف على الزيت الذي وضعه في إناء ، ويسميه زيت الشكر. ويأخذ أيضاً زيتاً آخر، ويستحلف عليه، ويسميه زيت الاستحلاف. ويحمل شماس زيت الاستحلاف ويقف على يسار القسيس. ويأخذ شماس آخر زيت الشكر ويقف على يمين القسيس" (٢١:٦،٧،٨).

"وعندما يمسك القسيس كل واحد من الذين ينالون المعمودية، يأمره أن يجحد قائلاً: أجحدك أيها الشيطان وكل خدمتك وكل أفعالك" (٢١:٩).

"وبعد أن يجحد يمسحه القسيس بزيت الاستحلاف قائلاً: ليبتعد عنك كل روح شرير. وهكذا يدفعه عرياناً للأسقف أو للقسيس القائم على الماء ليعمِّد. ولينزل معه كذلك شماس إلى الماء. وعندما ينزل الذي يعتمد إلى الماء، فالذي يعمِّد يضع يده عليه ويقول له: أتؤمن بالله الآب ضابط الكل؟ والذي يعتمد يقول: إني أؤمن. فيغطسه في الماء..." (٢١:١٠- ١٣).

واعتماداً على الترتيب الكنسي المصري، نورد مقارنة بين جانب من قوانين هيبوليتس القبطية[٢٣] (القانون ١٩)، مقارناً بنص قوانين الرسل القبطية[٢٤] (القانونان ٣٣، ٣٤) وهذه الأخيرة تسمى في المراجع الأجنبية "المراسيم المصرية – Constitutions égyptiennes ".

مع ملاحظة أن:

- الجزء الأول من القانون التاسع عشر لهيبوليتس ورد مقارَناً بالنص اللاتيني الذي ترجمه العالم ريدل[٢٥] Riedel.
- الجزء الثاني من القانون التاسع عشر لهيبوليتس هو بناءً على نص لاتيني قديم يعود إلى القرن الرابع الميلادي، نشره العالم هولر Hauler.
- نص قوانين الرسل القبطية أوردناه مقارناً مع نص قبطي يعود إلى القرن العاشر ترجمه العالم هورنر Horner إلى اللغة اللاتينية، وهو ما ترجمناه بدورنا إلى اللغة العربية.
- أشرنا إلى الإضافات أو التعديلات التي قام بها المجمع المقدس لكنيسة أثيوبيا على نص المراسيم المصرية (قوانين الرسل القبطية).

قوانين هيبوليتس	قوانين الرسل القبطية
وفي يوم السبت يجمع الأسقف الذين يتعمدون، ويدعهم يحنون رؤوسهم إلى الشرق[٢٦]، ويبسط يديه عليهم ويصلي	وفي يوم السبت يجمع الأسقف الذين سيُعمَّدون في موضع واحد، ويأمرهم كلهم بالصلاة والركوع. وإذا وضع يده عليهم، فيقسم على

٢٣– قوانين هيبوليتس القبطية، للكاتب.

٢٤– قوانين الرسل القبطية، للكاتب.

٢٥– *DACL*, t. 2, p. 261, 262

٢٦– طبقاً للنص اللاتيني للقانون كما أورده العالم ريدل Riedel "ويأمرهم بالركوع ورؤوسهم نحو الشرق".

قوانين هيبوليتس

الاستحلاف(٢٧)، ويطرد عنهم كل روح خبيث(٢٨). وهم أيضاً لا يعودون إليهم منذ الآن بأفعالهم(٢٩).

فإذا فرغ مما يستحلفهم به، ينفخ في وجوههم، ويرشم صدورهم وجباههم وأسماعهم وأنوفهم(٣٠).

وليكونوا ساهرين كل ليلتهم(٣٢) في الكلام المقدس والصلوات(٣٣).

قوانين الرسل القبطية

كل روح غريب أن يهرب منهم، ولا يعود إليهم بعد الآن.

وإذا فرغ مما يستحلفهم به(٣١)، ينفخ في وجوههم، وإذا رشم جباههم، وآذانهم، وأنوفهم، فليقمهم.

وليظلوا ساهرين كل ليلتهم، وليقرأوا لهم ويعظوهم.

والذي يُعمَّد لا يحمل معه شيئاً، إلاَّ ما يُحضره كل واحد للشكر، لأنه يجب على الذي صار مستحقاً أن يقدّم قربانه في نفس

٢٧- لم ترد كملة "الاستحلاف" في النص اللاتيني للعالم ريدل Riedel.

٢٨- أضاف النص اللاتيني "من كل أجسادهم".

٢٩- حسب النص اللاتيني: "ولا يعودون إلى الأرواح الشريرة من الآن بأفعالهم".

٣٠- نص مقاره الراهب القبطي في القرن الثاني عشر "أفواههم" بدلاً من "أنوفهم" ولا يتفق معه في ذلك أي من المصادر القديمة في مصر وأنطاكية.

٣١- طبقاً لترجمة هورنر: "فإذا فرغ من صلوات الجحد...".

٣٢- يُعرف هذا السهر الليلي في اليونانية بكلمة ἡ παννυχίς وهو السهر الليلي الذي يسبق العيد،(Liddle & Scott's, Greek English Lexicon, p. 590) والمقصود بالعيد هنا هو عيد القيامة.

٣٣- ذكر النص اللاتيني: "وليكونوا منشغلين بالصلوات وسماع العظات".

قوانين هيبوليتس

ويقاموا عند صياح الديك على الماء. ماء بحر بتيار صافي مستعد مقدس(٣٥).

والذين يتكلمون عن الأطفال الصغار، يعرونهم من ثيابهم في الأول، أما القادرون فيتكلمون عن أنفسهم(٣٦).

ومن بعدهم النساء، فيكنّ آخر الكل، فيعرينهن من ثيابهن، وينحّين عنهن حليّهن، ذهباً كان أو غيره(٣٧)، ويحللن شعور رؤوسهن لئلا ينزل معهن شيء من الأرواح

قوانين الرسل القبطية

الساعة(٣٤).

في الوقت الذي يصيح فيه الديك، فليُصلّ أولاً على الماء. وليكن الماء يجري إلى المغطس، أو يخر عليه. وليكن هذا إذا لم تكن ضرورة. وإن كان ثمّ اضطرار فيُسكب الماء الذي يوجد.

وليتعروا. ويبتدئوا أن يعمّدوا الأطفال الصغار. ومن يقدر أن يتكلم عن نفسه وحلف فليتكلم، ومن لا يقدر فليقل آباؤهم عنهم، أو واحد من أهلهم.

ومن بعد أن يعمدوا الرجال الكبار، فليعمّدوا النساء أخيراً، فيحللن شعورهن، ويضعن عنهن حليّ الذهب(٣٩) الذي عليهن. ولا ينزل أحد بشيء غريب معه

٣٤- بحسب ترجمة هورنر: "أما الذين يتعمدون فيجب ألاّ يأتوا بآنية أخرى غير ما يأتي به كل واحد من أجل الإفخارستيّا، لأنه ينبغي أن الذي صار مستحقاً أن يقدّم تقدمته في تلك اللحظة".

٣٥- طبقاً لترجمة ريدل Riedel "وعند صياح الديك يقودهم إلى ماء نقي جاري مُعد من قبلٍ للتبريك".

٣٦- طبقاً لترجمة ريدل Riedel "... والذين هم قادرون، يعرون أنفسهم وحدهم".

٣٧- طبقاً لترجمة ريدل: "...أو غيره من كل زينة".

قوانين هيبوليتس

الغربية[٣٨] إلى ماء الميلاد الثاني،

والأسقف يصلي على زيت الاستحلاف (الاكسرخيسمس)، ويدفعه لقسيس، ويصلي على زيت المسحة الذي هو زيت الشكر (الأوخارسدية)، ويدفعه لقسيس آخر.

والذي يمسك زيت الاستحلاف، يقف على يسار الأسقف، والذي يمسك زيت المسحة، يقف على يمين الأسقف.

والذي يعمدونه يحول وجهه إلى الغرب ويقول هكذا: إني أجحدك يا إبليس، وكل خدمتك[٤٠].

فإذا قال هذا، فليمسحه القسيس بزيت الاستحلاف الذي

قوانين الرسل القبطية

إلى الماء.

وفي الوقت الذي يتعمدون فيه، فليشكر الأسقف على الزيت الذي وضعه في إناء، ويسميه زيت الشكر. ويأخذ زيتاً آخر ويستحلف عليه، ويسميه زيت الاستحلاف.

ويكون الشماس حاملاً زيت الاستحلاف، ويقف على يسار القسيس، ويأخذ شماس آخر زيت الشكر، ويقف على يمينه.

وإذا مسك القسيس واحداً واحداً من الذين يتعمدون، فيأمره أن يزدري ويقول: إنيّ ازدري بك يا إبليس، وبكل خدمتك، وبكل أفعالك النجسة[٤١].

فإذا اعترف بهذا فيمسحه بزيت الاستحلاف قائلاً: ليُبعد

٣٨- طبقاً لترجمة ريدل: "... لئلا ينزل معهن شيء غريب، ولا ينزل روح شرير إلى ماء الميلاد الجديد".

٣٩- ذكر هورنر: "...ويضعن عنهن زينتهن من الذهب والفضة".

٤٠- وردت صيغة الجحد في النص اللاتيني هكذا: " أجحدك يا شيطان، وكل مجدك – " Renuntio tibi Satana et omni pompæ

٤١- صيغة الجحد طبقاً للنص الذي أورده هورنر Horner هو: " أجحدك يا شيطان وكل عبادتك، وكل أعمالك النجسة – Renuntio tibi Satana, tuoque uvierso cultui et omnibus operibus tuis "

قوانين هيبوليتس

صلى عليه، أن يزول عنه كل روح خبيث. ويدفعه شماس للقسيس الذي على الماء. فيمسك القسيس يده اليمنى، ويحوّل وجهه إلى الشرق وهو قائم على الماء. ويقول هكذا من بعد ما نال زيت الاستحلاف: إني أؤمن وأنحني لك ولخدمتك كلها أيها الآب والابن والروح القدس[٤٢].

قوانين الرسل القبطية

عنه كل روح خبيث[٤٣]. وهكذا يدفعه للأسقف عرياناً أو القسيس القائم على ماء المعمودية. ثم ينزل معه الشماس إلى الماء، ويلقّنه قائلاً له: أتؤمن بالله وحده، الآب ضابط الكل، وابنه الوحيد يسوع المسيح ربنا ومخلصنا، وروحه القدوس محيي كل الخليقة، الثالوث المساوي، لاهوت واحد، ورب واحد. وبمملكة واحدة، وبأمانة واحدة، وبمعمودية واحدة في الكنيسة الجامعة، وبحياة أبدية؟

والمعتمد يقول أيضاً مثل هذا، وإنني أؤمن...

وهكذا ينزل إلى المياه...

إن كل عناصر طقس المعمودية والتي أشارت إليها المصادر القديمة للسر موجودة بكليتها في الطقس القبطي الحالي، مع اختلاف بسيط في ترتيبها وليس في مضمونها باستثناء السهر الليلي الذي كان

٤٢- في الترجمة اللاتينية: "إني أؤمن وأنحني لك ولكل بجدك أيها الآب والابن والروح القدس – Ego credo, et inclino me tibi et omni pompæ tuæ, O Pater et Fili et Spiritus Sancte "

٤٣- بحسب ترجمة هورنر: "ليذهب عنك كل روح"، أما النص الأثيوبي فذكر "ليُبعد عنه كل روح نجس".

يدوم طيلة الليلة السابقة لعيد الفصح. وإن كان هذا السهر الليلي قد بَطُل الآن، إلاّ أن القراءات التي كانت تُقال طيلة هذه الليلة المقدسة لازالت تحتفظ بها الكنيسة الشرقية حتى اليوم في كتبها الطقسية.

والمقارنة البسيطة التالية توضح لنا عناصر الطقس القبطي في كلا وضعيه القديم والجديد.

الطقس القديم	الطقس الحالي
	(١) أوشية الموعوظين
	(٢) الصلاة على زيت الموعوظين
	(٣) دهن القلب واليدين والظهر
	(٤) إعلان الأسماء
(أ) إحناء الركب	(٥) إحناء الركب
(ب) وضع الأيدي	(٦) وضع اليد
(ج) صلاة طرد الأرواح الشريرة	(٧) صلاة طرد الأرواح الشريرة
(د) النفخ في الوجه	[انظر: البند ١٠]
(هـ) رشم الصدر والجبهة والأذنين والأنف	[انظر: البند ٣]
(و) التعري	(٨) التعري
(ز) جحد الشيطان	(٩) جحد الشيطان
[انظر: البند د]	(١٠) النفخ في الوجه
[انظر: البند ط]	(١١) الاعتراف بالإيمان
	(١٢) إحناء الركب للمرة

الطقس القديم	الطقس الحالي
	الثانية
(ح) الدهن بزيت الغاليلاون	(١٣) الدهن بزيت الغاليلاون
(ط) الاعتراف بالإيمان	[انظر: البند ١١]
(ي) وضع اليد	(١٤) وضع اليد
(ك) التغطيس في الماء	(١٥) التغطيس في الماء
(ل) الدهن بزيت الميرون	(١٦) الدهن بزيت الميرون

ومن المقارنة البسيطة السابقة يتضح لدينا الملاحظات التالية:

+ يحتوي الطقس الحالي على بنود غائبة في الطقس القديم وهي:
  - أوشية الموعوظين.
  - الصلاة على الزيت الساذج.
  - الدهن بالزيت الساذج بدلاً من الرشم البسيط بالصليب.
  - إعلان الأسماء.
  - إحناء الركب للمرة الثانية قبل الدهن بزيت الغاليلاون.
+ يأتي النفخ في الوجه بعد صلاة طرد الشياطين في الطقس القديم، أما في الطقس الحالي فيأتي بعد جحد الشيطان.
+ يأتي الدهن بزيت الاستحلاف (الغاليلاون) في الطقس القديم بعد جحد الشيطان مباشرة، أما في الطقس الحالي فيأتي بعد جحد الشيطان والاعتراف بالإيمان.
+ تأتي صلاة طرد الشياطين في الطقس القديم بعد إحناء الركب ووضع الأيدي. أما في الطقس الحالي فتأتي قبلهما.

* * *

فنرى أن مراسيم يوم السبت العظيم قد تجمّعت أساساً حول طقوس جحد الشيطان، وهي التي يتممها الأسقف بوضع الأيدي مصحوبة بصلاة، ثم النفخ في الوجه، ثم رشم consignation الجبهة والأذنين والأنف.

والقديس ديديموس الضرير (٣١٣- ٣٩٨م) قد ذكر رشم علامة الصليب على الجبهة ضمن المراسيم التي تسبق المعمودية[٤٤]. وبموجب المراسيم الرسولية فإن يوم الأحد هو وقت المسحة الأولى بالزيت، حيث يبدأ الأسقف في تبريك نوعين من الزيت، هما زيت الاستقسام L'exorcisme، وزيت الشكر. وبعد تبريك الزيوت يجحد الموعوظون الشيطان، فيمسحهم الكاهن بالزيت.

ومن وثائق لاحقة يظهر لنا بعض التعديلات التي دخلت على الطقس: فطقس جحد الشيطان أصبح لا يُمارس ليلة المعمودية، لكنه انتقل لكي يُتمم يوم الأحد وقبل الدهن بالزيت مباشرة، ونتيجة لذلك فإن رشم علامة الصليب على الجبهة والأذنين والأنف نجده قد صار مرتبطاً بالمسح بزيت الاستحلاف L'huile d'exorcisme . وهو نفس ما نجده في قوانين القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م) وفي القانون (١٠٥)، حيث لا تأتي طقوس جحد الشيطان L'exorcisme إلاّ بعد تبريك الزيوت. ثم أن المسح بالزيت L'onction يتبع صيغة جحد الشيطان renoncement[٤٥].

٤٤- *DACL*, t. 2, p. 260

٤٥- ينبغي أن نفرّق هنا بين طقوس جحد الشيطان L'exorcisme، وبين الجحد نفسه renoncement ، والذي ينحصر في ترديد الموعوظ لصيغة الجحد "أجحدك أيها الشيطان..." .

أما خولاجي القديس سرابيون فقد ربط بالتساوي بين هذه المراسيم وبعضها البعض، حيث يأتي الترتيب هكذا:

- طقوس جحد الشيطان L'exorcisme.
- صلاة من أجل المعمَّدين εὐχὴ ὑπὲρ βαπτιζομένων.
- جحد الشيطان Le renoncement.
- الدهن بالزيت L'onction.

وهو نفس الترتيب الذي نجده في إجابات الأسئلة للبطريرك الإسكندرية تيموثاوس الأول (٣٨٠- ٣٨٥م)، أنه بعد تكريس المياه ينبغي ممارسة جحد الشيطان، ثم الدهن بالزيت[٤٦].

وفي الطقس القبطي الذي يعود إلى القرن السادس والذي نشره العالم الألماني أنطون بومشتارك، نجد أن دهن الجبهة والعينين والأذنين والصدر قد صارت قبل جحد الشيطان Le renoncement. وهو نفس ما يمارسه الطقس القبطي الآن باستخدام المسح بالزيت الساذج، أو العادي، والذي يُمسح به الموعوظ قبل جحد الشيطان. وهو المسح الذي لم يكن في المراسيم القديمة سوى الرشم بالصليب بالإبهام دون استخدام أي نوع من الزيوت[٤٧]. وهو ما استوجب ظهور نوع من الإزدواج في المسح بالزيت، حيث يُدهن الموعوظ بالزيت الساذج قبل جحد الشيطان، ثم بزيت الاستقسام بعد الجحد، وهو الطقس الذي ظهر في غضون القرن السادس في الطقس القبطي، وتبعه بطبيعة الحال الطقس الأثيوبي. وهذا يفسر لنا استخدام الأقباط لثلاثة أنواع من الزيوت وليس نوعين فقط كما في كل الطقوس الشرقية الأخري.

إذاً؛ يُستخدم في طقس طرد الشياطين مراسيم الدهن بالزيت، أو

٤٦- *DACL*, t. 2, p. 260

٤٧- *ibid.*, p. 263

وضع اليد، أو النفخ في الوجه.

- ففي طقس الكنيسة القبطية يكون بهذه الثلاثة معاً. ويحدد القس سمعان بن كليل (القرن الثاني عشر) أماكن الرشم بالنوع الثاني من الزيوت، وذلك على الجبهة واليدين والحنجرة والقلب والظهر.
- ويبدأ الطقس البيزنطي طقوس جحد الشيطان بثلاث نفخات في الوجه، وثلاثة رشومات على الموعوظ الحافي القدمين، والعاري الرأس، ولا يرتدي سوى القميص، ووجهه إلى الشرق، يعقبها صلاة وضع اليد.
- ولا نجد لدي الأرمن سوى وضع الأيدي والصلاة التي ترافقها.
- أما السريان والموارنة، فهم لا يعرفون سوى النفخ في الوجه، وثلاثة رشومات على الجبهة والأنف والصدر والأذنين، دون مسحة الزيت التي يضيفها الأقباط. ومراسيم المعمودية في الطقس السرياني كما أوردها كتاب عهد الرب هي قريبة الشبه بالترتيب الذي ورد في الترتيب الكنسي المصري Règlement Egyptien، وبالتالي في قوانين هيبوليتس، حيث تُفتتح هذه المراسيم في مساء يوم السبت بوضع يدي الأسقف، تعقبها صلوات تعزيم طويلة exorcisme، ثم النفخ في الوجه، ورشم الصليب consignation على الجبهة والأنف والصدر والأذنين. وتوجد صلاة طويلة منسوبة للقديس باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م) في بعض كتب الطقس السريانية القديمة والمدوّنة باليونانية والتي نشر بعضها العالم الليتورجي جور Goar، بدايتها: " Ὁ Θεὸς τῶν οὐρανῶν, Ὁ Θεὸς τῶν φώτων – يا إله السموات وإله الأنوار...". إلاَّ أن كتب الطقس

السريانية الحالية لم تحتفظ لنا بمثل هذه الصلوات الطويلة في التعزيم.

• ولم يحتفظ الطقس الكلداني بأي أثر لرتبة الموعوظين، ولكننا نعرف من أقدم الوثائق أنه كان يحتوي في القديم على وضع الأيدي والرشومات[٤٨].

٤٨ - الأب هنري داليس الدومينكي، الطقوس الشرقية، تعريب الشماس كامل وليم، المعهد الكاثوليكي، المعادي، ١٩٧٨م.

الفصل الثاني

طقوس جحد الشيطان

طقس جحد الشيطان في الكنيسة القبطية ينقسم إلى البنود التالية:

(١) أوشية الموعوظين	(٢) الصلاة على زيت الموعوظين
(٣) الدهن بزيت الموعوظين	(٤) إعلان الأسماء
(٥) إحناء الركب	(٦) صلاة طرد الأرواح الشريرة
(٧) وضع اليد	(٨) التعري
(٩) جحد الشيطان	(١٠) النفخ في الوجه

(١) أوشية الموعوظين

يقول الكاهن: "أيها السيد الرب الإله ضابط الكل، أبو ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح، نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشر، عبيدك الموعوظين الذين وُعظوا، ارحمهم".

يقول الشماس: "أطلبوا عن موعوظي شعبنا لكي يجعلهم المسيح إلهنا مستحقين العماد المقدس، ويغفر لنا خطايانا".

يقول الكاهن: "ثبتهم في الإيمان بك، وكل بقايا عبادة الأوثان إنزعها من قلوبهم. ناموسك، خوفك، وصاياك، حقوقك، أوامرك المقدسة، ثبتها في قلوبهم.

امنحهم أن يعرفوا ثبات الكلام الذي وُعظوا به. وفي الزمن المحدد فليستحقوا حميم الميلاد الجديد لغفران خطاياهم، أعدهم هيكلاً لروحك القدوس، بنعمة ورأفة إبنك الوحيد يسوع المسيح ربنا...".

يتضح لنا من منطوق الأوشية أنها كانت تُصلى على الموعوظين باستمرار في نهاية وعظهم وتعليمهم خلال فترة إعدادهم للمعمودية، حيث تكون هذه الأوشية هي ختام العظة، حيث تقول الأوشية: "عبيدك الموعوظين الذين وُعظوا ارحمهم... امنحهم أن يعرفوا ثبات الكلام الذي وُعظوا به...".

وإن ما يؤكد أنها لم تكن تُقال مرة واحدة كما هو حادث اليوم بعد أن بطُل في الكنيسة طقس إعداد الموعوظين، تلك العبارة التي تقول: "... وفي الزمن المحدد، فليستحقوا حميم الميلاد الجديد لغفران خطاياهم". أي أنها لم تكن تُقال قبل النزول إلى مياه المعمودية مباشرة كما تُمارس اليوم، بل كانت كل يوم خلال فترة إعداد الموعوظين.

وهو ما يؤكده كتاب التقليد الرسولي لهيبوليتس، وقوانين هيبوليتس القبطية، وقوانين الرسل القبطية، كما سبق أن أوضحنا ذلك في الفصل السابق مباشرة.

وهذه الأوشية تصلح أيضاً للصلاة في حالة دخول واحد من غير المؤمنين إلى الإيمان المسيحي. أما وجودها حتى اليوم في حالة تعميد الأطفال، فلا يعني سوى أثرٍ لطقس بعد أن أصبحت معمودية الأطفال شائعة الاستخدام منذ القرنٍ السادس الميلادي، ويُرجح البعض شيوعها منذ منتصف القرن الخامس الميلادي[1].

١- *BASC.*, t. 11, p. 27

ويعقب أوشية الموعوظين السابق ذكرها، صلاة بدايتها:

"أيها السيد الرب يسوع المسيح، الذي طأطأ السموات ونزل إلى الأرض. الذي يحطم كلامه الصخور أكثر من السيوف... اشف هؤلاء الأطفال الداخلين ليوعظوا...".

ويبدو لنا أنها صلاة قد وُضعت في زمن لاحق لأوشية الموعوظين، لتناسب معمودية الأطفال. لأن تعبير "الأطفال الداخلين ليوعظوا" يحمل في ذاته تضاداً، إذ كيف أنهم أطفال صغار وفي نفس الوقت سيوعظوا؟ فضلاً عن أن الصلاة نفسها تحوي نصاً لا يصلح للأطفال المقبلين إلى المعمودية حين تقول:

"اكشف لهم الطريق الذي ينبغي أن يسلكوا فيه، عظهم بنعمة روحك القدوس، ليكونوا في الموهبة غير الفاسدة التي لروحك القدُوس ... امنحهم نعمة أن يدركوا الشفاء من الخطيَّة المهلكة ... وينظروا نظراً طاهراً إلى الفهم الثابت، ويمجدوك يا الله...".

ولربما وُضعت كلمة "الأطفال " محل كلمة "الموعوظين" في عبارة "اشف هؤلاء الموعوظين"، إلاَّ لو اعتبرنا الموعوظين أطفالاً في الإيمان حتى يستقيم المعنى.

إن أوشية الموعوظين هي أحد النصوص الليتورجية الهامة التي بقيت لنا ـ مع بعض الممارسات الأخري ـ من طقس قبول الموعوظين في الكنيسة الأولى كطقس ذي أهمية بالغة، كما يتضح لنا ذلك من عظات القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥ـ ٣٨٦م)، والقديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧ـ ٤٠٧م)، بعد أن تقلَّص هذا الطقس إزاء شيوع معمودية الأطفال، فبقيت هذه الطقوس تمثل وحتى الآن طقوس ما قبل المعمودية في الكنيسة اليونانية، والسريانية، واللاتينية، ولكن الطقس

القبطي كان أكثرها جميعاً احتفاظاً بأصولها الأولى[٢].

ويبدو أنه بعد القرن الثامن الميلادي، أُلحق على سر المعمودية خِدَم تسبق طقوس السر أو تليه، مثل الصلاة على الطفل يوم ولادته، وصلاة الحميم الأول (الطشت) في اليوم الثامن لولادته، وطقس تحليل المرأة بعد أربعين يوماً أو ثمانين في حالة ولادتها ولداً أو بنتاً[٣]، ولم تستقر بعض هذه المراسيم في شكلها الحالي سوى نحو القرن الخامس عشر الميلادي[٤].

(٢) الصلاة على زيت الموعوظين

يمسك الكاهن قارورة الزيت الساذج ويصلي عليها صلاتين:

الصلاة الأولى: "... لكي تنظر إلى جبلتك - هذا الزيت - وتجعله أن يحل أعمال الشياطين وسحرهم، وكل عبادة الأوثان، **وانقله** ليكون زيت مسحة وموعظة لكي يجعل النفس مؤمنة بالمسيح يسوع ربنا هذا الذي ...".

ومخطوط رقم (ط ١٩٢) بمكتبة دير القديس أنبا مقار (تاريخه ١٧٦٣م) يوضِّح النص السابق بقوله: "...لكي تنظر نظراً على جبلتك الذي هو هذا الزيت، وتجعله..."، وهي الترجمة الحرفية للنص القبطي في المخطوط، وهو أيضاً ما يورده كتاب معموديَّة قبطي عربي مطبوع سنة ١٩٢٩م[٥].

ثم أن نص الصلاة في المخطوط يشير أيضاً إلى تعبير لاهوتي في غاية الأهمية أغفله كتاب المعمودية المطبوع حين يقول: "... **وانقله وأظهره** زيت مسحة وموعظة ...". وهو نفس ما يذكره كتاب المعموديَّة المطبوع سنة ١٩٢٩م، السابق ذكره مباشرة (ص٢٧).

٢- *BASC.*, t. 11, p. 42, 43

٣- *BASC.*, t. 11, p. 47, 48, 49, 50

٤- *DACL*, t. 2, p. 287

٥- كتاب المعموديَّة المقدَّسة، (قبطي عربي) طُبع بمعرفة وبمطبعة القمص يوحنا غبريال، وكيل شريعة الأقباط ببني مزار، ١٦٤٦ش/ ١٩٢٩م.

الصلاة الثانية: "أرسل قوتك المقدسة على هذا الزيت ليصير دهن موعظة يبطل كل أفعال المضاد، وكل سحر، وكل تعزيم، وكل عبادة الأوثان، ويرد إلى خلف كل شئ ردئ، بابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح...".

هاتان الصلاتان الغرض منهما أن يصير من هذا الزيت قوة تحل كل أعمال الشياطين وكل عبادة لهم، وتبطل كل الخيالات وكل سحر وكل تعزيم.

وفي كل منهما استدعاء: ففي الصلاة الأولى قول الكاهن "انقله (وأظهره) ليكون زيت مسحة وموعظة"، وفي الثانية قول الكاهن: "أرسل قوتك المقدسة على هذا الزيت حتى يصير دهن موعظة يبطل كل أفعال المضاد". وهناك تعبير مشابه جداً لهذا الاستدعاء في طقس المعمودية وُجد في أعمال توما، والتي يعود تاريخها إلى بداية القرن الثالث الميلادي(٦).

(٣) الدهن بزيت الموعوظين:

بحسب التعليمات الطقسية كما نقرأها في كتاب صلوات الخدمات: "هنا يفحص الكاهن **الأطفال**، ويأمرهم بخلع كل شئ من آذانهم وأرجلهم وأيديهم، ثم يأخذ وعاء الزيت ويرشم الأطفال الذكور أولاً ثم الإناث...(٧)". ونلاحظ أن التعليمات هنا محصورة في الأطفال خصوصاً وليس في الموعوظين بوجه عام.

هذه التعليمات الطقسية لا تشير إلى خلع الثياب، وهو الطقس المعروف بطقس "التعري" بل إلى خلع أي حلي أو خواتم أو خلاخل أو

٦- Max Bonnet, *Acta Apostolorum Apocrypha*, 10, p. 82

٧- صلوات الخدمات في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، مرجع سابق، ص ٣٠

حذاء فحسب. أي وقوف الموعوظ حافي القدمين، متخلياً عن كل زينة، مرتدياً ثيابه فقط. ولقد جاءت هذه التعليمات الطقسية هنا سابقة عن موعدها الطقسي القديم بسبب دخول طقس الدهن بالزيت الساذج في مرحلة مبكرة من الطقس في غضون القرن السادس الميلادي. ذلك لأن طقس التعري من كل شئ حتى من الثياب ماعدا قميص أبيض قصير، كان يسبق مباشرة - بحسب الطقس القديم - جحد الشيطان، والاعتراف بالمسيح تمهيداً للدهن بزيت الاستحلاف. أي أن الدهن بزيت الاستحلاف يتمم بعد طقس التعري، واقتداء بذلك جاءت التعليمات الطقسية السابق ذكرها لكي يتم الدهن بالزيت الساذج في حالة تعري جزئي، ولكن ظل خلع الثياب محتفظاً بمكانه الطقسي القديم قبل جحد الشيطان مباشرة فيما بعد، حيث يقول كتاب المعمودية[٨]: "ثم يُكشف الذي يعتمد وينظر إلى الغرب ويده اليمنى مرفوعة ويقول ما يأتي... أجحدك أيها الشيطان...".

أي أن الطقس القديم الذي كان يأمر بخلع كل شئ من حلي وخواتم وثياب، قد تجزأ في الطقس الحالي إلى مرحلتين: الأولى خلع الخواتم والحلي والخلاخل وغيرها، والثانية خلع الثياب قبل الجحد. وهذا التقسيم إلى مرحلتين استوجبه طقس الدهن بالزيت الساذج.

هذا التداخل في التعليمات الخاصة بالتعري نجد له نظيراً مقابلاً في الطقس البيزنطي الذي لا يعرف استخدام الزيت الساذج. فالإفخولوجيون البيزنطي كما أورده مخطوط بربريني الذي يعود إلى القرن الثامن الميلادي، والمخطوط السينائي الذي يعود إلى القرن العاشر،

٨- نكرر التنبيه أن ذكرنا لعبارة "كتاب المعمودية" يعني كتاب المعمودية المطبوع والذي يورد طقس المعمودية القبطي الحالي.

وغيرهما من المخطوطات الأخرى تشير إلى خلع الملابس والأحذية قبل جحد الشيطان، وهو نفس ما نجده من تعليمات في بداية طقس إعداد الموعوظين، وهو طقس طرد الشياطين L'exorcime عندما يذكر أن طالب المعمودية يجب عليه خلع ملابسه وحذائه. فلماذا تكرر هذا التنبيه مرة ثانية قبل جحد الشيطان مباشرة؟ إن ذلك يعني بكل وضوح أن طقس طرد الشياطين وإعداد الموعوظين كان يُمارس كطقس قائم بذاته، مستقل عن طقس المعمودية نفسه، أي التغطيس في المياه. ويعني أيضاً أن طقس جحد الشيطان كان طقساً مستقلاً بذاته ومنفصلاً عما سبقه من مراسيم وما سيتبعه من مراسيم أخرى.

فجحد الشيطان والانضمام للمسيح، وترديد قانون الإيمان مع صلاة ختامية، كان طقساً مستقلاً بذاته استوجب من الإفخولوجيون البيزنطي أن يشير إلى ضرورة أن يبدأ هذا الطقس بخلع الملابس والأحذية، ولكن بعد أن أُدمج هذا الطقس وصار ضمن طقس التعميد نفسه، وسابق عليه مباشرة، ظهر الازدواج في هذه التعليمات الطقسية التي تأمر بخلع الملابس والأحذية مرتين، مرة قبل بداية طقس طرد الشياطين، وأخرى قبل طقس جحد الشيطان[٩].

نعود الآن إلى الطقس القبطي، فعندما يرشم الكاهن بالزيت يقول:

"أدهنك يا (فلان) باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد. زيت عظة (لفلان) في كنيسة الله الواحدة المقدسة الجامعة الرسولية آمين".

ثم يدهن قلبه ويديه وظهره قائلاً:

"هذا الزيت يُبطل كل مقاومة المضاد. آمين".

هنا أربعة رشومات بحسب تعليمات كتاب المعمودية المطبوع.

٩- *DACL*, t. 2, p. 289

وعند القس سمعان بن كليل (طقس القرن الثاني عشر)، نجد رشماً واحداً على الجبهة، فيقول: "إعلم أنك تنال ختم القبول في الجامعة المقدسة كنيسة الله برشم الصليب بدهن الموعوظين، لأنك تتصالح مع الله بموت ابنه. وبدون الصليب لا تتم المصالحة. **رشم مصالحة واحد على الجبهة** ينير النفس ويؤهلها لنوال الحميم[١٠]".

أما البابا غبريال الخامس (طقس القرن الخامس عشر) فيذكر أن "الكاهن يرشم المعمَّد ستة رشومات في الجبهة، والقلب، والكفين وأعلاهما، الجملة ستة رشومات" [١١].

وبمقارنة أماكن الرشم عند البابا غبريال الخامس (١٤٠٩-١٤٢٧م) وفي كتاب المعمودية، يبدو لدينا أن ما يقصده البابا المذكور بعبارة "الكفين وأعلاهما" أي الكفين وظهرهما ولعله هو ما أشار إليه كتاب المعمودية بقوله: "يديه **وظهره**" فلربما كانت صحتها "وظهرهما".

ويؤكد ذلك مخطوط عن طقس المعمودية يعود إلى القرن السابع عشر تحت رقم (ط ١٩٣) بمكتبة دير القديس أنبا مقار حيث يذكر أماكن الرشم أنها: "الجبهة والقلب والكفين وأعلاهما".

أما القس أبو البركات ابن كبر (+ ١٣٢٤م) فيورد أماكن الرشم فيقول: "ثم يمسك وَعَا[١٢] بيده ويصلي عليه ويرشم المتعمّد أولاً جبهته وقلبه ويديه وظهره".

ويتفق المخطوط رقم (ط ١٩٢) بمكتبة دير القديس أنبا مقار والذي يعود إلى سنة ١٧٦٣م، مع ما ذكره ابن كبر حيث يذكر: "تدهن جبهته وتقول زيت موعظة لفلان... ادهن قلبه ويديه **وظهره** قايلاً هذا

١٠ـ سلسلة ينابيع الأرثوذكسيَّة، معاني رشم الصليب، مرجع سابق، ص ٣٨

١١ـ الترتيب الطقسي للأنبا غبريال الخامس، مرجع سابق، ص ٥

١٢ـ أضاف المخطوط كلمة (الغاليلاون) ثم عاد فشطبها بخطين مائلين.

الزيت يبطل كل مقاومة المضادين آمين". ولعل كتاب المعمودية قد نقل عن مخطوط شبيه بهذا الأخير.

فأمامنا الآن مخطوطات تقول بدهن أعلا الكفين أي ظهرهما، ومخطوطات أخرى تقول بدهن الظهر.

ولربما كانت الإشارة إلى دهن "الظهر" بالزيت الساذج هو نتيجة تداخل حدث مع أماكن دهن الجسم بالنوع الثاني من الزيوت، وهو زيت الاستحلاف، حيث أنه من بين الأماكن الذي يُدهن بها المعمَّد بهذا الزيت الأخير "**قدام قلبه إلى خلف**" أي ظهره.

وعلى كلٍ فيلزم التنويه إلى أنه لم يرد في كتاب المعموديَّة المطبوع الإشارة إلى دهن الجبهة، وهو ما ذكرته الوثائق، قديمها وحديثها.

هـذه الرشومات تختص بالطقس القبطي وحده، ولا تعرفها الكنيسة اليونانية[١٣]، أو أي كنائس شرقية أخرى.

فقبل التعميد لا يمارس الموعوظ رشم نفسه، وإنما هو يُرشم بواسطة خدّام الكنيسة منذ لحظة قبوله حتى رشمه بدهن الميرون. وبعد ذلك يبدأ في رشم ذاته بيده بعد أن اعترف بالإيمان، ونال ختم الحياة والروح القدس في المعمودية والميرون.

وبعد الدهن بزيت الموعظة أو الزيت الساذج يصليّ الكاهن قائلاً:

"تفضل أن تنعم عليهم بالنمو في الإيمان وغفران الخطايا. أعدهم هيكلاً لروحك القدوس، بابنك الوحيد يسوع المسيح ربنا...".

(٤) إعلان الأسماء:

كانت أسماء المختارين للمعمودية تُقدّم للأسقف في الأحد الأول

١٣- BASC., t. 11, p. 52

من الصوم الكبير مع أسماء شهودهم أو أشابينهم، وكانت تُسجّل في سجل محفوظ بالكنيسة يُسمى "سفر الحياة" بحسب شهادة كتاب "رئاسة الكهنوت" المنسوب لديونيسيوس الأريوباغي (القرن الخامس الميلادي). وورد هذا الاسم "سفر الحياة" في الطقس البيزنطي في الإفشين (الأوشية) الذي يقال على الموعوظ: "... اكتبه في سفر الحياة، واجعله متحداً في رعية ميراثك ليمجد اسمك القدوس واسم ابنك الحبيب ربنا يسوع المسيح، واسم روحك المحيي...".

ويسميه القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م) "السفر المساوي[١٤]"، ويسميه ثيؤدور الموبسويستي (٣٥٠- ٤٢٨م) "سفر الكنيسة[١٥]".

إعلان الأسماء طقس قديم ذكره القديس كيرلس الأورشليمي[١٦] (٣١٥- ٣٨٦م)، والسائحة الأسبانية إيجيريا[١٧]. والوثائق القديمة للكنيسة القبطية تظهر لنا طريقة اختيار الموعوظ عندما يتقدم إلى الأسقف ليمتحنه ويتأكد أنه صار مستحقاً للمعمودية المقدسة بعد التعاليم الخاصة التي لُقنت له خلال فترة إعداده[١٨]. وفي الطقس القبطي يصلي الكاهن ويقول:

"من أجل عبيدك الذين قُدمت أسماؤهم ودخلوا في الإيمان بنعمتك، لكي تجعلهم أهلاً أن يفوزوا بالنعمة التي تقدموا إليها، ويطهروا من الخطيَّة التي في العالم، ويُعتقوا من عبودية الفساد".

فيقول الشماس: "اطلبوا من أجل الذين قدمت أسماؤهم لكي يجعلهم الرب مستحقين العماد المقدس لغفران خطاياهم".

١٤- تعليم المعمودية ٢:٩

١٥- انظر: ألكسندر شميمان، بالماء والروح، مرجع سابق، ص ٢٣٢

١٦- *PG* 33, p. 353

١٧- *Per Etheriae* VII, p. 63, 64

١٨- *DACL*, t. 2, p. 258

يقول الشعب: "يارب ارحم".

يقول الكاهن: "... عبيدك الذين قُدمت أسماؤهم ارحمهم. إجعلهم مستحقين للنعمة التي تقدّموا إليها لينالوا من روح قدسك ويمتلئوا من قوتك الإلهية، ويكونوا متشبهين بابنك الوحيد ربنا يسوع المسيح صائرين واحداً معه. أنعم عليهم بعقل نقي وفكر طاهر وامنح عبيدك أن يكونوا محفوظين بنعمة روحك القدوس واهدهم إلى رجاء خيراتك الأبدية...".

وليتأمل القارئ قوت المكتوب: "ينالوا من روح قدسك، ويمتلئوا من قوتك الإلهية، ويكونوا متشبهين بابنك الوحيد... صائرين واحداً معه". فيا لفعل المعمودية وسرها العظيم، يا لرحم الكنيسة المقدسة الذي يلد من كانوا خطاة بعيدين أبراراً قديسين قريبين إلى المسيح، بل صائرين واحداً معه. وهكذا تكمّل المعمودية طلبة المسيح الشفاعية لدى أبيه لأجل الكنيسة التي هي جسده «ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك، ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا... وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد. أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مكمَّلين إلى واحد... ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم» (يوحنا ١٧:٢١- ٢٦).

والآن نعود إلى تاريخ الطقس. يلاحظ القارئ أن طقس تسجيل الأسماء والأوشية التي تتبعه، يلزم أن يكون سابقاً على الدهن بالزيت الساذج، ذلك لأن منطوق الصلوات نفسه يحدد هذا التسلسل. فالكاهن عندما يدهن المعمَّد بالزيت الساذج يقول: "أدهنك يا (فلان)... زيت عظة (لفلان)..." يعني أن فلانا هذا قد سبق أن تسجّل اسمه، في طقس تسجيل الأسماء، والكاهن ينطق الاسم المُسجل في سجل الكنيسة، ولاسيما أن منطوق صلاة تسجيل الأسماء يقول فيه الكاهن: "عبيدك الذين قُدمت أسماؤهم...".

فلماذا جاء منطوق صلوات تسجيل الأسماء متأخراً عن موضعه قليلاً؟ في الحقيقة أن من يتتبع بدقة المراحل الطقسية التي يوردها كتاب التقليد الرسولي (الترتيب الكنسي المصري) يلاحظ أن تسجيل الأسماء يأتي تالياً مباشرة لأوشية الموعوظين، وهو التسلسل الطبيعي لمراحل السر المقدس. وهو نفس ما يورده الطقس القبطي بوضعه الحالي، ولكن بعد أن أدخل بين أوشية الموعوظين وطقس تسجيل الأسماء، طقس الصلاة على الزيت الساذج والدهن به. هنا يظهر أمامنا بوضوح مراحل تاريخية لتطور الطقس. فأوشية الموعوظين وطقس تسجيل الأسماء هي مراسيم ترقى إلى أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الميلادي، أما الصلاة على الزيت الساذج والدهن به فهي مراسيم تعود إلى القرن السادس الميلادي، وحينما أُضيفت هذه الأخيرة، قطعت سياق التسلسل الطبيعي للسر في أصوله القديمة.

ولدينا إشارة طقسية جميلة منذ القرن الرابع عشر يوردها القس شمس الرئاسة ابن كبر فيقول: "... ثم يسأل الكاهن عن أسماء المعتمدين، ويصلي عليهم، ويكتب أسماءهم في شقفة حديدة أو ورقة، وتُلقى في المعمودية، ويقول الكاهن أوشية أولى عن الذين ذُكرت أسماؤهم، ويقول الشماس: صلوا عن الذين ذُكرت أسماؤهم لكيما الرب يجعلهم مستحقين العماد المقدس لمغفرة الخطايا[١٩]".

(٥) إحناء الركب:

يحنون ركبهم.

يقول الشماس: "من الرب نطلب".

١٩- كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كبر، الجزء الثاني (مخطوط)، مرجع سابق، الباب ١٥

يقول الكاهن: "وأيضاً فلنطلب بإلحاح كثير، ونسأل ضابط الكل أبا ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح، من أجل عبيدك الذين قدمت أسماؤهم لكي يفتح مسامع قلوبهم، ويضئ عليهم بنور المعرفة، ويطيّب قلوبهم لمعرفة ثبات الكلام الذي وُعظوا به. الذي بيده سلطان الرحمة، الضابط الكل الرب إلهنا".

يقول الشماس: "صلوا".

والقديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م) يفسر سبب الركوع على الركبتين على أنه علامة الاعتراف بعبوديتنا للمسيح فيقول:

> [... عندما تقادون إلى الكنيسة معاً، لا تقفوا منتصبين بل تركعون على ركبكم وتبسطون أيديكم نحو السماء وتشكرون الله على هذه العطية. إن الطقس المقدس يلزمكم أن تظلوا راكعين كي تُعبِّروا ولو بهيئة جسمكم عن سلطان الله عليكم، لأن إحناء الركب هو علامة أولئك الذين يعترفون بعبوديتهم. واسمع في ذلك ما يقوله بولس الرسول «لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض» (فيلبي ٢: ١٠). وبعد أن تركعوا سيأمركم من سيعمدونكم بأن تنطقوا بهذه الكلمات "أجحدك أيها الشيطان"] (التعليم عن المعمودية ١١: ٢١،٢٢).

إن مخاطبة الشماس للشعب الحاضر ليتورجية المعمودية بقوله: "صلوا"، تتكرر اثنى عشر مرة، من بينها حوالي ثلاث مرات يقول: "من الرب نطلب". وهنا يتضح أهمية اشتراك كل الحاضرين في الصلاة من أجل مساعدة الكاهن القائم بالخدمة لتكميل السر، وليس صلاة يصليها الكاهن من جانب واحد فقط على مشهد من متفرجين على الطقس - وغالباً لأول مرة - لا يشتركون فعلياً في الصلاة.

(٦) صلاة طرد الأرواح الشريرة:

تبدأ صلاة طرد الأرواح الشريرة بعد نداء الشماس على الحاضرين: "صلوا"، ولمّا سبق أن ذكرنا أن طقس المعمودية يتم في حالة صوم من كل الحاضرين، يتضح لنا أن الكنيسة في ممارستها للسر تتممه وفق وصية الرب القائل: «هذا الجنس فلا يخرج إلاّ بالصلاة والصوم» (متى ١٧: ٢١).

وفي هذه الصلاة يقول الكاهن:

"... لكي من قِبَل استدعاء اسمك القدوس **تنحل كل القوات وكل الأرواح المقاومة الشريرة** امنعها وارفضها. لأنك أنت الذي دعوت عبيدك هؤلاء الداخلين من الظلمة إلى النور، ومن الموت إلى الحياة، ومن الضلالة إلى معرفة الحق، ومن عبادة الأصنام إلى معرفتك يا الله الحقيقي.

فتش خزائن قلوبهم يا من فتش أورشليم بسراج. **لا تدع روحاً رديئاً يختفي فيهم.** أنعم عليهم بطهارة وخلاص، وهب لهم خلاصاً أبدياً. ولدهم مرة أخرى بحميم الميلاد الجديد ومغفرة خطاياهم. أعدهم هيكلاً لروحك القدوس بابنك الوحيد يسوع المسيح ربنا".

هذه الصلاة تصليها الكنيسة على الراكعين المزمعين أن يقبلوا المعمودية المقدسة. حيث تتركز الطلبة فيها على طرد كل روح شرير يسكن فيهم، وألا يختفي فيهم أي روح ردئ.

وهناك إحناء آخر للركب يتم بعد الاعتراف بالإيمان والالتصاق بالمسيح مصحوباً بصلاة يقول فيها الكاهن: "كل سحر وكل تعزيم وكل فعل شيطاني اطرده عنهم، وكل بقايا عبادة الأوثان وعدم الإيمان اطرحها من قلوبهم".

ويقول القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م):

> [... وحتى لو كان الشيطان شرساً قاسياً، فيلزمه أن ينسحب من قلوبكم بكل سرعة بعد هذا التعزيم الرهيب، والدعاء باسم رب كل الأشياء] (تعليم المعمودية ٢:١٢).

لاحظ أن الطقس القبطي في صلاة طرد الأرواح الشريرة يخاطب الله الآب من قِبَل استدعاء روحه القدوس، أن يحل ويمنع ويطرد كل قوات شريرة مختفية في النفس، لكنه لا يخاطب الشيطان نفسه مباشرة إلاّ في موضعين فقط من الطقس: الأول عند الجحد، عندما يوجّه الموعوظ كلامه إلى الشيطان مباشرة "أجحدك أيها الشيطان"، والثاني عندما ينفخ الكاهن في وجهه ثلاث مرات ويقول في كل مرة بصيغة الأمر: "اخرج أيها الروح النجس".

أما الكنيسة البيزنطية فلديها صلاة تخاطب فيها الشيطان مباشرة تقول: "يا إبليس، لينتهرك الرب الذي أتى إلى العالم وسكن في الناس ليحطم اغتصابك وينقذ البشر... الذي حل الموت بالموت وأبطل من له عز الموت، أعني أنت يا شيطان. أقسم عليك بالإله الذي أظهر عود الحياة وأقام الشاروبيم والحربة اللهيبية المتقلبة لحراسته. انزجر وانصرف، لأني استحلفك بذاك الذي مشى على ظهر البحر كأنه على اليبس... هو الآن يأمرك بنا أن تخاف وتخرج وتنصرف من هذا المخلوق، وأن لا ترجع إليه ولا تختفي فيه، ولا تستقبله بفعل مضر... بل انطلق إلى الجحيم المختص بك إلى اليوم المعدّ، يوم الدينونة العظيم... اخرج وانصرف من الذي قد ختم وانتخب جندياً جديداً للمسيح إلهنا".

ثم يعود الكاهن بعد ذلك يتضرع إلى الرب قائلاً: "يارب الصباؤوت، اطلع على عبدك هذا، وافحصه وامتحنه واقص عنه كل مفعولات الشيطان، وانتهر كل الأرواح النجسة واطردها... واسحق

الشيطان تحت قدميه سريعاً، وامنحه الظفر عليه وعلى أرواحه النجسة... ابعد عنه كل روح شرير نجس مخفي ومعشعش في قلبه... روح الضلالة، روح الشر، روح عبادة الأصنام، وكل شره واستكثار، روح الكذب وكل نجاسة مفعولة بحسب تعليم إبليس...".

هذه الاستقسامات هي بحسب قول ذهبي الفم [أدعية رهيبة وعجيبة]. هذه الصلوات والاستقسامات تُظهر لنا مقدار الرباط المرعب والمخيف الذي ربط به الشيطان العالم ومن يعيش له فيه، إذ صار الشيطان رئيساً عليه بشهادة الرب نفسه. انظر كيف استطاع الشيطان أن يقتنص الإنسان المخلوق أصلاً على صورة الله في البر والقداسة عندما سقط بالمعصية، فنشب فيه أظافره ومخالبه ينفث في نفس فريسته تهدداً وقتلاً. وهذا الصراع الذي يدور الآن أمام أعيننا بين الكنيسة والشيطان هو صراع مضمونة نتائجه ونصرته، بدم المسيح الذي بذله فدية عن كل الذين اقتنصهم الشيطان لإرادته.

إننا مهما استرسلنا في الحديث فلن نستطيع أن ندرك أبداً شراسة المعركة التي جازها الرب بنفسه ضد الشيطان وقواته الشريرة، والتي كلّفته أن يُخلي ذاته وينزل إلينا على الأرض، ويصير إنساناً نظيرنا وهو هو الإله، ليصارع إبليس في موطن سطوته وقوته، أي الإنسان نفسه، ليميت الخطيَّة في جسده هو عندما سلمه للموت على الصليب بإرادته، وأقامه من الموت بقوة لاهوته المتحد بناسوته، ويهبنا نصرته مجاناً بعد أن دفع ثمنها، دمه الكريم الذي صار سبب خلاص وفكاك أبدي من قبضة المبغض لجنسنا، وسبب نصرة أكيدة لكل من يقبل خلاص المسيح.

وما صلوات الاستقسام هذه إلاّ المشهد الأخير من صراع ضد قوات الشر التي اختبأت في حنايا النفس وحنايا القلب العديدة، لذلك

تركّز الصلوات على الطلبة ألاّ يختفي أي روح رديء في الإنسان، بل يبعد عنه كل روح شرير معشعش في قلبه، أي جعل من قلبه عشاً ومسكناً له، وهو ما قاله الرب: «إذا خرج الروح النجس من الإنسان يجتاز في أماكن ليس فيها ماء يطلب راحة ولا يجد، ثم يقول أرجع الى **بيتي الذي خرجت منه**... ويأخذ معه سبعة أرواح أخر أشرّ منه فتدخل **وتسكن** هناك...» (متى ١٢:٤٣- ٤٥).

(٧) وضع اليد:

وضع اليد هو الطقس القديم الذي يُقبل بموجبه الموعوظ في الكنيسة، فالملك قسطنطين قبل أن يموت ذهب ليصلي في الكنيسة التي أخذ فيها وضع اليد عندما كان موعوظاً.

وكان يعقب وضع اليد رشم علامة الصليب على الجبهة. ولقد أشار القديس أغسطينوس (٣٥٤- ٤٣٠م) إلى ذلك الطقس في كتاب الاعترافات، فيذكر أنه عندما قُبل في الكنيسة وُضعت علامة الصليب على جبهته (الاعترافات ١:١١). وفي سيرة بروفوريوس أسقف غزة في القرن الثالث، ذكر أن الوثنيين سجدوا له وطلبوا "علامة المسيح" فرشمهم الأسقف بعلامة الصليب وصيّرهم موعوظين.

وفي الطقس القبطي يضع الكاهن يده عليهم ويصلي قائلاً:

"باسم الابن الوحيد يسوع المسيح أهيئ تطهير هذا الجسد. باسم الابن الوحيد يسوع المسيح فليُعتق من كافة الشياطين، ومن سائر الأدناس. وليهرب من هذا الجسد كل ظلمة. وكل فكر قلة الإيمان فليهرب من هذه النفس. باسم الابن الوحيد يسوع المسيح ربنا تطهر وتعتق من جميع الشياطين إلى الأبد آمين".

ويلاحظ القارئ أن كل الطلبات والصلوات في الطقس القبطي

موجهة للآب في اسم ابنه الوحيد يسوع المسيح ربنا، وهي السمة الفريدة التي تميّز نصوص صلوات الطقس الإسكندري. أما هذه الصلاة الأخيرة السابق ذكرها فهي باسم يسوع المسيح مباشرة، لأنه بحسب التقليد القديم في الكنيسة الأنطاكية أن صلاة طرد الأرواح الشريرة من بين كافة الصلوات الأخرى في الكنيسة تكون باسم المسيح نفسه لأنه هو الذي هزم الشيطان وسحقه بالصليب.

وسبق أن ذكرنا في كتاب "المراسيم الرسولية"، وهو ذو طقس أنطاكي، أن الصلاة الوحيدة الموجهة للسيد المسيح مباشرة من بين الصلوات الكثيرة التي يحويها الكتاب الثامن (٨:٧:٤،٥،٨)، هي المختصة بالمربوطين بالأرواح الشريرة. وفيها يصلي الأسقف قائلاً:

"يا من ربطت القوي، وأتلفت أمتعته. أنت الذي أعطيتنا السلطان أن ندوس الحيات والعقارب وكل قوة العدو. أنت الذي سلّمت إلينا الحية القاتلة للبشر مقيدة كالعصفور في يد الأطفال. أنت الذي يخاف ويرتعد الكل أمام وجه قوتك. أنت الذي أسقطته مثل البرق من السماء على الأرض، ولم تسقطه من مكان ما، بل من الكرامة إلى الهوان بسبب إرادته الشريرة... أيها الإله الابن الوحيد، ابن الآب العظيم، انتهر هذه الأرواح الشريرة، وحرر عمل يديك من سلطان الروح الغريب. لأن لك، وبك لأبيك، المجد، والكرامة، والتبجيل. في الروح القدس إلى الآباد آمين".

أما الكنيسة البيزنطية، فالطلبة المقابلة فيها لهذه الصلاة السابق ذكرها هي باسم الثالوث حيث تبدأ بالقول: "باسمك يارب إله الحق، وباسم ابنك الوحيد وروحك القدوس، أضع يدي على عبدك (فلان)... فانزع عنه الضلالة القديمة، واملأه من الإيمان بك ومن الرجاء والمحبة...

اكتبه في سفر حياتك، وضمّه إلى قطيع ميراثك، ليمجَّد به اسمك القدوس واسم ابنك الحبيب ربنا يسوع المسيح وروحك المحيي... الخ".

ووضع اليد يسبق دائماً صلاة طرد الأرواح الشريرة وذلك بحسب شهادة التقليد الرسولي "وفي يوم السبت يجمع الأسقف الذين سيعُمدون في موضع واحد، ويأمرهم كلهم بالصلاة والركوع. **وإذا وضع يده عليهم، فيقسم على كل روح غريب أن يهرب منهم**، ولا يعود إليهم بعد الآن" (٢٠:٧،٨). وصلاة طرد الأرواح الشريرة هي نفسها صلاة الاستحلاف، أو صلاة الاستقسام. والكلمة اليونانية المقابلة هي ἐπορκισμός أو ἐξορκισμός ومنها جاءت الكلمة الإنجليزية exorcisme والتي تُرجمت إلى العربية "التعزيم"، والتعزيم هو كلمات الاستحلاف التي يستحلف بها المعزّمون الشيطان أي يلزمونه بالخروج من الموعوظ، أو من مياه المعمودية، أو من أي شخص به شيطان.

وفي قوانين هيبوليتس القبطية: "ويدعهم يحنون رؤوسهم إلى الشرق، **ويبسط يديه عليهم ويصلي الاستحلاف**، ويطرد عنهم كل روح خبيث. وهم أيضاً لا يعودون إليهم منذ الآن بأفعالهم" (القانون ١٩:٦).

وفي كتاب عهد الرب: "يجمع الأسقف الذين سيقبلون الغسل، ويأمر أن يحنوا الركب، بينما يعلن الشماس. وبعد أن ينتهي، **يضع** (الأسقف) **اليد عليهم ويقسم**...[٢٠]" (عهد الرب ٢:٧).

واضح هنا أن وضع اليد في الطقس القديم يسبق مباشرة صلوات طرد الأرواح الشريرة، أي صلوات الاستحلاف، ولكنه في الطقس الحالي نجده قد تأخر قليلاً عن موضعه حيث جاء قبل نص هذه الصلاة الأخيرة

٢٠- أقدم النصوص المسيحية، عهد الرب، مرجع سابق، ص ١٨٢

والتي تسبق جحد الشيطان مباشرة "أجحدك أيها الشيطان...". برغم أنه قد سبقها صلوات أخرى.

ويبدو لنا أن هذه الصلاة الأخيرة، السابق ذكرها مباشرة، هي النص الأكثر قدماً بين صلوات طرد الأرواح الشريرة، لذلك ارتبط وضع اليد بها بحسب الطقس القديم. ولكن من الغريب ألاَّ نجد نص هذه الصلاة في مخطوطتي القرنين السابع عشر والثامن عشر (ط ١٩٣، ط ١٩٢) بمكتبة دير القديس أنبا مقار.

إن فاعلية الصلاة على الموعوظين لطرد الأرواح الشريرة تظل مرتبطة دائماً بإيمان الموعوظ وتوبته، أو من ينوب عنه إن كان طفلاً. وإعلان هذا الإيمان هو اقتداء بقول الرب لكل من طلب منه الشفاء: «بحسب إيمانك يكون لك». أما عن التوبة فيتكلم عنها القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م) مستشهداً أيضاً بقول الإنجيل المقدس، وموجهاً حديثه إلى طالبي العماد قائلاً لهم:

> [... لذلك يسبق هذا أن نتوب ونرفض أعمالنا السابقة الشريرة، وهكذا نتقدم للنعمة... اسمع ما يقوله يوحنا، وما يقوله الرسول لمن اقتربوا للعماد... الواحد يقول: «فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة، ولا تبتدئوا تقولون في أنفسكم لنا إبراهيم أباً» (لوقا ٣:٨)، والآخر يجيب سائليه «توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح» (أعمال ٢:٣٨).
>
> ليته لا يرجع أحد فينسى ما قد تاب عنه، فعلى هذا الأساس أُمرنا أن نقول: "أجحدك أيها الشيطان" كي لا نرتد إليه مرة أخرى].

(٨) التعري:

طقس التعري هو طقس تعرفه الكنيسة الجامعة شرقاً وغرباً.

ففي التقليد القبطي القديم، يجب على الموعوظين خلع كل ملابسهم قبل إعلان جحد الشيطان مباشرة.

أما التقليد الأنطاكي القديم، فيتم فيه خلع الثياب منذ بداية مراسيم المعمودية بشهادة كتاب عهد الرب.

وفي التقليد الأرمني في الكنيسة الأرمنية، لا يخلع الموعوظ ثيابه إلاَّ بعد تبريك المياه، بينما يردد الكاهن الأرمني صلاة مستعارة من طقس جحد الشيطان في الكنيسة البيزنطية، "يارب يا من دعوت خادمك... اخلع الإنسان القديم...الخ"، لكنه يرددها عند تبريك المياه بعيداً تماماً عن موضعها الأصلي في الطقس البيزنطي[٢١].

وفي الطقس البيزنطي يتفق مخطوط بربريني (القرن الثامن) والمخطوط السينائي[٢٢] (القرن العاشر) مع مخطوطات أخرى كثيرة في أن الموعوظ كان يخلع ملابسه وحذاءه قبل جحد الشيطان. فجاء في مخطوط بربريني: "يقول رئيس الأساقفة للموعوظين: قفوا بخوف لتُختموا، انزعوا ملابسكم واخلعوا أحذيتكم...". أما المخطوط السينائي فيقول: "وبعد أمين، فإن المعمَّد يخلع ملابسه وحذاءه".

فلقد كان الموعوظون يتعرون من ثيابهم كلية، بشهادة كل الوثائق القديمة. فالبابا أثناسيوس الرسولي (٢٩٦- ٣٧٣م) عندما كان يشرح جريمة الأريوسين وكيف هجموا على الكنيسة في الإسكندرية، يؤكد على طقس التعري فيقول: [واتفق اليهود والأمم وهجموا على

٢١- *DACL*, t. 2, p. 269

٢٢- cod. 958 انظر: الفصل العاشر في موضوع: مصادر طقس المعمودية في الكنائس الشرقية.

المعمودية للسخرية من الموعوطين الذين كانوا عراة في تلك اللحظة، فكان عملهم بذلك خجلاً وعاراً لا يمكن وصفه].

وهذا الأمر قد أثبته بوضوح القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م)، عندما يقول: [وفي الحال عندما يدخلون ينزعون ثيابهم[٢٣]].

والقديس أمبروسيوس أسقف ميلان (٣٣٩- ٣٩٧م) يقول: [نحن نأتي إلى جرن المعمودية عراة كما نأتي إلى العالم] (عظة ٢٠).

وهو ما أوضحه فيما بعد كتاب "الرتب الكنسية – De ecclesiastica hierarchia " المنسوب لديونيسيوس الأريوباغي، وهو من مدونات القرن الخامس الميلادي[٢٤].

وتطور طقس التعري أو تعدّل نحو القرن الرابع الميلادي، أو بعده مباشرة، حيث يخلع الموعوطون ملابسهم ويرتدون بدلاً منها قميصاً قصيراً يُسمى "تنك – Tunique "، وبه تتم مراسيم جحد الشيطان وإعلان الإيمان. ويخبرنا بذلك القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م) حين يقول: [إني أرغب أن أخبركم... لماذا نرسلكم من ههنا عراة حفاة لتسمعوا كلمات المعزّمين[٢٥]]. وفي موضع آخر يقول: [... لماذا بعد أن نعظكم ينزعون عنكم الثياب والأحذية، ويرسلونكم حفاة عراة إلاّ من رداء قصير لتسمعوا كلمات المعزّمين[٢٦]].

والتعري بحسب التقليد الرسولي (الترتيب الكنسي المصري) وقوانين هيبوليتس القبطية، هو تعري من الثياب ومن كل زينة يتزين بها الرجال أو النساء، إن كانت ذهباً أو غيره، بل حتى شعر النساء لا

٢٣- *PG* 33, p. 1077

٢٤- *DACL*, t. 2, p. 278

٢٥- تعليم المعمودية، ١٤:١٠

٢٦- تعليم المعمودية، ١١:٩

يجعلونه ضفائر بل يحللن شعورهن.

فيقول كتاب التقليد الرسولي: "فليعمِّدوا الرجال الكبار، وأخيراً النساء بعد أن يحللْن شعورهن، ويضعن عنهن حلي الذهب التي عليهن. ولا ينزل أحدٌ بشئ غريب معه إلى الماء[٢٧]". وفي قوانين هيبوليتس القبطية: "والذين يتكلمون عن الأطفال الصغار، **يعرونهم من ثيابهم** في الأول، أما القادرون فيتكلمون عن أنفسهم. ومن بعدهم النساء، فيكنّ آخر الكل، **فيعرينهن من ثيابهن**، وينحّين عنهن حليّهن، ذهباً كان أو غيره، ويحللن شعور رؤوسهن لئلا ينزل معهن شئ من الأرواح الغريبة إلى ماء الميلاد الثاني" (١٩:٩،١٠)

وفي إنجيل عهد ربنا: "حين يتقدم المعتمدون، لير الأسقف إذا كان بينهم رجل عليه خاتم من ذهب، أو امرأة عليها حليها، لأنه لا يحمل أحد معه شيئاً غريباً في المياه[٢٨]". وهو نفس ما يذكره البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) "القانون المقدس رسم أن لا ينزل المعمَّد المعمودية بشئ غريب[٢٩]".

والقديس يوحنا ذهبي الفم يوضّح معنى التعري فيقول:

[... ولكن لماذا تكونون عراة؟ كي تتذكروا عريكم القديم عندما كنتم في الفردوس و لم تكونوا تخجلون... فلا تشعروا بالخجل هنا لأن هذا الحميم هو أفضل جداً من جنة الفردوس...] (تعليم المعمودية، ٢٧:١١).

٢٧- التقليد الرسولي، ٥:٢١ وبحسب عهد الرب: "عندما تعتمد النساء، يطلقن شعورهن" (٨:٢).

٢٨- أقدم النصوص المسيحية، عهد الرب، تعريب الأبوين جورج نصور ويوحنا ثابت، الكسليك ١٩٧٥م ص ١٨٥

٢٩- الترتيب الطقسي للأنبا غبريال الخامس، مرجع سابق، ص ٥

والقديس يعقوب السروجي (٤٥١- ٥٢١م) يشير في قصيدة له بالسريانية عن المعمودية المقدسة، إلى طقس التخلي والتعري عن حلي الذهب والفضة تمهيداً للتزيّن بالصليب والروح القدس فيقول:

[هلمي أيتها العجوز التي كبرت في الوثنية وصيري في الماء صبية جميلة ومجيدة. هلمي وانزلي والبسي ثوباً نسِج إلهياً، واصعدي وأرينا جمالك البديع لنفرح معك. هلمي تزيني من الينبوع الذي يتدفق نوراً، فيراك العالم بحلي الروح القدس].

ثم يجيب بلسان المعتمد فيقول:

[قالت العروس: إن الصليب لي عوضاً عن الحلي، وجماله يضفي عليّ روعة وبهاء. هو يضع بين عينيّ رسمه، ويجمّلني، فلا تعود تفيدني ضفائر الذهب، لا ولا الجواهر. بمسحته يبهج وجهي ويقدسني، فلا تفيدني بعد السبائك الفضية[٣٠]...].

وقد شرح كل من القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م)، والقديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م) الرموز التي يعنيها طقس التعري، وهي:

- خلع الإنسان العتيق:

[حيث أن القوات المضادة جعلت مسكناً في أعضائكم فعليكم أن ترتدوا من جديد هذا الرداء، وأنا لا أعني الرداء الذي خلعتموه، بل الإنسان العتيق الذي يفسد حسب

٣٠- المجلة البطريركية، العدد ٤٦ شباط ١٩٦٧م، السنة الخامسة، ص ٣١١

شهوات الغرور[٣١]](الأسرار ٢:٢).

- التمثل بالسيد المسيح الذي عُلق على الصليب عرياناً: وفي عريه نذكر آدم الذي كان في الفردوس عارياً ولم يخجل. فيقول في ذلك:

[ما أعجب هذا. أنتم عرايا أمام الجميع، ولكنكم لا تخجلون لأنكم تتشبهون بالإنسان الأول آدم الذي كان عارياً في الفردوس وهو لا يخجل].

ويوضح القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م) ذلك فيقول:

[تصبحون عراة مثل آدم في الفردوس مع الفرق، أن آدم أخطأ، أما في المعمودية فيتعرى الإنسان لكي يتحرر من الخطيَّة. آدم فقد مجده، أما من يأتي إلى المعمودية فهو يخلع الإنسان العتيق بسهولة خلع ملابسه] (العظة ٦ على رسالة كولوسي).

- انتصار المسيح على الشيطان وتخليص الأسرى من يديه. ويشرح ذلك القديس يوحنا ذهبي الفم فيقول:

[إن الملك قد انتصر في القتال وأسر الأسرى. والأسرى يسيرون عراة حفاة، اسمع ما يقوله الله لليهود: «كما مشى ابني إشعياء عارياً حافي القدمين، كذلك أبناء اسرائيل سيذهبون إلى الأسر عراة حفاة الأقدام»... فلا تكتئب عندما تسمع عن الأسر، إن أسر البشر يقود الإنسان من الحرية إلى العبودية، ولكن هذا الأسر يحوّل العبودية إلى حرية. وأسر البشر يحرم الإنسان من وطنه، ويقوده إلى أرض غريبة، أما هذا الأسر فيُخرج الإنسان من أرض غريبة ويقوده إلى

٣١- أفسس ٤:٢٢

وطنه، أورشليم السمائية...] (تعليم المعموديات ١٠:١٤،١٥).

(٩) جحد الشيطان:

ذكرنا في حديثنا عن زمان ومكان المعمودية أن طقس جحد الشيطان كان يتم عقب صلوات يوم الجمعة العظيمة السابقة مباشرة لعيد الفصح. والقديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م) يشير إلى ذلك بكل وضوح ويقول:

> [غداً الجمعة، وفي الساعة التاسعة ستوجّه إليكم أسئلة معيّنة، وعليكم أن تقدموا عهودكم (الجحد والاعتراف بالإيمان) للرب. ولا أذكر ذلك اليوم وتلك الساعة عبثاً، فإن درساً روحياً يمكن أخذه منها. ففي يوم الجمعة وعند الساعة التاسعة دخل اللص إلى الفردوس...] (التعليم عن المعمودية ١١:١٩).

وحالياً فإن طقس الجحد في معظم الكنائس الشرقية يتم قبيل النزول إلى الماء مباشرة للغطس فيه، أما طقس جحد الشيطان والاعتراف بالإيمان في الكنيسة الأرمنية فيأتي تالياً لصلاة الاستقسام أو الاستحلاف، أي صلاة طرد الشياطين L'exorcisme [٣٢].

عند جرن المعمودية يقف الموعوظ أو الطفل محمولاً على ذراع أمه الأيسر، ووجهه إلى الغرب. والغرب هنا يرمز إلى الظلمة حيث يسود الشيطان، ويقول القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م) في ذلك:

٣٢- *DACL*, t. 2, p. 295

[أولاً دخلتم دهليز المعمودية، وهناك اتجهتم إلى الغرب، وأنصتم للأمر ببسط أيديكم وكأنكم أمام الشيطان تجحدونه... تُأمرون بالقول بذراع ممدودة نحوه كأنه حاضر "أجحدك أيها الشيطان" أريد أن أقول إنكم بالضرورة تقفون مواجهين الغرب ما دام الغرب هو منطقة الظلام المحسوس، ولما كان هو من الظلام، فسيطرته هي في الظلام، لذلك تنظرون إلى الغرب بمعنى رمزي. تجحدون ذلك المسيطر المظلم الكئيب... اعلم هذا فقط أن كل ما تقوله في هذه الساعة الرائعة يُكتب في كُتب الله. فإذا صنعت شيئاً بعكس هذه المواعيد تُحاكم كمخالف إذ قد نبذت أفعال الشيطان، أعني كل الأعمال والأفكار التي ضد التعقل] (مقالة ١٩ عن الأسرار).

ويقول القديس أمبروسيوس (٣٣٩- ٣٩٧م) أسقف ميلان:

[تذكّروا ما سئلتم عنه وبماذا أجبتم. لقد جحدتم الشيطان وأعماله والعالم بكل تنعماته وملذاته، ولقد حُفظ ما نطقتم به لا في قبور الأموات بل في سفر الحياة] (في الأسرار، الفصل ٢).

ويشهد القديس كبريانوس الشهيد (+ ٢٨٥م) بقوله:

[إننا نجحد الشيطان والعالم كله].

والاتجاه للغرب استعداداً لجحد الشيطان تقليد قبطي قديم أشارت إليه قوانين هيبوليتس القبطية فتقول: "والذي يعمدونه يحول وجهه إلى الغرب ويقول هكذا: إني أجحدك يا إبليس، وكل خدمتك. فإذا قال هذا، فليمسحه القسيس بزيت الاستحلاف الذي صلّى عليه، أن يزول

عنه كل روح خبيث[٣٣]" (القانون ١٢:١٩). إلاّ أن قوانين الرسل القبطية (المراسيم المصرية) لم تشر إلى حركة رفع اليد اليمنى ناحية الغرب أثناء الجحد، لأنها ترجمة مباشرة للتقليد الرسولي الذي لم يشر هو الآخر بدوره إلى ذلك. أما العالم الليتورجي بومشتارك A. Baumestark فقد أشار إلى ذلك الطقس بقوله: "يرفعون أياديهم اليمنى، ويرددون قائلين: أجحدك أيها الشيطان وكل ملائكتك[٣٤]...".

وكتاب عهد الرب يذكر أيضاً: "يمسك (الأسقف) كل واحد ويسأله، بينما يتجه المعمَّد إلى الغرب..." (٨:٢).

ويورد كتاب "الرتب الكنسية - De ecclesiastica hirarchia " المنسوب لديونيسيوس الأريوباغي، والذي يعود إلى القرن الخامس الميلادي، تفصيلات وافرة عن طقس الجحد فيقول: "من هنا فليأمره أن ينظر ناحية الغرب، ويرفع يده اليمنى أو كلتا يديه[٣٥] وينفخ ثلاث مرات على الشيطان، وينطق بكلمات الجحد، ويملي عليه كلمات الجحد ثلاث مرات وهو ينطق بالكلمات التي يسمعها".

وهو ما نجده أيضاً عند القديس يعقوب الرهاوي أسقف أديسا (الرها) عندما يقول: "... ثم يأمرهم أن يجحدوا الشيطان وكل الأمور الخاصة به...[٣٦]".

ولقد استحدث يوسف السمعاني على الطقس القبطي فرد الذراعين أثناء جحد الشيطان على شكل صليب، ثم رفع اليد اليمنى بواسطة أحد الشمامسة، فيذكر مخطوط السمعاني (الجزء الأول، ص

٣٣- *PO*, t. 3, fasc. 4, p. 110 & Cyril, Cates., *PG* 33, p. 1068

٣٤- *DACL*, t. 2, p. 266

٣٥- *PG* 3, 11,6

٣٦- *DACL*, t. 2, p. 278

١٥٧) "يُعرى المعمَّد ويفرد ذراعيه على شكل صليب ويرفع الشماس المعاون يده اليمنى، ويجحد إبليس ووجهه ناحية الغرب... وتؤخذ منه كل الزينات الذهبية والفضية والثياب. ويشير الكاهن للشماس حتى يدعو الإشبين أن يجحد الشيطان...الخ[٣٧]". وهي أحد الإضافات التي جرت على الطقس القبطي بتأثير كنيسة روما، ولكن ظلت كنيسة مصر حافظة لطقسها القديم حتى اليوم برفع الذراع اليمنى فقط.

فيذكر كتاب المعمودية[٣٨]: "ثم يُكشف الذي يعتمد، وينظر إلى الغرب، ويده اليمنى مرفوعة، ويقول ما يأتي. وإن كان طفلاً فليقل عنه أبوه أو أمه أو إشبينه".

ويقول القس أبو البركات (القرن الرابع عشر) في ذلك: "ثم يُحنى ركب المعمَّدين ويقال اوشيتان اخرتان وعند فراغهما يُعروا من اثوابهم وتُحول اوجههم إلى الغرب ويقولون الجحود وايديهم اليمنى مرتفعة إلى فوق. وان كان المعمَّد طفلاً صغيراً او عجمياً يقول عنه الشماس او الاشبين او ابو الطفل او امه هكذا..." [٣٩].

أما مخطوط القرن السابع عشر (ط ١٩٣) فلم يشر إلى رفع اليد اليمنى، مكتفياً بذكر الاتجاه للغرب.

فالموعوظ يردد صيغة الجحد بعد الخادم، وهو عار من كل زينة. فعندما يكون الأسقف حاضراً فهو الذي يمنح المعمودية، أما الكاهن فهو الذي يُملي عبارات الجحد على مسامع المعمَّد ليرددها من ورائه، وإذا كان الكاهن حاضراً بمفرده، فإن الشماس هو الذي يقوم بهذه المهمة، أي

٣٧- *DACL*, t. 2, p. 266

٣٨- صلوات الخدمات في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، مرجع سابق، ص ٣٣

٣٩- كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كبر، الجزء الثاني (مخطوط)، مرجع سابق، الباب ١٥

تلقين كلمات الجحد للمعمَّد. ويعلن الموعـوظ أو إشـبين الطفـل بجسـارة وعلانية(٤٠) جحده لإبليـس ورفضـه مملكـة الظلمـة. فقبـل أن ندفـن مـع المسيح يسوع النور الحقيقي يلزمنا أن نعلن جهاراً وبحضرة الروح القـدس وشهود كثيرين رفضنا للشيطان وكراهيتنا لأعماله، أي رغبتنا في التحـرر من عبوديته.

صيغة جحد الشيطان في الطقس القبطي:

أجحدك أيها الشيطان
وكل أعمالك النجسة
وكل جنودك الشريرة
وكل شياطينك الرديئة
وكل قوتك
وكل عبادتك المرذولة
وكل حيلك الرديئة والمضلة
وكل جيشك
وكل سلطانك
وكل بقية نفاقك
أجحدك أجحدك أجحدك.

ويشـير كتـاب "رئاسـة الكهنـوت" المنسـوب لديونيسـيوس الأريوباغي إلى أن الجحد ثلاث مرات هو أمرٌ فريد مـن نوعـه، ولا مثيـل له إلاّ في الطقس القبطي. ويشهد الغربيون أنفسـهم أنـه لم يبـق مـن بـين الطقوس الشرقية كلها سوى الطقس القبطي الذي حافظ، ولازال يحـافظ

٤٠- كيرلس الأورشليمي، مقالات عن الأسرار، ١:٢

على صيغة جحد الشيطان حسب التقليد القديم كما أوردته الوثائق الآبائية القديمة، وكما مارسته كنيسة أورشليم في القرن الرابع الميلادي، ولكن في صيغة أكثر شمولية اجتمع فيها جحد الشيطان نفسه، وكل ما يمكن أن يمت بصلة إليه(٤١).

فصيغة جحد الشيطان في الطقس البيزنطي مختصرة جداً وباهتة(٤٢)، لا يظهر فيها التحدي المباشر والواضح للشيطان، وفَقَدَ الطقس البيزنطي التقليد القديم الذي حفظته الوثائق الآبائية القديمة متميزاً بفعل الجحد "أجحدك أيها الشيطان"، وصار الجحد يتم تحت شكل أسئلة وأجوبة، وهو نفس الأسلوب الذي يعرفه الغرب المسيحي في جحد الشيطان(٤٣). واستعاض الطقس البيزنطي عن هذا القصور بأن ألزم الموعوظ بأن ينفخ ويبصق جهة الغرب، وكأنه يطرد كل علاقة بالفساد.

فبحسب تعليمات الطقس البيزنطي:

- يسأل الكاهن الموعوظ (أو العراب) ثلاث مرات: أترفض الشيطان وكل أعماله وجميع ملائكته وسائر أباطيله؟
- فيجيب الموعوظ (أو العرّاب) ثلاثاً: نعم أرفض الشيطان.
- ثم يعيد الكاهن سؤال الموعوظ ثلاث مرات أيضاً: أرفضت الشيطان؟
- وبعد أن يجيب الموعوظ (أو عرّابه) ثلاثاً: نعم رفضت الشيطان.
- يقول له الكاهن: انفث وابصق على الشيطان.

إن الأيدي المرفوعة، والنفخ، والسجود للمسيح، هي ممارسات

٤١- *DACL*, t. 2, p. 266
٤٢- *BASC*., t. 11, p. 53
٤٣- *DACL*, t. 2, p. 264

طقسية تعرفها المخطوطات البيزنطية القديمة، ففي مخطوط أفخولوجيون بيزنطي قديم يعود إلى القرن الثامن الميلادي نقرأ: "... وبعد ذلك التفتوا إلى ناحية الغرب وارفعوا أيديكم إلى فوق، وما أقوله فهذا أيضاً تقولونه: أجحد الشيطان... الخ هذا يقوله ثلاث مرات والجميع يجاوبونه[٤٤]".

وهي نفس التعليمات الطقسية التي ذكرها المخطوط البيزنطي السينائي الذي يعود إلى القرن العاشر الميلادي، ولكن في صيغة الجمع، فيقول: "يجعلهم الكاهن يتجهون إلى ناحية الغرب، رافعين أيديهم إلى فوق ويقول لهم: ما أقوله قولوه: أجحد الشيطان... ويقولون ذلك ثلاث مرات، ويجيبه الواقفون معه". وهكذا نجد أن الإفخولوجيون البيزنطي يفرض صيغة على الموعوظين يمليها الكاهن عليهم عندما ينبّه بالقول: "ما أقوله فهذا تقولونه أيضاً، كما أقول تقولون - ὅ λέγω τοῦτο καὶ ὑμεῖς λέγετε, Ὡς λέγω λέγετε ".

أما البصق La sputation على الشيطان في الطقس البيزنطي فهي ممارسة حديثة لم تظهر إلاّ مؤخراً، في غضون القرون الوسطى، ولم تكن ضمن المراسيم القديمة لهذا الطقس. فهناك مخطوط بيزنطي (إفخولوجيون) يعود إلى القرن الثالث عشر، وآخر يعود إلى القرن الخامس عشر، وكذلك سمعان التسالونيكي (القرن الخامس عشر)، لم يشر أي منهم إلى البصق على الشيطان، برغم أن سمعان التسالونيكي مُعتبر أنه من أكثر شراح الطقس البيزنطي شهرة[٤٥].

ثم أن طقس جحد الشيطان لا يوجد بوضوح لدي الأرمن، ففي مخطوط فينيسيا الذي يعود للقرن الثامن، والذي حققه وطبعه

٤٤- *DACL*, t. 2, p. 290

٤٥- *DACL*, t. 2, p. 290

الرهبان الأرمن الكاثوليك سنة ١٨٣٢م، يقول الكاهن للموعوظين في طقس الجحد والاعتراف بالإيمان أن يرددوا من ورائه الصيغة التي يقولها هو: "آمر الموعوظ أن يتجه ناحية الغرب، وآمره أن يقول ثلاث مرات: أجحدك أيها الشيطان...". وفي مخطوط كُتب حوالي سنة ١٣٠٠م، نجد ذكراً لطقس البصق sputation، وهو طقس مستعار من الطقس البيزنطي، والذي يُظن أنه لم يكن موجوداً قبل هذه الفترة. ولقد تحدث الكاثوليكوس الأرمني يوحنا أسقف أدسون Jean d'Odsun في القرن الثامن الميلادي عن طقس جحد الشيطان. ويقول العالم الليتورجي كونيبير M. Conybeare أن هذا الأسقف هو الذي أدخل طقوس وضع اليد وجحد الشيطان والاعتراف بالإيمان في طقس المعمودية الأرمني[٤٦].

هذا، وقد اختفى طقس جحد الشيطان كلية من الطقس الكلداني.

إن الصيغة الأولية البسيطة في التقليد القبطي نقرأها في قوانين هيبوليتس التي تقول: "إني أجحدك يا إبليس، وكل خدمتك" (١٩:١٢). أما المراسيم المصرية (قوانين الرسل القبطية) فتضيف "وبكل أفعالك – operibus tuis "، فتقول: "إنيّ ازدري بك يا إبليس، وبكل خدمتك، وبكل أفعالك النجسة" (٩:٣٤). وهو ما نجده عند العلامة أوريجانوس (١٨٥- ٢٥٤م) في عظته الثانية عشر على سفر العدد حين يقول:

> [فليتذكّر كل واحد من المؤمنين تلك الكلمات التي قالها آنذاك عندما أقبل إلى مياه المعمودية، فإنه جحد إبليس وكل خدمته[٤٧] pompis eius **وكل أعماله**

---

٤٦ - *DACL*, t. 2, p. 295

٤٧ - الكلمة اللاتينية pompis سنترجمها دوماً "خدمة"، وليس "مجد" كما وردت هكذا في قوانين هيبوليتس.

وأنه لن يباشر واحدة من عباداته operibus eius أو شهواته Servitiis eius[٤٨]].

وفي موضع آخر يقول:

[عندما بلغنا نعمة العماد، جحدنا كل الآلهة والأرباب، واعترفنا فقط بالله الآب والابن والروح القدس[٤٩]].

وهو نفس ما ذكره القديس كيرلس الكبير (٤١٢- ٤٤٤م):

[نأمر الذين يدخلون إلى العماد الخلاصي أن يتجهوا إلى الغرب، ونأمرهم أن يصرخوا قائلين:

أجحدك أيها الشيطان وكل أعمالك وكل ملائكتك وكل خدمتك وكل عبادتك – ʼΑποτάσσομἀι σοι, Σατανᾶ, καὶ πᾶσι τοῖς ἔργοις σου, καὶ πᾶσι τοῖς αγγέλοις σου, καὶ πάσῃ τῇ πομπῃ σου, καὶ πάσῃ τῇ λατρείᾳ σου].

إن تعبير "ملائكة الشيطان" هو عنصر أساسي في النص المصري لجحد الشيطان، حفظه أيضاً الطقس البيزنطي، لكنه غائب في الطقوس الأنطاكية والمارونية والكلدانية[٥٠].

ولاحظ هنا قول القديس كيرلس الإسكندري: "نأمرهم أن يصرخوا قائلين" وهو ما سبق أن أشرنا إليه أن جحد الشيطان يكون بجسارة وعلانية. ولاحظ أيضاً أن نص الجحد عند القديس كيرلس الكبير

٤٨- *PG* XII, col. 665. cf. *DACL*, t. 2, p. 264

٤٩- *DACL*, t. 2, p. 264

٥٠- Anton Baumstark, *Comparative Liturgy*, p. 84

(٤١٢- ٤٤٤م) يتوافق مع وصف قوانين الرسل القبطية، وهو ما يمارسه الطقس القبطي الحالي(٥١) لكن في صيغة أصبحت أكثر شمولية.

ويوضح العلامة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م) أنه في أفريقيا اعتاد الموعوظون أن يجحدوا الشيطان وكل خدمته وملائكته Diabolo et pompæ et anglis eius(٥٢).

وهي هي نفس الصيغة التي نقرأها عند القس أبي البركات ابن كبر (+ ١٣٢٤م) حيث يذكر نصها التالي: "أجحدك أيها الشيطان وكل أعمالك النجسة، وكل جنودك الخبيثة، وشياطينك الشريرة كلها، وكل قوتك، وكل خدمتك المرذولة الطمثة، وكل مناصبك الرديّة المضلة، وكل جيشك، وكل سلطانك، وكل بقية نفاقك(٥٣)".

ولقد حافظت الكنيسة القبطية على صيغة جحد الشيطان، حينما توجّه الخطاب إليه مباشرة، وهو نفس الطقس القديم لكنيسة أورشليم بحسب ما يخبرنا به القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م) حيث نعرف منه أن صيغة الجحد في كنيسته هي:

> [أجحدك أيها الشيطان، وكل أعمالك، وكل خدمتك، وكل عبادتك(٥٤)].

أما صيغة جحد الشيطان في التقليد السرياني فنقرأها في كتاب المراسيم الرسولية (النصف الأول من القرن الرابع) هكذا: "أنا أجحد

٥١- *DACL*, t. 2, p. 264

٥٢- *PL* ii, c 79

٥٣- كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كبر، الجزء الثاني (مخطوط)، مرجع سابق، الباب ١٥

٥٤- *PG* 33, p. 1069- 1072

الشيطان وأعماله ومشوراته وعباداته وجنوده وحركاته وكل ما هو تحت سلطانه[٥٥]" (١١:٣٨). إلاّ أن كتاب عهد الرب يورد هذه الصيغة السريانية فيقول: "أجحدك أيها الشيطان، وجميع جنودك وتصوراتك وشهواتك وجميع أعمالك" (٨:٢).

وباستثناء طقس القديس يعقوب السروجي (٤٥١- ٥٢١م) الذي يحتفظ بصيغة قديمة لجحد الشيطان تأتي في صيغة المنادى "أجحدك أيها الشيطان..."، نجد أن كتب الطقس السريانية تأتي الصيغة فيها: "أنا أجحد الشيطان..." مثل كتاب المراسيم الرسولية. والصيغة هي: "أنا (فلان) أجحد الشيطان وكل أعماله، وكل خدماته، وكل مكايده، وكل أضاليله الدهرية، وكل الذين يخضعون له أو يتبعونه[٥٦]".

ويتضح من الصيغة السريانية للجحد غياب تعبير "ملائكة الشيطان" وهو التعبير الذي يميّز التقليدين القبطي والبيزنطي.

فصيغة الجحد في التقليد البيزنطي، والتي ذكرها القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م) في عظة له سنة ٣٩٩م، وهي صيغة كنيسة القسطنطينية تأتي هكذا: "أجحدك أيها الشيطان وخدمتك وعبادتك وملائكتك - Ἀποτάσσομαι σοι, Σατανᾶ, καὶ τῇ πομπῇ σου, καὶ τῇ λατρείᾳ σου, καὶ τοῖς αγγέλοις σου ". وهي نفس صيغة الجحد في الأفخولوجيون اليوناني الحالي مع بعض تعديلات طفيفة[٥٧]. ويتفق القديس نيلس السينائي، راهب جبل سيناء، في صيغته للجحد مع صيغة ذهبي الفم السابق ذكرها. إلاّ أن القديس يوحنا ذهبي الفم في عظة له ألقاها في أنطاكية سنة ٣٩٦م، أضاف "إحناء الركب"

٥٥- د. وليم سليمان، الدسقولية - تعليم الرسل، مرجع سابق، ص ٤٩١

٥٦- الطقوس الشرقية، مرجع سابق، ص ٨٢- ٨٤

٥٧- *DACL*, t. 2, p. 288

أثناء الجحد، حين يقول:

[تذكّروا تلك الأقوال التي بها انفصلتم عن حكمه الاستبدادي إذ احنيتم الركبة γόνυ κλίναντες والتجأتم نحو الملك][٥٨].

وصيغة الجحد في الطقس الغربي نقرأها عند القديس جيروم (٣٤٢- ٤٢٠م) هكذا: "أجحدك أيها الشيطان، وكل خدمتك ورذائلك وعالمك".

يتضح إذاً لدينا أن جميع صيغ جحد الشيطان في الكنيسة الجامعة شرقاً وغرباً تتفق في استخدامها لصيغة المنادى باستثناء كتاب المراسيم الرسولية حيث وردت فيه صيغة "أنا أجحد الشيطان[٥٩] Ἀποτάσσομαι... τῷ Σατανᾷ ". وهو طقس كنيسة سوريا حتى اليوم.

إن الأساس الكتابي لجحد الشيطان هو تجارب المسيح الثلاث على الجبل، وهي تبدأ قبل المعمودية، وتظل ترافقنا حتى النهاية، وهذا هو ما نجده في شرح الآباء جميعاً بدون استثناء. ويذكر بعض آباء الكنيسة أن الرسول بولس قد أشار إلى طقس الجحد والاعتراف بالإيمان في قوله: «امسك بالحياة الأبدية التي إليها دعيت، وقد اعترفت الاعتراف الحسن أمام شهود كثيرين» (١ تيموثاوس ٥:١٢). فيقول القديس أمبروسيوس (٣٣٩- ٣٩٧م) في شرحه لهذه الرسالة:

[إن التقليد قد حدد الاعتراف الحسن في المعمودية، وهو جحد الشيطان والعالم أمام شهود كثيرين هم الكهنة والخدام والقوات السمائية].

٥٨- العظة الثانية على شرح رسالة القديس بولس الرسول إلى أهل كورنثوس.

٥٩- *DACL, t. 2, p.* 277

وفي ذلك يؤكد العلامة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م):

[إن جحد الشيطان مأخوذ من كلمات الكتاب المقدس لكنه مؤكد بالتقليد].

ويذكر القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م) أن مصدر هذا الطقس هو التقليد، فيقول:

[إننا نبارك ماء المعمودية وزيت المسحة كما نبارك المعمَّد نفسه أيضاً، فأي وصايا مكتوبة علمتنا أن نفعل هذا؟ أليس التقليد السري المقدس؟ وأيضاً الدهن بالزيت، أي كلمة في الإنجيل علّمت به؟ وأين ورد تغطيس الإنسان ثلاث مرات؟ أي كتاب جاء بكل الأمور اللازمة للعماد وجحد الشيطان وملائكته؟ ألم يأت إلينا من التعليم السري الذي حافظ عليه آباؤنا في صمت دون أن يُكتب كتعليم عام... إذاً لا تبحثوا الأمر بتطفل لأنه كيف يحق تعميم الأسرار كتابة، هذه التي لا يُسمح لغير المعمَّدين حتى أن يطلّعوا عليها؟] (الروح القدس ٢٧:٦٦).

إن طقوس جحد الشيطان، ومعها طقوس الاعتراف بالإيمان، كانت في الأصل تقع مباشرة قبل التغطيس في الماء، وهو ما نجده في الطقس القبطي، ولكنها فقدت جانباً من أهميتها بعد انتقالها لتكون ضمن مراسيم إعداد الموعوظين، وهو التطور الذي انتقل إلى كل الطقوس الشرقية[٦٠].

وينفرد خولاجي القديس سرابيون (القرن الرابع الميلادي)

٦٠- *DACL*, t. 2, p. 266

بإيراده لصلاة يقولها الكاهن بعد جحد الشيطان، عنوانها "صلاة بعد الجحد – Μετὰ τὴν ἀποταγὴν εὐχή " يقول فيها:

"أيها الرب ضابط الكل، اختم على موافقة عبدك هذا، تلك الموافقة التي قدمت لك الآن. احفظ سلوكه وسيرته باستقامة لكي لا يخدم فيما بعد الخنازير (الشياطين)، بل يخدم إله الحق. ويعبدك أنت خالق الجميع، ويظهر لك كاملاً مخلصاً، بابنك الوحيد يسوع المسيح الذي به لك المجد والقدرة في الروح القدس الآن وإلى كل آباد الدهور آمين".

(١٠) النفخ في الوجه:

النفخ في الوجه تقليد يلازم طقوس طرد الشياطين، ومرتبط بها. فيذكر كتاب ديونيسيوس الأريوباغي (القرن الخامس): "... ويأمره أن ينفخ فيه ثلاث مرات ضد الشيطان، ثم يعترف بكلمات الجحد...[٦١]". فيتضح هنا أن النفخ في الوجه جاء قبل جحد الشيطان مباشرة. وبرغم أن الطقس القبطي الحالي قد أرجأ النفخ في الوجه إلى ما بعد الجحد مباشرة، إلاّ أنه الطقس الذي يحتفظ بالمكان الطقسي التقليدي للنفخ في الوجه، دون غيره من بقية الطقوس الشرقية الأخرى. إذ أن طقس النفخ في الوجه هو آخر مرحلة من مراحل طقوس طرد الشياطين، كما نص على ذلك كتاب "التقليد الرسولي" الذي يشرح لنا طقس المعمودية في أوائل القرن الثالث الميلادي، وبالتأكيد هو ما كانت تمارسه الكنيسة في القرن الثاني. "وإذا وضع يده عليهم، فيقسم على كل روح غريب أن يهرب منهم، ولا يعود إليهم بعد الآن. وإذا فرغ من الإستحلاف **ينفخ في وجوههم**، وإذا رشم جباههم وآذانهم وأنوفهم، فليقمهم" (٢٠:٨).

إلاّ أن النفخ في الوجه لم يرد في قوانين هيبوليتس القبطية ولا في

٦١- *PG* 3, p. 396

قوانين الرسل القبطية (المراسيم المصرية). إذ نجد فيهما أن المسح بزيت الاستحلاف كان يعقب جحد الشيطان مباشرة وقبل الاعتراف بالإيمان، وهو ما كان شائعاً في الشرق المسيحي كله[٦٢]. غير أن المراسيم المصرية قد أضافت إلى المسح بزيت الاستحلاف أن الكاهن يقول في وجه الموعوظ "ليُبعد عنه كل روح خبيث". وهي نفس الصيغة تقريباً التي يقولها الكاهن القبطي اليوم وهو ينفخ في وجه الموعوظ "اخرج أيها الروح النجس".

أما القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م) فقد أشار بوضوح إلى طقس النفخ في الوجه حين يقول:

> [... اقبل بنشاط كلمات الاستحلاف إن كانوا ينفخون عليك، وإن كانوا يستحلفونك[٦٣]...].

وبحسب الطقس القبطي الحالي، واقتداء بالتقليد الرسولي (الترتيب الكنسي المصري)، فبعد ترديد صيغة جحد الشيطان، ينفخ الكاهن في وجه المعمَّد وهو يقول ثلاث مرات: "اخرج أيها الروح النجس".

وهناك حاشية مكتوبة باللغة العربية في مخطوط السمعاني تفيد أن النفخ في الوجه قد أُدخل بين جحد الشيطان والاعتراف بالإيمان، مما يعني أنه طقس يعود إلى تاريخ متأخر نوعاً[٦٤]. أما الطقس الأثيوبي فيأتي فيه النفخ في الوجه بعد الاعتراف بالإيمان، وهو ما أشار إليه كل من العالمين رينودوت Renaudot وإيفيت Evetts.

أما الكنيسة البيزنطية فقد قدَّمت طقس النفخ في الوجه ليكون في بداية طقس طرد الشياطين، فبحسب الطقس البيزنطي: "يحل الكاهن

٦٢- *DACL*, t. 2, p. 278

٦٣- *PG* 33, p. 348

٦٤- *DACL*, t. 2, p. 266

زنّار الشخص المقبل على الاستنارة، وينزعه ويضعه جانباً، ثم يوقف الشخص باتجاه الشرق لابساً ثوباً واحداً فقط، حافي القدمين، مكشوف الرأس، خافضاً يديه إلى أسفل، وينفخ في وجهه ثلاث مرات ويضع يده على رأسه...". على أنه يجب أن نلاحظ أن النفخ في الوجه في بداية طقس طرد الشياطين لا يلغي نفخاً آخر يجري على الموعوظ أثناء الاستقسام لاخراج الشياطين منه، إذ "ينفخ الكاهن في فم الموعوظ، وفي جبهته، وفي صدره ثلاث مرات".

وبعد هذا الاستطراد الطويل في طقوس طرد الشياطين نذكر ما يقوله القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات (٣٢٩- ٣٨٩م):

> [لا تحتقروا دواء طرد الشياطين، ولا تتعب من طول الصلوات، لأن كل هذه هي امتحان لصدق وإخلاص النفوس، وطلبها المعمودية باشتياق] (عظة على المعمودية: ١٥).

بذلك يكتمل طقس طرد الشياطين ذي العشرة بنود، ليعقبه مباشرة المراحل النهائية والتي نعرض لها في الفصلين القادمين.

ففي الفصل التالي (الفصل الثالث) نتكلم عن طقوس:

- الاعتراف بالمسيح
- الإقرار بالإيمان
- الاستجوابات الثلاثة
- إحناء الركب للمرة الثانية

أما في الفصل الذي يليه (الفصل الرابع) فنحصر حديثنا عن:

- الدهن بزيت الغاليلاون (النوع الثاني من الزيوت).
- صلاة وضع اليد للمرة الثانية.

الفصل الثالث

قبول المسيح والإقرار بالثالوث القدوس

يورد كتاب المعمودية التعليمات الطقسية التالية والتي تشمل الثلاث مراحل الأولى بعد جحد الشيطان. وهي:

- الاعتراف بالمسيح
- الإقرار بالإيمان
- الاستجوابات الثلاثة (بحسب الطقس الحالي)

• "يحوّل (طالب العماد) وجهه إلى الشرق، ويده مرفوعة إلى فوق، (أو كلتا يديه[1]) ويقول: أعترف لك أيها المسيح إلهي، وبكل نواميسك المخلّصة، وكل خدمتك المحيية، وكل أعمالك المعطية الحياة

• ثم يلقنه الإيمان قائلاً: أؤمن بإله واحد، الله الآب ضابط الكل، وابنه الوحيد يسوع المسيح ربنا، والروح القدس المحيي، وقيامة الجسد، والكنيسة الواحدة الوحيدة المقدسة الجامعة الرسولية آمين

• ثم يسأله ثلاث مرات قائلاً: آمنت على هذا الطفل؟

فيجاوبه ثلاث مرات قائلاً: آمنت".

أولاً: معنى التحول ناحية الشرق:

أول من أشار إلى الاتجاه للشرق في الصلاة هو العلاّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠- ٢١٥م)، حيث يقول عن المسيحيين:

---

١ - *BASC*., t. 11, p. 66 ولم يشر مخطوط (ط١٩٣) إلى رفع اليد أو اليدين، بينما أشار مخطوط (ط١٩٢) إلى ذلك.

[هم يصلّون ناحية الشرق، لأن الشرق كما هو ميلادنا الروحي، ومنه يشرق النور أولاً ويسطع في الظلمة، والشرق رمز ليوم المعرفة الحقيقية الذي يشرق مثل الشمس ويضيء على الذين دفنوا في ظلام الجهل] (المتنوعات ٨:٨٥).

ويقول العلامة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م) في ذلك:

[الشرق هو رمز للمسيح، ولذلك فإن كنائسهم وصلواتهم تتجه ناحية الشرق] (ضد فالنتيان: ٣).

ويقول القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م):

[إنه تقليد قديم غير مكتوب أن نتجه للشرق عندما نصلي، ولكننا أيضاً نتطلع إلى وطننا القديم الفردوس الذي غرسه الله في شرق عدن] (مقالة عن الروح القدس: ٢٧).

أما عن معنى اتجاه المعمَّد إلى ناحية الشرق فنقرأه في كتاب ديونيسيوس الأريوباغي: "تتجه ناحية النور وتنظر إلى فوق نحو السماء وتبسط اليدين وتأمر أن ينضموا للمسيح[٢]".

إن التحول من الغرب إلى الشرق، هو تحول من ناحية الظلمة إلى حيث النور، وفي ذلك يقول القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م):

[وتتحول من الغرب إلى الشرق ناحية النور، معلناً رفض مملكة الظلمة وقبول الانتساب لمملكة النور[٣]].

٢- *PG* 3, p. 396

٣- *PG* 33, p. 1073

ويقول القديس أمبروسيوس (٣٣٩- ٣٩٧م):

[لقد دخلتم إذاً لكي تميزوا عدوكم الذي كان عليكم أن تجحدوه كأنكم في مواجهته، ثم اتجهتم إلى الشرق لأن من يجحد الشيطان يتحول إلى المسيح، وينظره مواجهة] (الأسرار الفصل الثاني).

ثانياً: رفع اليدين:

لقد اقترن الجحد والاعتراف بالمسيح والإقرار بالإيمان برفع اليدين أو إحداهما. ورفع اليدين أصلاً مرتبط بالصلاة، وقد أشار إليه كليمندس الإسكندري (١٥٠- ٢١٥م)، والعلامة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م)، والعلامة أوريجانوس (١٨٥- ٢٥٤م).

والطقس القبطي هو الوحيد بين الطقوس الشرقية الذي يحتفظ بعادة رفع اليدين إلى فوق أثناء كلمات الانضمام للمسيح والإقرار بالإيمان كتعبير عن تسليم كل الحياة للمسيح له المجد. ففي قوانين هيبوليتس القبطية (القرن الخامس): "... فيمسك القسيس يده اليمنى، ويحوّل وجهه إلى الشرق" (١٩: ١٣). وهو نفس ما أشار إليه القس أبو البركات ابن كبر (+ ١٣٢٤م): "... ثم يلتفت إلى الشرق، ويرفع كلتا يديه إلى السماء ويعترف ويقول...". ويتفق مخطوط (ط ١٩٢) معه في ذلك فيقول: "بعد هذا تحولهم إلى الشرق ويديهم مرتفعة إلى فوق قائلين: ...".

أما الطقس البيزنطي فيشير صراحة إلى أن الكاهن يأمر الموعوظ أن يخفض يديه إلى أسفل عندما يوجهه ناحية الشرق لترديد كلمات الاعتراف بالإيمان. فبحسب ترتيب المعمودية القديم في كنيسة القسطنطينية كان الأسقف يخاطب الموعوظ قائلاً: "تحول نحو الشرق،

اخفض يديك، وقف بوقار(٤)".

ثالثاً: تعبيرا "الاعتراف بالمسيح"، و"الإقرار بالإيمان":

لدينا في هذا الجزء من الطقس فعلان ليتورجيان، يتميّز كل منهما عن الآخر تماماً:

- الأول هو: الاعتراف بالمسيح. وهو يختص بالأقنوم الثاني من الثالوث القدوس. ويُعرف هذا الفعل الليتورجي في الطقس البيزنطي بـ "الاتحاد بالمسيح σύνταξις"، وفي الطقس الأنطاكي بـ "الخضوع للمسيح".
- الثاني هو: الإقرار بالإيمان ὁμολογία. وهو إقرار بالثلاثة أقانيم الآب والابن والروح القدس.

فينبغي أن نفرِّق جيداً بين تعبيرين هما: "الاعتراف بالمسيح"، "الإقرار بالإيمان"، ذلك لأن بعض كتب الطقس القبطية في شرحها لطقس المعمودية تخلط بين هذين المسميين المستقلين كل منهما عن الآخر، تحت عنوان واحد هو "الاعتراف بالإيمان". وهذه تسمية غير دقيقة، لأن الاعتراف أي الاعتراف بالمسيح شئ، والإقرار بالإيمان شئ آخر. وإذا استطعنا أن نفرِّق بين هذين الفعلين الليتورجيين تفريقاً واضحاً أمكننا بسهولة أن نفهم كثيراً من أقوال آباء الكنيسة التي تتحدث عن هذين التعبيرين الليتورجيين كل منهما بمعزل عن الآخر، فالأول يختص بالسيد المسيح نفسه، والثاني يختص بالثلاثة أقانيم مجتمعة معاً.

وهو ما نراه واضحاً كل الوضوح في كنيسة الإسكندرية منذ القرن الثالث الميلادي على الأكثر، وذلك من الرسالة الرابعة عن

٤- Finn, *op. cit.*, p. 116

المعمودية التي أرسلها البابا ديونيسيوس الكبير (٢٤٨- ٢٦٥م) إلى القس ديونيسيوس الروماني الذي صار أسقفاً لروما بعد زمن هذه الرسالة بوقت قصير، يخبره فيها عن نوفاتوس الهرطوقي فيقول له:

[... وعلاوة على ذلك، فإنه (أي نوفاتوس) يرفض المعمودية المقدسة، ويقلب الإيمان والاعتراف اللذين يسبقانها[٥] τήν πρὸ τοῦ λουτροῦ πίστιν καὶ ὁμολογίαν].

والقديس باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م) قدم لنا كل التفاصيل الخاصة بهذه المراسيم والتي نجدها في الإفخولوجيون البيزنطي. وفي الفصل الحادي عشر من كتابه "الروح القدس" يتساءل قائلاً:

[... لمن الدينونة الأبدية؟ أليس للكافرين الذين ينكرون الإيمان؟ وما هو البرهان على إنكارهم للإيمان؟ أليس لأنهم اعتبروا اعترافهم كلا شئ؟ ومتى وبماذا اعترفوا؟ بالإيمان بالآب والابن والروح القدس Ὡμολόγησαν πιστέυειν εἰς Πατέρα καὶ Υἱὸν καὶ ἅγιον Πνεῦμα عندما جحدوا الشيطان وملائكته، واعترفوا بالكلام الخلاصي[٦]].

ففي هذا القول الهام للقديس باسيليوس يتضح لنا تعبيرا "الاعتراف بالإيمان"، "الاعتراف بالكلام الخلاصي". الاعتراف بالإيمان هو اعتراف بالآب والابن والروح القدس، وهو الفعل الليتورجي الثاني. أما الاعتراف بالكلام الخلاصي، فهو الاعتراف بالمسيح وبنواميسه المخلِّصة، وهو الفعل

٥- انظر: تاريخ الكنيسة ليوسابيوس القيصري (٨:٧)، مرجع سابق، ص ٣٥١.

٦- *De Spiritu Sancto*, xi, 27

الليتورجي الأول.

وهذا ما نجده واضحاً أيضاً عند القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م) الذي يعبّر عن الطقس الأنطاكي حين يقول:

[احفظوا عهدكم الذي كتبتموه مع الرب، ليس بحبر وورق، بل **بالإيمان والاعتراف** به متيناً راسخاً[٧]].

والاعتراف بالإيمان في الطقس الأرمني هو اعتراف بالثالوث فحسب دون أن يشير الطقس إلى أي وعد بالإنضمام للمسيح[٨].

والقديس باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م) يوضّح الفرق بين الإيمان والاعتراف، حيث الإيمان هو بالثالوث، والاعتراف هو بالمسيح، فيقول:

[التسليم الخاص بالمعمودية يحتّم **الإيمان والاعتراف** بصيغة معروفة عند معموديتنا[٩]].

ومن النص السابق مباشرة يتضح لنا أن القديس باسيليوس يتحدث عن الإيمان والاعتراف كفعلين ليتورجيين لكل منهما صيغة محددة معروفة. ونحن لا نستطيع أن نفترض مع وجود هذا النص أن الاعتراف بالإيمان لم يكن يتضمن سوى كلمات "أؤمن بالآب والابن والروح القدس" كما كان في كنيسة أورشليم زمن القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م)، ذلك لأن القديس باسيليوس يقرر أن صيغة الإقرار بالإيمان ليست بنصها الذي وردت به في الأسفار

٧- تعليم المعمودية ٤:٣٠

٨- *DACL*, t. 2, p. 295

٩- *De spiritu sancto*, c. xxvii, 67 ترجمة الدكتور جورج بباوي.

المقدسة[١٠].

أما مؤلف كتاب "الرئاسات الكنسية" فيقول في ذلك: "ينقل الأسقف الموعوظ إلى الشرق، ويأمره أن ينظر إلى السماء ويرفع يديه ويعترف بالمسيح، وبكل الأقوال المقدسة المسلّمة من الله. ويلي ذلك اعتراف مثلث يتبع مباشرة صيغة الاتحاد بالمسيح". ويوضح أن هذه هي الممارسة المستقرة في كل الشرق. ثم يقول: "... فإن المعمِّد يعلن صيغة الإيمان، وطبقاً لتعليماته فإن طالب المعمودية يردد من ورائه ما يقوله".

وهو ما تراعيه الطقوس الشرقية بدقة، باستثناء الطقس الماروني الذي لا تحتل فيه هذه المراسيم هذه الأهمية.

أما عن طقس المعمودية الأنطاكي، فإن القديس يعقوب الرهاوي (أسقف أديسا) فهو في إيجازه لطقوس المعمودية لم يشر سوى لموضوع الاعتراف بالإيمان، دون أن يوضح طريقة أدائه. وفي هذا الطقس ينتهي طقس إعداد الموعوظين بصلاة شكر تُقال بعد الدخول إلى حجرة المعمودية، حيث يتم ترديد صيغة الإيمان المختصرة.

وهو نفس ما نجده في الطقس الأول للقديس ساويرس الأنطاكي (٤٦٥- ٥٣٨م)، أما طقسه الثاني، أو الطقس المجهول اسم صاحبه، فإن ترديد صيغة الإيمان تكون قبل صلاة الشكر السابق ذكرها في طقس يعقوب أسقف أديسا[١١].

إذاً الاتحاد بالمسيح σύνταξις أو الاعتراف به، والإقرار بالإيمان ὁμολογία هما فعلان متلازمان يعقبان جحد الشيطان مباشرة بحسب الطقس القبطي الحالي، حيث يصير الدهن بزيت الاستقسام بعد الإقرار

١٠- *DACL*, t. 2, p. 288, 289

١١- *DACL*, t. 2, p. 279

بالإيمان. أما الطقس القبطي القديم بحسب ما تشرحه لنا المراسيم المصرية (قوانين الرسل القبطية)، وتؤيدها قوانين هيبوليتس القبطية، فلم يكن بنفس الترتيب الحالي، إذ أن الدهن بزيت الاستقسام كان يعقب جحد الشيطان مباشرة، ويسبق الاعتراف بالايمان.

وبحسب الطقس القبطي القديم، كان الموعوظ يمارس طقسي الجحد La renonciation والمسح بالزيت L'onction خارجاً عن حجرة المعمودية Baptistère. أما في داخل حجرة المعمودية فكان يمارس طقوس الاعتراف بالمسيح والإقرار بالإيمان، والتغطيس في مياه المعمودية، بمباشرة الأسقف أو الكاهن، ومساعدة الشمامسة.

رابعاً: المراحل الطقسية لقبول المسيح والإقرار بالثالوث:

(١) الاعتراف بالمسيح:

"الاعتراف بالمسيح" هو التعبير القبطي لهذا الجزء من الطقس، كما سبق أن ذكرنا، ويقابله في الطقس البيزنطي تعبير "الاتحاد بالمسيح"، أما الطقس الأنطاكي فلديه تعبير "الخضوع للمسيح". ويمكن لأي تعبير منها أن يحل أحدها محل الآخر طالما أن الغاية في النهاية هي قبول المسيح مخلّصاً وملكاً لحياتنا.

وكلمات الاعتراف بالمسيح بحسب الطقس القبطي هي:

"أعترف لك أيها المسيح إلهي
وبكل نواميسك المخلصة
وكل خدمتك المحيية
وكل أعمالك المعطية الحياة" .

والجدول التالي هو مقارنة بين نص الاعتراف بالمسيح من ثلاثة مخطوطات تعود إلى القرون الرابع عشر، والسابع عشر، والثامن عشر، وهي بحسب الترتيب مخطوط مصباحَ الظلمة وإيضاح الخدمة للقس أبي البركات ابن كبر (+ ١٣٢٤م)، ومخطوط (ط ١٩٣)، ومخطوط (ط ١٩٢).

مخطوط القرن ١٤	مخطوط القرن ١٧	مخطوط القرن ١٨
اقبلك ايها المسيح الاهى	اعترف لك ايها المسيح الاهنا	اعترف لك ايها المسيح الهى
ونواميسك جميعها المقدسه المخلصه	وكل نواميسك المخلصه	وكل نواميسك المخلصه
وخدمك كلها المحييه	وكل خدمتك المحييه	وكل خدمتك المحييه
واعمالك كلها المعطيه الحياه	وكل اعمالك المعطيه الحياه	وكل اعمالك المعطيه الحياه

هذا هو إعلان الولاء للمسيح ولتعاليمه وأعماله المعطية الحياة، وهو في ذلك يشبه القَسَم الذي يؤديه الجنود مرة واحدة وإلى مدي حياتهم كلها. إنها ليست كلمات تنطقها الشفاة، لأنها صادرة من أناس اختاروا طواعية من كل قلوبهم وبكامل إرادتهم أن ينضّموا للمسيح وملكوته، حاسبين مقدار التبعات الملقاة على عاتقهم من جرّاء هذا الانضمام إلى مملكة النور، وما تثيره عليهم مملكة الشيطان والظلمة من حرب، حتى وإن انفضّت عنهم إلى حين.

ومن أبدع ما قاله آباء الكنيسة عن طقوس المعمودية هو ما يقوله القديس غريغوريوس النيسي (٣٣٠- ٣٩٥م) أمام شعب القسطنطينية سنة ٣٨٠م، وأمام معارضيه من الأريوسيين:

[... أنا أعلم بمن اعترفت، وبمن جحدت، وأدرك بمن ارتبطت[١٢] – οἶδα τίνι ὡμολόγησα καὶ τίνι ἀπεταξάμην καὶ τίνι συνταξάμην].

إن ما يعلنه الموعوظ أو الإشبين من جحد للشيطان أو اعتراف بالمسيح، أو إقرار بالإيمان هو من ضمن الصلوات القصيرة الفعَّالة التي كان المعلمون يقومون بتحفيظها لطالبي العماد ليستخدموها كل أيام حياتهم في جهادهم ضد الشيطان والعالم. فهي لم تكن أبداً صلوات طقسية قيلت مرة واحدة لتتميم طقس أو تكميل مراسيم، بل هي قوة حاضرة دوماً وجاهزة لمن يستخدمها بإيمان. ولقد تحدَّث القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥– ٣٨٦م) عن أهميتها في مقاله الإفتتاحي لطالبي العماد.

أما في الطقس الأنطاكي فتبدأ صيغة قبول المسيح هكذا: "أخضع[١٣] لك أيها المسيح – Συντάσσομαι σοι Χριστέ "، ويبدو أنها صيغة مستعارة من قوانين هيبوليتس القبطية.

أما كتاب المراسيم الرسولية فيحتفظ لنا بالصيغة الهامة التالية: "أخضع للمسيح وأؤمن واعتمد لإله واحد[١٤] – Συντάσσομαι τῷ Χριστῷ καὶ πιστεύω καὶ βαπτίζομαι εἰς ἕνα Θεόν ". حيث يتبع الخضوع للمسيح ترديد قانون الإيمان كاملاً.

وفي الطقس البيزنطي يدور حوار بين الكاهن والمعمَّد هكذا:

١٢– *PG* xxxv, col. 236

١٣– الفعل Συντάσσομαι يعني حرفياً: أسلّم بـ – أوافق على – أقبل بـ – أؤمن بـ (مجازا) أي to agree together. cf. Liddle and Scott, *Greek* - *English Lexicon*, p. 780

١٤– *DACL*, t. 2, p. 279

- يسأل الكاهن ثلاث مرات: هل اتحدت(١٥) بالمسيح؟
- يجيب الموعوظ أو العراب ثلاثاً: نعم اتحد بالمسيح.
- فيسأله الكاهن ثلاث مرات أيضاً: هل اتحدت بالمسيح؟
- فيجيب الموعوظ (أو عرابه) ثلاثاً: نعم اتحدت بالمسيح.
- فيسأله الكاهن ثلاث مرات: هل اتحدت بالمسيح؟
- فيجيب الموعوظ (أو عرّابه) ثلاثاً: نعم قد اتحدت بالمسيح.
- وهل تؤمن به؟
- أؤمن به أنه ملك وإله.
- فيقول الكاهن: اسجد له إذاً.
- فيسجد قائلاً: أسجد للآب والابن والروح القدس متساوياً في الجوهر وغير منقسم(١٦).

وهو ما يؤكده طقس كنائس القسطنطينية وآسيا الصغري في الفترة ما بين القرنين الثامن والعاشر للميلاد، كما جاء في مخطوط بربريني Barberini الذي يعود إلى القرن الثامن الميلادي، والذي يورد التعليمات الآتية: "تحولوا إلى الشرق وأنزلوا أيديكم إلى أسفل... وما أقوله فهذا تقولونه أيضاً: أخضع للمسيح... الخ. حيث يقول ذلك ثلاث مرات والجميع يجاوبونه. ثم يسألهم أخضعتم للمسيح؟ - Συνετάξασθε τῷ Χριστῷ، فيقولون: خضعنا - Συνεταξάμεθα. هذا يسأله ثلاث مرات ويقول لهم: اسجدوا له - προσκυνήσατε αὐτῷ فيسجد الجميع. ثم يقول صلاة بدايتها: مبارك... الخ".

أما المخطوط السينائي الذي يعود للقرن العاشر (cod. 958) فقد

١٥- الكلمة المستخدمة هنا هي: συντάξις ومعناها الحرفي الولاء أو الالتصاق أو الاتحاد. وهي المقابل لكلمة ἀποταξις المستخدمة في جحد الشيطان، فهي تعني الجحد أو الرفض.

١٦- الطقوس الشرقية، مرجع سابق، ص ٨٤، ٨٥

أورد نفس التعليمات الذي سبق ذكرها في مخطوط بربريني ولكن التعليمات هنا موجّهة إلى الكاهن وليس لرئيس الأساقفة[١٧].

والسجود للمسيح في هذه التعليمات الطقسية يشهد لها القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات (٣٢٩- ٣٨٩م)، ولكنه يشير إلى سجود للأقانيم الثلاثة معاً، فيقول:

[الوديعة السامية التي تسلمناها من آبائنا وحفظناها، **ساجدين** للآب والابن والروح القدس الذين فيهم قد تعمّدنا، إنك سوف تفهم أحياناً من شكل السر وأحياناً من الكلمات نفسها أنك نبذت كل كفر واتحدت باللاهوت[١٨]].

فإن كانت الطقوس القبطية والسريانية والبيزنطية تركّز على الاعتراف بالمسيح والخضوع له والاتحاد به إلى جانب الإقرار بالإيمان بالثالوث، فلا يوجد لدي الطقس الأرمني صيغة للاعتراف بالمسيح أو الاتحاد به، حيث يكتفي هذا الطقس بالإقرار بالإيمان بالثالوث مردداً في ذلك قانون إيمان نيقية بأكمله.

(٢) الإقرار بالإيمان:

في الطقس القبطي يلقّن الكاهن الموعوظ أو إشبين الطفل قانون الإيمان قائلاً:

"أومن بإله واحد، الله الآب ضابط الكل

وابنه الوحيد يسوع المسيح ربنا

١٧- *DACL*, t. 2, p. 291

١٨- *PG* xxxv, col. 749

والروح القدس المحيي
وقيامة الجسد
والكنيسة الواحدة الوحيدة المقدسة الجامعة الرسولية آمين" .

أما نص قانون الإيمان كما أورده ابن كبر (+ ١٣٢٤م) فهو: "بالحقيقة اومن باله واحد الله الاب ضابط الكل، ووحيده الوحيد يسوع المسيح، وروح القدس البارقليط. الثالوث المقدس المساوي، وقيامة الاجساد. وكنيسه واحده مقدسه جامعه رسوليه امين.
ثم يسأله ثلاث دفعات أمنت وهو يعترف قايلاً امنت[19]".

ونورد هنا مقارنة بين نص الإقرار بالإيمان في كل من المخطوط (ط ١٩٣) والذي يعود تاريخه إلى سنة ١٦٧٣م، والمخطوط (ط ١٩٢) الذي يعود إلى القرن الثامن عشر، وهما من مكتبة دير القديس أنبا مقار.

مخطوط رقم ط ١٩٢	مخطوط رقم ط ١٩٣
انا اومن باله واحد اب ضابط الكل	نومن باله واحد الله الاب ضابط الكل
وابنه يسوع المسيح ربنا	وابنه الوحيد يسوع المسيح ربنا
والروح القدس المحيى	والروح القدس المحيى
وقيامة الاجساد	وقيامة الاموات الاجساد
وبالواحده الوحيده الجامعه الرسوليه	وبالواحده الوحيده الجامعه الرسوليه
البيعه امين	كنيسة الله امين

هذا هو قانون إيمان المعمودية المقدسة في الكنيسة القبطية، في صورته السحيقة في القدم. ولقد حافظت الكنيسة القبطية على هذه الصيغة القديمة حتى اليوم، ولم تستبدلها بصيغة قانون إيمان نيقية والقسطنطينية

١٩- كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كبر، الجزء الثاني (مخطوط)، مرجع سابق، الباب ١٥

كما فعلت كل الكنائس الشرقية الأخرى، بما فيها الكنيسة الكلدانية.

إلاّ أن الطقس الكلداني يُمارس ترديد قانون الإيمان (لمجمعيّ نيقية والقسطنطينية) أثناء تبريك الزيت[٢٠].

ومن رسالة للقديس كبريانوس الشهيد (+ ٢٨٥م) كتبها سنة ٢٥٧م، نتعرّف على ملامح صيغة من أقدم صيغ الإيمان التي تُقال على المعمودية، حين يقول:

[إن الأسئلة التي تُطرح على المتقدم للاستنارة تشهد بالحقيقة. فعندما نسأله: أتؤمن بالحياة الأبدية ومغفرة الخطايا بواسطة الكنيسة المقدسة؟...[٢١]].

ومن أقدم صيغ الإيمان أيضاً، قانون إيمان مختصر نجده عند القديس إيريناؤس (١٣٠- ٢٠٠م)، ووُجد كذلك في قانون إيمان آسيا الصغرى حوالى سنة ١٧٥م، وهو القانون الذي يُسمى Epistula Apostolorum ونصه: "أؤمن با لله الآب ضابط الكل، وبيسوع المسيح، وبالروح القدس، وبالكنيسة المقدسة، وغفران الخطايا[٢٢]".

والقديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات (٣٢٩- ٣٨٩م) يوضّح أن الاعتراف بالإيمان هو اعتراف بالثالوث القدوس فيقول:

٢٠- *DACL*, t. 2, p. 284

٢١- حنانيا كسّاب، مجموعة الشرع الكنسي، مرجع سابق، ٧٥٨. ونتعرّف من التقليد الرسولي على صيغة أخرى أكثر قدماً سيأتي ذكرها فيما بعد عند الحديث عن الاستجوابات الثلاثة.

٢٢- Gregory Dix, *The Treatise on The Apostolic Tradition of St. Hippolytus of Rome*, London, 1968, p. lxii.

[احفظ لي الوديعة الصالحة التي هي الاعتراف بالآب والابن والروح القدس[٢٣]].

ففي مجادلات آباء الكنيسة مع الأريوسيين، نجد أن القديسَين باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م) وغريغوريوس الناطق بالإلهيات (٣٢٩- ٣٨٩م) على سبيل المثال، يرجعان دائماً إلى مبدأ أن الاعتراف بالإيمان في المعمودية يستند على قاعدة الثالوث. وهو ما يحدده صيغة الذكصا التي تُردد في المعمودية، حيث أوجز الآباء قولهم بأن الأريوسيين كانوا قد أخطأوا عندما بدَّلوا أو غيّروا هذه الذكصا لكي يكسبوها معنى هرطوقياً.

والقديس غريغوريوس النزينزي (٣٢٩- ٣٨٩م) يقول:

[يجب أن نعمِّد كما تسلمنا، وأن نؤمن كما تعمَّدنا، وأن نمجد كما آمنا بالآب والابن والروح القدس، محافظين على الترتيب الذي تسلمناه من ذات صوت الرب الذي قال: «اذهبوا وتلمذوا كل الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس» [٢٤]].

وفي موضع آخر يقول أيضاً:

[اذكر الاعتراف، بماذا اعتمدت؟ بالآب والابن والروح القدس[٢٥]].

والقديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م) يؤكد ذلك في زمانه (نحو سنة ٣٩٦م) بأن الطقس الأنطاكي كان يقتضي ترديد قانون الإيمان كاملاً على المعمودية. والقديس يوحنا كاسيان قد حفظ لنا النص الكامل

٢٣- *PG* xxxii, col 417

٢٤- *PG* xxxii, col. 421

٢٥- *PG* xxxvi, col. 236

والقريب جداً من صيغة إيمان كنيسة أنطاكية عندما كان يتحدث بخصوص الأب نسطوريوس Nestorius حين يقول:

> [لنأت الآن إلى قانون الإيمان الأنطاكي، الإيمان الذي هو نفسه (أي نسطوريوس) قد تعمَّد ووُلد فيه من جديد...].

أما أفراهات السرياني (أوائل القرن الرابع الميلادي)، ففي واحدة من براهينه، ذكر التقليد الذي كان متبعاً في ترديد قانون الإيمان في المعمودية، حيث يردد الكاهن الصيغة أولاً ويتبعه الموعوظ بعد ذلك في ترديدها.

ولدى الطقس الأرمني مخطوطات كثيرة قديمة توضّح صيغة قانون الإيمان الذي يُقال على المعمودية. ففي مخطوط فنيسيا الذي يعود إلى القرن الثامن، وكذا بعض قصاصات لمخطوط قديم من باريس تشير كلها إلى أن قانون إيمان نيقية هو القانون الذي يُردد على المعمودية. ومن الحقائق المستقرة في الطقس الأرمني أن التقليد الأرمني لم يكن يعرف حتى القرن السادس أي قانون للمعمودية غير قانون نيقية، وهو القانون الذي تسلموه من الكنيسة اليونانية بواسطة القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م). ونحو القرن السادس الميلادي تبنى الأرمن شكلاً جديداً لقانون إيمان هو بمثابة شرح لقانون الإيمان النيقاوي، وإلى زمن طويل ظل هذا الشرح منسوباً للقديس أثناسيوس الرسولي، ولربما كانت الكنيسة الأرمنية قد استعارته من الكنيسة السريانية الأنطاكية. ومنذ ذلك الوقت صار هو قانون إيمان كنيسة أرمينيا. وهو القانون الذي يحفظونه حتى

اليوم سواء في المعمودية أو في ليتورجية القداس الإلهي[٢٦].

أما عن الطقس القبطي القديم، فالجدول التالي يعقد مقارنة بين قوانين هيبوليتس (القانون ١٩: ١٢، ١٣) وقوانين الرسل القبطية (المراسيم المصرية) (القانون٣٤: ٩، ١٠، ١١) في هذا الجزء من الطقس ليشير إلى الصيغة القديمة لقانون الإيمان الذي يُقال على المعمودية والتي ظل الأقباط يحفظونها حتى اليوم، وهو قانون إيمان الكنيسة القبطية قبل أن يُعرف قانون إيمان نيقية.

قوانين هيبوليتس	قوانين الرسل القبطية
والذي يعمدونه يحول وجهه إلى الغرب ويقول هكذا: إني أجحدك يا إبليس، وكل خدمتك.	وإذا مسك القسيس واحداً واحداً من الذين يتعمدون، فيأمره أن يزدري ويقول: إنيّ ازدري بك يا إبليس، وبكل خدمتك، وبكل أفعالك النجسة.
فإذا قال هذا، فليمسحه القسيس بزيت الاستحلاف الذي صلى عليه، أن يزول عنه كل روح خبيث.	فإذا اعترف بهذا فيمسحه بزيت الاستحلاف قائلاً: لُيبعد عنه كل روح خبيث.
ويدفعه شماس للقسيس الذي على الماء. فيمسك القسيس يده اليمنى، ويحوّل وجهه إلى الشرق وهو قائم على الماء. ويقول هكذا من بعد ما نال زيت الاستحلاف: إني أؤمن وأنحني لك ولخدمتك كلها أيها	وهكذا يدفعه للأسقف عرياناً أو القسيس القائم على ماء المعمودية. ثم ينزل معه الشماس إلى الماء، ويلقّنه قائلاً له: أتؤمن بالله وحده، الآب ضابط الكل، وابنه الوحيد يسوع المسيح ربنا ومخلصنا، وروحه

٢٦- *DACL*, t. 2, p. 295

قوانين هيبوليتس	قوانين الرسل القبطية
الآب والابن والروح القدس.	القدوس محيي كل الخليقة، الثالوث المساوي، لاهوت واحد، ورب واحد. وبمملكة واحدة، وبأمانة واحدة، وبمعمودية واحدة في الكنيسة الجامعة، وبحياة أبدية؟ والمعتمد يقول أيضاً مثل هذا، وإنني أؤمن.

واضح من المقارنة السابقة أن الإقرار بالإيمان في قوانين هيبوليتس قد أخذ صورته البسيطة وهي الإيمان بالثالوث القدوس، أما في قوانين الرسل القبطية فقد امتدت صيغة الإقرار بالإيمان لتشمل الاعتراف أو الإقرار بمعمودية واحدة، وبالحياة الأبدية إلى جانب الإيمان بالثالوث القدوس. وهي صيغة قريبة من طقس كنيسة أورشليم كما يقدمها لنا القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م) حيث يقول:

[حينئذ تعترف قائلاً: أؤمن بالله الآب والابن والروح القدس، وبمعمودية واحدة للتوبة[٢٧]].

أما صيغة الاعتراف بالإيمان في الطقس القبطي الحالي كما سبق أن ذكرنا، فهي تشمل إلى جانب الإيمان بالثالوث القدوس، الإيمان بقيامة الجسد، وبالكنيسة الواحدة. وهنا تلزم الإشارة إلى أن الإقرار بقيامة الجسد قد ورد في النص اللاتيني القديم لقوانين الرسل القبطية (المراسيم الرسولية).

٢٧- *PG* 33, p. 1073

(٣) الاستجوابات الثلاثة:

بحسب الطقس القبطي الحالي: يسأل الكاهن المعمِّد أو الإشبين ثلاث مرات قائلاً: آمنت؟ أو آمنت على هذا الطفل؟ فيجيبه ثلاث مرات: آمنت.

وعن هذه الإجابة المختصرة بعينها يقول القديس كيرلس الكبير:

> [من الضروري أن نفهم أننا نظهر لله اعتراف الإيمان أيضاً عندما سئلنا من قِبَل الرجال المنوط بهم العناية بالأمور المقدسة والكهنوت، فأجبنا "آمنت" وقت نوال العماد المقدس(٢٨)].

وينفرد الطقس القبطي بترديد كلمة "آمنت" ثلاث مرات في نهاية إعلان الإيمان تقابلاً مع مرات الجحد الثلاث "أجحدك" التي رددها في نهاية جحد الشيطان. هذه هي المرة الأولى التي يعلن فيها المعمِّد أو من ينوب عنه إيمانه جهراً على مشهد من كثيرين، فيالها من لحظة مهيبة.

هنا يأتي دور الأسئلة والأجوبة على مياه المعمودية قرب لحظة التغطيس في المياه، أما الوثائق القديمة فنجد فيها أن الأسئلة تكون أكثر طولاً، وهي في صيغتها المطوّلة في التقليد الرسولي لهيبوليتس وقوانين هيبوليتس والمراسيم المصرية قد اختصرت في الطقس القبطي الحالي إلى سؤال من كلمة واحدة "(هل) آمنت؟" والإجابة أيضاً في كلمة واحدة "آمنت". هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالأسئلة تكون بين الغطسات الثلاث في الماء وليس قبلها كما في الطقس الحالي، ولذلك سوف نعود إلى الحديث عن هذه الاستجوابات الثلاثة عند حديثنا في الفصل السابع

٢٨- *PG* lxxiv, col. 49- 50. cf. *DACL*, t. 2, p. 265

عن الغطسات الثلاث، فهذا هو موقعها القديم في الطقس.

ولقد أشار القديس كيرلس الكبير (٤١٢- ٤٤٤م) إلى هذه الأسئلة والأجوبة، شارحاً ما تعنيه، والعمق الذي يكمن من ورائها، وذلك في تفسيره للأصحاح الحادي عشر من إنجيل القديس يوحنا، تعقيباً على قول السيد المسيح لمرثا: «أتؤمنين بهذا؟» (يوحنا ١١:٢٧). وذلك في معرض حديثه عن معجزة إقامة لعازر من الموت، فيقول[٢٩]:

[لقد شرحنا سابقاً قوة السر الكائن في ذاته (أي في المسيح)، واتضح لنا جلياً أنه هو بالطبيعة الحياة والإله الحقيقي. فالسر يتطلب الإيمان به والتسليم له مؤسساً على هذه الطريقة (أي طريقة السؤال والجواب) نموذجاً للكنائس. إذاً فينبغي ألاّ نرمي بكلماتنا في الهواء عندما نعترف بالسر الجليل، بل بالحري نثبّت جذور الإيمان في القلب والعقل حتى تحمل ثمراً يثمر في اعترافنا مؤمنين بهذا دون تردد أو ارتياب. لأن الرجل ذا الرأيين هو متصلف ومتردد من جهة الإيمان وغير متزن في كل طرقه.

إنه من الضروري أن نوقن أننا نعترف بإيماننا لله برغم أننا نُسأل بواسطة أناس أُنيط بهم خدمة الأقداس، وذلك عندما نقول: "أؤمن" عند منح المعمودية المقدسة. لأننا عندما نقول ذلك غشاً وننزلق تجاه عدم الإيمان، فإن ذلك يكون بالنسبة لنا أمراً مرعباً، فإن الرب نفسه يكون قاضياً وشاهداً على حماقتنا لأنه هو القائل: «أنا الشاهد يقول الرب» (إرميا ٢٩:٢٣).

٢٩- *PG* lxxiv, col. 49- 50

ويجب أن نلاحظ أنه كما كان لعازر مطروحاً ميتاً، فلأجله وبطريقة ما، فقد طُلب من المرأة (أي أخته) سنداً للإيمان. ومثال ذلك أيضاً نجده بين الكنائس، لأنه عندما يُحضر طفل مولود حديثاً new born babe إما لقبول الدهن بزيت الاستقسام أو لقبول المعمودية المقدسة كاملة، فإن الشخص الذي يحضره يجيب عنه بصوت مرتفع "آمين". ونيابة عن هؤلاء الذين أصيبوا بأمراض تقترب بهم من حافة الموت، وذهبوا لينالوا المعمودية وهم على هذه الحال، فإن بعض الأشخاص يرددون نيابة عنهم جحد الشيطان، ويعلنون نيابة عنهم ارتباطهم بالمسيح كعمل محبة عندما يعيرون أصواتهم لأولئك الذين لا يقدرون على الكلام لمرضهم. وهو الأمر الذي نراه قد حدث في حالة لعازر وأخته. فمرثا بحكمة وفطنة سبقت فنثرت الاعتراف بالإيمان لكي تعود بعد ذلك فتحصد ثماره (أي قيامة أخيها لعازر من الموت)[٣٠].

هنا وضوح ما بعده وضوح لجوانب كثيرة من سر المعمودية في الكنيسة القبطية في القرن الخامس الميلادي، وبفم رئيس أساقفة الكنيسة نفسه. فأمامنا العناصر التالية: جحد الشيطان، الارتباط بالمسيح، الاعتراف بالإيمان، الاستجوابات. بالإضافة إلى وضوح معمودية الأطفال، ضرورة الإيمان الذي يسبق المعمودية سواء كان إيمان الموعوظ الذي يقدر أن يجيب عن نفسه أو إيمان من يجيب عن الطفل المعمَّد، أو

٣٠- Our Father Among The Saints Cyril, Archbishop of Alexandria *on The Gospel According To John*, London, 1885, Book VII, xi, p. 25- 27

المريض الذي لا يقدر على الكلام.

كما أنه يتضح لدينا أيضاً أن الدهن بزيت الاستقسام وهو المرحلة الأخيرة من مراحل جحد الشيطان، كان لايزال طقساً مستقلاً عن طقس التعميد نفسه، أي النزول في مياه المعمودية، وفي كلا الطقسين، يظهر لدينا أن الإشبين يجيب نيابة عن المعتمد "آمين" **بصوت مرتفع**.

بعد الاعتراف بالمسيح، والإقرار بالإيمان، والاستجوابات الثلاثة، يقول الشماس: من الرب نطلب.

يقول الكاهن: "أيها السيد الرب الإله ضابط الكل أبو ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح الذي خلق كل شئ. رب السماء والأرض... ثبّت طاعة عبيدك هؤلاء، ولتكن فيهم قوة لكي لا يعودوا دفعة أخرى إلى ما تركوه. وطّد إيمانهم لكي لا يفرّقهم منك شئ. رتبهم على أساس إيمانك الرسولي، وادعهم إلى نورك الطاهر، واجعلهم أهلاً لنعمتك العظيمة. عرّهم من عتيقهم وجدد حياتهم. املأهم من قوة روحك القدوس، بوحدانية وعزاء ابنك الوحيد. لكي لا يكونوا بعد أبناء الجسد بل أبناء الحق، ويصيروا عبيداً حكماء وأمناء بالمسيح يسوع ربنا...".

هذه الطلبة العميقة المعنى غاية العمق، توضّح أن الثبات في الإيمان الذي أعلنه الموعوظون للتو وديمومة ثباتهم في النعمة التي اقتبلوها، ليست من اجتهاد ذاتي، أو من تصميم بشري خلواً من معونة إلهية. لكنها قوة الله، وقوة روحه القدوس التي تحفظ أبناء الحق في النور الطاهر، نور المسيح، كي يصيروا عبيداً حكماء أمناء كقول الإنجيل المقدس: «فمن هو الوكيل الأمين الحكيم الذي يقيمه سيده على خدمه ليعطيهم العلوفة في حينها...» (لوقا ١٢:٤٢).

ويتضح لنا من هذه الطلبة تاريخها الموغل في القدم، إذ نجد أنها تتفق في أجزائها الرئيسية مع الصلاة التي يقولها الكاهن في الطقس

البيزنطي في نفس هذه المرحلة من طقس المعمودية، وهي الصلاة التي تبدأ بعبارة: "أيها السيد الرب إلهنا...". ونورد هنا مقابلة بين النص القبطي ونظيره البيزنطي لهذه الطلبة المقدسة.

النص القبطي	النص البيزنطي
ادعهم إلى نورك الطاهر	ادع عبدك هذا إلى نورك المقدس
اجعلهم أهلاً لنعمتك العظيمة	أهله لعظيم نعمة معموديتك المقدسة
عرّهم من عتيقهم	وانزع عنه العتاقة
وجدد حياتهم	جدده للحياة الأبدية
املأهم من قوة روحك القدوس	واملأه من قوة روحك القدوس
بوحدانية وعزاء ابنك الوحيد	لاتحاد مسيحك
لكي لا يكونوا بعد أبناء الجسد بل أبناء الحق	لكي لا يكون فيما بعد ابناً للجسد، بل ابناً لملكوتك

(٤) إحناء الركب للمرة الثانية:

يحنون ركبهم، ويطلب الكاهن عنهم قائلاً:

"أيها السيد مخلصنا محب البشر، صانع الخيرات، أنت وحدك الذي يُكمّل لك هذا السر... عبيدك الذين التجأوا إليك واحنوا لك ركبهم... فتش خزائن نفوسهم وأضئ عيون أفهامهم بنور المعرفة. كل سحر، وكل تعزيم، وكل فعل شيطان رده عنهم، وكل بقايا عبادة الأوثان وعدم الإيمان، اطرحها من قلوبهم. هيئ أنفسهم لكي يقبلوا روحك القدوس...".

ويتبقى أمامنا قبل نزول مياه المعمودية الدهن بزيت الغاليلاون (زيت الفرح) ووضع اليد مع الصلاة.

الفصل الرابع

الدهن بزيت الغاليلاون

معنى كلمة "غاليلاون":

الزيت المستخدم في هذه المسحة السابقة للمعمودية يُسمى "زيت الاستقسام"، أو "زيت الفرح" كما ذكرنا من قبل. ويظن البعض أن كلمة "غاليلاون- Gallielaion " تعني "زيت الفرح". ولكن المرادف اليوناني القريب لهذه الكلمة هو Καλλιε΄λαιος أي "زيتون جيد"، أو "زيتون نقي". ذلك لأن كلمة "غاليلاون - Gallielaion " هي بعيدة عن أن تكون تعريباً للكلمة اليونانية ἔλαιον ἀγαλλιάσεως أي "زيت الفرح"، أو للكلمة اليونانية الأخرى ἅγιον ἔλαιον أي "زيت مقدّس".

وبرغم ذلك فإن تعبير "غاليلاون" قد ارتبط بمعنى "زيت الفرح"، وهو ما أشار إليه بوضوح مخطوط رقم ٢٥٣ بالمتحف القبطي، وهو الخاص بخدمة تكريس الغاليلاون، ويعود تاريخه إلى سنة ١٣٦٤م، حيث نجد نصاً بالقبطية ترجمته: "لأجل الغاليلاون المقدس. زيت الفرح[١]".

تاريخ الدهن بزيت الغاليلاون:

هذه المسحة السابقة للعماد مباشرة ذات تقليد عريق، ومشهود لها منذ القرن الثالث الميلادي. ومعروفة في جميع الطقوس الشرقية باستثناء

١- O. H. E. Khs Burmester, *The Egyptian or Coptic Church,* 219 & *BASC.*, t. 11, p. 69

الطقس الأرمني!.

وأقدم إشارة لمسحة الزيت السابقة للمعمودية جاءت في "أعمال توما" فنقرأ: "فرفع هو الزيت وسكبه على رأسها قائلاً: زيت مقدس معطى لأجل تقديسنا". وفي موضع آخر يقول: "وإذ قال الرسول هذا، سكب الزيت أولاً على رأس وازانيس οὐαζανοῦ ثم على النساء قائلاً: باسمك يا يسوع المسيح، ليكن (هذا الزيت) لهذه النفوس من أجل غفران خطاياهم. ومن أجل رد العدو عنهم، ومن أجل خلاص نفوسهم. وأمر النساء أن يدهن (ميجدونيا)، وأما هو فقد دهن (وازانيس). وبعد أن دُهن كل من وازانيس والنساء اقتادهم إلى الماء وعمدهم باسم الآب والابن والروح القدس[٢]".

ولقد ورد ذكر لهذه المسحة السابقة للمعمودية في كتاب المراسيم الرسولية Apostolic Constitutions (النصف الأول من القرن الرابع) حيث يقول: "وبعد (أن ينطق بـ) هذا الوعد يأتي أيضاً بحسب الترتيب إلى مسحة الزيت، وهذا الزيت يُبارَك بواسطة الكاهن (ليكون) لغفران الخطايا وللتهيئة للمعمودية".

وأشار إليها أيضاً خولاجي سرابيون تحت عنوان: "صلاة لدهن الذين يقبلون المعمودية[٣] – Εὐχὴ εἰς τὸ ἄλειμμα τῶν βαπτιζομένων. أما كلمة βαπτιζομένων فهي اسم فاعل مضارع مبني للمجهول، وتفيد أن المسحة المشار إليها هي مسحة سابقة على المعمودية، حيث لم تأت الكملة βαπτισαμένων والتي تعني "الذين نالوا المعمودية" أي أن تكون المسحة لاحقة للمعمودية[٤].

٢- Mas Bonnet, *Acta Apostolorum Apocrypha*, 10, p. 68, 82

٣- *Journal of Theological Studies*, 1900, p. 264

٤- سنورد جانباً من هذه الصلاة الهامة فيما بعد.

ويشير إلي هذه المسحة أيضاً كتاب "الرتب الكنسية" المنسوب لديونيسيوس الأريوباغي، وهو من مدونات القرن الخامس الميلادي فيقول: "والكهنة يحملون الزيت المقدس الذي للمسحة[٥]".

ويقول القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م) عن هذه المسحة:

[... وبعد عهدي الرفض والموافقة، وبعد أن تعترف بسيادة المسيح... توضع على جباهكم علامة الصليب... إن ا لله يمسح جباهكم ويختمها بعلامة الصليب... هذا الزيت هو مزيج من زيت الزيتون والطيب... ولكي تعلموا أنه ليس إنسان بل ا لله نفسه هو الذي يمسحكم بيد الكاهن، فاسمع بولس الرسول عندما يقول: «الذي يثبتنا معكم في المسيح وقد مسحنا هو ا لله» (٢ كورنثوس ١:٢١) وبعد أن **يمسح كل أعضائكم** بهذا الزيت تكونون في أمان...[٦]].

ويقول أيضاً:

[... بعد هذا وفي ظلام الليل ينزع (الكاهن) عنك رداءك كما لو كان يقودك إلى السماء ذاتها عن طريق الطقس **ليدهن جسدك كله** بزيت الزيتون الروحي، لكي تتقوى كل أطرافك ولا تنهزم من السهام التي يوجهها نحوك المعاند...] (تعليم المعمودية ٢:٢٤).

والقديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م) يشبّه الموعوظ بمصارع يتقبّل الدهن بالزيت **في كل أجزاء جسمه** لكي يستطيع مقاومة هجمات

٥- *PG* 3, p. 396 cf. *BASC.*, t. 11, p. p. 69

٦- تعليم المعمودية ١١:٢٧

العدو بعد أن جحده للتو علانية وأمام شهود كثيرين(٧).

وطبقاً لما ذكره القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م) فإن طالب المعمودية الذي خلع ملابسه كان يقتبل الدهن بهذا الزيت **على كل جسده من هامة رأسه إلى أخمص قدميه**. فيقول:

> [يخلعون ثيابهم، ويُدهنون بالزيت من قمة الرأس إلى أسفل. والمشتركون يصبحون زيتونة مغروسة في يسوع المسيح بعد أن قُطعوا من الزيتونة البرّية طُعموا في الزيتونة الجيدة(٨)].

ويشير إليه على أنه الغرس في الزيتونة الصالحة الجديدة(٩)، فيقول:

> [زيت الجحد إذاً هو مثال لاشتراككم في دسم المسيح، وهو قوة تطرد تماماً كل بقايا القوات المضادة. لأنه كما أن نفخ القديسين ودعاء اسم الله هو مثل اللهب الشديد يحرق ويطرد كل الأرواح الشريرة، هكذا أيضاً زيت الجحد يأخذ مثل هذه الفاعلية باستدعاء الله والصلاة، لا لكي يحرق وينقي كل آثار الخطيَّة فحسب، بل أيضاً لكي يطرد بعيداً كل القوات غير المنظورة التي للشرير] (تعليم المعمودية ٢٠:١-٣)

هذه هي المسحة الثانية بالزيت في الطقس القبطي. فالمسحة الأولى هي مسحة الموعوظين في بدء صلوات طرد الشياطين، وهذه المسحة الثانية في الطقس القبطي تكون بعد جحد الشيطان والاعتراف بالمسيح

٧- *Hom. vi, in Coloss.*, n. 4

٨- *DACL*, t. 2, p. 278

٩- انظر: رومية ١١:١٧- الخ.

والإقرار بالإيمان بالثالوث، وهي تسبق قداس تبريك الماء. فهي المسحة التي يُمسح بها جسد الموعوظ قبل نزوله مياه المعمودية.

ونكرر ما سبق أن ذكرناه وهو أن المسح بزيت الاستحلاف كان يعقب جحد الشيطان مباشرة، وقبل الاعتراف بالإيمان كما ذكرت قوانين هيبوليتس القبطية والمراسيم المصرية وكتاب عهد الرب وغيرها من الوثائق القديمة. ولكن منذ حوالي منتصف القرن الرابع الميلادي أو بعده بقليل نجد أن الدهن بزيت الاستحلاف يأتي بعد الاعتراف بالمسيح والإقرار بالإيمان.

معنى المسح بزيت الغاليلاون قبل النزول إلى المياه:

ماذا يعني إذاً الدهن بزيت الاستقسام قبل النزول إلى مياه المعمودية؟ وهو الزيت التي اتفقت كل الطقوس على تسميته زيت الفرح، أو زيت الابتهاج.

الدهن بهذا الزيت يشير إلى الطيب الذي دهنت به المرأة جسد الرب يسوع لتكفينه (متى ١٢:٢٦)، وأيضاً إلى ما عمله يوسف ونيقوديموس لتكفين جسد الرب بالأطياب قبل دفنه في القبر (يوحنا ٣٨:١٩ -٤٢).

ولقد اتفقت أقدم النصوص التي ذكرت المسح بزيت يسبق المعمودية على أنه للتقديس، وخلاص النفس، وغفران الخطايا، ورد العدو عن كل إنسان يُدهن به.

واتفقت التقاليد القبطية والسريانية والتقليد القديم لكنيسة أورشليم على أنه الغرس في الزيتونة الجديدة، وأنه سلاح ضد كل أعمال العدو الشيطان. أما التقليد البيزنطي فلم يقدم معنى واضحاً للدهن بهذا الزيت سوى كونه لشفاء النفس والجسد على وجه العموم.

ولقد انفرد التقليد القبطي دون سواه بتقديم أعمق معنى لهذا المسح بالزيت قبل النزول إلى مياه المعمودية على أنه "تجديد" للنفس والجسد والروح باستعلان يسوع المسيح بواسطة هذه المسحة كي يزيل كل أثر للخطيَّة وكل تشويش سبّبه الشيطان لهذه الخلقة، مانحاً الغفران بنعمته الخاصة. ولقد عبّر عن هذا المعنى البديع صلاة خاصة بمسح المعمدين الجدد بالزيت وردت في خولاجي القديس سرابيون أسقف تمويس (القرن الرابع) وهي الصلاة التي تقول:

"أيها السيد محب البشر، ومحب النفس[١٠]، الرؤوف الرحوم[١١]، يا إله الحق[١٢]، نتضرع إليك واثقين بمواعيد ابنك الوحيد الذي قال «من غفرتم خطاياهم تغفر لهم[١٣]» فندهن بهذا الزيت المتقدمين والمتقدمات لهذا الميلاد الإلهي الجديد. نطلب لكي يمنحهم ربنا يسوع المسيح به **قوة شافية ومثبّتة**، لكي يُستعلن الزيت ويشفي من نفوسهم وأجسادهم وأرواحهم كل أثر للخطيَّة والإثم أو سبب شيطاني، وأن يمنحهم المغفرة بنعمته الخاصة، حتى بعد أن يبتعدوا[١٤] عن الخطيَّة يحيوا في البر. **ولكيما يتجددوا بواسطة هذه المسحة**، ويتطهروا بالحميم[١٥]، فيستطيعون أن يقهروا سائر القوات المهاجمة والمعاندة لهم، وخداعات هذه الحياة. ولكي يرتبطوا متحدين بقطيع ربنا ومخلصنا يسوع المسيح، ويرثوا المواعيد[١٦] مع القديسين. لأن به لك المجد والقدرة في الروح القدس إلى كل آباد الدهور آمين".

١٠- الحكمة ٢٦:١١
١١- مزمور ١٥:٨٥
١٢- مزمور ٦:٣٠
١٣- يوحنا ٢٣:٢٠
١٤- الفعل ἀπογένομαι = يبتعد - يموت - لا يشترك في.
١٥- تيطس ٥:٣
١٦- عبرانيين ١٢:٦، ٩:١١

الدهن بزيت الغاليلاون في الطقس القبطي:

وفي الطقس القبطي، وبحسب تعليمات كتاب المعمودية نقرأ الآتي:

يأخذ الكاهن الزيت المقدس (الغاليلاون) ويدهن به الذي يعتمد في قلبه، وذراعيه، وقدام قلبه إلى خلف، ووسط يديه، بعلامة الصليب قائلاً:

"أدهنك يا (فلان) بدهن الفرح، مضاداً لكل أفعال المضاد. لتُغرس في شجرة الزيتون اللذيذة، في كنيسة الله المقدسة الجامعة الرسولية آمين".

فيقول الشماس: آمين.

وهو نفس ما يذكره ابن كبر (+ ١٣٢٤م) مع تشويش في أماكن الرشم حيث يقول: "ثم يأخذ الغاليلاون المقدس ويدهن به الذين يُعمَّدون على قلوبهم وأدرعتهم وقدام قلوبهم ومن خلفها وفي ظهورهم ووسط أكفهم بمثال الصليب. ويقول: ادهن فلاناً بدهن التهليل يطارد كل اعمال المضاد وينبت في اصل الزيتون الدسم بالكنيسة الجامعة الرسولية المقدسة التي لله امين[١٧]".

أما البابا غبريال الخامس فهو أول من أشار إلى وجود ستة وثلاثين رشماً بزيت الغاليلاون فيقول: "... وبعد ذلك يقول الاواشي المدونه الى عند الرشم بالغاليلاون. ويسمى دهن النفي. اعني نفي الارواح الشريرة من الانسان. وعدته ست وثلاثون رشم. يمسك وعا الغاليلاوون بلفافة بيضاء مكرزة ويبتدى الكاهن اولا وهو يقول Ϧⲉⲛ ⲫⲣⲁⲛ ⲙⲫⲓⲱⲧ وبعدها ⲥⲉⲑⲱϩⲥ ⲙ̀ⲙⲟⲕ وهذا ترتيب الرشم. النافوخ١، المنخرين٢، الفم١، الادن اليمنى١، العين اليمنى١، العين اليسرى١، الادن اليسرى١، القلب١، السوّة١، الظهر١، الصلب١، الكتف الايمن١، والابط تحته١،

---

١٧ - كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كبر، الجزء الثاني (مخطوط)، مرجع سابق، الباب ١٥

الكوع الايمن١، ومتناه١، الكف الايمن بالمفصل١، واعلاه١، الكتف الايسر١، واعلاه١، مفصل الورك الايمن من فوق١، والحالب من اسفل١، الركبة١، واسفلها١، الرجل اليمنى مع العقب١، واعلى الرجل١، مفصل الورك الايسر من فوق١، والحالب اسفله١، الركبة١، وخلفها١، الرجل اليسرى١، واعلاها١، الجملة ٣٦ رشم ويكون رشم جميعهم ملتصقين بعضهم ببعض من غير انفصال. ودلك انه اذا رشم الرشم لا يرفع يده من على جسد الطفل. لكن يمشّي اصبعه على الاعضا بالغاليلاون وكذلك رشم الميرون حسب دلك وادا انتهي دلك. يمسح فم الوعا ويشيلها مكانها ويمسحها جيداً ويمسح يده جيداً في لفافه مكرزه. ويقول كيرياليصون٣ ويقول بقية الاواشي المدونه في الكتاب الى آخرها[١٨]".

ويتفق المخطوط (ط ١٩٢)، وهو بتاريخ سنة ١٧٦٣م، مع ما ذكره القس أبو البركات ابن كبر (+ ١٣٢٤م) في مواضع الرشم بزيت الغاليلاون، حيث يقول: "بعد هذا تاخد الغاليلاون الزيت المكرز تدهن المتعمد في قلبه وادرعته وقدام قلبه الى خلف ووسط يداه الاتنين بعلامة الصليب...". بينما يتفق المخطوط (ط ١٩٣) وهو من القرن السابع عشر مع ما ذكره البابا غبريال الخامس من حيث إيراده لـ ٣٦ موضعاً يُرشم فيها الطفل في سائر جسده. ولكن من الواضح أن مخطوط القرن السابع عشر لم ينقل عن مخطوط البابا غبريال أو حتى عن مخطوط شبيه به، حيث يقسّم الـ ٣٦ رشم إلى مجموعات، كل مجموعة تختص بصلاة خاصة بها.

ومن كل ماسبق ذكره يلاحظ القارئ أن كتاب المعمودية يميل في تعليماته الطقسية بخصوص مراسيم المعمودية إلى ما ذكره القس أبو البركات ابن كبر (+ ١٣٢٤م)، أكثر مما ذكره البابا غبريال الخامس

١٨- الترتيب الطقسي للأنبا غبريال الخامس، مرجع سابق، ص ٦٠٥

(١٤٠٩- ١٤٢٧م) في كتابه "الترتيب الطقسي". إلاّ أن ما يذكره البابا غبريال الخامس بخصوص دهن الموعوظ في كل أجزاء جسمه يتمشى مع التقليد العام القديم للكنيسة الشرقية كما سبق أن رأينا في طقس كنيسة أورشليم وكنيسة القسطنطينية كما يصفه القديس يوحنا ذهبي الفم.

يتضح إذاً لدينا أن كتاب المعمودية وكتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة (القرن الرابع عشر) ومخطوط القرن السابع عشر (ط ١٩٣) تتفق كلها على أن المسح بزيت الغاليلاون هو في ستة أجزاء من جسم المعمَّد أي قلبه وذراعيه وظهره وكفيه. بينما كتاب الترتيب الطقسي (القرن الخامس عشر) ومخطوط القرن الثامن عشر (ط ١٩٢) تتفق على مسح جسد المعمَّد في ستة وثلاثين موضعاً من جسده، وهو تقليد قبطي لا تعرفه الكنائس الأخرى، ويُظن أنه ذات أصول فرعونية إنتقلت إلى الطقس القبطي، حيث كان يُظن قديماً أن الروح النجس يمكنه الدخول إلى جسم الإنسان من ٣٦منفذاً في جسمه. وهو ما سنعود إليه عند الحديث عن المسح بزيت الميرون المقدس.

الدهن بزيت الغاليلاون في الطقوس المختلفة:

لقد احتفظ الطقس القبطي بمراسيم قديمة تقوية فيما يختص بالمسح بزيوت المعمودية. فالكهنة فقط وليس الشمامسة أيضاً - كما في الطقوس الأخرى - هم المنوط بهم وحدهم الدهن بالزيت. والوثائق المصرية القديمة لا وجود فيها لأي ذكر يختص بخدمة الشماسات في طقوس منح المعمودية. إلاّ أن الطقس الأثيوبي يذكر أن مسح النساء بالزيت يجب أن يُتمم بواسطة العذارى[١٩]، وربما كان ذلك محاكاة

١٩- cf. Horner, *The Statutes of the Apostles*, p. 171

متأخرة ظهرت واستقرت أولاً في سوريا، ومنها انتشرت إلى باقي الكنائس الشرقية[٢٠].

والطقس البيزنطي يؤخّر المسح بزيت الاستحلاف إلى ما قبل سكب الميرون على ماء المعمودية مباشرة، أي بعد تقديس مياه المعمودية (قداس المعمودية) وبعد تقديس الزيت نفسه[٢١]. فيتناول الكاهن قليلاً من الزيت ويدهن به بشكل صليب:

أولاً : على جبهته، قائلاً: يُمسح (عبد الله) بزيت الابتهاج على اسم الآب والابن والروح القدس. آمين.

ثانياً: على صدره، وعلى ظهره قائلاً: لشفاء النفس والجسد.

ثالثاً: على أذنيه، قائلاً: لسماع الإيمان.

رابعاً: على يديه، قائلاً: يداك صنعتاني وجبلتاني.

خامساً: على رجليه، قائلاً: ليسلك في سبلك يارب.

وهي في مجموعها تكوّن تسعة رشومات.

أما الطقس السرياني – ومعه الطقس الماروني – فهو يمارس المسح بالزيت على الجبهة بعد تبريك المياه وقبل العماد مباشرة. ويُسمى الزيت في الطقس السرياني بزيت الفرح، وذلك من خلال الصيغة التي تصحب الدهن به: "فلان يُمسح بزيت الفرح لكي يتسلح بواسطته ضد كل أعمال العدو، ويُغرس في جزع الزيتونة في كنيسة الله المقدسة الجامعة الرسولية". وهي نفس الصيغة التي يستخدمها الطقس القبطي تماماً، ولكن بدلاً من تعبير "فلان يُمسح" في التقليد السرياني، جاء التعبير في التقليد القبطي "أدهنك يا فلان". ونورد هنا هذه الصيغة متقابلة بين

٢٠- *DACL*, t. 2, p. 267

٢١- سيأتي توضيح ذلك عند الحديث عن قداس المعمودية.

الطقسين القبطي والسرياني.

الطقس القبطي	الطقس السرياني
أدهنك يا فلان	فلان يُمسح
بدهن الفرح	بزيت الفرح
مضاداً لكل أفعال المضاد	لكي يتسلح بواسطته ضد كل أعمال العدو
لتُغرس في شجرة الزيتون اللذيذة	ويُغرس في جزع الزيتون
في كنيسة الله المقدسة الجامعة الرسولية آمين	في كنيسة الله المقدسة الجامعة الرسولية

أما كتاب عهد الرب فاحتفظ لنا بالصيغة التالية: "امسحك بهذا الزيت المقُسم عليه للنجاة من كل روح شرير ونجس، وللنجاة من كل شر". وهي صيغة مشابهة لما أوردته الدسقولية في نصها اللاتيني الذي يقول: "امسحك بهذا الزيت للتحرر من كل روح شرير ونجس، فلا يوجد دواء آخر لطرد الروح النجس إلاّ بواسطة التطهير المقدس، والعماد المقدس".

أما القديس أفرآم أسقف أديسا، فقد عرف صيغة يُذكر فيها اسم الثالوث الإلهي، فيقول: "إن الروح يمسح قطيعه بنار خفيّة باسم الثالوث الذي به يُطرد الروح الشرير[٢٢]".

وهذه المسحة السابقة للمعمودية صارت موضوع جدال عنيف بين عدد من اللاهوتيين الغربيين بسبب غياب الإشارة إلى أية مسحة بالزيت بعد المعمودية في التقليد الأنطاكي القديم. فالمسح بزيت الميرون بعد المعمودية لا أثر له عند القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م)،

٢٢- *DACL*, t. 2, p. 278

ولا في تعليم الرسل، ولا في العظات الليتورجية للأسقف نارسيس، ولا في سواها من الوثائق. ولقد أدي هذا الغياب إلى نقاش حاد حول "التثبيت" وعلاقته بالمعمودية[٢٣].

فطبقاً لطقس يعقوب الرهاوي (أسقف أديسا) يتم دهن الجسد كله بزيت الموعوظين ويعقب ذلك مباشرة تبريك مياه المعمودية، ثم التعميد. وهذا هو الدهن الوحيد بالزيت في هذا الطقس. ولكن طقس القديس يعقوب السروجي (٤٥١- ٥٢١م) لديه مسحان بزيت الاستقسام يفصل كل منهما عن الآخر صلوات تبريك مياه المعمودية. ولكي نحاول أن نفسّر عدم التوافق في طقس الدهن بزيت الاستقسام في التقليد السرياني، نجد أن الدهن الأول بالزيت هو ثلاثة رشومات على الجبهة، مع صيغة تُقال هي: "أرشمك يا (فلان) بزيت الفرح... باسم الآب (آمين)" ثم "باسم الابن (آمين)"، ثم "باسم الروح القدس (آمين)". أما الدهن الثاني والذي يسبق التغطيس في مياه المعمودية مباشرة فيتم بدهن الجسد بنفس الزيت دون مصاحبة لأي صيغة تُقال.

وفي الحقيقة، كان الطقس يحوي في أصوله الأولى دهناً واحداً بالزيت، ولكن في وقت ما انشطر هذا الدهن إلى قسمين منفصلين تميّز كل منهما مراسيم خاصة. والتعليمات الطقسية المختصة بذلك والتي وردت في كتاب الرتب الكنسية Les Hierarchies Ecclésiastiques المنسوب لديونيسيوس الأريوباغي توضح لنا جلياً هذا التداخل. وكذلك كتاب "الدسقولية - تعاليم الرسل" الذي يشير بوضوح لمعمودية النساء عندما يقتبلن الدهن بالزيت لحظة نزول الماء، فيقول أن الأسقف يبدأ بدهن الموعوظة المرأة برشم الصليب على الجبهة ثلاث مرات، ثم يترك للكهنة (أو للشماسات حسب جنس المعمَّد) مهمة تكميل دهن الجسد كله.

٢٣- الأب ألكسندر شيمان، بالماء والروح، مرجع سابق، ص ٢٤٢،٢٤٣

أما الأسقف فبعد أن يُتمم الرشومات الثلاثة السابق ذكرها، يقترب إلى جرن المعمودية ليباشر صلوات تبريك مياه المعمودية. ولازالت كتب الطقس الأنطاكية تحفظ هذه المراسيم كما ذكرها رنودوت، حيث يمسح الكاهن جبهة الموعوظ بالزيت، أما الشماس فيقوم بدهن الجسد كله، وفي أثناء ذلك يبارك الكاهن مياه المعمودية.

أما الطقوس الأنطاكية الحالية لخدمة المعمودية، فلا وجود فيها لدور يقوم به الأسقف أو الشماس، إذ أصبح الكاهن هو الذي يمارس الدهن ثلاث مرات على الجبهة، وبعد ذلك يقدّس مياه المعمودية، ثم يكمّل دهن جسد الموعوظ كله بنفس الزيت بعد تقديس مياه المعمودية، وهي صلوات طويلة. ولما لم يكن هناك صيغ خاصة تُقال أثناء هذا الدهن الثاني، فقد حلّ محلها بعض ألحان مستعارة من ألحان القديس أفرآم السرياني، لملء الوقت، بالإضافة إلى طلبة أخرى استطاعت هي الأخرى أن تزحزح وقت دهن الجسد بالكامل إلى اللحظات الأخيرة، رغبة في تأخير اللحظة التي يلزم أن يخلع فيها الموعوظ كل ملابسه.

بالإضافة إلى أن كتب الطقس السريانية التي تكلمت عن تعميد الأطفال خصوصاً لا تذكر شيئاً عن خدمة تمارسها الشماسات في دهن النساء قبل عمادهن برغم أن الكنيسة السريانية قد احتفظت إلى زمن طويل بدور الشماسة في دهن النساء المقبلات للمعمودية.

فيقول قانون للقديس يعقوب الرهاوي "عندما تتقدم نساء بالغات لنوال سر العماد، فإن الشمَّاسة تمسحهن بتكليف من الكاهن". ونفس الشيء نجده في إجاباته القانونية ses resolutiones canonicæ حيث يذكر: "والشماسات يقمن بدهن النساء البالغات في المعمودية[٢٤]".

٢٤- انظر: نوموكانون ابن العبري.

وفي نهاية القرن الثاني عشر أدرج البطريرك ميخائيل السرياني (+ ١١٩٩م) الذائع الصيت في كتاب الطقوس الكهنوتية إشارة تختص بخدمة الشماسات أوضح فيها أن خدمتهن في المعمودية لم تعد لازمة، لأن العماد يُمنح لأشخاص في سن مبكرة، و لم يعد الاحتياج إلى الشماسات لعدم وجود نساء بالغات يُعمَّدن. إلاّ أنه يذكر أن الأسقف يستطيع أن يكرِّس شماسة عند اللزوم إن احتاج لخدمتها[٢٥].

وفي الطقس الماروني وعند دهن المعتمد بالزيت قبل نزوله الماء يقول الكاهن صلاة: "... ليأت أيها السيد روحك الحي القدوس، ويحل على رؤوس عبيدك، ويستقر فيهم، وليتقبلوا (به) دسم الآب الحي والابن الوحيد... فلتتقدس أجساد ونفوس عبيدك الموسومين بك، ... ولتمتلئ ضمائرهم بمعرفتك، ولتمتلئ أذهانهم من الإيمان بك، ليرفعوا لك التسبحة، ولمسيحك، ولروحك الحي القدوس الآن وإلى الأبد".

أما عن الطقس الأرمني، فإننا نندهش إذ لا نجد أي أثر لهذه المسحة السابقة للمعمودية. إذ احتفظ التقليد الأرمني برتبة (طقس) تكريس الزيت فقط[٢٦]. ففي مخطوط فينيسيا الذي يحوي طقس المعمودية الأرمني، ويعود للقرن الثامن الميلادي والذي حققه ونشره الرهبان الأرمن الكاثوليك سنة ١٨٣٢م، يذكر يوحنا أسقف أودسون Odson طقساً لمسح الموعوظ بالزيت، وهو واقف على باب الكنيسة أو باب حجرة المعمودية. وفي موضع آخر من المخطوط يقول أيضاً: "يجب أن يبارك الكاهن زيت الموعوظين بالقدر الكافي الذي يكفي لدهن كل المعمَّدين، وأن يستنفذه أولاً بأول بعد استعماله. ولا يجب أن يجسر

٢٥- *DACL*, t. 2, p. 280, 281

٢٦- الطقوس الشرقية، مرجع سابق، ص ٨٦، ٨٩

الكاهن ليبارك من جديد الزيت الذي تبارك من قبل، ويمسح به الذين يأتون للمعمودية".

ولكن لا وجود لأي أثر لصلاة تبريك لهذا الزيت المشار إليه، ولا للدهن به في هذا الجزء من طقس المعمودية، لا في المخطوطات القديمة، ولا في كتب الطقس المطبوعة. أما صلاة البركة على الزيت فقد عادت للظهور ثانية فيما بعد القرن الثامن بزمن طويل وذلك ضمن طقس تقديس مياه المعمودية، وصيغتها تشير إلى دهنٍ ما أو مسح بالزيت كان يُمارس، وقد سقط من الطقس و لم يعد معروفاً بعد(٢٧).

وفي هذا الطقس الأرمني، فللأسقف والكاهن فقط حق منح المعمودية أما الشمامسة فيُمنعون صريحاً بالتدخل في هذه الخدمة. ففي القانون رقم ١٦ للبطريرك نيرسيس الأرمني: "يجب أن يحرص الشمامسة جداً، ولا يتجرأون على منح المعمودية لئلا يكون ذلك لهلاكهم".

أما بخصوص النساء فممنوع عليهن المشاركة ليس في خدمة المعمودية فحسب، ولكن أيضاً في ممارسة وظيفة الشماسات كما في الكنيسة السريانية فيقول القانون الأرمني: "يجب ألاّ تتجرأ النساء ويساعدن الكاهن الذي يعمِّد، كما سمعنا أنهن يقمن بدور شماسات. ولكن فليقفن في أماكنهن، وليخدم الشمامسة الكاهن(٢٨)".

وفي الطقس الكلداني يأتي مسح الموعوظ بالكامل في مرحلة متأخرة من الطقس. فالكاهن يرشم الموعوظ بعلامة الصليب على صدره، والشمامسة يمسحون جسمه كله بالزيت، وهي الممارسة الشبيهة بما يمارسه السريان. ويرى العالم الليتورجي ديتريش Diettrich – وهو محق

٢٧- *DACL*, t. 2, p. 296

٢٨- *DACL*, t. 2, p. 296

فيما يراه – أن الرشم البسيط للصليب consignation الذي يقوم به الكاهن تجاه الموعوظ كان من الواجب أن يكون أساساً لبداية المسح بالزيت لكل الجسم كما عند السريان. وقد قرر السنودس النسطوري الذي اجتمع في قطر Qatar في زمن البطريرك جورج الأول، وهو خليفة إيشوعاب الثالث (+ ٦٧٦م) قرر أن تكميل مسح كل الجسد بالزيت للنساء البالغات يجب أن يتم بواسطة شماسات يُخترن من المؤمنات العفيفات. وهي تعليمات جديدة قد أُدخلت على الطقس القديم[٢٩].

صلاة وضع اليد للمرة الثانية:

يقول الشماس: "من الرب نطلب".

يقول الكاهن: "أيها السيد الرب الإله ضابط الكل، نصرخ نحو اسمك القدوس المبارك لكي تفتش وتطرد كل القوات المارقة والمضادة عندما نطلب إليك يا سيد بجميع قديسيك. فتش قلوب عبيدك الذين تقدموا إلى حميم نعمتك، وإن كان شر الشيطان مخفياً فيهم اكشفه. وليُعلن. اطرده من نفوس وأجسام عبيدك المؤمنين باسمك القدوس، جدد حياتهم، واجعلهم أهلاً بغير عيب وبطهارة أن يقبلوا إليهم النور وخاتم مسيحك، وموهبة روحك القدوس المساوي لك. ويصيروا حلة نورانية، ويلبسوا لباس الخلاص، وسلاح الإيمان الذي لا يُغلب، والذي لا يُقاوم من المضادين لنا، وليصيروا خرافاً ضمن قطيعك، وبنيناً لخدرك السمائي، ووارثين لملكوتك غير الفاسد الأبدي بالمسيح يسوع ربنا، هذا الذي... الخ".

يقول الشماس: "صلوا".

وأخيراً يقول الكاهن صلاة يختتم بها كل الطقوس السابقة، وهي الصلاة التي يعقبها مباشرة تقديس مياه المعمودية، وقد جمعت فيها تقريباً كل المفاعيل التي تبغي الكنيسة المقدسة نقلها إلى المقبلين للسر المقدس.

٢٩- *DACL*, t. 2, p. 284

آملين أن يقرأها القارئ الحبيب بتمهّل وتأمّل، لأنها في الحقيقة هي هي الصلاة المقدسة التي قيلت لأجله يوم معموديته، وإن كانت يومئذ قد قيلت في غيبة من إدراكه، فهي اليومَ مكشوفة ومعلنة أمامه ليقيس عليها حياته التي يحياها، هل هي وفق مشيئة الله وكنيسته؟

يقول الكاهن: "أيها الأزلي السيد الرب الإله، الذي جبل الإنسان كصورته ومثاله، الذي أعطانا سلطان الحياة الدائمة، ثم لما سقط في الخطينة لم تتركه، بل دبرت خلاص العالم بتأنس ابنك الوحيد ربنا يسوع المسيح.

أنت يارب أنقذ أيضاً جبلتك هؤلاء من عبودية العدو. اقبلهم في ملكوتك. افتح أعين قلوبهم ليستضيئوا بضياء إنجيل ملكوتك. ولتصحب حياتهم ملائكة النور، ليخلصوهم من كل مؤامرة، ومن المصادفة الرديئة، ومن سهم طائر في النهار، ومن شيطان الظهيرة، ومما يسلك في الظلمة، ومن خيال الليل.

انزع من قلوبهم كل الأرواح النجسة، الروح الخبيث الذي يقلق قلوبهم، وروح الضلالة وكل خبث، روح محبة الفضة وعبادة الأوثان، روح الكذب وكل نجاسة تُصنع كتعليم إبليس.

اجعلهم خرافاً للقطيع المقدس الذي لمسيحك، أعضاء نقية للكنيسة الجامعة، أواني طاهرة، أبناء النور، وارثين لملكوتك، لكي يجاهدوا كوصايا المسيح، ويحرسوا الخاتم من أي سارق، ويحفظوا اللباس بغير اضمحلال، ويفوزوا بطوباوية أصفيائك بالمسيح يسوع ربنا، هذا الذي من قبله يليق بك معه ومع الروح القدس المجد والإكرام... الخ[٣٠]".

هذه الصلوات المطوّلة التي تعقب جحد الشيطان والاعتراف بالإيمان يحتفظ بها الطقس القبطي فقط دون سواه من الطقوس الأخرى[٣١].

٣٠- صلوات الخدمات في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، مرجع سابق، ص ٣٦

٣١- الطقوس الشرقية، مرجع سابق، ص ٨٢

الفصل الخامس

تقديس مياه المعمودية

معنى تقديس مياه المعمودية:

يُسمى جرن المعمودية في اليونانية κολυμβήθρα (كوليمفيثرا) وهي نفس الكلمة القبطية التي تتردد في صلوات الكاهن أثناء تقديس مياه المعمودية، وترد الكلمة بنصها في قداسات اللقانات الثلاثة في الكنيسة القبطية.

وتُسمى المعمودية أيضاً ioρδάvης (يوردانيس) أي الأردن. والمقصود بالكلمة عموماً إمتلاء الجرن بالماء[1]. فتعبير "الأردن" هو لقب جرن المعمودية، وهو أيضاً اللقب الذي يُلقّب به اللقان في صلوات اللقانات، وذلك في التسبحة ومردات الشمامسة وأرباع الناقوس.

وفي الطقس القبطي - ويشاركه الطقس الكلداني والطقس الماروني - يكون تقديس مياه المعمودية على نمط طقس القداس، وعبارات تقديس المياه تحل محل الأنافورا. أما السريان فهم أكثر إيجازاً، ولذا يكتفون بإيقاد شمعتين توضعان على جانبي جرن المعمودية، والصليب موضوع على الجرن، حيث يتلو الكاهن صلاة مختصرة[2].

١- *BASC.*, t. 11, p. 55

٢- الطقوس الشرقية، مرجع سابق، ٨٥، ٨٦

وتتمسك الكنيسة الشرقية عموماً بتقليد عـام وهـو أن تـبريك مياه المعمودية لا يكون إلاَّ في لحظة العماد نفسها، حيث تعيـد تجديـد هذه الخدمة في كل مرة يُمنح فيها هـذا السـر المقـدس. أمـا الكنيسـة الغربية فتقـدِّس جـرن المعموديـة وميـاه المعموديـة في السـبت المقـدس الكبير، وعشية عيد العنصرة فقط من كل سنة. ولعـل هـذه الممارسـة هي الوحيدة المتبقية للكنيسة الغربية تذكاراً للاحتفال المهيـب بطقـس التعميد الذي كان يتم في هذين اليومين من السنة الليتورجية.

وعلى الرغم من أن تبريك مياه المعمودية لا يسـتند علـى نـص صريح لكتاب العهد الجديد، إلاَّ أن القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) يعتـبره أحـد الممارسـات الـتي تعتمـد علـى التقليـد الشـفاهي الخالص فيقول:

[العقائد والممارسات التي تقبلها وتحفظها الكنيسـة، بعضها يستند على التعليم المكتوب، والبعض قبلناه سراً وهو تسليم الرسل. وهذان هما دعامة الإيمان الصحيح، ولهم نفس القوة. وهذا لا يعترض عليه أحد لاسيما مـن توفّـرت لـه خـبرة بممارسـات الكنيسـة... وإذا رفضنـا عادات الكنيسة فسوف نجرح الإنجيل نفسه، بـل نحـوّل التعليم إلى اسـم بـلا معنـى... تقديـس ميـاه المعموديـة والميرون وطريقة قبول وتعميد الموعوظين هل لها مصـدر مكتوب؟ أليس مصدر كل هذا هو التسليم السري؟... الخ[٣]].

ولطقس تبريك مياه المعمودية شـهادات قديمـة تعـود إلى نهايـة

٣- *De spiritu sancto*, c. xxvii, 66

القرن الثاني الميلادي[٤]. وإن التفكير في تكريس مياه المعمودية بواسطة صلوات مرتبط في الحقيقة بمبدأ ورثته الكنيسة المسيحية من المخلّص نفسه، بأن عنصر الماء هو واسطة للخلقة الجديدة. ولقد عبّر كل من كتاب راعي هرماس، ورسالة برنابا (القرن الثاني الميلادي) بوضوح عن المفاعيل السرائرية لمياه المعمودية، تلك المياه التي نالت التقديس كما قال عنها فيما بعد القديس إيريناؤس (١٣٠- ٢٠٠م):

> [بالماء المقدَّس واستدعاء الرب نحصل على الحرية من الرذائل السابقة[٥]].

وقوانين هيبوليتس (القرن الخامس الميلادي) تكلمت هي الأخرى عن مياه مقدَّسة للمعمودية، لكنها لم تحدد ما إذا كانت تعني تحديداً صلوات تبريك وتقديس لهذه المياه.

ومنذ بداية القرن الثالث الميلادي فإن التأكيد على فعل مياه المعمودية كفعل سرائري أصبح مكتملاً. وفي نفس هذا الوقت ظهرت الشهادات والوثائق القاطعة الواضحة عن تبريك أجران المعمودية. ويوضح العلامة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م) في كتابه عن المعمودية De baptismo أن الله يستودع في المياه قوته الإلهية بفعلين للبركة، تقتبلهما المياه، الفعل الأول من الروح القدس في البداية، والثاني من الدعاء لله L'invocation de Dieu في لحظة العماد نفسها، فيقول:

> [... فطبيعة المياه التي تقدست بالروح القدس صارت تقدِّس هي أيضاً، لذلك فكل المياه التي تقدست من البداية يتم سر التقديس فيها باستدعاء الله، فيحل

٤- *DACL*, t. 2, p. 685

٥- *PG* vii, col. 1247- 1248

الروح من السموات فوق المياه مقدساً إياها بذاته[٦]].

ويضيف بقوله إنه لا يوجد هنا شئ غير قابل للتصديق، فالأمميون أنفسهم ألا ينسبون للماء المطهَّر (بالصلاة) تأثيراً عجيباً فيقول:

[المياه التي تقدست هكذا تحصل على قوة التقديس،
وتُمنح المياه هذه القوه بسلطان الله[٧]].

فهذه هي القوة الإلهية التي تكمِّل فعلها فينا بواسطة مياه المعمودية، وكان العلامة ترتليان يجيب بذلك على أولئك الذين لم يروا فيها - أي في مياه المعمودية - سوى سحر خالص. وهذا التعليم قد وُجد في عدد من الشهادات الآبائية في القرنين الثالث والرابع للميلاد، والتي تشير إلى تبريك أجران المعمودية. وكل الصيغ الليتورجية المقدسة لطقس تبريك المياه تذكّرنا بما قاله القديس كبريانوس الشهيد (+ ٢٨٥م):

[إن الماء وحده لا يقدر أن يطهِّر الخطايا، ويقدِّس الإنسان، ما لم يكن له أيضاً الروح القدس[٨]].

وهذا الحضور للروح القدس يتم بواسطة تبريك الكاهن:

[يجب أن يطهَّر ويقدَّس الماء أولاً بواسطة الكاهن
حتى يقدر بالمعمودية أن يغسل خطايا الإنسان الذي يُعمَّد[٩]].

وهذا هو أحد الأسباب التي جعلت القديس كبريانوس يرفض

٦- Tertullien, *De baptismo*, c. iii- iv

٧- *ibid.*

٨- St. Cyprien, *Epist.*, lxxiv, 5

٩- St. Cyprien, *Epist.*, lxx, 1

الاعتراف بمعمودية الهراطقة فيقول:

[كيف يمكن لأولئك الذين لا يملكون الروح القدس فيهم أن ينقلوه إلى مياه المعمودية[١٠]].

والقديس باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م) يتبع هو أيضاً هذا التقليد فيقول:

[... إن النعمة ليست من المياه، فهي بذاتها لا تستطيع أن تعطينا شيئاً، وإنما حضور الروح القدس. ولذلك قيل عن المعمودية أنها ليست لإزالة وسخ الجسد، بل سؤال الضمير الصالح عن الله (١ بطرس ٣:٢١)[١١]].

ويوضّح القديس أمبروسيوس (٣٣٩- ٣٩٧م) بكل دقة أن الروح القدس هو الذي يقدِّس المياه بالصلوات الكهنوتية فيقول:

[... الذي (أي الروح القدس) يقدس المياه بالصلوات الكهنوتية التي يُستدعى بها[١٢]].

ويؤكد القديس أمبروسيوس نفس هذه العلاقة بين صلوات تبريك المياه وحضور الروح القدس فيها فيقول:

[عنصر الماء شيء، والتقديس شيء آخر. الممارسة هي بالماء، أما الفعل فهو بالروح القدس. فالماء لا يشفي إن لم يحل الروح القدس ويقدِّس هذا الماء... فعندما يدخل الكاهن يتم الجحد... ثم يتم الاستدعاء والصلاة ليقدِّس

١٠- *ibid.*

١١- *De spiritu sancto*, c. xv, 35

١٢- *De mysteriis*, c. iv, 19

الجرن، ويتم حضور الثالوث السرمدي[١٣]].

وقد تحدث القديس أغسطينوس (٣٥٤- ٤٣٠م) عن فعل مياه المعمودية بعد تبريكها فيقول:

[إنزع الكلمة Verbum، فلا يكون الماء سوى ماء مجرد. يأتي الكلمة Verbum إلى العنصر فيصير السر تحت علامة منظورة[١٤]].

ويبدو أن الكلمة اللاتينية Le Verbum تعني ليس فقط تلك الصيغة الثلاثية لتبريك الماء، ولكن أيضاً تبريك جرن المعمودية، إلى جانب الاعتراف بالإيمان الذي يُقال على المعمودية.

ويرى القديس أغسطينوس (٣٥٤- ٤٣٠م) في معرض دفاعه عن الإيمان ضد الدوناتيين Les donatistes أن صيغ تكريس الماء تأتي فعلها التقديسي بغض النظر عن إيمان أو استحقاق خادم السر، وهي نظرة خاصة للقديس أغسطينوس لم يتطرق إليها آباء الكنيسة الشرقية. بل إن القديس كبريانوس الشهيد (+ ٢٨٥م) يعتبر أن صحة إيمان خادم السر أساسية لتكميل السر، لأن الذي لا يمتلك الروح القدس لكونه خارج شركة الكنيسة الجامعة كيف يمكنه أن يمنح الروح القدس أو يستدعيه على المياه؟

ولقد أوردنا في كثير من هذه الشهادات الآبائية والتي بدأناها بالعلامة ترتليان ما يوضح أن صيغ تكريس المعمودية تتضمن مصطلحاً ليتورجياً هو "الاستدعاء - ἐπίκλησις"، وهو الاصطلاح الذي يُستخدم بكثرة عند الكتّاب اليونان الشرقيين، والذي فيه نطلب إلى الله أن يرسل

١٣- *De sacramentis,* 1.I, c. v, 15, 18

١٤- *In Ioann.,* Tract., lxxx, 3 & PL xxxv, col. 1840

روحه القدوس لتقديس المياه.

ويقول ثيؤدوريت (٣٩٣- ٤٦٦م):

[باستدعاء الثالوث القدوس تتقدّس طبيعة المياه[١٥]

τῇ ἐπικλήσει τῆς ἁγιάς Τριάδος ἁγιάζεται, τῶν ὑδάτων ἡ φύσις].

وهذا لا يعني تحولاً ظاهراً للعيان لمياه المعمودية عن خاصيتها كمياه، لكن المياه تكتسب قوة تقديسية باستدعاء الروح القدس أو أقانيم الثالوث القدوس، حيث تصبح واسطة لميلاد جديد في المسيح. وإننا لا نجد أي نص ليتورجي يدعو إلى تغيير مادة المياه إلى مادة أخرى. وكما يقول رينودوت Renaudot "سوف لا نجد في أي من هذه الصلوات طلباً لتغيير المياه إلى دم ربنا يسوع المسيح"، ومن جانب آخر فليس هناك في أي طقس من الطقوس ما يشير إلى أننا نوقّر المياه في ذاتها، مقدّمين لها عبادة أو تكريماً. فتبريك المياه عند آباء الكنيسة يعني أنها قد تقبّلت فعلاً خاصاً ذا قوة إلهية فعّالة بحلول الروح القدس فيها، لتصبح قادرة على منح نعمة الميلاد الجديد، وهنا تصير المياه أحد الوسائل التي اختارتها الكنيسة لتوزّع من خلالها النعمة التي استؤمنت عليها.

هذه الفعالية ذات الخاصية الإلهية التي استودعت في المياه ليست أبداً ذات قوة سحرية مثل تلك التي نقرأ عنها في العبادات الوثنية القديمة المليئة بممارسات طقسية تشبه في شكلها الظاهري الطقوس المسيحية، حيث يحتل فيها السحر والخرافات جانباً كبيراً، ونشير هنا إلى تلك التطهيرات التي كان الماء يلعب فيها دوراً بارزاً.

١٥- *PG* lxxxii, col. 268

ومع ذلك فإننا نتقابل مع تجاوزات في استخدام صيغ البركة التي تُقال على المياه، سواء من الهراطقة لاسيما الغنوسيين، أو بعد ذلك من خلال ممارسات هي نتاج خزعبلات بالية، أدانتها الكنيسة الجامعة باعتبارها أموراً غريبة عن النظم الشرعية فيها. ومن كلام القديس أغسطينوس عن صيغ تكريس مياه المعمودية يتضح لنا أن هذه الصيغ لم تكن ثابتة في زمانه، مما دفع كثيرين لأن يستخدموا صيغاً لم تكن قانونية، بل وُصفت أنها صيغ هرطوقية في نظر الآخرين(١٦).

إن الوثائق الليتورجية القديمة قد أمدتنا بمعلومات وفيرة عن طقس تبريك مياه المعمودية، ولكن هذه الوثائق لا تشير إلى نصوص صيغ البركة التي تقال على المياه مكتفية بالقول أنه ماء مُصلّى عليه أو مبارَكٌ عليه. بالإضافة إلى أن طقس تبريك المياه لا يحتل في الوثائق القديمة مكاناً ملفتاً كما تعطيه له كتب الطقس الحديثة في الكنيسة الشرقية، حيث احتل تبريك جرن المعمودية مكانة متقدّمة في هذه المراسيم. ويبدو لنا بموجب قوانين هيبوليتس القبطية أن تبريك جرن المعمودية كان ممارسة مستقلة تتم في الصباح بعيداً عن مراسيم التعميد نفسها.

أما خولاجي سرابيون وهو أقدم وثيقة نستمد منها نصاً لصلاة تبريك المياه، نجد فيه أن تبريك المياه يتم في بداية طقس المعمودية، ولكن بعد أن احتلت صلوات تبريك جرن المعمودية مكاناً قريباً جداً من لحظة التعميد نفسها، وقبلها مباشرة، فقدت طقوس جحد الشيطان والاعتراف بالإيمان أهميتها الأولى كطقوس لإعداد الموعوظين وتهيئتهم للنزول في مياه المعمودية. وهنا جاءت صلوات تبريك مياه المعمودية فاصلاً بين مراسيم إعداد الموعوظين وبين لحظة تغطيسهم في ماء المعمودية، وهو الطقس الذي استقر إلى اليوم في كل كتب طقس المعمودية في الكنيسة الشرقية.

١٦- *DACL*, t. 2, p. 687

المراسيم الشرقية القديمة لتبريك مياه المعمودية:

لا تعطينا المراسيم الشرقية القديمة أي نص ليتورجي لتبريك جرن المعمودية، كما سبق أن ذكرنا، ولكن الوثائق المتأخرة مثل خولاجي سرابيون (القرن الرابع)، وقوانين القديس باسيليوس (القرن الخامس أو السادس)، جعلت تبريك جرن المعمودية أو صلوات تكريس المياه في بداية الخدمة، وبعيداً عن فعل التعميد نفسه أي التغطيس في الماء. ومنذ القرن الرابع وبالذات في مصر، تأكدنا أن تعديلاً قد طرأ على مكان صلوات تكريس ماء المعمودية والذي احتل وضعاً متوسطاً بين فعلي الجحد والاعتراف بالإيمان من جهة وبين التغطيس في المياه من جهة أخرى، وذلك من الإجابات القانونية للبابا الإسكندري تيموثاوس الأول (٣٨٠-٣٨٥م)، وفي الكتابات المنسوبة لديونيسيوس الأريوباغي (القرن الخامس الميلادي)، وكذلك من طقس المعمودية القبطي في مخطوط يعود إلى القرن السادس الميلادي وقد نشره العالم الليتورجي أنطون بومشتارك[١٧] سنة ١٩٠١م. وهو نفس ما نراه أيضاً عند السريان في كتاب الطقس السرياني الذي دُوّن في القرن السادس الميلادي.

وهناك تطوير أو إضافة طرأت على مراسيم المعمودية المقدسة في كل الطقوس الشرقية، وقبل تبريك مياه المعمودية، وهي صلاة الكاهن لأجل ذاته L'apologia Sacerdotis، وهي الصلاة التي بدايتها: "أيها الرحيم الرؤوف المتحنن، الله فاحص القلوب والكُلى... الخ" وهي الصلاة التي وردت في مخطوط طقس المعمودية القبطي الذي يعود للقرن السادس الميلادي، والذي نشره بومشتارك، ومن مصر شاع استخدامها في كل الطقوس الشرقية الأخرى. ولقد حافظت كل الطقوس الشرقية

١٧- A. Baumstark, *Dans oriens christianus*, 1901, t. 1, p. 39

على موضع هذه الصلاة بعد الجحد وإعلان الإيمان والدهن بالزيت، كما هو موضعها في التقليد القبطي، باستثناء الطقس السرياني الذي أورد هذه الصلاة سابقة على الجحد وإعلان الإيمان. وهو ما سيتضح من الجدول الآتي ذكره.

أما صيغة تبريك جرن المعمودية والتي نجدها في النصوص المختلفة للطقس السرياني فقد دخلت شيئاً فشيئاً في كل الطقوس الشرقية الأخرى، وهي تتضمن فعل شكر وتسبيح للمخلّص كليّ القدرة، ثم صلاة استقسام، وفي النهاية تقديس للمياه. ولقد وُجدت هذه الصيغة بكل عناصرها مكتملة عند السريان واليونان من جهة، وعند الأحباش من جهة أخرى. ولكن عند الأحباش فإلى جانب الصيغة السابق ذكرها فهناك صيغة أخرى لديهم أخذوها عن الأقباط، وهي تتضمن كل عناصر الصيغة السريانية مع ترتيب مختلف قليلاً.

والجدول الآتي سيوضح ما ذكرناه الآن[١٨].

١٨- الأرقام المتشابهة والمدونة في بداية كل فقرة من فقرات الصلاة التي وردت في الجدول توضّح الصيغ المتشابهة أو المتوافقة في الطقوس المختلفة. بينما أن النص الآخر لصلاة تبريك المياه في كل من الطقسين القبطي والأثيوبي نجد فيه أن ترتيب الأرقام جاء متغيرا نوعاً.

صلاة تبريك مياه المعمودية المقدسة في الطقوس الشرقية المختلفة[١٩]

الطقس القبطي	الطقس الأثيوبي	الطقس السرياني	الطقس البيزنطي
الجحد	الجحد	الصلاة على الموعوظين	صلاة الاستقسام
الاعتراف بالإيمان	الاعتراف بالإيمان	صلاة الكاهن (سراً) عن نفسه: يا الله الرحيم المتحنن.. لا تسأم مني، لكن.. ساعدني في الخدمة..	الجحد
الدهن بالزيت	الدهن بالزيت	رشم الصليب على الجبهة	الاعتراف بالإيمان
صلاة الكاهن: أيها الرحيم[٢٠] الرؤوف[٢١] المتحنن[٢٢].. لا تمقتني.. وقوني لأعمل خدمة هذا السر..	صلاة الكاهن: أيها الرؤوف الرحيم المتحنن.. لا تتركني لكن.. أعطني القوة.. في هذه الخدمة.. يقول الكاهن: مبارك الله (الآب) ضابط الكل..	صلاة الاستقسام الجحد الاعتراف بالإيمان الدهن بالزيت	تبريك الجرن صلاة: يا الله المتحنن والرحيم.. لا تمقتني[٢٣].. لكن.. قوني للخدمة.. يقول الكاهن: عظيم أنت يارب، وعجيبة هي

١٩- *DACL*, t. 2, p. 697, 698

الطقس القبطي مأخوذ عن Denzinger, *Rit. Orient.*, t. 1, p. 218 sq. & Evetts, *The Rites of the Coptic Church*, 1888, p. 30- 35

والطقس الأثيوبي مأخوذ عن: Denzinger, *op. cit.*, p. 226 sq.

والطقس السرياني مأخوذ عن: Denzinger, *op. cit.*, p. 304, 282, 271, 312

والطقس البيزنطي مأخوذ عن: Conybeare, *Rit. Armen.*, p. 399- 401

٢٠- Miserator = ἐλεήμων

٢١- misericors

٢٢- clemens = εὐσπλαγχνος

٢٣- μὴ βδελύξῃ με وهي من الفعل βδελύσσομαι (انظر: رؤيا ٢١:٨)

الطقس القبطي	الطقس الأثيوبي	الطقس السرياني	الطقس البيزنطي
			أعمالك[٢٤]
		تبريك المياه	
	١- أيها الرب.. صانع كل الخلائق..	١- أيها الرب الإله ضابط الكل، خالق كل الخليقة..	١- لأنك أنت هو الله.. أتيت إلى الأرض..
	٢- اطلع على هذه المياه وامنحها بركة الأردن[٢٥]..	٢- اطلع على هذه المياه وامنحها بركة الأردن..	٢- .. احضر الآن.. وقدس هذا الماء، وامنحه بركة الأردن..
	٣- ليهرب منها كل ما يعوّق عملك في خليقتك، لأني دعوت اسمك.. المخوف على كل المقاومين لنا..	٣- ليبتعد عنها كل ما يشوه عمل يديك. لأن اسمك قد دُعي عليها.. لأنه مخوف للذين يقاومونه..	٣- ليهرب منه الذين يتآمرون على خليقتك.. لأني يارب قد دعوت اسمك.. الذي يخيف معاندينا
		النفخ في الماء	**النفخ في الماء**
	٤- لتبطل كل القوات المضادة	٤- فليُسحق يارب رأس التنين..	٤- لتنسحق.. جميع القوات المضادة
	٥- نسألك يارب، اجعله ماء حميم الميلاد الجديد	٥- لكن أنت يارب أظهرتك المياه.. حميم الميلاد الجديد	٥- لكن أنت أيها السيد، أظهر[٢٦] هذا الماء.. حميماً للميلاد الجديد
	استدعاء الروح القدس ارحمنا.. وارسل روح.. **ثم يكمل**		
	٦- اظهر يارب على هذه المياه،	٦- اظهرْ يارب على هذه المياه،	٦- اظهر[٢٧]* يارب على هذا الماء،

٢٤- Μέγας εἶ Κύριε καὶ θαυμαστὰ τὰ ἔργα σου

٢٥- benedictionem Jordanis

٢٦- ἀνάδειξον

٢٧- Ἐπιφάνηθι Κύριε

الطقس القبطي	الطقس الأثيوبي	الطقس السرياني	الطقس البيزنطي
	واجعل الذين يعتمدون فيها طاهرين ليخلعوا الإنسان القديم ويلبسوا الإنسان الجديد	وأعط الذين يعتمدون فيها أن يتحولوا.. ويخلعوا الإنسان القديم ويلبسوا الإنسان الجديد	وأعط الذين يعتمدون فيه أن يستحيلوا.. ويخلعوا الإنسان العتيق.. ويلبسوا الإنسان الجديد
		يأخذ قرن الميرون ويسكب على المياه ثلاث مرات على شكل صليب وهو يقول هلليلويا	يأخذ الكاهن قرن الزيت المقدس ويسكب منه على المياه ثلاث مرات على شكل صليب مرتلا: هلليلويا

صلاة بركة أخري:

رفعنا أعيننا إليك يارب. وأعين أنفسنا ناظرة نحوك..

١- نسألك أيها الرب.. الذي خلق السماء والأرض..

٢- اظهر وانظر إلى جبلتك هذه، أي هذا الماء. امنحه نعمة الأردن[٢٨]..

٥- أعطه قوة ليصير ماءً محيياً .. ماء حميم الميلاد الجديد.. أنعم على هذا الماء..

٤- انتهرهم (أي الشياطين) بقوتك العظيمة وليصيروا مشدوخين أمام علامة صليبك

٣- واسمك القدوس الذي ندعوه، المملوء مجداً، المخوف عند المقاومين لنا

٦- لكي يخلع الذين يعتمدون فيه الإنسان العتيق.. ويلبسوا الإنسان الجديد..

وليكن هذا الماء، وهذا الزيت مباركين.

وعند اليونان (الطقس البيزنطي) يحل محل (البند ١) دعاء طويل مستعار من صلاة تبريك مياه الغطاس[٢٩].

وقبل صلاة الاستقسام L'exorcisme (البند رقم ٤)، يتمم السريان واليونان نفخاً مثلثاً في المياه على شكل صليب، أما في الطقس الأثيوبي، فإن النفخ في المياه يسبق صلاة تبريك الماء.

٢٨- gratiam Jordanis

٢٩- هذا سندرسه بتوضيح عند حديثنا عن طقوس المناسبات الكنسية إن شاء الرب.

أما القسمان الأخيران (بندا ٥، ٦) فهما متطابقان بأسلوب أو بآخر مع فارق بسيط هو أن السريان قبل البركة الأخيرة (بند ٦) يستدعون الروح القدس épiclèse، وهو ما لا نتقابل معه في الطقوس الأخرى.

أما عن الصيغة الأخرى لتبريك المياه في كل من الطقسين القبطي والأثيوبي فقط فيتضح منها أنها قد أُخذت عن نفس المصدر القديم الذي نقلت عنه الصيغ السريانية والبيزنطية. وإن هذه الحقيقة المدهشة لهذه الوحدة بين الطقوس الشرقية في صورتها الأولية، وصيغ الصلوات ذات الأفكار المشتركة فيما بينها هي أمر يختص بالتقليد الشرقي القديم والأصيل والبعيد كل البعد عن الصيغ الغربية[٣٠].

عتاب المحبة لواقع نحياه:

إن تقديس مياه المعمودية أو "قدّاس المعمودية" يُصلى الآن - في كثير من الأحيان - بمعزل حتى عن حضور القِلّة القليلة التي تحضر طقوس التعميد "لتفرح" بتعميد طفلها أو أحد أقربائها دون مشاركة فعلية في ليتورجية المعمودية. وغالباً ما يكتفي الكاهن بحضور شماس مع مرتل الكنيسة لتتميم قداس المعمودية قبل حضور المعمَّد نفسه.

هذا القداس المهيب الذي كان يُمارس بحضور كل الشعب قبل بدء قداس ليلة العيد إن كان عيد الفصح أو غيره من الأعياد، ليذكّر كل واحد منّا كيف كانت شركته الأولى في المسيح والكنيسة. يرى نفسه فيه طفلاً صغيراً بريئاً اكتسى بالنور والتحف بالبر كشرط بدونه لا ميراث له في ملكوت السموات «إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات».

لقد تقلّص قداس المعمودية وانكمش، وأصبح يُمارس من وراء

٣٠- *DACL*, t. 2, p. 696

الستار، لا بل في غيبة من الكنيسة نفسها، وكأن فصول القراءات والإنجيل المقدس تقال على مياه المعمودية لا على مسامع الشعب، وماذا نقول عن صلوات الأواشي وترديد قانون الإيمان، والقبلة المقدسة، إذ لم يبق من كل هذه سوى تعليمات طقسية في كتب الطقس مثل: "يقول **الشعب**: رحمة السلام ذبيحة التسبيح"، يقول الكاهن: "الرب مع **جميعكم**"، "أين هي قلوبكم"، ونداء الشماس: "أيها الجلوس قفوا"، "وإلى الشرق انظروا"... الخ. كم واحد منّا حضر قدّاساً واحداً للمعمودية؟! ثم نعود نرثي لضعف الحياة الروحية وعدم تأصّل حياة الكنيسة فينا، وظننا أنه يمكننا بالعظات الروحية بمعزل عن الحياة الليتورجية في الكنيسة أن نغيث النفوس التي ذبلت وضعفت من جراء هزال شديد لحق بها، لأنها انفضّت عن نبع قوتها وغذائها الحقيقي وهو المشاركة الحية في الحياة الليتورجية الكنسية بدءًا من المعمودية، ومن المعمودية بالذات، لأنها مصدر حياة الكنيسة والباب المؤدي إليها. ألا ترى حبيبي أننا قد اعتدنا تسلق الأسوار؟!

الطقس القبطي لتقديس مياه المعمودية:

يتلخّص قدّاس المعمودية في الكنيسة القبطية في النقاط التالية:

١- سكب الزيت العادي على مياه المعمودية.

٢- صلاة سرية يقولها الكاهن.

٣- صلاة الشكر ورفع البخور.

٤- القراءات والإنجيل.

٥- السبع أواشي الكبار.

٦- طلبة: يا إله الأنبياء ورب الرسل.

٧- صلاة وضع يد

٨- صلاة سرية للكاهن وهو منطرح على جرن المعمودية.
٩- الثلاث أواشي الكبار.
١٠- قانون الإيمان.
١١- نضح الغاليلاون على مياه المعمودية.
١٢- النفخ في الماء ثلاث مرات مثال الصليب ورشمه بالصليب.
١٣- قدّاس المعمودية.
١٤- سكب الميرون على مياه المعمودية.
١٥- تحريك الماء.

والآن نعرض لهذه البنود في إيجاز.

(١) سكب الزيت العادي على مياه المعمودية:

يذكر كتاب المعمودية: يدخل الكاهن إلى المعمودية، ثم يأخذ الزيت الساذج (العادي) ويسكب منه فيها بمثال الصليب، ثم يقول:

"باسم الآب والابن والروح القدس إله واحد. مبارك الله الآب ضابط الكل آمين. مبارك ابنه الوحيد يسوع المسيح ربنا آمين. مبارك الروح القدس المعزي أمين. مجداً وإكراماً إكراماً ومجداً للثالوث القدوس الآب والابن والروح القدس. الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين".

أما مخطوط القرن السابع عشر (ط ١٩٣) بمكتبة دير القديس أنبا مقار، فيذكر: "اول ذلك يدخل الكاهن المعموديه المقدسه وتكون مهياه بالماء وايقونة ماري يوحنا المعمداني موضوعه، ويرتلوا الشمامسه Kcmapwoyτaλiewc بلحنها المعروف، ثم يصب من الزيت في الماء ثلاثة دفوع مثال الصليب قايلا (باسم الآب والابن والروح

القدس)[٣١].

ويسكب الزيت اول دفعه وهو يقول (مبارك الله الآب ضابط الكل آمين)،

ثاني دفعة (مبارك ابنه الوحيد يسوع المسيح ربنا)،
ثالث دفعة (مبارك الروح القدس المعزي آمين)،
ثم (مجداً وإكراماً...الخ) ".

أما كتاب "الترتيب الطقسي" للبابا غبريال الخامس (١٤٠٩-١٤٢٧م) فيذكر: "فإن كان البطريرك يعمد. فهاهنا يطلعوا يحضروه بالشمع. وعند حضوره إلى عند المعموديه يلاقوه (بـ) **Kcmapwoyt** بلحنها. ويأخذون عمامته في ستر (أي يكشف البطريرك رأسه). ويسكب الزيت في المعموديه مثال الصليب ثلاث مرات، ويكون شي يسير. ويقول الصلاه. وبعد ذلك يكملون **Kcmapwoyt** وبعدها للبطريرك[٣٢]. ويقول البطرك الشبهموت ϩⲓⲧⲉⲛ ⲛⲓⲉⲩⲭⲏ (أي صلاة الشكر) وان كان الكاهن هو المعمد يقولوا **Kcmapwoyt** والكاهن يعمل ما شرح...[٣٣]" .

وبمقارنة ما سبق ذكره مع ما ورد في كتاب المعمودية تتضح لنا الملاحظات التالية:

- لم يورد كتاب المعمودية لحن **Kcmapwoyt** في بداية قدّاس المعمودية وقبل سكب الزيت في المياه.
- لم يذكر كتاب المعموديَّة (الذي نشرته مكتبة المحبة) أن سكب الزيت في مياه المعمودية يكون ثلاث مرات. وكل مرة

٣١- ما بين القوسين ( ) ورد في المخطوط بالقبطية فقط.
٣٢- هو نفس ما يذكره المخطوط (ط ١٩٣) القرن السابع عشر.
٣٣- الترتيب الطقسي للأنبا غبريال الخامس، مرجع سابق، ص ٦

تكون باسم أحد الأقانيم الثلاثة. أما كتاب المعموديَّة المطبوع سنة ١٩٢٩م، بمعرفة القمص يوحنا غبريال، فيذكر ذلك حيث يقول في (ص ٨٩): "... ثم يأخذ الكاهن الزيت المقدَّس ويسكبه في الأردن (أي جرن المعمودية) ثلاث مرات بمثال الصليب لتقديس الماء قائلاً: ...".

- افتتاحية الرشومات هي: (باسم الآب والابن والروح القدس). دون إضافة عبارة (إله واحد آمين).

(٢) صلاة سرية يقولها الكاهن:

يصلي الكاهن صلاة سرية، بحسب كتاب المعمودية، يقول فيها:

"ادع عبيدك يا سيدي إلى نورك الطاهر. اجعلهم مستحقين هذه النعمة العظيمة التي للعماد المقدس. عرهم من الإنسان العتيق، وجدد ميلادهم بالحياة الأبدية. املأهم من قوة روحك القدوس، بمعرفة مسيحك، لكي لا يصيروا بعد أبناء الجسد بل أبناء الملكوت، بمسرة نعمة ابنك الوحيد يسوع المسيح ربنا، هذا الذي من قبله يليق بك معه ومع الروح القدس المجد والإكرام...الخ".

ويتفق مخطوط القرن الثامن عشر (ط ١٩٢) مع نص هذه الصلاة باستثناء عبارتين:

- "**ومعرفة مسيحك**" وليس "**بمعرفة مسيحك**" في قوله: "املاهم من قوة روحك القدوس، ومعرفة مسيحك...".
- "... **بل أبناء ملكوتك**" وليس "**أبناء الملكوت**".

أما مخطوط القرن السابع عشر (ط ١٩٣) الذي أورد نص الصلاة بالقبطية، وهو ما أغفله كتاب المعمودية، فجاء فيه النص هكذا:

"ادع عبيدك يا **سيدنا** إلى نورك **المقدس**، أهلهم إلى هذه النعمة العظيمة التي للعماد المقدس، عرهم من الإنسان العتيق، **ولِدهم** للحياة

الأبدية. املأهم من قوة روحك القدوس، **ومعرفة** مسيحك، لكي لا يكونوا بعد أبناء الجسد بل أبناء **لملكوتك** بالمسرة والنعمة التي لإبنك الوحيد...".

ثم يضيف المخطوط بقوله: وذلك جميعه بعد قراءة **Ⲕⲥⲙⲁⲣⲱⲟⲩⲧ**.

وهذه الصلاة موجودة أيضاً في الكنيسة اليونانية في طقس المعمودية، ووُجدت أيضاً مع بعض الإضافات أو الحذف في طقس المعمودية السرياني، وكذلك في ترتيب المعمودية الذي وضعه القديس ساويرس الأنطاكي (٤٦٥- ٥٣٨م).

ومنذ أواخر القرن الرابع الميلادي نسمع عن صلاة تُصلى على جرن المعمودية، ففي مخطوط مؤرخ بتاريخ سنة ٧٠٨ش/ ٩٢٢م، يذكر صلاة مقدسة على جرن المعمودية معروفة منذ سنة ٣٨٥م، في السنة الأولى لحبرية البابا ثاؤفيلس (٣٨٥- ٤١٢م) بطريرك الإسكندرية الـ ٢٣ فيقول المخطوط: "وعندما يملأون الجرن κολυμβήθρα بالماء، يتقدّم رئيس الأساقفة مع باقي الأساقفة ويصلّون على جرن المعمودية[٣٤]".

(٣) صلاة الشكر ورفع البخور:

يصلي الكاهن صلاة الشكر ويرفع البخور.

(٤) القراءات والإنجيل:

والقراءات مرتبة ترتيباً يناسب السر وهي:

٣٤- *BASC.*, t. 11, p. 71

البولس: من رسالة القديس بولس الرسول إلى تلميذه تيطس (٢:١١- ٣:٨) «... ولكن حين ظهر لطف مخلصنا الله وإحسانه، لا بأعمال في بر عملناها نحن، بل بمقتضى رحمته خلّصنا بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس، الذي سكبه بغنى علينا بيسوع المسيح مخلصنا...».

الكاثوليكون: وهو من رسالة يوحنا الرسول الأولى (٥:٥- ١٤): «من هو الذي يغلب العالم إلاّ الذي يؤمن أن يسوع المسيح هو ابن الله، هذا الذي أتى بماءٍ ودمٍ (أي) يسوعُ المسيح، لا بالماء فقط بل بالماء والدم. والروح هو الذي يشهد، لأن الروح هو الحق. فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلثة الآب والكلمة والروح القدس، وهؤلاء الثلثة هم واحد. والذين يشهدون في الأرض هم ثلثة الروح والماء والدم والثلثة هم واحد...».

الإبركسيس: وهو فصل من سفر أعمال الرسل (٨:٢٦- ٤٠)، وهو عن تعميد خصيّ كنداكة ملكة الحبشة بيد فيلبس الشماس. وفيه نرى بكل وضوح كيف تهب المعمودية لمقتبليها - من بين ما تهب لهم - الفرح الروحي. فرح أبناء الله بأبيهم السماوي.

مزمور الإنجيل: «طوباهم الذين غُفرت لهم آثامهم وسُترت خطاياهم. طوبى للرجل الذي لم يحسب له الرب خطيَّة ولم يوجد في فمه غش. الليلويا» (مزمور ٣١:١،٢).

الإنجيل المقدس: وفيه يقول الرب لنيقوديموس: «الحق الحق أقول لك، إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت السموات...» (يوحنا ٣:١- ٢١).

هذه هي فصول القراءات في قدّاس المعمودية، وهي نفس الفصول التي أوردها القس أبو البركات ابن كبر (+ ١٣٢٤م) في موسوعته

"مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة[٣٥]". وكذلك مخطوط القرن السابع عشر (ط ١٩٣)، والثامن عشر (ط ١٩٢) بمكتبة دير القديس أنبا مقار.

وعن علاقة فصل الكاثوليكون بالمعمودية يقول القديس أمبروسيوس (٣٣٩- ٣٩٧م):

[إننا نقرأ أن الشهود الثلاثة في المعمودية: الماء والدم والروح هم واحد (١ يوحنا ٥: ٧)، لأنك إذا انتزعت واحداً منها لما وُجد سر المعمودية. لأنه إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله (لوقا ٣: ٥). والآن حتى الموعوظ يؤمن بصليب الرب يسوع الذي به قد خُتم هو أيضاً، ولكنه إن لم يعتمد باسم الآب والابن والروح القدس فلا يمكن أن ينال غفران الخطايا، ولا أن يحصل على هبة النعمة الروحية] (في الأسرار فصل ٤).

وبحسب قوانين الرسل القبطية فإن سماع الإنجيل المقدس كان يصاحب كل مراحل إعداد الموعوظين للمعمودية "فإذا شهد لهم الذين أتوا بهم أنهم فعلوا هكذا، فليسمعوا الإنجيل بدءًا من اليوم الذي يقدمونهم فيه" (القانون ١: ٣٣: ٢).

وتشترك الطقوس القبطية والكلدانية والأرمنية في وجود قراءات الفصول الخاصة بالمعمودية في بداية تقديس المياه، أما عند السريان والموارنة، فتأتي القراءات في بداية طقس المعمودية نفسه. أما في الطقس

٣٥- كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كبر، الجزء الثاني (مخطوط)، مرجع سابق، الباب ١٥

البيزنطي فتأتي في النهاية تماماً وقبل التناول مباشرة[٣٦] من الأسرار المقدسة والذي يعقب سر المعمودية. والقراءات في هذا الطقس الأخير اثنتان فقط:

الأولى: فصل من رسالة رومية (٣:٦- ١١).

الثانية: فصل من الإنجيل المقدس (متى ١٦:٢٨- ٢٠).

وهكذا نرى ضرورة القراءات الكتابية في طقس المعمودية لدي جميع الطقوس، وإن اختلفت مواقيت قراءتها. فأهمية الكلمة الإلهية للسر الكنسي، هي أهميتها للحياة نفسها. فبالكلمة وُجدت الحياة «وقال الله ليكن... فكان...» (تكوين ١). فمنذ بداية الخليقة، وُجدت الحياة بالماء والروح والكلمة، إذ كان على وجه الغمر (المياه) ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه، وقال الله ليكن نور فكان نور. وهكذا الآن تصير الخليقة الجديدة للإنسان بالماء والروح والكلمة.

فأي سر كنسي ملتحم دائماً بكلمة الله، إذ أن «كل شئ يُقدس بكلمة الله والصلاة» (١ تيموثاوس ٤:٥). ونكرر هنا ما سبق أن قلناه أن قراءة الفصول المقدسة في السر الكنسي هي لتقديس الشعب الحاضر الصلاة وتطهيره، وتهيئته لقبول السر المقدس لأن الرب نفسه قد أوضح فعل الكلمة المقدسة في النفس بقوله: «أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذي كلمتكم به، (إذاً) اثبتوا فيّ وأنا فيكم...» (يوحنا ١٥:٣،٤).

والملاحظات التالية تختص بطقس القراءات في قداس المعمودية:

• يذكر البابا غبريال أنه يُقال لحن ⲧⲁⲓ ϣⲟⲩⲣⲓ وبعده يُقال ⲧⲉⲛⲟⲩⲱϣⲧ وذلك قبل قراءة فصل البولس. ولم يذكر ذلك غيره.

٣٦- BASC., t. 11, p. 54 (انظر أيضاً: الطقوس الشرقية، مرجع سابق، ص ٧٧).

• لا يذكر القس أبو البركات أي أواشي تقال أثناء القراءات[٣٧].

أما البابا غبريال فيذكر أوشية سر بخور البولس "يارب المعرفة ورازق الحكمة...الخ"، وأوشية سر الكاثوليكون "أيها الرب إلهنا الذي من قِبَل رسلك القديسين أظهرت لنا سر إنجيل مجد مسيحك... الخ"، وأوشية سر بخور الإبركسيس "يا الله الذي قَبِل إليه محرَقة إبراهيم... الخ".

وفي حين أن مخطوط القرن السابع عشر (ط ١٩٣) قد أشار إلى أوشيتي الكاثوليكون والإبركسيس فقط. فإن كتاب المعمودية لم يشر سوى إلى أوشيتي البولس والكاثوليكون فقط.

• عند قراءة الكاثوليكون يقول البابا غبريال الخامس (١٤٠٩-١٤٢٧م) ما نصه: "... وبعده القتاليقون قبطياً. ويعجل الكاهن الخديم بقراءاه سر القتاليقون **Ⲡⲟ̅ⲥ̅ ⲡⲉⲛⲛⲟⲩϯ** (أي أيها الرب إلهنا...) ثم يجلسون ويقول الاب البطريرك او الكاهن الخديم **التحليل على الخدام** في ضمن (قراءة) القتاليقون عربياً **ⲡⲓⲣⲉϥⲧⲁⲗϭⲟ** (أي تحليل: أيها السيد الرب الإله ضابط الكل شافي نفوسنا وأجسادنا وأرواحنا[٣٨]...)

٣٧- وهي الأواشي (الصلوات) التي يقولها الكاهن سراً بعد قراءة الفصل الكتابي باللغة القبطية، وقبل قراءته باللغة العربية، وذلك بحسب الطقس القبطي.

٣٨- نلفت نظر القارئ الحبيب أن طقس تحليل الخدام في القداس الإلهي في الكنيسة القبطية بحسب ما ذكره البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م)، وكذلك الخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م، والذي راجعه القمص عبد المسيح المسعودي، يكون على الوجه التالي:

في القداس الباسيلي: يقرأ الكاهن تحليل الابن سراً والذي بدايته: "أيها السيد الرب يسوع المسيح الابن الوحيد..." ثم يعقبه تحليل الخدام سراً أيضاً والذي بدايته: "عبيدك خدام هذا اليوم...".

في القداس الغريغوري: يقرأ الكاهن تحليل الآب سراً، والذي بدايته "أيها السيد الرب الإله ضابط الكل شافي نفوسنا وأجسادنا وأرواحنا..."، (وهو التحليل الذي

وبعدها ⲛⲉⲕⲉⲃⲓⲁⲓⲕ (أي تحليل: عبيدك خدام هذا اليوم...)...".

ولقد لفت نظرنا الموقع الغريب لـ "تحليل الخدام" في أثناء قراءة الكاثوليكون، وعندما عدنا إلى مخطوط القرن السابع عشر (ط ١٩٣) وجدنا الآتي: "وفي ضمن قراءة اوشية القتاليقون وهي Ⲡⲟ̅ⲥ̅ ⲡⲉⲛⲛⲟⲩϯ وادا قرى القتاليقون عربياً يجلس الشماس الخديم وباقي الخدام ويقرى عليهم الكاهن صاحب الخدمة تحليل الاب وهو ⲡⲓⲣⲉϥⲧⲁⲗϭⲟ وبعده يقول ايضاً ⲛⲉⲕⲉⲃⲓⲁⲓⲕ **كعادة الخدمة**. ويكون فراغ قراءة ذلك نهاية تفسير القتاليقون عربياً... والسبب في قراة التحليل ضمن القتاليقون. فانه لا يجوز قراة تحليل في الخدمة الا وبعده رفع بخور وذلك باصل في البيعه المقدسه قديماً فاني ارى بعض الكهنه الان يقرى التحليل في قراة الابركسيس قبطياً بعد رفع البخور وليس لهذه القاعدة اصل ودلك لعدم المشايخ وسوا لهم. ولعدم المطالعه واذا اردت ايها الحبيب بيان دلك واصله فاطلب تجده في كتاب البيعه. تجد دلك مبيناً على ما رايت وسمعت من الاباء المتقدمين. ونسال الصفح عن الخطا فاني جاهل بما اقول. حاشية الان في زماننا هدا يقرى الكهنه التحليل ضمن قراة القتاليقون (انتهي بخطئه)".

وينبغي أن نتيقن من عدم وجود أي تعارض أثناء قراءة تحليل الخدام بينما يُقرأ فصل الكاثوليكون، لأن طقس أي صلاة تحليل هو أنه يُصلىَّ دائماً سراً، فلا غرابة أن يجلس كل الحاضرين من الشعب والخدام ينصتون إلى فصل القراءة بينما يصلي الكاهن عليهم التحليل. ولا نريد استرسالاً في ذلك الأمر الآن، مرجئين إياه لحين حديثنا عن طقس القداس الإلهي. ولكن الذي يهمنا أن نشير إليه هنا هو أن طقس قداس المعمودية

يُقال أيضاً بعد القسمة في القداس الباسيلي) ثم يعقبه تحليل الخدام سراً أيضاً والذي بدايته: "عبيدك خدام هذا اليوم...". وعن هذا الترتيب الأخير يتحدث المتن.

مُدوَّن في مخطوطاتنا القبطية حتى القرن السابع عشر ليشير إلى قداس بحضرة الشعب مع لفيف من الإكليروس، يرأسهم قداسة البابا البطريرك نفسه أحياناً، أما كتاب صلوات الخدمات المطبوع حديثاً فقد أنهي على كل شعور بذلك الحضور الشعبي أثناء صلوات طقس المعمودية.

• يشير البابا غبريال الخامس إلى أن مرد الإبركسيس هو Ⲭⲉⲣⲉ Ⲓⲱ̅ⲁ̅ (أي مرد: السلام ليوحنا المعمدان...)، أما مخطوط القرن السابع عشر (ط ١٩٣) فيذكر مرد ϣⲁⲣⲉ Ⲫϯ ⲱ̀ⲗⲓ ⲙ̀ⲙⲁⲩ (أي مرد: يرفع الله هناك خطايا الشعب من قِبَل المحرَقات ورائحة البخور)[٣٩]. ثم Ⲕ̀ⲥⲙⲁⲣⲱⲟⲩⲧ (مبارك أنت بالحقيقة مع أبيك الصالح والروح القدس لأنك أتيت وخلصتنا).

• يتفق كل من كتاب "الترتيب الطقسي"، ومخطوط القرن السابع عشر (ط ١٩٣) على أنه يُقال بعد الإبركسيس لحن ⲟⲩⲣⲁⲛ ⲛ̀ϣⲟⲩϣⲟⲩ وهو لحن القديس يوحنا المعمدان (اسم فخر هو اسمك يا نسيب عمانوئيل...الخ). ويضيف البابا غبريال الخامس فيقول: "وان كان ايام الخمسين ⲡⲓⲭ̅ⲥ̅ ⲁⲛⲉⲥⲧⲏ (أي: المسيح قام... الخ)". وهو ما أغفله كتاب المعمودية.

• يكتفي كتاب المعمودية بالقول: "تُقال أجيوس الثلاثة وأوشية الإنجيل والمزمور..."، ويتفق معه في ذلك مخطوط "مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة" لابن كبر. أما كتاب "الترتيب الطقسي" ومخطوط القرن السابع عشر (ط ١٩٣) فيذكران أن آجيوس الأولى هي: ⲱ ⲉⲕⲡⲁⲣⲑⲉⲛⲟⲩ (أي: يا من وُلد من العذراء...) أما الثانية والثالثة

٣٩- ينحصر هذا المرد الآن في أيام الصوم المقدس الكبير، وقد كان هو مرد الإبركسيس السنوي في القداس الإلهي حتى أوائل القرن العشرين. لتفصيل أوفر ارجع إلى كتاب "القداس الإلهي" إن شاء الرب وعشنا.

فهـي: ⲱ ϧⲉⲛ ⲡⲓⲓⲟⲣⲇⲁⲛⲏⲥ ⲃⲁⲡⲧⲓⲥⲧⲏⲥ (أي: يـا مـن اعتمـد في الأردن...).

• يتفق كل من كتـاب "ترتيـب البيعـة" ومخطـوط القـرن السـابع عشر (ط ١٩٣) أنه بعد(٤٠) آجيوس الثلاثة تُقال الأرباع الآتية:

ياربي يسوع الـذي اعتمـد في الأردن	ⲡⲁⲟ̅ⲥ̅ Ⲓⲏ̅ⲥ̅ Ⲡⲭ̅ⲥ̅ ⲫⲏⲉⲧⲁϥϭⲓⲱⲙⲥ ϧⲉⲛ ⲡⲓⲓⲟⲣⲇⲁⲛⲏⲥ
طهّـر نفوسـنا مـن دنـس الخطيَّة	ⲉⲕⲉⲧⲟⲩⲃⲟ ⲛ̀ⲛⲉⲛⲯⲩⲭⲏ ⲉⲃⲟⲗϩⲁ ⲡⲑⲱⲗⲏⲃ ⲛ̀ⲧⲉ ⲫⲛⲟⲃⲓ

ثم يُكمل ⲛⲓⲭⲉⲣⲟⲩⲃⲓⲙ كالعادة.

وهذه الأرباع تُقال في قداسات اللقانـات كمـا وردت في كتـاب اللقان والسجدة، أما كتاب المعمودية فقد أغفل ذكر هذه الأرباع، اقتداءً بمخطوط "مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة".

• يتفق كل من كتاب "الترتيب الطقسي" ومخطوط القرن السـابع عشر على أن يُطرح المزمور باللحن السنجاري، ويُكمَّل بطريقة السنوي.

• يذكر البابا غبريال الخامس في كتابه "الترتيب الطقسي" أنه بعد قراءة الإنجيل يكون المرد بلحن الفرح، حيث تُقال الأرباع الآتية:

الروح المعزي الذي نزل على ابنـك في ميـاه الأردن كمثـال نوح.	ⲡⲓⲡ̅ⲛ̅ⲁ̅ ⲙ̀ⲡⲁⲣⲁⲕⲗⲏⲧⲟⲛ ⲫⲏⲉ̀ⲧⲁϥⲓ̀ ⲉϫⲉⲛ Ⲡⲉϣⲏⲣⲓ ϩⲓϫⲉⲛ ⲛⲓⲙⲱⲟⲩ ⲛ̀ⲧⲉ ⲡⲓⲓⲟⲣⲇⲁⲛⲏⲥ ⲕⲁⲧⲁ ⲡ̀ⲧⲩⲡⲟⲥ ⲛ̀ⲛⲱⲉ̀.
اشفعي فينا...	Ⲁ̀ⲣⲓⲡ̀ⲣⲉⲥⲃⲉⲩⲓⲛ ⲉ̀ϩⲣⲏⲓ ⲉ̀ϫⲱⲛ...
لأنه مبارك...	Ⲭⲉ ϥ̀ⲥ̀ⲙⲁⲣⲱⲟⲩⲧ...

٤٠- وهي الأرباع التي تُقال الآن قبل آجيوس في عيـد الغطـاس، أو مـا يقابلهـا في عيدي الميلاد والقيامة.

ويتفق مخطوط القرن السابع عشر (ط ١٩٣) مع ما أورده البابا غبريال الخامس، أما كتاب المعمودية فلم يورد شيئاً من ذلك.

(٥) السبع أواشي الكبار:

بعد قراءة الإنجيل تُقال الأواشي الآتية:
١- المرضى ٢- المسافرين ٣-المياه أو الزروع أو الأهوية ٤- الملك[٤١] ٥- الراقدين ٦- القرابين ٧- الموعوظين.

ويتفق مخطوط القرن الثامن عشر (ط ١٩٢) مع كتاب المعمودية في ذلك، أما القس أبو البركات ابن كبر (+ ١٣٢٤م) فيذكر أوشية ثامنة تقال بعد أوشية القرابين وهي أوشية "الموضع المقدس"، بينما اكتفت باقي المصادر الأخرى بذكر عبارة "السبع أواشي".

(٦) طلبة: يا إله الأنبياء ورب الرسل

يقول الكاهن: "يا إله الأنبياء ورب الرسل الذي بشر بمجئ مسيحه من قِبَل أنبيائه القديسين منذ البدء الذي أرسل يوحنا النبي السابق أمامه. نسأل ونتضرع إليك يا محب البشر، ارسل قوتك المقدسة لتتقدم هذا العماد، وتقوي عبيدك وتعدهم لكي يستطيعوا أن ينالوا العماد الطاهر الذي للميلاد الجديد لغفران خطاياهم، والرجاء غير الفاسد بابنك الوحيد يسوع المسيح ربنا، هذا الذي... الخ".

٤١- يشير ابن كبر أنها أوشية الملك المسيحي، حيث يورد اسم الأوشية بالقبطية والعربية.

لم يورد ابن كبر (+ ١٣٢٤م) أي إشارة لهـذه الصـلاة، أمـا البابـا غبريال الخامس فقد أشـار إليهـا بقولـه: "ثم يقـول البطريـرك او الكـاهن الاواشي المدونه في كتاب المعموديه[٤٢]". أما مخطوط القرن السابع عشـر (ط ١٩٣) فأورد نص الطلبة بعـد الأواشـي السـبع، في حـين أن مخطـوط القرن الثامن عشر (ط ١٩٢) أوردها بعد الإنجيل مباشـرة أي قبـل السـبع أواشي.

(٧) صلاة وضع يد:

صلاة وضع اليد هي صلاة التحليل المختصة بليتورجية المعموديـة، والتي تقابل تحليل الخدام في ليتورجية القداس الإلهي.

يقـول الكـاهن: "عبيـدك يـارب الذيـن يخدمونـك ويدعـون اسـمك القـدوس ويخضعون لك، حل فيهم يارب وسر بينهم وساعدهم في كل عمل صالح. انهـض قلبهـم عـن كـل فكـر أرضـي ردئ. امنحهـم أن يحيـوا ويفكـروا فـي مـا للأحيـاء ويفهموا الذي لك. بابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسـوع المسـيح، هـذا الـذي من قبله يليق بك المجد والإكرام والعزة والسجود الآن وكل أوان... الخ".

يقول المرتلون: **"خلصت حقا".**

هنا حدث خطأ غير مقصـود حينمـا أورد كتـاب المعموديـة المـرد الذي يقوله المرتلون "خلصت حقاً" في هذا المكان المبكر قليلاً. ذلك لأن الموضع الطقسي لهذا المرد يكون بعد التحليل الذي يقوله الكاهن سراً عن نفسه وهو منطرح على جرن المعمودية، فالمرد يعقب دائماً صلاة التحليل ولا يسبقه. أما سـبب إيـراد كتـاب المعموديـة لهـذا المـرد في هـذا المكـان المتقدم فهو أنه في هذه اللحظة يبدأ اللحن الطويل لهذا المرد وهو المعروف

٤٢- الترتيب الطقسي للأنبا غبريال الخامس، مرجع سابق، ص ٨

بلحن ⲥⲱⲟⲓⲥ ⲁⲙⲏⲛ وعندما ينتهي الكاهن من الصلاة السرية التالية، تُكمِّل كلمات المرد "خلصتَ حقاً"-فالمرد هنا موجَّه للكاهن الذي انتهي لتوه من الصلاة السرية التي يطلب فيها عن نفسه.

ويوضح هذا الأمر البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) بقوله: "يرتلون بلحن ⲥⲱⲟⲓⲥ ".

وفي صلاة وضع اليد السابق ذكرها يتركز التحليل في خمس طلبات عميقة:

- حل فيهم يارب وسر بينهم.
- ساعدهم في كل عمل صالح.
- انهض قلوبهم عن كلِ فكر ردئ.
- امنحهم أن يحيوا ويفكِّروا في ما للأحياء.
- ويفهموا الذي لك.

والثلاث طلبات الأخيرة هي من أجل تجديد الذهن والفكر لينحصر فيما لله، ليس بفكر نظري، بل بفكر مركزه القلب لا العقل، فكر يفضي إلى الحياة ويستعلن سر الآب والابن والروح القدس والكنيسة.

(٨) صلاة سرية للكاهن وهو منطرح على جرن المعمودية:

وهي صلاة موجودة بنصها في الطقس البيزنطي أيضاً. والجدول التالي مقارنة بين نصي الصلاة في كل من الكنيستين القبطية واليونانية.

الطقس القبطي	الطقس البيزنطي
أيها الرحيم الرؤوف المتحنن	أيها الإله المتحنن الرحيم
الله فاحص القلوب والكلى	الفاحص القلوب والكلى

الطقس القبطي	الطقس البيزنطي
الذي تعرف خفايا البشر وحدك...	والعالم وحدك خفايا البشر...
يا من يعرف الأشياء الأخرى التي لي	أيها العارف بكل أحوالي
لا تمقتني ولا تصرف وجهك عني	لا ترذلني ولا تصرف وجهك عني
بل لتهرب عني في هذه الساعة جميع سيناتي	بل اعرض عن زلاتي في هذه الساعة
يا من يغفر خطايا البشر ويُقبل بهم إلى التوبة	يا من يعرض عن خطايا الناس بالتوبة
اغسل دنس نفسي وجسدي	اغسل وسخ جسدي ودنس نفسي
وطهرني بالكمال بقوتك غير المرئية	وقدسني بجملتي بقوتك غير المنظورة
ويمينك الروحية	ويمينك الروحية
لكي إذا ما قرأت لآخرين تحليلاً يطلبون مني أن أعطيه لهم	حتى لا اعد آخرين بالحرية وامنحهم إياها
الذي هو الإيمان الذي هيأته عظم محبتك للبشر التي لا ينطق بها	بالإيمان المتعلق بمحبتك للبشر غير الموصوفة
لا أكون أنا مداناً كعبد للخطيَّة	وأنا أكون كعبد للخطيَّة غير مختبر
كلا أيها السيد الذي بلا خطيّة وحده	
الصالح وحده، المحب البشر	فيا أيها السيد الصالح والمحب البشر وحدك
لا يرجعن المذلول خازياً بل كن لي غافراً	لا تردني خائباً مخذولاً
أرسل قوتك من علوك المقدس	ارسل لي قوة من العلاء
وقوّني لكي أعمل خدمة هذا السر العظيم السمائي	وقوني على خدمة سرك هذا، الحاضر والعظيم والسمائي
فليتصور المسيح في الذين ينالون صبغة الميلاد الجديد مني أنا الشقي	وصوّر مسيحك في من هو مزمع أن يولد ثانية

الطقس القبطي	الطقس البيزنطي
ابنهم على أساس الرسل والأنبيا	وابنه على أساس الرسل والأنبياء
ولا تهدمهم بعد	ولا تهدمه
اغرسهم غرس الحق في كنيستك	بل اغرسه غرسة حق في كنيستك
الواحدة الوحيدة الجامعة الرسولية	المقدسة الجامعة الرسولية
لكي يتقدموا في العبادة	ولا تستأصله حتى إذا نجح في حسن العبادة
وليتمجد في كل مكان اسمك القدوس...	يُمجَّد به أيضاً اسمك الكلي قدسه...

فيا لروعة صلوات السر وبساطتها مع عمقها، فهي مَعين لا ينضب للتأمل لمحبي الكنيسة وأسرارها.

هنا يتركز مفهوم عمل الكاهن في تكميل الأسرار، أنه ليس هو الذي يتمم السر بل المسيح نفسه. الكاهن يقوم بتأدية السر، لكن بقوة المسيح التي يسبغها علي الكاهن. هنا الكاهن خاطئ تائب ينضم إلى الخاطئين التائبين طلباً للغفران لنفسه وللآخرين معه، إذا فهو أول التائبين، كي ينتقل صفح الله وغفرانه عن طريقه للآخرين.

ويلزمنا هنا جداً أن نتوقف لنتساءل؛ إن كان المسيح نفسه هو الذي يتمم السر بواسطة الكاهن، فماذا يعني هنا إن كان الكاهن مستحقاً لمباشرة السر أو غير مستحق؟ إن كان ذا سيرة صالحة أم لا؟

بحسب تعليم الكنيسة الأرثوذكسية - وكما سبق أن أشرنا - السر نفسه سيكمل بغض النظر عن خادم السر. ولكن إن كان الكاهن غير مصطلح مع الله، فمن يطلب من أجل الشعب؟ ومن يصالح الشعب مع الله؟ وإن أخطأ الشعب فمن يصلي عنه؟

إن صلاة الكاهن من أجل نفسه تنحصر في المسؤولية الرهيبة

المزمع هو الاقتراب منها، وهي: "فليتصور المسيح في الذين ينالون صبغة الميلاد الجديد مني أنا الشقي"، ولكن بعد أن يولد الإنسان من جديد وتنطبع عليه صورة المسيح، كيف يمكنه أن ينمو في حياة الكنيسة ويتشرّب إيمانها إذا لم يجد في الكنيسة هذا الكاهن الذي هو صورة للمسيح بين شعبه. وبالإيجاز طوبى لشعب كاهنه بار.

لم يشر مخطوط "مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة" إلى هذه الصلاة، بينما أشار إليها كتاب "الترتيب الطقسي"، ويذكر مخطوط القرن السابع عشر (ط ١٩٣) هذه الصلاة بالقبطية فقط على خلاف عادته، إذ أنه يذكر كل النصوص بالقبطية ويفسّرها بالعربية تحت عنوان "تفسيره". ويبدأها بالتنبيه التالي: "ثم يقول الكاهن هذه الصلاه على نفسه سراً وهو منحني على الاردن"، أما مخطوط القرن الثامن عشر (ط ١٩٢) فيورد نص الصلاة بالقبطية والعربية.

(٩) الثلاث أواشي الكبار

وهي أواشي سلام الكنيسة والآباء والاجتماعات. ولا تخلو منها أي صلاة كنسية في أي مناسبة على مدار السنة الطقسية.

(١٠) قانون الإيمان:

هنا يُقال قانون الإيمان النيقاوي القسطنطيني. ويلاحظ القارئ خلو المصادر الطقسية القديمة من ذكر مقدمة قانون الإيمان "نعظمك يا أم النور الحقيقي... الخ"، وهي المقدمة التي لا تعرفها كافة الكنائس الشرقية والغربية، باستثناء الكنيسة القبطية. أما المصادر التاريخية لمقدمة قانون

الإيمان فغير معروفة لدينا حتى الآن[٤٣].

(١١) نضح الغاليلاون على مياه المعمودية:

يأخذ الكاهن الزيت المقدس (زيت الغاليلاون) ويسكب منه في جرن المعمودية ثلاث مرات بمثال الصليب لتقديس الماء قائلاً:

باسم الآب والابن والروح القدس إله واحد. مبارك الله الآب ضابط الكل آمين

مبارك ابنه الوحيد يسوع المسيح ربنا آمين.

مبارك الروح القدس البارقليط آمين.

يقول الشماس: من الرب نطلب.

أما البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) فيذكر ترتيباً طقسياً أكثر دقة مما ورد في كتاب المعمودية (لناشره مكتبة المحبة) في هذا الجزء من الطقس حيث يذكر:

+ أن نضح زيت الغاليلاون في الماء بمثال الصليب يكون أثناء ترديد قانون الإيمان.
+ أن الكاهن يسكب الزيت في المرة الأولى باسم الآب، وفي الثانية باسم الابن وفي الثالثة باسم الروح القدس.
+ أن الكاهن يكمِّل بعد ذلك بالقول: "مجداً وإكراماً إكراماً ومجداً للثالوث القدوس... الخ".

٤٣- أشارت المؤرخة إيريس المصري في أحد أجزاء كتابها "قصة الكنيسة القبطية" إلى أن مصدر مقدمة قانون الإيمان هو أحد المجامع المكانية التي عُقدت في مدينة الإسكندرية، دون أن توضّح أي مجمع تقصد، أو تاريخ هذا المجمع، أو المصدر الذي نقلت عنه ذلك.

وهو نفس ما يذكره مخطوط القرن السابع عشر (ط ١٩٣) بكل دقة. إلاّ أنه يضيف بالقول: "وادا لم يوجد غاليلاون يعوضه بالزيت". أما مخطوط القرن الثامن عشر (ط ١٩٢) فهو نسخة مما ذكره كتاب المعمودية كما سبق أن ذكرنا.

يقول الكاهن: "يا جابل المياه وخالق الكل، ندعو قوتك الطاهرة الذاتية، الاسم الذي يفوق كل الأسماء، الذي لابنك الوحيد يسوع المسيح ربنا الذي صُلب عنا على عهد بيلاطس البنطي، نسألك يا ملكنا عن عبيدك، **انقلهم وابدلهم وقدسهم وقوهم**، لكي من جهة هذا الماء وهذا الزيت تبطل كل القوات المضادة. والأرواح الخبيثة امنعها وارذلها وصدّها. كل سحر وكل رقاء وكل عبادة الأصنام وكل تعزيم ابطله".

هذه الصلاة تُسمى صلاة استحلاف المعمودية[٤٤]، وهي صلاة غير معروفة في الطقس البيزنطي.

ويجب أن يكون الماء غير ممزوج بشئ من السوائل الأخرى، كما لا يجوز مزجه بالماء الذي يُصلّى عليه في قداسات اللقّانات في أعياد الغطاس والخميس الكبير والرسل، فلمياه اللقان طقس يختص بها في غير المعنى الذي لمياه المعمودية[٤٥].

(١٢) النفخ في الماء ثلاث مرات مثال الصليب ورشمه بالصليب:

ينفخ الكاهن في الماء ثلاث مرات مثال الصليب وهو يقول:

قدّس هذا الماء وهذا الزيت ليكونا لحميم الميلاد الجديد **آمين**.

حياة أبدية **آمين**.

---

٤٤ - *BASC.*, t. 11, p. 72

٤٥ - القمص يوحنا سلامة، اللآلئ النفيسة في شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، مصر، ١٩٦٥، ص ٥١

لباس غير فاسد **آمين.**

نعمة البنوة **آمين.**

تجديد الروح القدس **آمين.**

لأن ابنك الوحيد ربنا يسوع المسيح الذي نزل إلى الأردن وطهّره شهد قائلاً: إن لم يولد أحد من الماء والروح لا يستطيع أن يدخل ملكوت الله.

وأيضاً أمر تلاميذه القديسين ورسله الأطهار قائلاً: اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم

هنا يرشم الماء بالصليب ثلاث مرات ويقول:

باسم الآب والابن والروح القدس.

ادخلنا أيها القادر، ونجنا أيها القدوس. ارعد يا الله الآب ضابط الكل على هذه المياه، لكي بها وبروح قدسك تجدد ميلاد عبيدك الذين تقدموا إليك بقوتك الإلهية. اجعلهم مستحقين غفران خطاياهم واللباس غير الفاسد. بالنعمة والرأفة... الخ.

واضح من الترتيب السابق ذكره أنه بينما يكون النفخ في المياه ثلاث مرات، تأتي صيغة الصلاة المصاحبة للنفخ ضمن خمس طلبات تختم كل طلبة منها بـ "آمين" وهنا حدث تداخل بين ثلاث نفخات في مقابل خمس طلبات. وهو نفس ما يذكره مخطوط القرن الثامن عشر (ط ١٩٢) إلاّ أنه لم يشر لرشومات بالصليب على المياه.

أما البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) فيقول في كتابه "الترتيب الطقسي": "... يقول (الكاهن) الاواشي المدونه في كتاب المعموديه الى عند ما يجي ⲁⲡⲓⲁⲅⲓⲁⲍⲓⲛ (أي قدّس...) يقولها ثلاثة دفوع وكل دفعه يقولها يرشم الما مثال الصليب ويكون بطرف الصليب لا غير. فان تم من الكهنه من يرشم بالصليب جميعه فيصير يشر الما ويبل علو المعمودية. وكيف ما (أي: وكل ما) يرشم رشماً في

الما في هدا الوقت ينفخ في الما تلاته دفوع. كل رشم دفعه. ثم يكمل الاوشيه الى عند ما يقول ϦⲈⲚⲠⲢⲀⲚ (أي ϦⲈⲚ ⲪⲢⲀⲚ باسم الآب...) يرشم المـا تلاتـة دفـوع متـال الصليـب تم يكمـل الاوشـيه الى اخرها...[٤٦]".

وهنـا يتضـح أن الـترتيب الـذي يـورده البابـا غبريـال الخـامس (١٤٠٩ - ١٤٢٧م) في هذا الجزء من الطقس يتحدد بالشكل الآتي:

+ يقول الكاهن ثلاث مرات: "قدّس هذا الماء" وفي كل مرة منها يرشم الماء بطرف الصليب الذي في يده بمثال الصليب.

+ ينفخ الكاهن في الماء مرة واحـدة بعـد كـل رشـم مـن الثلاثـة رشومات السابق ذكرها، وباكتمال ثلاثة رشـومات يكـون الكـاهن قـد نفخ في المياه ثلاث مرات.

+ لم يذكر البابا غبريال الخـامس أن النفـخ في المـاء يكـون بمثـال الصليب، أن أنه نفخ بسيط يسبقه الرشم بالصليب.

+ يكمـل الكـاهن الأوشـية إلى عنـد قولـه "باسـم الآب والابـن والروح القدس" فيرشم الماء أيضاً ثلاث مرات بمثال الصليب. ثـم يكمّـل الأوشية إلى آخرها.

أما مخطوط القرن السـابع عشـر (ط ١٩٣) والـذي نـراه الأدق في ذكره للترتيبات الطقسية الخاصة بالمعمودية فيقول: "ينفخ الكـاهن في المـا متال الصليب ٣ دفوع وكل دفعه يقول هكذي[٤٧]

قدّس هذا الماء وهذا الزيت ليكونا لحميم الميلاد الجديد **آمين**.

حياة أبدية، ولباس غير فاسد، ونعمة البنوة **آمين**.

٤٦- الترتيب الطقسي للأنبا غبريال الخامس، مرجع سابق، ص ٩٠٨

٤٧- يورد المخطوط النص القبطي فقط بدءًا من قوله: قدس هذا الماء... الخ.

تجديد الروح القدس آمين. ... الخ

هنا يرشم الصليب على المعمودية ثلاثة دفوع بمثال الصليب ثم يصفي الصليب من المياه وهو يقول:

باسم الآب والابن والروح القدس. أدخلنا أيها القادر... الخ" .

رشم الماء بالصليب يعني ختمه. فكلمة يرشم في اليونانية σφραγίζειν قد انتقلت كما هي إلى اللغة القبطية، وهي في العربية "رشم" أو "وشم". وختم المياه بالصليب أو رشمها به تقليد سحيق في القدم نقرأ عنه منذ زمن البابا ثاؤفيلس البطريرك الإسكندري الـ ٢٣ (٣٨٥-٤١٢م) عندما رأى قضيباً[٤٨] يرشم σφραγίζειν الماء، وذلك في وصفه للأعجوبة التي حدثت مع أورسيوس، فيقول البابا ثاؤفيلس: "وبينما يصلون على الجرن κολυμβήθρα جاء قضيب من نور ورشم المياه[٤٩]".

والنفخ في الماء ورشمه بالصليب ثلاث مرات في طقس المعمودية ممارسة طقسية لا تعرفها الكنيسة اليونانية في خدمة المعمودية[٥٠].

بانتهاء النفخ في المياه، ورشمها بالصليب، وتكملة الأوشية التي يصلّيها الكاهن، يذكر كتاب المعمودية أن الشماس يقول: "صلوا من أجل السلام الكامل والمحبة والقبلة الطاهرة الرسولية. يارب ارحم". وهذا المرد لم يرد في أي مصدر طقسي آخر لسر المعمودية.

أما البابا غبريال الخامس فيذكر - ويتفق معه مخطوط القرن السابع عشر (ط ١٩٣) - أنه بعد انتهاء الأوشية يرتلون بالناقوس: "هوذا يوحنا الصابغ قد شهد قائلاً: إني عمدت مخلصي في مياه الأردن... الخ".

٤٨- في القبطية ⲉⲡⲉϩⲣⲁⲃⲇⲟⲥ وفي اليونانية ῥαβδος = قضيب (rod).

٤٩- *BASC.*, t. 11, p. 72

٥٠- *BASC.*, t. 11, p. 55, 72

وما يتلوه من أرباع العذراء والملائكة ويوحنا والشهداء[٥١].
ثم يقولون: نسجد لك أيها المسيح... الخ.
يقول الشماس: " προςφαριν تقدموا على الرسم... الخ".
يقول الشعب: رحمة السلام، معمودية التسبيح.

لقد ذكر كتاب المعمودية مرد الشماس السابق ذكره مباشرة أنه: قبلوا بعضكم بعضاً بقبلة مقدسة. يارب ارحم، يارب ارحم. نعم يارب الذي هو يسوع المسيح ابن الله اسمعنا وارحمنا. تقدموا على الرسم، قفوا برعدة وإلى الشرق انظروا. ننصت.

ولم يشر أي مصدر طقسي إلى ذلك سوى القس أبي البركات الذي ذكر: "ويقول الشماس قفوا جيداً، قفوا بخوف، قفوا بانصات، قفوا بسلامة ومحبة، قفوا بخشية ورعدة وخشوع، تقدموا برعدة" وغالب الأوقات تختصر الشمامسة قفوا حسناً ويقولون تقدموا فقط.

وهنا يبدأ قدّاس المعمودية.
ويتبقى أمامنا بندان طقسيان هما:
- سكب الميرون على مياه المعمودية.
- تحريك الماء.

وهو ما نعرض له في الفصل القادم مباشرة.

٥١- هذه الأرباع هي طلب شفاعة العذراء والملائكة ويوحنا المعمدان... الخ، وهو طقس القدّاس الإلهي في وضعه القديم حتى مطلع القرن العشرين حينما حلّ مرد "بشفاعات والدة الإله القديسة مريم... الخ" محل هذه الأرباع كما نعرفه اليوم. وسوف نتعرّض لتفصيلات ذلك عند حديثنا عن القداس الإلهي إن شاء الله.

الفصل السادس

قدّاس المعمودية

نص ليتورجية المعمودية:

إن قدّاس المعمودية في الوثائق القبطية القديمة مثل قوانين هيبوليتس والمراسيم المصرية (قوانين الرسل القبطية) يحتل مكاناً متقدماً في الطقس، أي قبل الجحد وإعلان الإيمان، على عكس ما نراه الآن حيث يأتي قدّاس المعمودية قبل التغطيس في الماء مباشرة وبعد المراحل الطويلة لإعداد الموعوظين للمعمودية. فقدّاس المعمودية في وضعه التقليدي القديم كان يجعل من طقوس جحد الشيطان والاعتراف بالإيمان والدهن بالزيت طقوساً مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بطقس المعمودية نفسه، وليس بكونها مراسيم تختص بطقس إعداد الموعوظين.

ولكن بعد أن انتقل قدّاس المعمودية (أي قدّاس تقديس مياه المعمودية) ليصبح فاصلاً بين الجحد وإعلان الإيمان من جهة، وبين الغطسات الثلاث من جهة أخرى، انحصر فعل المعمودية الرئيسي في الغطسات الثلاث لتحتل هذه الأخيرة مكاناً متميزاً بين مراسيم طقوس المعمودية، وتقلّص إلى حد ما دور طقوس جحد الشيطان والاعتراف بالإيمان والدهن بزيت الاستقسام. و لم يكن ذلك هو الوضع القديم، إذ كان طقس الجحد وإعلان الإيمان ذا أهمية قصوى.

وسرعان ما احتل قدّاس المعمودية مكانه الذي نعرفه الآن في

كتب الطقس القبطية والأثيوبية. ففي القرن الرابع أجاب البابا الإسكندري تيموثاوس الأول (٣٨٠- ٣٨٥م) على سؤال بخصوص المعمودية فذكر أننا نبدأ بجحد الشيطان والطقوس المرتبطة به، ثم ندخل إلى حجرة المعمودية فنبارك المياه، ثم نعمِّد.

ونجد نفس هذا الترتيب مرعياً في القرن السادس الميلادي في المخطوط الذي نشره العالم الليتورجي بومشتارك(١).

هذا عن تقليد كنيسة الإسكندرية، أما التقليد الأنطاكي القديم، متمثلاً في كتاب "عهد الرب" فقد عَبَر على ذكر تبريك مياه المعمودية دون أي إشارة لذلك، بالإضافة إلى أن القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م) لم يتحدث عن تبريك لمياه المعمودية.

وفي قداس المعمودية تدور الصلوات حول عمل الرب في المياه التي ثبّت الأرض عليها، وخلقْ المياه التي فوق السماء، وجمعْ المياه إلى مكان واحد. وهو قداس جميل، ولأنه قدّاس قصير فقد أوردناه بكامله، فهو خير معبّر عن ارتباط الصلوات بالسر المقدس.

يقول الكاهن: محبة الله الآب، ونعمة الابن الوحيد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح، وشركة وموهبة الروح القدس تكون مع جميعكم.

يقول الشعب: ومع روحك أيضاً.

يقول الكاهن: أين هي قلوبكم.

يقول الشعب: هي عند الرب.

يقول الكاهن: فلنشكر الرب.

يقول الشعب: مستحق وعادل.

يقول الكاهن: مستحق وعادل، مستحق وعادل، مستحق وعادل. رفعنا أعيننا

١- Baumstark, Oriens Christianus, t. 1, p. 35- 41. cf. *DACL*, t. 2, p. 266

إليك يارب، وأعين أنفسنا ناظرة نحوك أيها الرب إلهنا. ونسألك أيها الرب الضابط الكل إله آبائنا، الذي خلق السماء والأرض وكل زينتهما، الذي خلق المياه التي فوق السماء وثبّت الأرض على المياه، الذي جمع المياه إلى مكان واحد، الذي ربط البحر وغلق الأعماق وختمها باسمه، المملوء مجداً وخوفاً، الذي كل شئ يخاف ويرتعد من قدام وجه قوته، أنت يا سيدنا ثبّت البحر بقوتك، أنت رضضت رؤوس التنين على المياه.

يقول الشماس: أيها الجلوس قفوا.

يقول الكاهن: أنت فلقت الينابيع والأودية، وأعطيت مخرجاً للمياه، اللهم إن المياه رأتك فخافت، وقلقت الأعماق من صوت المياه الكثيرة. أنت نظرت إلى مياه البحر الأحمر برهبتك فأقمتها وعبّرت إسرائيل، وبموسى عمدتهم جميعاً.

يقول الشماس: وإلى الشرق انظروا.

يقول الكاهن: أنت أمرت الصخرة الصماء فأفاضت الماء لشعبك. وأيضاً المياه المرة نقلتها إلى مياه حلوه. أنت أيضاً بيشوع بن نون رددت إلى خلف مياه الأنهار الجارية. أنت المخوف. فمن هو الذي يستطيع أن يقف أمام وجهك. وصعيدة إيليا التي بالماء قبلتها بالنار من السماء. أنت أيضاً ياسيدنا بواسطة نبيك أليشع أظهرت ماء ميلاد الحياة. ونعمان السرياني طهّرته بمياه الأردن. فأنت القادر على كل شئ، ولا يعسر عليك أمر.

هذه هي مقدمة القدّاس والتي تشبه مثيلتها في قدّاس الإفخارستيّا، وهذه المقدمة في لفظتها اللاتينية Praefactio تعني حرفياً: الأساس أو البدء أو البدء الذي تتعلق به كل الأشياء الأخرى، الأمر الذي يجعل كل ما يليه ممكناً(٢).

هذه الصلاة تخاطب الله الآب باسمه التقليدي الموروث منذ القديم

٢- ألكسندر شيمان، بالماء والروح، مرجع سابق، ص ٦٣

"إله آبائنا" مقرنة إياه باسمه الذي عُرف به في كنيسة العهد الجديد "الضابط الكل". وإن تعبير "الضابط الكل، إله آبائنا" كاسمين مترادفين ومتصلين هكذا ببعضهما يجمعان القديم والجديد معاً هو أحد السمات الفريدة التي تميّز ليتورجية المعمودية في الطقس القبطي.

وهذه المقدمة في ليتورجية المعمودية ثرية من جهة معانيها المرتبطة بالسر عن مقدمة ليتورجية المعمودية شائعة الاستخدام في كل الشرق[٣] والتي تقول بدايتها "أنت هو الإله العظيم الرب، وعجيبة هي أعمالك..." وهي التي تستخدمها الكنيسة القبطية في قداسات اللقانات.

فبينما تورد مقدمة ليتورجية المعمودية القبطية خمسة عشر فعل خلق لعنصر الماء أو خلاص بواسطته، لا تورد مقدمة ليتورجية المعمودية المعروفة في باقي الكنائس الشرقية سوى أربعة أفعال خلق للماء دون ذكر أي فعل خلاصي بواسطته.

وتشترك مقدمة كل من الليتورجيتين في عبارة "أنت الذي ثبَّت الأرض على المياه". وتتشابه كلاهما في عبارة أخرى، فالقبطية تورد النص: "أنت يا سيدنا ثبَّت البحر بقوتك"، أما الشرقية فتذكر: "أنت الذي حصنت حول البحر بالرمل[٤]".

يقول الشعب هذا الأسبسمس الواطس: تهلل مثل الحملان أيها الأردن وبريته، لأنه قد أتى إليك الحمل حامل خطية العالم. هلليلويا هلليلويا هلليلويا يسوع المسيح ابن الله اعتمد في نهر الأردن. إرحمنا كعظيم رحمتك.

وإن ما يلفت النظر هنا هو خلو ليتورجية المعمودية القبطية من

٣- DACL, t. 2, p. 702

٤- انظر: ليتورجية لقان عيد الغطاس في الكنيسة القبطية.

التسبحة الشاروبيمية، وكذلك الحال في ليتورجية المعمودية التي وردت في خولاجي سرابيون سنة ٣٥٠م. بينما هي مكتملة العناصر في ليتورجية لقان عيد الغطاس. وعلى حد مغرفتنا، لا يتوفر لدينا أي دراسات ليتورجية تطرقت إلى هذا الأمر أو المحت إليه. فدراسة أصول وتاريخ ليتورجية المعمودية القبطية لازالت حقلاً بكراً لم يفلّحه أحدٌ بعد.

يقول الكاهن: آجيوس. آجيوس. آجيوس. قدوس قدوس أيها الرب، وقدوس في كل شئ. الآن أيضاً يا ملكنا رب القوات ملك الجنود السمائية، اطلع أيها الجالس على الشاروبيم، اظهر وانظر إلى جبلتك هذه أي هذا الماء، امنحه نعمة الأردن، والقوة والعزاء السماني. وعند حلول روحك القدوس عليه، هبه بركة الأردن. آمين.

أعطه قوة ليصير ماء محييا آمين.

ماء طاهراً آمين.

ماء يطهّر الخطايا آمين.

ماء حميم الميلاد الجديد آمين.

ماء البنوة آمين.

انعم على هذا الماء لكي لا يوضع فيه، ولا ينزل مع الذي يعتمد فيه روح ردئ، ولا روح نجس، ولا روح النهار، ولا روح الظهيرة، ولا روح المساء، ولا روح الليل، ولا روح الهواء، ولا روح الغرق، ولا روح الشيطان من الذين تحت الأرض، بل انتهرهم بقوتك العظيمة، وليصيروا مشدوخين أمام علامة صليبك واسمك القدوس الذي ندعوه، المملوء مجداً، المخوف عند المقاومين لنا، لكي يخلع الذين يعتمدون فيه الإنسان العتيق الذي يفسد كشهوات الضلالة. ويلبسوا الإنسان الجديد الذي يتجدد مرة أخرى كصورة خالقه. ويضئ فيه نور الحق من قبل الروح القدس ويفوزوا بالحياة الأبدية والرجاء السعيد. ويقفوا أمامك على منبر المسيح وينالوا الإكليل السماني وغفران خطاياهم. وليكن هذا الماء وهذا الزيت مباركين مملونين مجداً مطهرين.

ومن أبدع صلوات تقديس مياه المعمودية تلك الصلاة التي وردت في خولاجي سرابيون (١٩:١- ٤) سنة ٣٥٠م، والتي يقول فيها:

"يا ملك ورب الجميع وخالق الكل، الذي يُنعم بالخلاص لكل طبيعة مخلوقة بمجيء ابنك الوحيد يسوع المسيح. يا من اعتقت خليقتك بمجيء كلمتك الذي لا يُنطق به. فمن ثمَّ تطلع الآن من السماء أيضاً على هذه المياه واملأها من الروح القدس.

ليعمل فيها كلمتك الذي لا يُنطق به، ويحول قوتها وليهيئها أيضاً لتمتلئ بنعمتك، لكي لا يكون **السر الذي يتم الآن** باطلاً في الذين سيولدون من جديد، بل ليملأ بنعمتك الإلهية كل الذين ينزلون ويعتمدون.

يا محب البشر، صانع الخيرات اشفق على خليقتك، خلّص الخليقة التي صنعتها بيمينك، صوّر صورتك الإلهية الفائقة الوصف في كل الذين سيولدون من جديد لكي يقدروا أن يخلصوا ويستحقوا ملكوتك.

وكما نزل كلمتك الوحيد إلى مياه الأردن فأظهرها مقدَّسة، هكذا الآن فلينزل في هذه المياه ويجعلها مقدسة وروحانية، كي لا يصبح المعتمدون فيما بعد لحماً ودماً، بل أناساً روحانيين قادرين أن يعبدوك أنت أيها الآب غير المولود بيسوع المسيح في الروح القدس الذي به لك المجد والقدرة الآن وإلى كل آباد الدهور. آمين[٥]".

هنا يأتي الاستدعاء Epiclesis أي "استدعاء الروح القدس" لكي بحلوله على مياه المعمودية يجعل منها **مياه حيَّة مملوءة مجدا**، تحمل فيها قوة تطهير الخطايا، والميلاد الجديد. هذا الفعل السرائري يكمن في قول

٥- النص مُترجم عن اليونانية من كتاب: F. E. Brightman, *The Sacramentary of Serapion of Thmuis*, The Journal of Theological Studies, vol. I, London, 1900, p. 88- 113, 247- 277.

الكاهن مخاطباً الله: "اطّلع... اظهر وانظر... هذا الماء، وامنحه نعمة الأردن والقوة والعزاء السمائي...".

وهو نفس المعنى الذي ورد في قداس الماء عند القديس سرابيون: "تطلع الآن من السماء، وانظر إلى هذه المياه واملأها من الروح القدس".

هنا الماء كمادة طبيعية لا يتحول إلى مادة تفوق الطبيعة، إذ تظل المياه مياهاً، لكنها تحمل فيها قوة إلهية لم تكن فيها قبلاً. وهذا هو السر عينه. وهذا هو ما فعله سر التجسد الإلهي الذي جعل من المادة واسطة لشركة إلهية، تماماً كما اتحد اللاهوت بالناسوت في شخص السيد المسيح له كل المجد بسر لا يُعبَّر عنه. وهكذا تماماً صار ماء المعمودية ماءً مقدساً بحضور المسيح وحلول الروح القدس.

هنا عودٌ إلى خلق جديد بالماء أيضاً كما كان في البدء تماماً. وما الخلاص إلاّ إعادة خلقة ما قد فسد. ولكن إعادة الخلق هنا هي أسمى وأعظم بما لا يُقارن من الخلق الأول. لأنه إن كان الخلق الأول للإنسان كان على صورة الله ومثاله، إلاّ أن الصورة قد فسدت لعصيان الإنسان وتغرّبه عن خالقه. أما هنا فإعادة خلقة الإنسان هي لكي يصبح مولوداً جديداً على نفس مثال الجمال الإلهي الفائق الوصف ليصبح أهلاً لميراث ملكوت سماوي لا فردوس أرضي، ولكي يتجدد مرة أخرى كصورة خالقه مضيئاً بنور الحق بسكنى الروح القدس لميراث الحياة الأبدية بضمان إلهي جديد هو ابن الله الوحيد الذي يضمن للإنسان المولود من فوق أن تظل صورته والتي هي على صورة خالقه مضيئة دائماً، ومطابقة للأصل الذي جُبلت على مثاله، وهو ما لم يكن من نصيب من جازوا الخلق الأول دون أن يجوزوا الثاني.

وفي نهاية هذه الصلاة يقول الكاهن: "ليكن هذا الماء وهذا الزيت مباركَين مملوءين مجداً، مطهَّرين". فما هو هذا الزيت الذي تعنيه هذه

الصلاة؟ ذلك لأنه يُصب في ماء المعمودية - ثلاث مرات بمثال الصليب - كل من الزيت الساذج، وزيت الغاليلاون، وزيت الميرون، مع نفس منطوق الصلوات في كل مرة سكب لكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة حيث يقول الكاهن: "باسم الآب والابن والروح القدس، مبارك الله الآب... الخ".

ونلاحظ هنا أنه بحسب التعليمات الطقسية، فإن سكب كل من زيت الغاليلاون وزيت الميرون في مياه المعمودية هو من أجل "تقديس الماء"، وهو ما لم يُذكر عند سكب الزيت الساذج على المياه.

كما نلاحظ أيضاً أنه لا وجود لأي صلوات تُقال على أي من هذه الأنواع الثلاثة من الزيوت في صلوات المعمودية في الطقس القبطي، وهو ما يعرفه الطقس الأرمني والطقس البيزنطي. فهذه هي المرة الوحيدة التي يرد فيها هنا في الطقس القبطي ذكر لصلاة تُقال على الزيت.

ففي الطقس البيزنطي، هناك طقوس خاصة تتم على الزيت المقدس (زيت الزيتون) والذي يُمسح به جسد الموعوظ قبل المعمودية حيث يتم إخراج الشياطين من الزيت أي تحريره، وذلك بالنفخ عليه وتبريكه برشم الصليب ثلاث مرات، ثم يعقب ذلك صلاة تقديس للزيت تقول:

"أيها السيد الرب إله آبائنا. يا من أرسلت الحمامة للذين في سفينة نوح وفي فمها غصن زيتون علامة للمساعدة والخلاص من الطوفان، وبهم سبقت فرسمت سر النعمة. يا من رزقت ثمر الزيتون لتكميل أسرارك المقدسة. فكنت تملأ به الذين في الناموس روحاً قدوساً، والآن تكمّل به الذين في النعمة. أنت بارك هذا الزيت بقوة وفعل وحلول روحك القدوس، حتى يكون مسحة لعدم الفساد وسلاحاً للبر،

وتجديداً للنفس، ودحضاً لكل فعل شيطاني، وعتقاً من الشرور لجميع الذين يدهنون به بإيمان، ويتناولون منه لتمجيدك وتمجيد ابنك الوحيد وروحك الكلي قدسه الصالح والمحيي، الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين آمين".

ثم يتناول الكاهن وعاء الزيت ويسكب قليلاً منه على الماء بشكل صليب مرتلاً مع الشعب "هلليلويا" ثلاث مرات.

ونلاحظ هنا أن صلاة تقديس الزيت في الطقس البيزنطي جاءت بعد صلوات تقديس مياه المعمودية. ودهن المعمَّد بالزيت قبل نزوله ماء المعمودية يتم هنا بعد قداس المعمودية وبعد صلوات تقديس الزيت. بينما نجد أن الطقس القبطي يتم فيه دهن المعمَّد بزيت الفرح (زيت الغاليلاون) قبل أن يبدأ قداس المعمودية، وبدون صلوات خاصة تقال على الزيت، كما سبق أن أوضحنا ذلك.

ونورد هنا جانباً من قداس الماء في الطقس البيزنطي، وهو يحوي بعض عبارات تتفق مع نظيرتها في الطقس القبطي. فيقول الكاهن:

"من أجل أن يُقدَّس هذا الماء بقوة الروح القدس وبفعله وبحلوله...

من أجل أن تنحدر على هذا الماء نعمة الفداء وبركة الأردن...

من أجل أن تحل الطهارة في هذا الماء، بفعل الثالوث الفائق الجوهر...

من أجل استنارتنا بنور المعرفة، وحسن العبادة بحلول الروح القدس...

من أجل أن يصير هذا الماء لطرد كل مشورات الأعداء المنظورين وغير المنظورين...

من أجل أن يصير المعتمد فيه أهلاً للملك الذي لا يفنى...

من أجل المتقدم الآن إلى الاستنارة المقدسة وخلاصه...

من أجل أن يصير ابناً للنور ووارثاً للخيرات الأبدية...

من أجل أن يصير مغروساً ومشتركاً في موت المسيح إلهنا وقيامته...

من أجل أن تُحفظ له صلة المعمودية وعربون الروح بغير دنس في اليوم الرهيب، يوم المسيح إلهنا...
من أجل أن يصير له هذا الماء حميم إعادة الولادة لغفران الخطايا وسربال عدم الفساد...الخ".

والآن نعود إلى الطقس القبطي لتتميم قداس الماء.

رشم الماء بالصليب للمرة الثانية:

يرشم الكاهن الماء بالصليب للمرة الثانية ثلاث مرات ويقول: "باسم الآب والابن والروح القدس، وشكر شعبك أجمعين، وعبيدك الذين قدموا لك بنيهم، مجداً وإكراماً لاسمك القدوس، اقبلهم على مذبحك المقدس الناطق السمائي كرائحة بخور، يدخل إلى عظمتك التي في السموات بخدمة ملائكتك ورؤساء ملائكتك الأطهار. يارب خلص شعبك، بارك ميراثك، ارعهم وارفعهم إلى الأبد. احفظهم في الإيمان المستقيم كل أيام حياتهم. واجعلهم في المحبة التي تفوق كل شئ، السلام الذي يعلو على كل عقل، بالشفاعات والطلبات التي للقديسة المملوءة مجداً والدة الإله مريم والقديس الصابغ يوحنا المعمدان، وسادتي الآباء الرسل، وسائر القديسين الذين أرضوك...".

إنه لمن المبدع حقاً أن تصلي الكنيسة إلى الله ليس فقط عن أولئك الذين تقدموا لينالوا المعمودية، بل وأيضاً عن الذين قدموهم. فالآباء قدموا بنيهم للمعمودية لمجد وإكرام اسم الله القدوس، والبنين قد حُسبوا بذلك ذبيحة وقرباناً مقدَّم على مذبح الرب الناطق السمائي، كرائحة بخور. فالبنون الذين هم ميراث من الرب يُقدَّمون الآن إلى الرب. ولسان حال الآباء هو: من يدك يارب أعطيناك، ونقرِّب لك مما لك.

يقول الشعب: "أبانا الذي في السموات...".

يقول الكـــاهن: التحاليل الثلاثة.

يقول الشماس: "خلصت حقاً ومع روحك أيضاً، ننصت بخوف الله".

يقول الكـــاهن: "واحد هو الآب القدّوس، واحد هو الابن القدوس، واحد هـو الروح القدس" .

يقول الشـــعب: "آمين".

ولنا هنـا بعض الملاحظات الطقسية التي أغفل ذكرها كتاب المعمودية المطبوع:

+ بعد صلاة أبانا الذي، أورد مخطوط (ط ١٩٢) من القرن الثامن عشر مرداً للشماس: "احنوا رؤوسكم"، كما أورده أيضاً كتاب المعموديَّة (ص ١١٠) الذي طبعه القمص يوحنا غبريال سنة ١٩٢٩م.

+ يتفق كتاب "الترتيب الطقسي" مع مخطوط القرن السابع عشر (ط ١٩٣) على أن الكاهن قبل أن يبدأ صلاة التحاليل الثلاثة يشمِّر أكمامه، وإن كان البطريرك حاضراً، يستر البرنس الذي يلبسه من أمام بستر أبيض.

+ مرد الشماس الذي يعقب التحاليل الثلاثة "خلصت حقاً، ومع روحك... الخ" أوردة كتاب "الترتيب الطقسي" للبابا غبريال، ومخطوطا القرن السابع عشر والثامن عشر (ط ١٩٣، ١٩٢)، وكتاب المعموديَّة المطبوع سنة ١٩٢٩م، وهو - كما أشرنا غير مرَّة - بنهرين قبطي عربي.

+ يتفق كتاب "الترتيب الطقسي" مع مخطوط القرن السابع عشر (ط ١٩٣) على أن الكاهن **يرفع وعاء الميرون بيده** ويقول بعد التحاليل الثلاثة وبعد مرد الشماس السابق ذكره: "مبارك الرب يسوع المسيح ابن الله وقدوس الروح القدس آمين[٦]". فيجيب الشعب: "واحد هو الآب القدوس... الخ".

٦ـ ورد النص في كليهما بالقبطية.

سكب الميرون في مياه المعمودية:

يأخذ الكاهن الميرون المقدس ويسكب منه قليلاً جداً في المعمودية ثلاث مرات مثال الصليب ليقدِّس الماء، وفي كل مرة يقول:

"باسم الآب والابن والروح القدس. مبارك الله الآب ضابط الكل آمين. مبارك ابنه الوحيد يسوع المسيح ربنا. مبارك الروح القدس البارقليط آمين".

ولقد تسلمت الكنيسة منذ القديم أن يُسكب من دهن المسحة "الميرون" على ماء المعمودية لتقديس الماء، وتكريس المعمودية، وتقديس جسد المعتمد كله(٧). ويقول القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م) في قوانينه: "يُحضر الأسقف الماء ويسكب فيه الميرون".

وقد سُئل القديس باسيليوس، هل يبطل فعل المعمودية إن وقع شئ في جرن المعمودية؟ فأجاب بأن هذه الأمور وأمثالها لا تبطل المعمودية فإن تقديسها يتجدد كل يوم بنضح الميرون عليها، على أنه إذا كنا نرشم بعض أعضاء الجسد بالميرون المقدس لتنتفع به بعض الأعضاء الظاهرة، فلا مانع من سكب جزء منه على الماء نفسه الذي يغطس فيه المعتمد برمته ليتقدس الجسد كله وتنتفع سائر الأعضاء(٨).

وإن عادة سكب الميرون المقدس في مياه المعمودية قد استقرت عند الأقباط منذ القرن الرابع الميلادي(٩). وكل الطقوس تأمر بصب الميرون المقدس في مياه المعمودية باستثناء الطقس الكلداني الذي يفرض فقط رشم إشارة الصليب المقدس بقنينة (قارورة) الزيت. وفي الطقوس التي

٧- ارجع للقانون ١٠٥ من قوانين القديس باسيليوس الكبير في نصها العربي.

٨- القمص يوحنا سلامة، اللآلئ النفيسة في شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، الجزء الأول ص ٥٢، ٥٣.

٩- *DACL*, t. 2, p. 697

يتناسق فيها طقس المعمودية مع الإفخارستيا، فإن صب الزيت أو تكريس الماء يتفق مع ما يُمارس على الخبز والخمر قبل المناولة(١٠).

وكان الطقس السرياني تبعاً لكتبه الطقسية يسكب الميرون أيضاً على مياه المعمودية طبقاً لشهادة من كتاب "الرتب الكنسية" تعود إلى القرن السادس الميلادي تقول: "يُقدَّس ماء الجرن بالدعوات المقدسة، ويُكرَّس بما يُسكب عليه ثلاث مرات من الميرون المقدس على شكل صليب، ويُرتل النشيد المقدس الذي يُنشد لله، وهو النشيد النابع من الأنبياء الملهمين من الله(١١)".

ولكن في القرن الثالث عشر تبنى السريان استخدام مزيج من الزيت huile والميرون chrême بدلاً من الميرون فقط، وهو ما أشار إليه ابن العبري فيقول: "في هذا الوقت يسكبون في ماء المعمودية الزيت والميرون(١٢)".

أما اليونان فهم على العكس لا يستخدمون سوى زيت مقدس عادي مثل الزيت الذي يُدهن به الموعوظ، وهو نفسه الذي يسكبون منه في مياه المعمودية. وهم يتفقون مع السريان والأرمن في أنهم يرتلون "هلليلويا" أثناء سكب الزيت في المياه. وهو نفس ما ذُكر في المؤلَّف المنسوب لديونيسيوس الأريوباغي في القرن الخامس الميلادي، وأشار إليه أيضاً مكسيموس المعترف من الكنيسة البيزنطية في القرن السابع الميلادي.

والأرمن لديهم نوعان من الزيوت، هما زيت الموعوظين، وزيت الميرون المقدس، ولكنهم في زمن غير معروف بالتحديد استبدلوا زيت

١٠ـ الطقوس الشرقية، مرجع سابق، ٨٩.
١١ـ *De Hier, Eccl,*. c. II, 7.
١٢ـ Nomocanon, c. II, sect. 14

الموعوظين بزيت الميرون المقدس، ويحتفظون بنفس التقليد السرياني والبيزنطي بترتيل "هلليلويا" عند سكب الميرون في مياه المعمودية.

ويظل الأقباط هم الوحيدون بين الكنائس الشرقية الذين يسكبون ثلاثة أنواع من الزيوت في مياه المعمودية، هي الزيت الساذج وزيت الغاليلاون، وزيت الميرون المقدس[١٣].

تحريك الماء:

تحريك الماء يذكّرنا بالملاك الذي كان ينزل في بركة سلوام ويحرك الماء حتى أن **أول** من كان ينزل في المياه بعد تحريكها كان يبرأ من أي مرض اعتراه، أما تحريك ماء المعمودية فهو لكي يولد منها **كل** من ينزل فيها ميلاداً جديداً. فيخرج معافى النفس والجسد والروح. فشتّان ما بين بركة سلوام وجرن معمودية العهد الجديد، وهكذا نظر لنا الرب شيئاً أفضل.

وبينما يحرك الكاهن المياه يقول قطع من المزامير:

+ «صوت الرب على المياه، إله المجد أرعد. الرب على المياه الكثيرة هلليلويا. صوت الرب بقوة، صوت الرب بجلال عظيم هلليلويا.» (مزمور ٢٨: ٣،٤).
+ «تعالوا إليه واستنيروا ولا تخزى وجوهكم هلليلويا. تعالوا يا أبنائي واسمعوني لأعلمكم مخافة الرب هلليلويا » (مزمور ٣١: ٥).
+ «جزنا في النار والماء وأخرجتنا إلى الراحة هلليلويا» (مزمور ٦٥: ١١).

١٣- *DACL*, t. 2, p. 698

+ «انضح عليّ بزوفاك فأطهر واغسلني فأبيض أكثر من الثلج هلليلويا. اصرف وجهك عن خطاياي وامح كل آثامي هلليلويا. قلباً نقياً اخلقه فيّ يا الله وروحاً مستقيماً جدده في أحشائي هلليلويا» (مزمور ٥٠:٧،٩،١٠).
+ «الرب اختار صهيون ورضيها مسكناً له هلليلويا» (مزمور ١٣٢:١٣).

ثم يقول الكاهن: "باركوا عليّ. ها ميطانية. اغفروا لي يا آبائي واخوتي. صلوا عني. المجد للآب والابن والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين. مبارك الرب الذي يضيئ لكل إنسان آت إلى العالم الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين" .

وفي الطقس البيزنطي توجد أيضاً نفس هذه الصلاة الأخيرة.

يقول الشعب: هلليلويا سبحوا الله في جميع قديسيه... (المزمور ١٥٠).

وهكذا يكتمل قداس المعمودية وتنحصر كل قوة الشيطان عن الماء فيصير الماء مقدساً طاهراً فيحل الروح القدس تبعاً لذلك، ويصير الماء حسب قول القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م) "حاملاً المسيح".

الفصل السابع

الغطسات الثلاث

هنا نصل إلى مركز السر ومحوره، وهو النزول في الماء للدفن فيه بشبه موت المسيح الذي ماته لأجلنا. «مدفونين معه في المعمودية للموت». وهكذا يصف القديس باسيليوس الكبير طقس المعمودية في حدوده النهائية بقوله:

[وبغطسات ثلاث، واستدعاءات بنفس هذا العدد يتم سر المعمودية العظيم[١]].

وفي ذلك يقول أيضاً القديس غريغوريوس النيسي (٣٣٠- ٣٩٥م):

[نختفي في الماء كما اختفى المخلص في الأرض. وعندما نعمل هذا ثلاث مرات نعبّر بذلك عن نعمة القيامة التي تحققت لنا بعد ثلاثة أيام، ونعمل هذا عندما نتبنى السر لا في صمت ولكن بأسماء الأقانيم الثلاثة المقدسة التي نؤمن بها ودُعي بها علينا[٢]].

ويقول القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥- ٣٨٦م) عن معنى النزول في الماء والغطس فيه:

[نزلتم الماء ثلاث مرات وصعدتم أيضاً، وهنا تشيرون برمز إلى الثلاثة أيام التي دُفنها المسيح... كنتم تموتون وتولدون، وإن مياه الخلاص كانت قبركم وأمكم في وقت واحد... الآن يتم الأمران معاً في وقت

١- St. Basile, *De Spir. Sancto*, c. XV, 35 & *PG* xxxii, col. 130. 132

٢- *PG* xlvi, col, 585

واحـد، إذ سـارت ولادتكـم جنبـاً إلى جنـب مـع موتكم... يا للمحبة المترفقة المتجاوزة كـل حـد. أخـذ المسيح مسامير في يديـه الطـاهرتين وقدميـه، وتعـذّب بالألم، بينما أسبغ عليّ الخلاص بشركة آلامه، بسـخاء، وبدون ألم وتعب] (المقالة ٢٠:٢).

والغطسات الثلاث هي في كل مكان تقليد أصيل قديم يمتد إلى زمن الرسل القديسين[٣]. وتـاريخ سـوزومين (أوائـل القـرن الخـامس) يخبرنـا عـن معتقـدات خاطئـة ظهـرت في القسـطنطينية منسـوبة إلى أفنوميوس Eunomius الذي ابتدع طقس التغطيس لمـرة واحـدة. وفي ذلك يقول المؤرخ سوزومين: "يقولون أن أفنوميوس هو أول من تجرأ على القول بأن المعمودية المقدسة يجب أن تتم بغطسـة واحـدة، وهـو الذي أفسد بذلك التقليد الرسولي الذي ظل محفوظاً حتى الآن في كل مكان[٤]". وقد أشـارت قوانـين مجمـع القسـطنطينية سـنة ٣٨١م، إلى تعاليم أفنوميوس رافضة الاعتراف بمعموديته فيقول القانون السابع من قوانين المجمع: "... على أن أتباع أفنوميوس الذيـن يعمّـدون بغطسـة واحـدة... وكـل المنتمـين إلى البـدع الأخـرى، لأن البـدع عديـدة ولاسيما بين القادمين من بلاد غلاطية، كل هؤلاء عندمـا يرغبـون في الرجوع إلى الأرثوذكسية نقبلهم كما نقبل الوثنيين...".

إن ممارسة التغطيـس ثـلاث مـرات هـو الطقـس الـذي يراعيـه الشرق المسيحي بدقة، ويحفظه كتقليـد رسـولي. والقديسـان كـيرلس الكبـير (٤١٢- ٤٤٤م)، يوحنـا ذهـبي الفـم (٣٤٧- ٤٠٧م)، وثيؤدوريـت (٣٩٣- ٤٦٦م)، والكتـاب المنسـوب لديونيسـيوس

٣- *DACL*, t. 2, p. 292

٤- *Hist. Eccl.*, 1. VI, c. xxvi & *PG* lxvii, col. 1362

الأريوباغي (القرن الخامس)، ويوحنا الدمشقي (٦٧٥- ٧٤٩م) وآخرون هم شهود لتقليد مصر وسوريا وفلسطين لممارسة مستقرة للمعمودية بالتغطيس ثلاث مرات باسم الآب والابن الروح القدس.

ويؤكد هؤلاء الآباء بخصوص لحظة الخروج من مياه المعمودية بعد كل غطسة من الغطسات الثلاث أنه يلزم أن يتبع كل خروج من الماء إقرار بقيامة المسيح.

ولقد أرسل الأسقف أمفيلوخيوس[٥] Amphiloque إلى القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م) يسأله عن ضرورة إخراج المعمَّد كاملاً من الماء بعد كل غطسة، وكان جواب القديس باسيليوس، أنه لا يمكننا أن نفصل بين فعلي التغطيس في الماء والرفع منها، فكل فعل منهما يكمّل الآخر، والتغطيس لا يعارضه الخروج من الماء بعد كل غطسة[٦].

من هذا نفهم أن التغطيس الكامل في الماء ثلاث مرات، والخروج الكامل من الماء بعد كل غطسة هو التقليد القديم والمستقر في الشرق. إلاّ أن الديداخي (حوالي سنة ١٠٠م) قد أشارت إلى الحالات التي يمكن بموجبها الاكتفاء بسكب بسيط للماء على رأس المعمَّد. فتقول:

"... عمّدوا باسم الآب والابن والروح القدس، بماء حار. وإن لم يكن لك ماء حار، فعمد بماء آخر، وإن لم يمكنك بماء بارد فبماء ساخن.

٥- عاش في زمن الإمبراطورين فالنتيانوس وفالنس سنة ٣٧٤م، ولمعت شهرته من سيرته النسكية وسعة اطلاعه، ومعارفه اللاهوتية، فصار أسقفاً على إيقونيوم (قونية) وكان ضمن آباء المجمع المسكوني الثاني. وإجابة لسؤاله أرسل إليه القديس باسيليوس فصوله السبعة والعشرين عن الروح القدس. ولم يصل لنا من كل كتبه سوى قصيدة نظمها في تعداد أسماء الكتب المقدسة القانونية. وكان واحداً من المناضلين عن لاهوت الروح القدس.

٦- *Epist.*, cc xxxvi, 5 & *PG* xxxii, col. 883

وإن لم يكن لديك كلاهما، فاسكب ماءً على الرأس ثلاث مرات باسم الآب والابن والروح القدس" (٧: ١، ٢، ٣).

كما أن ارتباط الغطسات الثلاث بالاعتراف الثلاثي بالإيمان هو تقليد مستقر في مصر كما في كل الشرق، وهي رمز للثالوث القدوس كما ذكر ذلك العلامة ديديموس الضرير في مؤلفه عن الثالوث[٧]. فيقول:

[إن الأريوسيين ليس لديهم معمودية كاملة، وعبثاً أخذوا الغطسات الثلاث، لأنهم ألغوا الذكصولوجية التي تُقال بعد العماد مبدلين مساواة الثالوث، ومتجاوزين الحد حتى في اعترافاتهم الخاصة][٨].

وفي الرسالة الأولى للقديس أثناسيوس الرسولي عن الروح القدس إلى الأسقف سيرابيون يقول له:

[الإيمان بالثالوث المسلَّم لنا يوحِّدنا بالله. فمن ينتزع شيئاً من الثالوث ويعتمد باسم الآب وحده، أو باسم الابن وحده، أو باسم الآب والابن بدون الروح القدس، فهو لا ينال شيئاً، بل يظل فارغاً وغير مستوفٍ شروط الانضمام، هو والذي ظنَّ أنه منحه المعموديَّة] (١: ٣٠)

الاستجوابات الثلاثة (بحسب الطقس القديم):

في الفصل الثالث من هذا الباب (قبول المسيح والاقرار بالثالوث القدوس) أشرنا إلى الاستجوابات الثلاثة بحسب موقعها في الطقس

٧- Didyme, *De Trinitate*, II, 12 & *PG* xxxix, col. 671 sq

٨- *DACL*, t. 2, p. 267

القبطي الحالي للمعمودية، أما هنا فإننا نعرض لها بأكثر إسهاب لنتتبع تاريخها الطقسي، فهنا موقعها الطقسي القديم.

ويُرجع القديس كيرلس الكبير ومعه أمونيوس كاهن الإسكندرية (القرن الخامس) أصل الأسئلة الثلاثة المختصة بالإيمان والإجابات عليها إلى الثلاثة إنكارات التي أنكر بها القديس بطرس الرسول الرب[٩].

إن كتابات الآباء تقدم لنا إثباتات كثيرة قديمة لممارسة الاعتراف بالإيمان تحت شكل أسئلة وأجوبة. فقد أشار إليها العلامة أوريجانوس (١٨٥ـ ٢٥٤م) في عظة له على سفر العدد[١٠].

وأشار إلى أهميتها أيضاً البابا ديونيسيوس الكبير (٢٤٨ـ ٢٦٥م) الـ ١٤ من باباوات الكنيسة القبطية، وذلك في رسالته الخامسة التي كتبها إلى زيستوس أسقف روما، حيث شرح فيها البابا ديونيسيوس حادثة وقعت لأحد الإخوة في كنيسة مصر عندما حضر مراسيم المعمودية وسمع الأسئلة والأجوبة فتيقن في قلبه أن المعمودية التي اقتبلها لم تكن كما رآها وسمعها، إذ كانت مملوءة كُفراً وتجديفاً. فيقول القديس ديونيسيوس:

[كان أحد الإخوة... يُعتبر مؤمناً منذ زمن طويل... وكان حاضراً مع من تعمدوا أخيراً. وعندما سمع الأسئلة والأجوبة أتاني باكياً ونادباً سوء حظه، وسقط عند قدميّ، واعترف محتجاً بأن المعمودية التي عُمّد بها مع الهراطقة لم تكن كهذه المعمودية بأي حال من الأحوال إذ كانت مملوءة كفراً وتجديفاً... لهذا طلب أن ينال هذا التطهر الكامل، وهذه النعمة الجزيلة، ولكنني لم أجسر على أن أفعل هذا. وقلت إن شركته الطويلة كافية، لأنني يجب ألاّ أجسر على أن أجدد من البداية شخصاً سمع الشكر، واشترك في ترديد آمين، ووقف أمام المائدة ومدّ يديه

٩ـ cf. *DACL*, t. 2, p. 265

١٠ـ PG xii, col. 603

ليتناول الطعام المبارك، وتناوله فعلاً واشترك وقتاً طويلاً في جسد ودم ربنا يسوع المسيح... لكنه لا يكف عن النحيب...الخ[١١]].

ولدينا منذ القرن الثالث الميلادي شهادة أخرى عن هذه الاستجوابات الثلاثة التي تُقال عند لحظة التغطيس في مياه المعمودية، وهي نص خطاب من الأسقف فرمليانوس Firmilien أسقف قيصرية الكبادوك أرسله إلى القديس كبريانوس، حيث لا يُذكر فيه سوى صيغة قديمة للاعتراف بالإيمان confessio fidie تحت شكل أسئلة وأجوبة تتبادل مع كل غطسة من غطسات المعمودية الثلاث، ولم تُحفظ هذه الوثيقة سوى في نصها اللاتيني. وفيها يذكر الأسقف فرمليانوس حالة امرأة بها روح نجس لم تكن تخشى أن تدّعي أنها تقدّس الإفخارستيّا وتمنح المعمودية طبقاً لقوانين الكنيسة، فيقول الأسقف فرمليانوس مخاطباً القديس كبريانوس الشهيد: "... وتجرأت أن تعمِّد أيضاً عدداً كبيراً مغتصبة نفس كلمات الاستجواب المألوفة والشرعية حتى لا يظهر أنها تختلف في شئ عن القانون الكنسي..."، ثم يسأله قائلاً: "ماذا ستقول إذاً عن عماد مثل هذا الشخص؟ هذا العماد الذي لم ينقصه التعبير عن الثالوث ولا الاستجواب الشرعي[١٢]".

وفي زمن البابا أثناسيوس الرسولي (٣٢٨- ٣٧٣م) عرفنا من القصة التي أوردها المؤرخ روفينوس (٣٤٥- ٤١٠م) عن طفولة أثناسيوس عندما كان يعمِّد رفاقه في اللعب وهو بعد طفل، أنه قد دار حوار بين البابا ألكسندروس الـ ١٩ والطفل أثناسيوس، حيث سأله الأسقف عما كان يصنعه، وعندما وجد أن الأسئلة والأجوبة قيد قيلت كما يجب بشكلها القانوني لم يتردد في أن يعلن صحة هذه المعمودية المرتجلة.

١١ـ تاريخ الكنيسة ليوسابيوس القيصري، (٧:٩)، مرجع سابق، ص ٣٥٢

١٢ـ *DACL*, t. 2, p. 293

إلاّ أن القديس كيرلس الكبير (٤١٢- ٤٤٤م) لم يتكلم سوى عن الجحد والاعتراف بالإيمان، لأنه لم يكن بصدد شرح كامل لسر المعمودية المقدس.

إن كلمات الاستجواب المألوفة والشرعية قد عرفناها بواسطة المراسيم القانونية القديمة. وغني عن التعريف أن الكتّاب الآسيويين في القرن الرابع الميلادي لم يتحدثوا عن أسئلة وأجوبة تختص بالإيمان، لكن هناك اعتراف ὁμολογία يسبق فعل التغطيس في مياه المعمودية مباشرة.

وعن شكل هذه الأسئلة والإجابات عليها في الخمسة قرون الأولى للمسيحية، نقدم الجدول التالي وهو للمقارنة بين كتاب التقليد الرسولي (الترتيب الكنسي المصري) (١٢:٢١-١٨)، الذي دُون في حدود سنة ٢١٥م، وقوانين هيبوليتس القبطية (١٤:١٩-١٧)، التي تعود إلى القرن الخامس الميلادي، وقوانين الرسل القبطية (١٢:٣٤-١٥)، التي تعود إلى هذه الفترة أيضاً.

التقليد الرسولي	قوانين هيبوليتس	قوانين الرسل
وعندما ينزل الذي يعتمد إلى الماء، فالذي يعمِّد يضع يده عليه ويقول له: أتؤمن بالله الآب ضابط الكل؟ والذي يعتمد يقول: إنى أؤمن. فيغطسه في الماء دفعة أولى ويده على رأسه.	وهكذا ينزل إلى المياه. ويضع القسيس يده على رأسه ويسأله ويقول: أتؤمن بالله الآب ضابط الكل؟ والذي يتعمد يقول: إنى أؤمن. فيغطسه في الماء دفعة أولى ويده على رأسه.	والذي يُعمِّد يضع يده على الذي يقبل، ويغطسه ثلاث دفعات، ويعلن هذا كل دفعة.
ويسأله ثانى دفعة ويقول له: أتؤمن	ويسأله ثانى دفعة ويقول له: أتؤمن	وبعد ذلك يقول له أتؤمن بيسوع المسيح

التقليد الرسولي

يسوع المسيح ابن الله، الذي وُلد من الروح القدس ومن مريم العذراء، الذي صُلب في عهد بيلاطس البنطى، ومات وقام من بين الأموات في اليوم الثالث، وصعد إلى السموات، وجلس عن يمين الآب، ويأتي ليدين الأحياء والأموات؟

وعندما يقول: إني أؤمن، يغطسه دفعة ثانية.

ويسأله ثالث دفعة ويقول له: أتؤمن بالروح القدس في الكنيسة المقدسة وقيامة الجسد؟

والذي يُعمَّد يقول: إني أؤمن، فيغطسه ثالث دفعة.

قوانين هيبوليتس

يسوع المسيح ابن الله، الذي ولدته مريم العذراء من الروح القدس، الذي أتى لأجل خلاص البشر، الذي صلب على عهد بيلاطس البنطى، الذي مات وقام من بين الأموات في اليوم الثالث، وصعد إلى السموات، وجلس عن يمين الآب، ويأتي ليدين الأحياء والأموات؟ فيقول: إني أؤمن . فيغطسه في الماء ثاني دفعة.

ويسأله ثالث دفعة ويقول له: أتؤمن بالروح القدس البارقليط الفائض من الآب؟ فإذا قال إني أؤمن؛ غطسه ثالث دفعة في الماء.

قوانين الرسل

ربنا، الوحيد ابن الله الآب، أنه صار إنساناً بعجب غير مُدرك، وتجسد من الروح القدس، ومن مريم العذراء بغير زرع بشر، وصلب على عهد بيلاطس البنطى، ومات بإرادته لخلاصنا معاً، وقام من بين الموتى في اليوم الثالث، وحلّ المربوطين، وصعد إلى السموات، وجلس عن يمين الآب، ويأتي ليدين الأحياء والأموات بظهوره وملكوته؟

أتؤمن بالروح القدس الصالح المطهّر في الكنيسة المقدسة؟ وهل تؤمن بقيامة الجسد التي تكون لكل أحد؟ وبملكوت السموات والدينونة الأبدية؟ ويجيب عن هذه كلها قائلاً: إنيّ أؤمن بهذا.

التقليد الرسولي	قوانين هيبوليتس	قوانين الرسل
	ويقول كل دفعة: إني أعمدك باسم الآب والابن والروح القدس، **الثالوث المساوي.**	

هنا يلزم جداً أن نوضح أن قوانين هيبوليتس هي طقس المعمودية القبطي الذي مارسته كنيسة الإسكندرية في غضون القرن الخامس الميلادي، ويتضح أن الأسئلة الثلاثة التي تتخلل الغطسات الثلاث كان يتعلّق كل سؤال منها بأحد الأقانيم الثلاثة، ولكن كل غطسة من الغطسات الثلاث كانت باسم الثلاثة أقانيم معاً الآب والابن والروح القدس.

إذاً، راعىَ الطقس القبطي القديم أمرين عند الغطسات الثلاث هما:

- أن كل غطسة من الغطسات الثلاث يسبقها سؤال عن أحد الأقانيم الثلاثة، يجيب عنه المعمَّد بكلمة "آمين".
- أن كل غطسة من الغطسات الثلاث تكون باسم الآب والابن والروح القدس.

إلاّ أن عبارة "الثالوث المساوي" هي صيغة فريدة لم تُذكر سوى في قوانين هيبوليتس، ويرى بعض علماء الليتورجيا أنها صيغة محشورة في النص الأصلي للقوانين[١٣]، إلاّ أنها هي هي الصيغة المصرية بنفس هذا النص كما نقرأها في كتاب الطقس الذي نشره العالم الليتورجي بومشتارك طبقاً لمخطوط يعود إلى القرن السادس الميلادي[١٤]، "أعمدك

١٣- *DACL*, t. 2, p. 268

١٤- A. Baumstark, dans *Or. Christ.*, t. I, p. 43

باسم الآب والابن والروح القدس **الثالوث المساوي**" فهي إذاً صيغة مصرية بحتة ظهرت على الأقل في غضون القرنين الخامس والسادس الميلاديين.

ويلزم أن نوضح هنا أن هذه الصيغة السابق ذكرها ربما كانت صيغة للمعمودية تقال في بعض أماكن في كنيسة مصر، وليس في مصر كلها، ذلك لأن البابا تيموثاوس الإسكندري (٣٧٨- ٣٨٤م) قد ذكر صيغة التعميد بدون هذه الإضافة الأخيرة "الثالوث المساوي"، في إجابته على سؤال ما إذا كان يجب أن يُعمَّد طفل لا نتذكَّر أنه نال العماد، فأجاب مؤكداً نعم، وذكر بخصوص تلك الحالة وأمثالها استخدام صيغة شرطية "**إذا لم تكن قد عُمِّدت، فأعمِّدك باسم الآب والابن والروح القدس**" . ونعرف من خطاب كتبه القديس ساويرس الأنطاكي (٤٦٥- ٥٣٨م) نحو سنة ٥١٣م إلى رهبان من الإسكندرية يسألهم: هل كان البابا كيرلس الكبير (٤١٢- ٤٤٤م) يمارس في حالات مشابهة الصيغة الشرطية السابق ذكرها؟ فواضح هنا أن الصيغة تخلو، على أي حال، من الإضافة "الثالوث المساوي" (١٥).

وكانت الكنيسة تعامل المرتدين من البدع إلى الإيمان، بأن تطلب إليهم أن يتلوا قانون الإيمان، فإذا تبين أن أحدهم عُمِّد باسم الآب والابن والروح القدس، فلتوضع عليه اليد فقط لينال نعمة الروح القدس، أما إذا لم يذكر الثالوث القدوس في جوابه، فليُعمَّد. وكان أتباع بولس السموساطي - كما يذكر البابا أثناسيوس الرسولي - يذكرون اسم الآب والابن والروح القدس في تميم سر المعمودية، ولكنهم لم يكونوا يستعملون هذه الكلمات بمعناها الحقيقي، ولذلك اعتبر مجمع نيقية

١٥- E. W. Brooks, *The Sixth Book of Select Letters of Severus*, London, 1904, t. II, p. 421.

المسكوني أن معموديتهم باطلة[١٦]

أما الاستجوابات في المراسيم المصرية (قوانين الرسل القبطية) في نصها القبطي تحمل آثاراً لتطور واضح. ثم أن الاستجوابات المختصة بالأقنوم الأول ناقصة، ذلك لأن الورقات المفقودة من هذه الوثيقة منعتنا من أن نعرف ماذا كان يسبق هذه الفقرة.

ويتضح لنا من النص اللاتيني القديم للمراسيم المصرية أن روما قد عرفت صيغة مشابهة جداً لتلك التي عرفتها كنيسة الإسكندرية في عصورها المبكرة. ويلزمنا هنا أن نقرر أن وجود تشابه بين الاستجوابات في كل من قوانين هيبوليتس والمراسيم المصرية **Constitutions égyptiennes** على مياه المعمودية لا يفسر على الإطلاق احتمال أن تكون قوانين هيبوليتس رومانية الأصل، بل على العكس هي إثبات قاطع أن كنيسة الإسكندرية قد أملت على كنيسة روما هذه الاستجوابات. ذلك لأن علماء الليتورجيا أمثال فونك **Funk** يؤكدون أن مثل هذه المشابهة لا يمكن أن تكون برهاناً يؤيد أن قوانين هيبوليتس ذات أصل روماني، بل على العكس هو - بحسب رأينا - إثبات قاطع أن قوانين هيبوليتس قد عُرفت بوضوح في كنيسة مصر قبل أن تفطن إليها روما[١٧].

وبحسب قوانين هيبوليتس فإن الاعتراف بالإيمان يجري في مياه المعمودية (الجرن) وفي الحال يعقبه صيغة العماد **baptismal formula**.

وفي التقليد القبطي والأثيوبي فإن هذه الاستجوابات أو الأسئلة الخاصة بالإيمان كانت قد قبلت تطوراً مسيحانياً كاملاً بمقابلتها مع تعاليم ومصطلحات القديس أثناسيوس الرسولي (٢٩٦- ٣٧٣م)

١٦- حنانيا كسّاب، مجموعة الشرع الكنسي، مرجع سابق، ص ٩٣.

١٧- قد أثبتنا في كتاب "قوانين هيبوليتس القبطية" أنها قوانين مصرية، وضعها أسقف من أساقفة كنيسة مصر، فارجع إلى الكتاب المذكور.

اللاهوتية[١٨].

ومرة أخرى نود أن نعقد مقارنة في الجدول التالي بين الاستجوابات الثلاثة كما وردت في التقليد الرسولي (الترتيب الكنسي المصري) وبين الترجمات القبطية **الصعيدية**، والأثيوبية، والعربية له، ليتضح لنا جلياً أن هذه الترجمات الثلاث تتفق إلى حد كبير فيما بينها باستثناء اختلافات طفيفة.

التقليد الرسولي	النص القبطي	النص الأثيوبي	النص العربي
١- أتؤمن بالله الآب ضابط الكل؟			
٢- أتؤمن بيسوع المسيح ابن الله،	أتؤمن بيسوع المسيح ربنا الوحيد ابن الله الآب،	أتؤمن باسم المسيح يسوع ربنا الوحيد ابن الله الآب،	أتؤمن بيسوع المسيح ربنا الوحيد ابن الله الآب،
٣- الذي وُلد من الروح القدس ومن مريم العذراء،	أنه صار إنساناً بعجب من الروح القدس ومن **القديسة** العذراء بغير زرع بشر،	أنه صار إنساناً بعجب غير مُدرك بالروح القدس وبمريم العذراء بغير زرع بشر،	أنه صار إنساناً بعجب غير مُدرك من الروح القدس ومن مريم العذراء بغير زرع بشر،
٤- الذي صُلب في عهد بيلاطس البنطي،	وصلب **لأجلنا** في عهد بيلاطس البنطي	وصلب في عهد بيلاطس البنطي	وصلب في عهد بيلاطس البنطي
٥- ومات،	مات بإرادته لخلاصنا	ومات بإرادته لخلاصنا	ومات بإرادته لخلاصنا

١٨- *DACL*, t. 2, p. 265

التقليد الرسولي	النص القبطي	النص الأثيوبي	النص العربي
٦- وقام من بين الأموات،	وقام من بين الأموات	وقام من الموتى	وقام من الموتى
٧- في اليوم الثالث،	في اليوم الثالث وحل المربوطين،	في اليوم الثالث	في اليوم الثالث وحل المربوطين
٨- وصعد إلى السموات،	وصعد إلى السماء	وصعد إلى السماء	وصعد إلى السماء
٩- وجلس عن يمين الآب،	وجلس عن يمين **أبيه الصالح في الأعالي**	وجلس عن يمين الآب	وجلس عن يمين الآب
١٠- ويأتي ليدين الأحياء والأموات؟	ويأتي **أيضاً** ليدين الأحياء والأموات بظهوره وملكوته؟	ويأتي ليدين الأحياء والأموات بظهوره وملكوته؟	ويأتي ليدين الأحياء والأموات بظهوره وملكوته؟
١١- أتؤمن بالروح القدس،	أتؤمن بالروح القدس الصالح المطهِّر **محيي كل الأشياء**	أتؤمن بالروح القدس الصالح المطهِّر	أتؤمن بالروح القدس الصالح المطهِّر
١٢- في الكنيسة المقدسة،	والكنيسة المقدسة[١٩]	والكنيسة المقدسة	والكنيسة المقدسة
١٣- وقيامة الجسد؟		وتؤمن بقيامة الجسد التي تكون لكل واحد، وملكوت السموات، والدينونة الأبدية؟	وتؤمن بقيامة الجسد التي تكون لكل واحد، وملكوت السموات، والدينونة الأبدية؟

يُلاحظ أن بعض التعبيرات التي وردت فيه تشير إلى أنها تعود

١٩- عند هذا الحد تنتهي المخطوطة القبطية الصعيدية بسبب فقد ورقتين منها.

إلى ما بعد مجمع القسطنطينية المسكوني الذي عقد سنة ٣٨١م.

ونص القانون الذي أورده الجدول السابق في صيغته القبطية الصعيدية منقول عن مخطوط[٢٠] يعود إلى أوائل القرن الحادي عشر الميلادي، وبالتحديد سنة ١٠٠٦م. وترى أن الترجمة الصعيدية قد أضافت على النص أو حذفت منه طبقاً لحرية كاملة للمترجم القبطي كما يتضح جلياً من البنود ٣، ٤، ٩، ١٠، ١١.

أما النص العربي الوارد في الجدول فيعود إلى حدود القرن الثالث عشر الميلادي، أما النص الأثيوبي فهو منقول عن نص عربي آخر مفقود سابق على النص العربي الوارد في الجدول[٢١].

وينبغي أن نذكر هنا أن هذه الترجمات الثلاث قد ذكرت قبل قانون الإيمان المذكور في الجدول السابق، قانون إيمان أولي في شكل ثلاثة مجموعات من الأسئلة والأجوبة عليها:

"أتؤمن بالله وحده، الآب ضابط الكل،
وابنه الوحيد يسوع المسيح ربنا ومخلصنا،
وروحه القدوس محيي كل الخليقة،
الثالوث المساوي،لاهوت واحد، ورب واحد.
وبمملكة واحدة،
وبأمانة واحدة،
وبمعمودية واحدة في الكنيسة الجامعة،
وبحياة أبدية؟

والمعتمد يقول أيضاً مثل هذا، وإنني أؤمن.

٢٠- B. M. or. 1320

٢١- شرحنا ذلك باستفاضة في كتاب "التقليد الرسولي لهيبوليتس" فارجع إليه.

والذي يُعمِّد يضع يده على الذي يقبل، ويغطسه ثلاث دفعات، **ويعلن هذا كل دفعة**". (انظر: قوانين الرسل القبطية ١:٣٤:١٠-١٢).

إن ترديد قانون الإيمان في صيغة مثلثة هو تقليد موغل في القدم، وسابق أيضاً على صيغة قانون الإيمان عند هيبوليتس والتي تمثل تقليد النصف الأخير من القرن الثاني الميلادي والذي اعتدنا أن نسميه "قانون الرسل".

ويؤكد العالم المدقق الأب جريجوري دكس أن صيغة قانون الإيمان التي تقال على المعمودية كصيغة ثلاثية قد استمر معمولاً بها في مصر إلى زمن أطول من أي كنيسة أخرى في العالم المسيحي. وما يؤكد ذلك بردية دير البلايزا التي تعود إلى القرن السابع أو الثامن الميلادي، والتي تمثل في الواقع طقس القرن الرابع في مصر، فيقول نص البردية:

"أؤمن با لله الآب ضابط الكل
وبابنه الوحيد ربنا يسوع المسيح
وبالروح القدس، وبقيامة الجسد، وبالكنيسة المقدسة الجامعة[٢٢]".

وينبغي للقارئ الحبيب أن يلاحظ مقدار التشابه الكبير بين هذه الصيغة الثلاثية السابق ذكرها مباشرة كما وردت في بردية دير البلايزا، وبين قانون الإيمان المصري الذي أوردته قوانين الرسل القبطية (١:٣٤:١٠-١٢) والسابق ذكره، ولكن على شكل أسئلة وأجوبة.

ويتضح لنا أيضاً أن الترجمات الثلاث تمثل تقليداً واحداً بينها من حيث الصياغة، انحدر إلينا بالتأكيد من مخطوط واحد قديم، إذ لا

٢٢- G. Dix, *op. cit.*, p. lxii, lxiii

يمكن أن تكون نصوص قانون الإيمان في المصادر الأخرى قد أغفلت كلها عبارة "أتؤمن با لله الآب ضابط الكل؟".

ونلاحظ أيضاً أن قانون الإيمان عند هيبوليتس يأخذ شكل أسئلة وأجوبة على ثلاث دفعات كما أشرنا في الجدول الأول، إلاّ أن الترجمات الثلاث لا تنهج نفس هذا النهج. فضلاً عن اتفاقات أخرى كثيرة بين هذه الترجمات الثلاث على مدي النص كله، لا فيما يختص بقانون الإيمان فقط والذي هو جزء من النص. مما يؤكد أن هذه الترجمات قد نقلت عن مصدر آخر قديم من مصر.

إن قوانين هيبوليتس القبطية والترجمة اللاتينية القديمة للمراسيم المصرية (قوانين الرسل القبطية) تشهد بوضوح أنه في التقليد المصري القديم ارتبطت الثلاث أسئلة والإجابات عليها ارتباطاً وثيقاً بالثلاث غطسات في مياه المعمودية، حيث يعقب كل سؤال والجواب عليه غطسة في الماء.

وهو ما نقرأه بوضوح في قوانين هيبوليتس القبطية (القانون ١٩:١٤- ١٧) (القرن الخامس الميلادي) كما ورد في الجدول الأول.

ونفس هذه السمة تقابلنا أيضاً في الطقس السرياني القديم، وفي طقس كنائس آسيا الصغرى، وفي الطقس الروماني[٢٣].

ففي كتاب عهد الرب، قد صيغ الاعتراف بالإيمان في شكل أسئلة وأجوبة تكتمل بموجبها كل صيغة الإيمان، فنقرأ عن هذه المراسيم كالآتي:

"بعد ذلك يسلمه (الأسقف) إلى الكاهن المعمِّد ويقفون عراة داخل المياه، ولينزل الشماس معه (أي مع الكاهن)، وحينما ينزل الذي

٢٣- انظر: كتاب صلوات الأسرار للبابا جلاسيوس الروماني.

يعتمد في الماء فليقل الذي يعمده واضعاً يده عليه هكذا: أتؤمن با لله الآب ضابط الكل؟ وليقل الذي يعتمد: أؤمن. فيغطسه حالاً غطسة واحدة.

وليقل الكاهن أيضاً ثانية: أتؤمن أيضاً بالمسيح يسوع ابن الله الذي أتى من عند الآب، والكائن معه منذ البدء[٢٤]، الذي وُلد من مريم العذراء بالروح القدس، الذي صُلب في أيام بيلاطس البنطي، ومات[٢٥]، وقام في اليوم الثالث حياً[٢٦] من الموت، وصعد إلى السموات، وجلس عن يمين الآب، وسيأتي ليدين الأحياء والأموات؟ وحينما يقول الذي يعتمد: أؤمن. يغطسه المرة الثانية.

وليقل أيضاً: أتؤمن أيضاً بالروح القدس وبالكنيسة المقدسة[٢٧]؟ وليقل الذي يعتمد: أؤمن، وهكذا يغطسه للمرة الثالثة[٢٨]".

وكان الاعتراف بالإيمان تحت شكل أسئلة وأجوبة هو أيضاً ما تمارسه كنيسة أورشليم في زمن القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م) عند لحظة التغطيس في الماء فيقول:

[لقد سُئل كل واحد منكم إن كان يؤمن بالآب والابن والروح القدس، فاعترفتم الاعتراف الخلاصي،

٢٤- لم يشر النص اللاتيني إلى عبارة: "الذي أتى... البدء".

٢٥- أضاف النص اللاتيني "وقُبر". ولم يشترك في هذه الإضافة لا كتاب عهد الرب ولا التقليد الرسولي في نصوصه العربية والأثيوبية والصعيدية، ولا قوانين هيبوليتس.

٢٦- استمرت كلمة "حياً" في النصوص الأسبانية لقانون الإيمان زمناً طويلاً بعد أن أسقطتها روما. وقد وردت في النص اللاتيني لكتاب عهد الرب.

٢٧- أضاف النص اللاتيني "وقيامة الجسد؟" أما كتاب عهد الرب فقد أغفل هذه الإضافة تحت تأثير نظرية أوضحها في مكان آخر، وهي أن المعمدين الجدد لا يجب أن يُلقنوا أي تعليم عن القيامة قبل المعمودية، معتبراً إياها أمراً جديداً ذا اسم جديد لا يعرفه إلا من يتناول القربان أولاً (٢:١٠). cf. G. Dix, *op. cit.*, p. lxix

٢٨- *BASC.*, t. 11, p. 67, 68

وغطستم ثلاث مرات في الماء وصعدتم منه[٢٩]].

إذاً كان الإقرار بالإيمان عل شكل أسئلة وأجوبة هو ما تمارسه كنائس مصر وسورية وأورشليم وفلسطين وكل آسيا، باستثناء كتاب المراسيم الرسولية الذي ذكر ترديد بسيط مختصر لصيغة الإيمان على إثر صيغة الاتحاد بالمسيح كما سبق أن أشرنا.

ومع الأسف الشديد نجد أن طقس الاعتراف بالإيمان تحت شكل أسئلة وأجوبة كما عرفه الطقس المصري القديم قد أصبح أقل وضوحاً في النصوص القبطية والأثيوبية لكتاب الترتيب الكنسي المصري (التقليد الرسولي)، ثم سرعان ما نجده قد اختفى تماماً في كتاب الطقس المطبوع باللغة العربية والذي ترجمه ونشره العالم الليتورجي أنطون بومشتارك، والذي يعود إلى القرن السادس الميلادي. ولم يعد لهذا الطقس أي أثر في كتب الطقس القبطية والأثيوبية الحالية، وهو نفس ما حدث أيضاً في الطقس السرياني[٣٠] برغم أنه لم تكن هناك أي صيغة ثلاثية للاعتراف بالإيمان غير الأسئلة والأجوبة عليها. ولم نعد نتذكر اليوم سوى حميم المعمودية فقط أي الغطسات الثلاث فقط حيث تتم كل غطسة منها باسم أحد الأقانيم الثلاثة. وكانت كل غطسة من الغطسات الثلاث في التقليد القديم، بل وحتى القرن السابع عشر، باسم الثلاثة أقانيم معاً الآب والابن والروح القدس.

التغطيس في الماء:

التغطيس في الماء هو الغاية التي من أجلها كان كل هذا الطقس. ونورد في السطور القادمة لطقوس التغطيس في الماء في الكنائس المختلفة.

٢٩- *PG* xxxiii, col. 1079

٣٠- *DACL*, t. 2, p. 281

في الكنيسة القبطية:

الجدول التالي هو مقارنة بين التعليمات الطقسية الخاصة بالتغطيس في الماء، وذلك من خمسة مصادر طقسية هي:

- **المصدر الأول:** هو كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة للقس أبو البركات ابن كبر (+ ١٣٢٤م) أي (القرن الرابع عشر).
- **المصدر الثاني:** هو كتاب "الترتيب الطقسي" للبابا غبريال بن تريك (١٤٠٩- ١٤٢٧م) أي (القرن الخامس عشر).
- **المصدر الثالث:** هو مخطوط (رقم ١٩٣ط) بمكتبة دير القديس أنبا مقار، ويعود إلى (القرن السابع عشر).
- **المصدر الرابع:** هو مخطوط (رقم ١٩٢ط) بمكتبة دير القديس أنبا مقار، ويعود إلى سنة ١٧٦٣م، أي (القرن الثامن عشر).
- **المصدر الخامس:** هو كتاب صلوات الخدمات، وهو المستخدم حالياً في تتميم طقس المعمودية في الكنيسة القبطية.

القرن ١٤	القرن ١٥	القرن ١٧	القرن ١٨	الحالي
ويقال كيرياليسون الليلويا ومزمور ١٥٠ بكماله دبحاً	وبعدها يرتلون الليلويا سبحوا الله وبعدها: شهد يوحنا، وبعدها لحن العماد: اسم فخر وبرلكسه	بعد دلك يرتلوا الشعب قايلين الليلويا سبحوا الله لاخرها	يقال مزمور ١٥٠	وفي أثناء المزمور (الـ ١٥٠)
ثم ياخد الشماس الذي يعمد	وفي ضمن دلك يقدمون المعمدين امام البطريرك او	ثم يعروا المتعمدين ويقدموهم إلى الكاهن مع	ويا خد الشماس المتعمد من	يمسك الشماس بالذي

القرن ١٤	القرن ١٥	القرن ١٧	القرن ١٨	الحالي
من جهة الغرب ويقدمه إلى الكاهن من الشرق	الكاهن. يتناولهم الشماس من الاشبين ويناولهم للكاهن من على يساره	أشابينهم على اليسار	الشرق ويأتى به الى الغرب على الاردن على شمال الكاهن	يعتمد من الغرب ويقبل به إلى الشرق على جرن المعمودية عن يسار الكاهن
	ويأخدهم الكاهن	ثم ياخد الكاهن الطفل ويمسك رجله اليمنى مع وركه الايمن بيده اليمنى، وكتفه الايسر بيده اليسار ويعرف اسمه	ثم يطلب اسمه	
فيغطسه الكاهن ثلث غطسات	ويغطس كل واحد تلات غطسات	ويغطسه تلات غطسات في الما	ويغطسه تلت دفعات	ليغطسه ثلاث مرات
	اذا كان الطفل قوياً وكل غطسه ينفخ في وجهه		وكل غطسه يصعده وينفخ في وجهه	وفي كل مرة يصعده وينفخ في وجهه
ويقول في كل دفعة يقول: اعمدك	وفي كل غطسه يقول: اعمدك (يا	وكل غطسه يقول هكدى: اعمدك	الدفعة الاولى:	ففى الغطسة

القرن ١٤	القرن ١٥	القرن ١٧	القرن ١٨	الحالي
اعمدك يا فلان باسم الاب امين اعمدك يا فلان باسم الابن امين اعمدك يا فلان باسم الروح القدس امين	فلان) باسم الآب والابن والروح القدس	باسم.. الى اخرها تمام التلات غطسات	اعمدك يا فلان باسم الاب الدفعة الثانية: والابن الدفعة التالته: والروح القدس البارقليط امين	الأولى يقول: أعمدك يا فلان باسم الآب وفي الثانية: والابن وفي الثالثة: والروح القدس آمين
	وادا كان طفل او طفله نحيل يغطسه غطستين لوسطه والتالته يغطسه كاملا			
ويصعده من الماء ويسلمه الى الشبين		ثم يصفيه على جانب الاردن ويعطيه للاشبين من الجهة اليمنى وهكذا يفعل بكل الاطفال		
	وان كان الطفل ضعيفا الحدر تم الحدر يغطسه ليلا يصيبه الخنق في المعمودية فيدان به الكاهن اعظم	والحدر تم الحدر تم الحدر ان يكون باحدهم ضعف ويتجاسر الكاهن ويغطسه في الما ليلا يموت فيصير مطالباً		

القرن ١٤	القرن ١٥	القرن ١٧	القرن ١٨	الحالي
	دينونه	به بين يدي الله والناس		
	لكن يضعه على جانب المعمودية ويبل يديه ويمسحه جميعه بالما	وانما يضعه على جانب المعموديه وياخد الما بكفيه ويمسحه تلاته دفوع وكل دفعه ينفخ في وجهه		
	وادا انتهى تعميدهم جميعا يناول كل واحد منهم لاشبينه من على اليمين	فادا فرغ الاطفال		
ويفيض الكاهن على يديه ماء في المعمودية	تم يغسل يديه بالما داخل المعموديه		بعد هذا تسكب الماء على يديك في الاردن	وبعد التعميد يصب ماء على يديه في جرن المعمودية ويغسلهما
	وان كان انتشر منه حول المعموديه يغسله بالما	فياخد ما فارغ ويسكب حول الاردن ليلا يكون وقع شي من الماء المقدس	وما حوله	
	وكذلك الصليب يغسله	ويغسل الصليب الدي يرشم به		ويغسل الصليب وما حول

القرن ١٤	القرن ١٥	القرن ١٧	القرن ١٨	الحالي
				المعمودية
	وينشف يديه	ويغسل يديه جيداً وينشفهم في ستر كتان والسلام		

ويضيف أبو البركات بعد ذلك بقوله: "وإن كان البطرك هو الذي عمد او الاسقف فيدخل الى الهيكل ويتولى احد القسوس امَّا الذي رشم او من شاركه بقية هده الخدمه وهي ياخد زناراً والاكليل ويغطسهم في الماء ويشد وسط المعمدين ويجعل الاكليل على رأسه ويقول: لباس الحياه الدايمه غير الهالك امين".

تعقيب على الجدول السابق:

✦ سؤال الكاهن عن اسم المعتمد ورد في مصدرين، ولكن هناك مصارد أخرى قبطية تشهد بضرورة أن يسأل الكاهن عن اسم المعتمد لأنه حتماً سيقول أثناء التعميد "أعمِّدك يا فلان....[٣١]". وغالباً ما يختار الكاهن للمعمَّد اسماً جديداً لواحد من القديسين الذين تحتفل بهم الكنيسة في ذلك اليوم، أو الذي عيَّدت له الكنيسة في يوم ولادة الطفل.

✦ اتفق مصدران على أن كل غطسة تكون باسم الثلاثة أقانيم معاً، بينما ذكرت ثلاثة مصادر أن كل غطسة هي باسم أحد الأقانيم الثلاثة فقط. ولكن يظل البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) هو المصدر الأكثر وثوقاً بين كل المصادر السابقة. ولازال الأحباش الذين حافظوا على كثير من الطقوس القبطية القديمة يكررون ثلاث مرات مع كل غطسة من الغطسات الثلاث: "أنا أعمدك باسم الآب والابن

٣١- BASC., t. 11, p. 75

والروح القدس".

ونرى أن السبب في اتجـاه كتـاب المعموديـة المطبـوع إلى تبـني أن تكون كل غطسة في الماء باسم أحد الأقانيم الثلاثـه وليـس باسـم الثلاثـة أقانيم معاً هو الاعتماد علـى كتـاب مصبـاح الظلمـة في إيضـاح الخدمـة بجزئيه المطبوع والمخطوط، وهو الكتاب الـذي استعان غـير مـرة ببعـض ممارسات بيزنطية عند عرضه للطقوس القبطية.

✦ البابـا غبريـال هـو أول مـن أشـار إلى حـالات خاصـة يُسـتثني بموجبها التغطيس ثلاث مـرات في المـاء، حيـث يُكتفـى بتغطيـس الطفـل لوسطه فقط في الماء في الغطستين الأولتين، ثم يُغطَّس كـاملاً في الثالثـة. ومنذ حوالي القرن السابع عشر جرت العادة بأن يغطـس الكـاهن الجسـم حتى الرقبة، وفي المرة الثالثة يغطي الماء رأس الطفـل. أمـا الأب فانسـليب Vansleb الدومينيكاني وهو دارس مدقق وشاهد عيان للطقس القبطي في أواخر القرن السابع عشـر، حيـث زار كنـائس القـاهرة في غضـون سـنة ١٦٧٣م فيقول: "لكي يعمل الكاهن هيئـة الصليـب، فإنـه يمسـك الرسـغ الأيمن للطفل مع قدمه اليسرى بإحدى يديه، بينما يمسـك رسـغه الأيسـر وقدمه اليمنى باليد الأخرى". وبرغم أن الأرمن مع غيرهم مـن الكنـائس الشرقية الأخرى يجمعون بـين الـرش والتغطيـس، إلاّ أن القوانـين القبطيـة صريحة جداً حول هذه النقطة، حيـث تجيز الـرش فقـط ثـلاث مـرات في حالة تعميد طفل ضعيف أو مريض.

ولازال الأقباط والأحباش يحفظـون حتـى اليـوم ممارسـة التغطيـس كاملاً دون صب الماء على الرأس، على الرغم ممـا ذكـره رينـودوت عـن قوانين ابن العسال التي دُونت في القرن الثالث عشر والـتي تقـول: "إذا لم يوجد ماء يُغمر به المتعمد، فليكن ملء ثلاثة كفوف يحمّ بـه علـى رأسـه

باسم الثالوث[٣٢]"، فصب الماء على الرأس لا يكون إلاّ في حالة الطفل المحتضر، ولكن حتى في هذه الحالة الحرجة، فإن المعمودية تمنح للطفل في الكنيسة، لأن التقليد القبطي حتى اليوم يمنع منح المعمودية للأطفال في البيوت خارجاً عن الكنيسة.

ويذكر يوسف السمعاني بشهادة روفائيل الطوخي عادة كان يمارسها بعض كهنة القاهرة عندما كانوا يحتفظون بقليل من مياه المعمودية لتعميد الأطفال الذين يكونون في خطر الموت. والعالم الليتورجي نيل Neal يذكر في مؤلفه "تاريخ الكنيسة الشرقية المقدسة[٣٣]" أن هذه الممارسة كانت لا تزال موجودة في أيامه، إلاّ أن ألفريد بتلر ينكرها قطعياً[٣٤].

وبحسب القانون الأول للبابا الإسكندري خريستوذولوس (١٠٤٧- ١٠٧٧) "لا يُعمَّد ذكر وأنثى في معمودية واحدة".

الكنيسة السريانية:

مارست الكنيسة السريانية التغطيس في الماء، ولكنها منذ بضعة قرون خلت قد هجرت تلك الممارسة بالكامل، وتمارس حالياً سكب الماء على الرأس ثلاث مرات، ولكن التقليد السرياني القديم كان يبيح سكب الماء على الرأس في حالات خاصة فقط، وليس كتقليد مستقر. فهناك مرسوم للقديس يعقوب الرهاوي (أسقف أديسا) حفظه لنا ابن العبري يصف لنا أنه في حالة الخطر فقط يجب أن يُعمَّد الطفل أياً كان موضعه

٣٢- انظر: كتاب المجموع الصفوي، للصفي أبي الفضائل بن العسال، الباب الثالث، نشره جرجس فيلوثاؤس عوض.

٣٣- Neal, *A History of the Holy Eastern Church*, vol. II, p. 997

٣٤- *DACL*, t. 2, p. 269

أو مكانه شرط أن يُمنح مياه المعمودية بصب الماء على رأسة[٣٥].

الكنيسة الأرمنية:

فطبقاً لأقدم المخطوطات الأرمنية، وهو ما يراعيه الطقس الحالي أيضاً، فهم يجمعون بين الرش والتغطيس في الماء، حيث يُصب الماء ثلاث مرات على رأس المعمَّد حديثاً، ثم يغطَّس جسده بالكامل في جرن المعمودية ثلاث مرات أيضاً.

وسنودس تفين Tvin الذي انعقد سنة ٥٢٧م، تحت رئاسة نرسيس الكبير Nersés le Gracieux يقول بهذا الخصوص في القانون الرابع عشر له: "يجب أن يكون المغسل سواء كان من الحجر أو من أية مادة أخرى ذا عرض واتساع كافيين كي يغطي الماء قامة الطفل الذي يتعمَّد[٣٦]".

الكنيسة البيزنطية:

تذكر التعليمات الطقسية البيزنطية: "... بعد أن يدهن الكاهن جسد الطفل بالزيت المقدس، يأخذه من عرّابه ويضبطه بيديه مستقيماً موجهاً إياه نحو الشرق ويعمِّده مغطساً إياه كله في الماء.

الكنيسة الأشورية (الكلدانية):

يقف المعمَّد في الماء حتى يصل الماء إلى عنقه ويقوم الكاهن بتغطيس رأسه في الماء ثلاث مرات[٣٧].

٣٥- *DACL*, t. 2, p. 283

٣٦- *DACL*, t. 2, p. 293

٣٧- ألفريد بتلر، الكنائس القبطية القديمة في مصر، الجزء الثاني، ص ٢١١.

المعمودية باسم الثلاثة أقانيم الإلهية:

تحدث القديسان بولس وبطرس الرسولان في غير مرة عن معمودية العهد الجديد ناسبين إياها إلى السيد المسيح كما في:

- «أم تجهلون أننا كل من اعتمد ليسوع اعتمدنا لموته» (رومية ٦:٣).
- «لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح» (غلاطية ٣:٢٧).
- «فقال لهم بطرس توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس» (أعمال ٢:٣٨).

فهل تعني المعمودية باسم المسيح أنها في ذات الوقت معمودية الآب والابن والروح القدس؟ وما تعني إذاً معمودية الروح القدس؟ يجيب القديس باسيليوس الكبير (٣٣٠- ٣٧٩م) عن كل ذلك موضحاً أن الروح القدس هو الذي يقود إلى الاعتراف بالمسيح الابن، وإذ تتوشح النفس بابن الله تؤهَّل لأن تعتمد باسم الآب فيقول:

> [... الرب نفسه أظهر أهمية المعمودية بالروح القدس عندما قال «المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح» (يوحنا ٣:٦)... وإذ صرنا هكذا مؤهلين أن يصبح للروح القدس موضعاً فينا، نصير بذلك قادرين على الاعتراف بالمسيح لأنه «ليس أحد يقدر أن يقول إن يسوع رب إلاّ بالروح القدس» (١كورنثوس ١٢:٣)... وإذ نلنا المعمودية باسم الروح القدس ووُلدنا من فوق في إنساننا الداخلي... حينئذ نصير مؤهَّلين لنوال المعمودية باسم ابن الله الوحيد... «لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم

المسيح» (غلاطية ٣:٢٧)... وعندما تكون النفس قد توشحت بابن الله تصير مؤهلة للمرحلة النهائية والكاملة، وتعتمد باسم الآب] (المعمودية ١:٢:٢٠- ٢٦).

ثم يعود القديس باسيليوس ليؤكد على ما سبق أن قاله فيكرر:

[... لذلك كل من اعتبر جديراً بأن يعتمد باسم الروح القدس... يصير أهلاً لنوال المعمودية باسم الابن ويلبس المسيح بحسب قول الرسول... وإذ قد لبسنا ابن الله الذي أعطانا السلطان أن نصير أبناء الله (يوحنا ١:١٢) حينئذ ننال المعمودية باسم الآب] (المعمودية ١:٢:٢٧).

إن كثيراً من النصوص تحدثت عن الدعاء باسم الثالوث دون أي إضافة أخرى عند لحظة التعميد في مياه المعمودية، ذلك لأن الاعتراف بالآب والابن والروح القدس هو أساس الغطسات الثلاث. فالتعميد باسم الثالوث جاء في الديداخي (تعليم الرسل) امتداداً لوصية الإنجيل «عمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس». ولكن الديداخي لم توضح ما إذا كان التعميد باسم الآب والابن والروح القدس يُقال ثلاث مرات مع الثلاث غطسات.

والعلامة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م) يقول:

[نحن لا نغطس مرة واحدة بل ثلاث مرات عندما نذكر اسم كل أقنوم من أقانيم الثالوث] (ضد براكسيان: ٢٦)[٣٨].

وكتاب الدسقولية في نصه السرياني القديم يقول: "بعد ذلك

٣٨- *BASC.*, t. 11, p. 75

ادعو بالدعاء الإلهي على الماء"، وهو ما أصبح في المراسيم الرسولية: "وأنت أيها الأسقف تعمدهم بالماء بأن تنطق عليهم داعياً الآب والابن والروح القدس".

والقديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات (٣٢٩- ٣٨٩م) يقول من جانبه لموعوظيه في القسطنطينية:

[احفظ الإيمان والاعتراف بالآب والابن والروح القدس... لأني سأغطسك بموجبه[٣٩]].

والقديس غريغوريوس النيسي (٣٣٠- ٣٩٥م) يقول:

[دعك من مجادلتي، واعترض، إن استطعت، على أقوال الرب التي تأسست عليها دعوة المعمودية للناس[٤٠]].

وقال العلاّمة ديديموس الضرير (٣١٣- ٣٩٨م) مدير مدرسة الإسكندرية اللاهوتية عن الأفنوميين أتباع أفنوميوس المبتدع:

[إن معموديتهم غير حقيقية لأنهم يتممون غطسة واحدة قائلين: إنهم يعمِّدون فقط بموت الرب[٤١]].

ولقد تحدث ثيودوريت أسقف قورش Cyr (٣٩٣- ٤٦٦م) وبروكوبوس Procope الذي من غزة (٤٧٥- ٥٣٨م) عن الدعاء باسم الثالوث على مياه المعمودية[٤٢].

٣٩- *PG* xxxvi, col. 417- 424

٤٠- *PG* xlvi, col. 585, 586

٤١- *PG* xxxix, col., 619

٤٢- *PG* lxxxiii, col., 420

إذاً، كانت الغطسة الواحدة أو الغطستان إنكاراً للثالوث القدوس. وفي القانون الخمسين من المراسيم الرسولية: "أي أسقف أو قسيس لا يتمم ثلاث غطسات في السر الواحد، بل بغطسة واحدة تُعطىَ لموت الرب(٤٣)، فليُجرَّد. لأن الرب لم يقل لنا: عمّدوا الموتى، بل «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس(٤٤)» ".

ويقول القديس أمبروسيوس (٣٣٩- ٣٩٧م) أسقف ميلان:

[لقد غطستم إذاً، فتذكروا ما أجبتم به على الأسئلة أنكم تؤمنون بالآب، وتؤمنون بالابن وتؤمنون بالروح القدس. لم يكن الإقرار أنكم تؤمنون بأقنوم أعظم وأقنوم عظيم وأقنوم أقل عظمة، ولكنكم ارتبطتم بنفس التأكيد بإعلان صوتكم أنكم تؤمنون بالابن بنفس إيمانكم بالآب، وأنكم تؤمنون بالروح القدس بنفس إيمانكم بالابن باستثناء واحد هو أنكم تعترفون أنكم ينبغي أن تؤمنوا بصليب الرب يسوع وحده].

صيغ التعميد في الكنائس المختلفة:

الطقس القبطي: تأتي فيه صيغة التعميد هكذا: "أعمِّدك... الخ" في صيغة المبني للمعلوم، كسِمة تميِّز الطقس القبطي، وهي تطبيق مباشر لوصية السيد المسيح «... عمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس» وهذه الصيغة معروفة منذ أمد بعيد، فالأب أمونيوس الإسكندري في

٤٣- انظر: رومية ٦:٣
٤٤- مت ١٩:٢٨

مذكراته عن سفر الأعمال استخدم صيغة "أعمِّدك(٤٥) – βαπτίζω σε ".
وتمارس الكنيسة الغربية نفس هذه الصيغة تماماً(٤٦).

وعن الطقس الروماني نقل الموارنة والصيغة عند الموارنة هي: "فلان، أنا أعمِّدك حملاً لقطيع المسيح باسم الآب والابن والروح القدس للحياة الأبدية".

أما باقي الكنائس الشرقية فإن صيغة العماد تأتي في صيغة تصريحية: "فلان يُعمَّد Βαπτίζεται ..." كما في الطقسين السرياني والبيزنطي(٤٧).

والقديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م) يعلل صيغة التعميد السريانية، كونها في صيغة المبني للمجهول "فلان يُعمَّد..." بقوله:

[عندما يقول الكاهن "فلان يُعمَّد" فهو يغطس رأسك في الماء ثلاث مرات، ويُصعدها من الماء ثلاث مرات ليعدّك بهذا الطقس السرائري لتنال حلول الروح القدس عليك، لأنه ليس الكاهن فقط هو الذي يلمس رأسك بل المسيح نفسه أيضاً بيده اليمنى. وهذا الأمر يتضح من كلمات الكاهن الذي يقوم بالتعميد، فهو لا يقول: "إنني أعمِّد فلان" بل يقول: "فلان يُعمَّد" مظهراً بهذا أنه مجرّد خادم للسر... والذي يتمم كل شيء هو الآب والابن والروح القدس...] (تعليم المعمودية ٢:٢٦، ١١:١٤).

وفي الطقس البيزنطي: يغطس الكاهن المعمَّد في الماء قائلاً:

٤٥- *DACL*, t. 2, p. 268

٤٦- J. G. Davis, *A Dictionary of Liturgy and Worship*, SCM Press LTD, 1972, p. 153

٤٧- *BASC.*, t. 11, p. 57

"يُعمَّد عبد الله (فلان) باسم الآب آمين
وينشله، ثم يغطسه مرة ثانية قائلاً: والابن آمين
وينشله ثم يغطسه مرة ثالثة قائلاً: والروح القدس آمين".

ويذكر الأب ديمتريفسكي أن الصيغة القديمة في الكنيسة اليونانية منذ القرن الرابع هي: "فلان يُعمَّد..." أما صيغة "يُعمَّد عبد الله فلان..." فيبدو أنها دخلت منذ القرن العاشر الميلادي، وهو ما استمر معمولاً به في الطقس البيزنطي حتى اليوم(٤٨).

أما عند السريان: فصيغة التعميد في طقس القديس ساويرس الأنطاكي (٤٦٥- ٥٣٨م) (الطقس الأول) تأتي هكذا: "فلان يُعمَّد لكي يكون حملاً في قطيع المسيح باسم الآب والابن والروح القدس الحي من أجل الحياة إلى دهر الداهرين".

وفي خطاب للقديس ساويرس الأنطاكي إلى الأسقف ثيودور والذي كتبه سنة ٥١٣م، يوضح فيه الصيغة التي كانت تُستخدم في المعمودية عند الشك فيما إذا كان المتقدِّم للمعمودية قد عُمِّد من قبل أم لا فتقول: "فلان يُعمَّد، إن لم يكن قد عُمِّد، باسم الآب والابن والروح القدس" وهي صيغة شرطية مأخوذ أصولها من الكنيسة القبطية منذ زمن البابا تيموثاوس الإسكندري (٣٧٨- ٣٨٤م) كما سبق أن ذكرنا. والقديس كيرلس الكبير بابا الإسكندرية الـ ٢٥ استخدم هو أيضاً صيغة شرطية لممارسة المعمودية: "أعمِّدك يا فلان، إذا لم تكن قد عُمدت، باسم الآب والابن والروح القدس(٤٩)".

أما الصيغة في طقس القديس يعقوب السروجي (٤٥١- ٥٢١م) فهي: "أعمِّدك يا فلان حملاً في قطيع المسيح باسم الآب والابن والروح

٤٨- *DACL*, t. 2, p. 294

٤٩- *DACL*, t. 2, p. 282

القدس إلى الدهور". وهي الصيغة الوحيدة بين الصيغ المختلفة التي تقابل صيغة التعميد عند الأقباط "أعمِّدك...".

أما الكنيسة المارونية: فهي تتبع نفس صيغة التعميد السريانية "فلان يُعمَّد... الخ".

أما الأرمن: عندما يُصب الماء باليد على رأس الطفل الموضوع في جرن المعمودية يقول الكاهن: "عبد الله (فلان) الذي جاء بمحض إرادته (في حالة الموعوظين) إلى العماد، يعمَّد الآن باسم الآب والابن والروح القدس"، ثم يغطّس رأسه ثلاث مرات في الماء قائلاً في كل مرة: "لقد خلص بدم المسيح من عبودية الخطيَّة إذ نال الحرية بواسطة قدرة الآب السماوي، وأصبح وريثاً مع المسيح وهيكلاً للروح القدس".

وتشير كثير من كتب الطقس الأرمنية إلى أن الصيغة السابق ذكرها يجب أن تُردد بكاملها ثلاث مرات، إلاّ أن هذه الممارسة لم تكن شائعة الاستخدام في أرمينيا إذ ظلت بعض كتب الطقس الأرمنية تذكر الرش بالماء ثلاث مرات مع الصيغة التالية: "يعمَّد (فلان) باسم الآب (في الغطسة الأولى)، والابن (في الغطسة الثانية)، والروح القدس (في الغطسة الثالثة)".

أما بعض المخطوطات الحديثة الأرمنية فنجد بها بعض إضافات على صيغة التعميد نتيجة تأثيرات لاتينية على الطقس الأرمني مثل صيغة: "يعمَّد (فلان) بواسطتي باسم الآب...".

ويقول كونيبير M. Conybeare إن صيغة التعميد الأرمنية: "يُعمَّد (فلان) باسم الآب...الخ" هي صيغة حديثة تماماً، ولا تؤكد بأي حال السمة التي تميز التقليد الأرمني موضحاً أن فارتانوس Vartanus الهرطوقي في القرن الثالث عشر لم يكن يعرف هذه الصيغة بالتحديد، إذ كتب

يقول: "إن الصيغة الوحيدة للمعمودية كما سلّمنا إياها القديس غريغوريوس المنير (٢٤٠- ٣٣٢م) هي: يعمَّد (فلان) خادم المسيح باسم الآب... الخ".

وبرغم ذلك فينبغي أن نعرف أن المخطوطتين اللتين يشير إليهما كونيبير واللتين يعود إحداهما إلى القرن الثامن والأخرى إلى القرن الحادي عشر واللتين قد ذكرتا هذه الصيغة هما ضمن مخطوطات قليلة ونادرة، وبذلك تمثلان حالة استثنائية[٥٠].

ويبدو أن كتاب الروضة الروحية Le Pré Spirtuel للراهب يوحنا موسخوس Jean Moschus (القرن السادس الميلادي) هو الوثيقة الوحيدة القديمة التي تمدنا بمعلومات واضحة عن الصيغة المستخدمة في لحظة التعميد في فلسطين في ذلك الوقت. فتقول الوثيقة إن يهودياً كان عابراً الصحراء صحبة بعض المسيحيين، وطلب إليهم أن يعمّدوه، وإذ لم يكن هناك ماء، فقد سُكب عليه الرمل ثلاث مرات مصحوباً بصيغة هي: "ثيؤدوروس يُعمَّد باسم الآب والابن والروح القدس" ، حيث أجاب المرافقون له بكلمة "آمين" على كل اسم من أسماء الأقانيم الثلاثة المقدسة[٥١]

أما الكنيسة الكلدانية: يقف المعمَّد في الماء ويغطس الكاهن رأسه وهو يقول: "فلان يُعمَّد باسم الآب والابن والروح القدس إلى الأبد[٥٢]". إلاّ أن سنودس ديامبر Diamper في القرن السادس عشر قرر أن نساطرة المالابار قد استخدموا صيغاً كثيرة مختلفة للمعمودية غير مقبولة. و لم يأخذ السنودس المذكور بالصيغة الأصلية القديمة السابق

٥٠- *ibid.*, p. 297

٥١- *DACL*, t. 2, p. 282

٥٢- الطقوس الشرقية، مرجع سابق، ص ٩٠

ذكرها، بل استبدلها بصيغة أخرى هي بمثابة إعلان يتبع فعل المعمودية نفسه يقول: "تعمَّد فلان وصار كاملاً باسم الآب والابن والروح القدس[٥٣]".

أما الطقس الجيورجي: والذي اعتمد على الطقس البيزنطي، فلسنا نعرف أي آثار قديمة عنه[٥٤].

الخروج من الماء:

يورد خولاجي سرابيون صلاة تُقال على المعمَّد حديثاً بعد الخروج من الماء مباشرة (٢٤: ١، ٢) عنوانها: "صلاة بعد العماد والخروج من الماء" تقول:

"يا الله، إله الحق، خالق الجميع، ورب كل خليقة، بارك عبدك هذا ببركتك، أظهره طاهراً في ميلاده الجديد، اجعله شريكاً لقواتك الملائكية، لكي لا يكون فيما بعد جسداً بل يُدعى روحانياً، شريكاً في موهبتك الإلهية النافعة. احفظه لك إلى النهاية، أنت خالق الكل، بابنك الوحيد يسوع المسيح، الذي به لك المجد والقدرة في الروح القدس الآن وإلى كل آباد الدهور آمين".

أما كتاب التقليد الرسولي (الترتيب الكنسي المصري) فقد أورد صلاة تُقال على المعمَّدين الجدد بعد خروجهم من الماء فيقول:

"ويضع الأسقف يده عليهم ويصلي قائلاً:

أيها الرب الإله، الذي جعل هؤلاء مستحقين لحميم الميلاد الثاني

٥٣- *PG* xlvi, col. 585, 586

٥٤- *DACL*, t. 2, p. 297

وغفران الخطايا، اجعلهم مستحقين أن يمتلئوا من الروح القدس، ولترسل عليهم نعمتك ليخدموك كإرادتك. لك المجد أيها الآب والابن والروح القدس، في الكنيسة المقدسة، الآن وكل أوان وإلى الأبد. آمين" (٢٢:١).

أما قوانين هيبوليتس القبطية فتورد الصلاة التي تُقال على المعمدين الجدد بعد خروجهم من الماء وهي:

"ويضع الأسقف يده على المتعمدين كلهم، ويصلي هكذا ويقول:

نباركك أيها الرب الإله ضابط الكل، لأنك جعلت هؤلاء مستحقين أن يولدوا دفعة أخرى. لتُفِض روحك القدس عليهم، وليكونوا واحداً وحيداً في جسد الكنيسة. غير مفترقين عنها بأفعال غريبة، بل كما وهبت لهم غفران خطاياهم، هب لهم أيضاً عربون ملكوتك. بربنا يسوع المسيح، هذا الذي من جهته؛ المجد لك معه ومع الروح القدس إلى أبد الآبدين آمين" (القانون١٩ : ٢٠).

وينفرد الطقس القبطي دون سواه من الطقوس الشرقية الأخرى بعادة النفخ في وجه المعتمد حال خروجه من الماء(٥٥). ولا زالت هذه الممارسة مرعية في الكنيسة القبطية حتى اليوم. إلاّ أننا نلاحظ من الجدول السابق أن القس أبو البركات ابن كبر (+ ١٣٢٤م) هو الوحيد بين مختلف المصادر القبطية الذي لم يشر إلى هذه العادة القبطية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهو الوحيد أيضاً الذي ذكر أن الكاهن "يُلبس المعمَّد حديثاً ثياباً بيضاً غير ملونة، ويقرأ عليه الأواشي المدونة في آخر كتاب التعميد، وعدتها أربعة" . إلاّ أننا لا نجد أثراً لهذه الأواشي التي يشير إليها ابن كبر في كتاب المعمودية.

أما الطقس السرياني فيرتل مقطعين من مدائح مار أفرآم السرياني

٥٥- *BASC.*, t. 11, p. 75

بينما يخرج المعمَّد من جرن المعمودية وينشف جسده بمنشفة: "مدّي أجنحتك أيتها الكنيسة المقدسة، إقبلي الحملان الوديعة التي ولدها لك الروح القدس من مياه المعمودية، تعالوا بسلام أيها الحملان الجديدة التي أُنجبت بواسطة المعمودية. إنكم وُلدتم في المياه باسم الثالوث[٥٦]".

ويتفق التقليد الرسولي مع قوانين هيبوليتس على أن الأسقف أو الكاهن يمسح كل واحد بزيت الميرون المقدس، ويقبله قبلة السلام ويقول له: "الرب معك" فيجيبه: "ومع روحك".

ويذكر التقليد الرسولي: "ومن بعد ذلك، يصلّون معاً مع كل الشعب، لأنهم لا يصلون مع المؤمنين قبل أن يفعلوا كل هذه الأفعال. وبعد الصلاة يقبلونهم بقبلة السلام" (١:٢٣). أما قوانين هيبوليتس فتضيف: "ومن بعد ذلك يصلون مع الشعب المؤمنين كلهم، ويقبلونهم، ويفرحون معهم بتهليل" (٢٢:١٩).

ويشترك المعمَّدون الجدد في القداس الإلهي ويتنالون من الأسرار المقدسة للمرة الأولى في حياتهم، ويا لها من بهجة اللقيا مع مخلّص حبيب طال انتظاره في لهفة وشوق المحب للحبيب.

ويذكر التقليد الرسولي (٢:٢٣) أن المعمدين الجدد يتناولون اللبن والعسل من بعد تناولهم من جسد الرب ودمه الكريمين، فيقول: "فأما اللبن والعسل الممزوجان ببعضهما، فيسقونهم منها، لتتميم الوعد الذي وَعَدَ به الله آباءنا قائلاً لهم: أعطيكم أرضاً تفيض اللبن والعسل، إذ أعطى المسيح حقاً جسده الذي يغتذي المؤمنون به مثل أطفال صغار، جاعلاً مرارة القلب تحلو بحلاوة الكلمة".

٥٦- الطقوس الشرقية، مرجع سابق، ص ٩٧

أما قوانين هيبوليتس (١٩: ٢٣، ٢٦) فتقول: "... كاسات أخرى من لبن وعسل. لكى يعلّموا الذين يتناولون أنهم وُلدوا دفعة أخرى كأطفال. لأن الصغار يتناولون اللبن والعسل، ... لتذكار الدهر الآتي، وحلاوة الخيرات التي فيه. تلك التي لا تعود بعد إلى مرارة ولا تضمحل".

ولقد ذكر العلامة ترتليان (١٦٠- ٢٢٥م) عادة أكل اللبن المخلوط بالعسل.

اللبن رمز تعليم الكنيسة النقي الذي يغذي النفس، والعسل رمز وصايا المسيح العذبة في فم أولاده، أحلى من العسل وقطر الشهاد.

وتحكي الشهيدة بربتوا[٥٧] سنة ٢٠٣م، رؤيا رأتها قبل استشهادها وكتبتها بخط يدها تقول: "... والتفت وإذا بحديقة متسعة، وفي وسطها إنسان جالس شعره أبيض وعليه لباس الرعاة، وكان فارع الطول، ورأيته ينحني ليحلب غنمة، وكان حوله ألوف ألوف متسربلين بثياب بيضاء، فرفع الراعي رأسه ونظر إليّ وكلمني «حسناً جئت يا بنيّة» ودعاني نحوه وأعطاني قليلاً من اللبن الذي حلبه فمددت يديّ المربوطتين وأمسكت بالوعاء، وشربت، فإذا بكل الجمع الواقف يقول معاً «آمين»، وعلى صوت الكلمة استيقظت، وما يزال في فمي شئ حلو كالعسل. وفي الحال دعوت أخي وأعلمته بالرؤيا، فعرفنا أننا لابد سنتألم، وحينئذ فقدنا الأمل في هذا العالم".

صلاة تسريح الماء:

هي صلاة الغرض منها هو أن يعود الماء في جرن المعمودية ماءً طبيعياً مرة أخرى حتى يمكن تصريفه، ولا يعرف هذا الطقس سوى

٥٧- كانت قد تزوجت حديثاً، و لم تكن تناهز الثانية والعشرين من عمرها، وقد رُزقت بوليد كان يرضع على صدرها، وهي في سجنها منتظرة يوم الشهادة للمسيح.

الأقباط والكلدان (النساطرة)[٥٨]. وإنه لمن العجيب حقاً أن منطوق هذه الصلاة يكاد أن يتفق تماماً في كليهما.

وعند ابن كبر (+ ١٣٢٤م) "يقول الكاهن صلاة تحل الماء[٥٩]".

فيصب الكاهن ماءً على يديه وعلى جرن المعمودية وما حوله، ويقول صلاة تسريح الماء. وفي هذه الصلاة يطلب الكاهن إلى الرب أن ينقل هذا الماء الذي صار طاهراً بنعمة المسيح وحلول الروح القدس إلى طبعه الأول، ليُرد إلى الأرض مرة أخرى مثل كل مرة.

يقول الكاهن: "أيها السيد الرب الإله ضابط الكل، خالق كل شئ مما لم يكن بحكمتك الحقيقية. أنت الذي جمعت المياه منذ البدء في مكان واحد. وجعلت رتبة لسائر المخلوقات حسب عظمة قوتك وفهمك اللذين ليس لهما عدد. أنت يا سيدنا جعلت هذا الماء طاهراً بنعمة مسيحك، وحلول روحك القدوس عليه، وصار لعبيدك الذين تعمدوا فيه حميماً للميلاد الجديد، وتجديداً من الضلالة القديمة، وأضاءوا بنور لاهوتك. نسأل ونتضرع إليك أيها الصالح محب البشر أن تنقل هذا الماء إلى طبعه الأول، ليُرد إلى الأرض مرة أخرى مثل كل مرة. ونحن أيضاً تكون لنا عوناً ومخلصاً، لنمجدك كل حين أيها الآب والابن والروح القدس. ونرسل لك إلى فوق المجد والكرامة والسجود، الآن وكل أوان وإلى أبد الآباد آمين".

ثم يسرِّح الماء.

ويشير البابا غبريال الخامس (١٤٠٩- ١٤٢٧م) في كتابه "الترتيب الطقسي" وكذا مخطوط القرن السابع عشر (ط ١٩٣) إلى أن الكاهن عندما يصل إلى عبارة: "لتنقله إلى طبعه الأول" يصب في المعمودية ماءً فارغاً

٥٨- BASC., t. 11, p. 58

٥٩- كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة، لأبي البركات المعروف بابن كبر، الجزء الثاني (مخطوط)، مرجع سابق، الباب ١٥

(عادياً) مثال الصليب ليعود الماء إلى طبعه الأول، ثم يكمل بقية الأوشية إلى آخرها[٦٠]. وهي التعليمات التي أغفلها كتاب المعمودية المطبوع.

ويسَّرح الماء في البئر الموجودة أسفل المعمودية، أو يُلقى في مجرى ماء جاري لا تطأه الأقدام.

يتضح أمامنا أن مياه المعمودية بعد تقديسها يصير لها قوة إلهية مما يستوجب أوشية ليعود الماء إلى حالته العادية الأولى، ولكن مع ذلك لا يكون لماء المعمودية طبيعة أخرى غير طبيعة الماء، وهو ما أشار إليه ثيؤدوريت (٣٩٣- ٤٦٦م) في كتابه "أسئلة في سفر التكوين" (٢:٢٦) يقول: "... وبالتالي فإن ماء المعمودية لا تكون له طبيعة أخرى[٦١]".

إن طقس تسريح الماء هو البديل الطبيعي لتعليم الديداخي عن ماء المعمودية أن يكون ماءً حياً (١:٧)، ولم يكن الماء الحي يعني فقط الماء الجاري، ولكن الماء الجاري كان أحد سمات الماء الحي، لذلك كانت حجرة المعمودية مهيأة بحيث يجري إليها الماء بواسطة قناة، ليبقى ماء المعمودية "ماءً حياً" ولكن تعبير الماء الحي يظل يحمل إشارات ومعاني كتابية غنية جداً، فهو رمز للمسيح نفسه له المجد، وهو أيضاً رمز للروح القدس.

إن طقس تسريح الماء يشهد أن هذا الماء الذي تقدَّس بالصلاة وبحلول الروح القدس فيه لم يكن ماءً عادياً راكداً، ففي حال تسريحه استوجب الأمر صلاة لـيُرد الماء إلى طبعه الأول، وهذا الطقس الذي تمارسه الكنيسة عقب كل معمودية ظل يحفظ لمياه المعمودية جدتها، لتكون مياهاً "جارية" لتكمل فعلها كمياه حية.

وماء المعمودية في الشرق المسيحي هو على قدر كبير من التوقير

٦٠- الترتيب الطقسي، مرجع سابق، ص ١٣.

٦١- *PG* 80, p. 124

والتقديس، والشواهد القديمة توضح أنه يُمنع على الكهنة توزيعه على المؤمنين على سبيل البركة، لاسيما النساء منهم كما في الطقس السرياني. وهو تقليد يختلف عما يمارسه الغرب المسيحي، فطبقاً لطقس البابا جلاسيوس الروماني بعد أن يمزج الكاهن الميرون بماء المعمودية: "يُرش بالماء على الجرن والشعب الذي حول الجرن. وقبل أن يُعمَّد الأطفال فليأخذ كل من يريد من الشعب من ماء المعمودية في آنية على سبيل البركة ليرشوا بهذا الماء بيوتهم أو كرومهم أو حقولهم أو ثمارهم[٦٢]". وربما كانت هذه الممارسة ذات أصل غالي gallican، وقد شهد غريغوريوس أسقف تور Tour عن وجود هذه الممارسة في القرن السادس الميلادي في كل من أسبانيا وبلاد الغال[٦٣].

وفي الختام:

يقول العلاّمة ديديموس الضرير (٣١٣- ٣٩٨م):

[الذي خلق النفس التي لنا يقبلها عروساً له في جرن المعمودية].

وتقول الدسقولية العربية (المراسيم الرسولية): "لسنا نصدق يا إخوتنا أنه من بعد أن يعتمد واحد بمعمودية الحياة يليق به أيضاً أن يعمل النجس الذي للمخالفين. والذي أخطأ بعد المعمودية، هذا إذا لم يندم ويترك خطاياه يُطرح في جهنم" (٣:٤١، ١٥:٢٢).

وتقول ايضاً: "ولأنكم ... تبعتم النور الحقيقي يسوع المسيح، ومن قبله عرفتم الواحد وحده الله الآب الحقيقي، وصرتم ورثة لملكوته، وقد قبلتم معمودية موت الرب وقيامته، فيجب عليكم أن تكونوا مثل

٦٢- *DACL*, t. 2, p. 698

٦٣- *ibid.*, p. 698

أطفال صغار، قد وُلدوا الآن جديداً، ولا يعمل أحد منكم شيئاً من الخطيَّة بالجملة، لأن حياتكم ليست لكم بل للذي اشتراكم بدمه الكريم" (٣٤:٢٩، ٣٦:٢٤).

[يا إخوة

طهروا أعضاءكم وحواسكم... ولا تبقوا فيكم عيباً بعد أن اعتمدتم وولدتم جديداً...

اجتهدوا أن تستنيروا، ولا تتركوا فيكم شيئاً إلاَّ وهو ينير. عيونكم أنيروها لتستقيم الرؤيا أمامكم، انزعوا منها الزنا...

آذانكم وألسنتكم أنيروها لكي إذا قرأتم أو سمعتم كلمة الله تفهموا المحبة... فالمسرة والبهجة لا تستقر إلاَّ في الأذن النقية.

لا تجعلوا لسانكم سيفاً يقطع في الناس وموسى يجرح، ولا تخفّوا للخصام والنزاع، فلم يُجعل اللسان لهذا، بل ليلهج بحكمة الله، وينطق بالأسرار... والحكمة هي عفة اللسان الذي مسَّته نار الله.

اشفوا حاسة الروائح... تضمخوا بالطيب والتراب عوض العطور، لتستطيعوا أن تتنسموا خفياً بالسر رائحة الطيب المقدس الذي أُهرق لنا على الصليب... فتتحولوا أنتم بشبهه وتصيروا رائحة المسيح الزكية.

طهروا ملامس أيديكم، وبدانة ومذاقة أفواهكم، لتلمسوا سراً وتذوقوا الرب وكلمته فتدوم لكم حواسكم، وتدوم لكم سعادتها...

واعلموا أن لذة التراب لا تدوم، هي قصيرة وليس لها مجازاة... وهي تعبر سريعاً ولا يبقى لصاحبها شئ منها].

- القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات

المراجع

أولا: المراجع العربيَّة

- أبو البركات (القس) المعروف بابن كبر، كتاب مصباح الظلمة وإيضاح الخدمة،، الجزء الأول، تحقيق الأب سمير خليل اليسوعي، مكتبة الكاروز، ١٩٧١م. والجزء الثاني، (مخطوط).
- أسد رستم (الدكتور)، مخطوطات البحر الميت وجماعة قمران، لبنان، ١٩٥٩م.
- أقدم النصوص المسيحيَّة، عهد الرب، تعريب الأبوين جورج نصور ويوحنا تابت، الكسليك ١٩٧٥م.
- ألكسندر شميمان (الأب)، بالماء والروح، منشورات النور، ١٩٧٩م.
- ألكسندر شميمان (الأب)، من أجل حياة العالم، منشورات النور، ١٩٩٤م.
- المجلة البطريركية، العدد ٤٦، السنة الخامسة، شباط ١٩٦٧م.
- باسيليوس الكبير (القديس)، الروح القدس، ترجمة دكتور جورج حبيب بباوي.
- تادرس يعقوب ملطي (القمص)، عبادة الشيطان في العصر الحديث، كنيسة مارجرجس باسبورتنج بالإسكندرية.
- جراسيموس مسرة (المطران)، الأنوار في الأسرار، بدون تاريخ.
- جورج حبيب بباوي (الدكتور)، مذكرات في المعمودية في الأربعة قرون الأولى.
- سلسلة ينابيع الأرثوذكسيَّة، معاني رشم الصليب. بدون مؤلِّف وتاريخ.
- حنانيا كساب (الأرشمندريت)، مجموعة الشرع الكنسي، منشورات النور، ١٩٧٥م.
- ساويرس بن المقفع (أنبا) أسقف الأشمونين، الدُّر الثمين في إيضاح الدين، إصدار مدارس التربية الكنسية بكنيسة رئيس الملائكة الجليل ميخائيل بطوسون، شبرا، بدون تاريخ.

- سمير يحيى الجمّال (الدكتور)، تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر الفرعوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤.
- صلوات الخدمات في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، الناشر: مكتبة المحبة، القاهرة، ١٩٧١م.
- غبريال الخامس (الأنبا)، الترتيب الطقسي، حققه ونشره الأب ألفونس عبد الله الفرنسيسكاني، ضمن مطبوعات المركز الفرنسيسكاني للدراسات المسيحية الشرقية، سلسلة دراسات شرقية مسيحية، القاهرة ١٩٦٤م.
- فريدريك فارار، حياة المسيح، تعريب الدكتور جورج يوسف عقداوي، المنصورة ١٩٤٩م.
- كتاب المعموديَّة المقدَّسة، طُبع بمعرفة وبمطبعة القمص يوحنا غبريال، وكيل شريعة الأقباط ببني مزار، ١٦٤٦ش/ ١٩٢٩م. (وهو قبطي عربي).
- مخطوط رقم (ط ١٩٢) بمكتبة دير القديس أنبا مقار (بتاريخ ١٧٦٣م).
- مخطوط رقم (ط ١٩٣) بمكتبة دير القديس أنبا مقار (القرن السابع عشر).
- هنري دالميس الدومينكي (الأب)، الطقوس الشرقيَّة، تعريب الشماس كامل وليم، المعهد الكاثوليكي، المعادي، ١٩٧٨م.
- وليم سليمان قلادة (الدكتور)، الدسقولية - تعاليم الرسل، الطبعة الأولى، القاهرة، سنة ١٩٧٩م.
- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، كتاب الجوهرة النفيسة في علوم الكنيسة، حققه ونقله إلى اللاتينية الأب فيكتور منصور مستريح الفرنسيسي، مؤلفات المركز الفرنسيسكاني للدراسات الشرقية المسيحية، القاهرة، ١٩٦٦م.
- يوحنا سلامة (القمص)، اللآلئ النفيسة في شرح طقوس ومعتقدات الكنيسة، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، مصر، ١٩٦٥م.
- يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة، ترجمة القمص مرقس داود، القاهرة، ١٩٧٩م.

ثانياً: المراجع الأجنبية

- Anton Baumstark, *Comparative Liturgy*, English Edition By F. L. Cross, London, 1958.

- Aziz S. Atia, *The Coptic Encyclopedia*, 1991.

- Brightman, F.E., *Liturgica*, dans Journal of Theological Studies, t. IV, London, 1903.

- Brightman, F.E., *Liturgies, Eastern and Western*, Vol. 1, *Eastern Liturgies*, Oxford, 1967.

- Brightman, F.E., *The Sacramentary of Serapion of Thmuis*, The Journal of Theological Studies, vol. I, London, 1900.

- Burmester, O.H.E. Khs, *The Baptismal Rite of the Coptic Church, dans Bulletin de La Société d'Archéologie Copte (BSAC)*, t. 11, 1945.

- Burmester, O.H.E. Khs, *The Canons of Cyil III Ibn Laklak 75th Patriarch of Alexandria, dans Bulletin de La Société d'Archéologie Copte (BSAC)*, t. 12, 1947.

- Burmester, O.H.E. Khs, *The Egyptian or Coptic Church, A Detailed Description of her Liturgical Services and the Rites and Ceremonies Observed in the Administration of her sacraments*, Publications de la Société d'Archéologie Copte. Textes et Documents, X, Le Caire, 1967.

- Butler, A.J., *The Ancient Coptic Churches of Egypt, Oxford*, , vol. II, 1884.

- Coquin, R.G., *Les Canons D'Hippolyte*, Patrologia orientalis (PO), tome 31, fascicule 2, Paris, 1966.

- Cross, F.L., & Livingstone, E. A., *The Oxford Dictionary of The Christian Church (ODCC)*, (2nd edition), 1988.

- Davis, J.G., *A Dictionary of Liturgy and Worship*, SCM Press LTD, 1972.

- Evetts, B.T.A., *The Rites of The Coptic Church, The Order of Baptism and The Order of Martimony*, London, 1888.

- Fernand Cabrol (Le premiér dom) & R. P. dom Henri Leclercq, *Dictionnaire D'Archeólogie Chrétienne et De Liturgie (DACL)*, Tome 2, Paris, 1925.

- Graffin et Nau, *The History of The patriarchs of The Coptic Church of Alexandria,* Patrologia Orientalis, tom. 1, Paris, 1905.

- Gregory Dix, *The Treatise on The Apostolic Tradition of St. Hippolytus of Rome*, London, 1968.

- Hamman, A., *Baptême et Confirmation*, Paris, 1969.

- John Heron, *Christian Initiation*, STUDIA LITURGICA, Vol. 1, March 1962.

- John Wordsworth, *Bishop Serapion's Books*, Journal of Theological Studies, 1900.

- Liddle and Scott, *Greek - English Lexicon,* Oxford, 1986.

- Nau, F., *La Didascalie des Douze Apôtres*, Paris, 1912.

- Neale, J.M., *A History of The Holy Eastern Church*, London, 1850.

- *Our Father Among The Saints Cyril, Archbishop of Alexandria on The Gospel According To John*, London, 1885.

- Sources Chrétiennes 287, *On Lev. Hom.* 8

- Spence, H.D.M., and Joseph S. Exell, *The Pulpit Commentary*, vol. 2, U. S. A., 1980.

- Tertullien, *Traité du Baptême*, SC 35, V.1, Paris.

- The Interpreter's Dictionary of the Bible, Abingdon Press, vol. I, 1962.

الدُرَّة الطقسيَّة للكنيسة القبطيَّة
بين الكنائس الشرقيَّة

• **السلسلة الأولى: مصادر طقوس الكنيسة**

رقم الكتاب	اسم الكتاب	تاريخ النشر
١/١	الديداخى أي تعليم الرسل	يناير ٢٠٠٠م
١/٢	التقليد الرسولي	مايو ٢٠٠٠م
١/٦	فهرس كتابات آباء كنيسة الإسكندريَّة، الكتابات اليونانيَّة.	يناير ٢٠٠٣م
١/٧	فهرس كتابات آباء كنيسة الإسكندريَّة، الكتابات القبطيَّة.	لم يصدر بعد
١/١٠	قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريَّة	يناير ٢٠٠٣م

• **السلسلة الثانية: مقدِّمات في طقوس الكنيسة**

رقم الكتاب	اسم الكتاب	تاريخ النشر
٢/١	الكنائس الشرقيَّة وأوطانها، الجزء الأول: رؤية عامة - كنيسة المشرق الأشوريَّة	يناير ٢٠٠٠م
٢/٢	الكنائس الشرقيَّة وأوطانها، الجزء الثاني: كنيسة مصر	لم يصدر بعد
٢/٣	الكنائس الشرقيَّة وأوطانها، الجزء الثالث: الكنائس الشرقيَّة القديمة	مايو ٢٠٠٠م
٢/٤	الكنائس الشرقيَّة وأوطانها، الجزء الرابع: الكنائس البيزنطيَّة	لم يصدر بعد
٢/٥	الكنيسة، مبناها ومعناها	لم يصدر بعد
٢/٦	مُعجَم المصطلحات الكنسيَّة، الجزء الأوَّل	سبتمبر ٢٠٠١م
٢/٧	مُعجَم المصطلحات الكنسيَّة، الجزء الثاني	يونيو ٢٠٠٢م

• **السلسلة الثالثة: طقوس أسرار وصلوات الكنيسة**

رقم الكتاب	اسم الكتاب	تاريخ النشر
٣/١	معموديَّة الماء والروح	يناير ٢٠٠٣م